

الأخلاق المثلثية

للمعارف بالله

سَيِّدِي عَبْدُ الْوَهَّابِ الشَّعْرَانِي

لِجَبْرِ الْكَافِرِ

مدخل الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه تفتي

أحمد الله رب العالمين . وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق لأبين . وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله سيد الأولين والآخرين . اللهم فصل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين . وعلى آلهم وصحبهم أجمعين .

(وبعد) فهذا كتاب نفيس . صغير الحجم . عظيم القدر ، جمعت فيه جملة صالحة من أخلاق سيدنا ومولانا الشيخ العارف بالله تعالى شيخ مشايخنا الشيخ إبراهيم المتبولي المحمدي صاحب الزاوية ببركة الحجاج^(١) بمصر المحروسة رضى الله تعالى عنه . التي أخذها مشايخنا عنه وذكروا أنه أخذها من حضرة رسول الله ﷺ بقظة ومشافهة^(٢) بالشروط المعروفة بين القوم كما سيأتي بيانه في الكتاب إن شاء الله تعالى . وهي أخلاق شريفة لا يكاد الإنسان يجدها عند غالب فقراء^(٣) هذا الزمان .

فأحببت تقييدها في هذه الطروس رجاء النفع بها خوفا أن تذهب بذهاب أهلها والأعمال بالنيات . وقد قال العلماء بالله تعالى كل من لم يفتح الله تعالى على قلبه بالعلوم الغربية الجديدة فليس له أن يؤلف كتابا ، لأن غاية ملاك هذا أنه جمع بين كلام الناس وجعله مؤلفا . وقد كان الشيخ أبو مدين^(٤) رضى الله عنه يقول لأصحابه إذا حكوا له

(١) يطلق عليها في الوقت الحالي اسم بركة الحاج وهي قرية على مشارف القاهرة كانت تتجمع فيها القوافل المسافرة للحج .

(٢) من عقائد الصوفية جواز رؤية الرسول ﷺ بقظة ومشافهة .

(٣) يقصد بفقراء هذا الزمان طائفة الصوفية في عصره حيث أن لقب فقراء كان يطلق عليهم ولا يقصد به الفقر المادي كما هو الغالب على هذا الإصطلاح في العصر الراهن .

(٤) يقول عنه الإمام الشنكراني في الطبقات الكبرى : هو من أعيان مشايخ المغرب وصدر المريين وشهرته تفي عن تعريفه واسمه شبيب وهو مدفون بتلمسان بأرض المغرب =

كلاماً من أحد من سلف (لا نطعمونا القديد واطعمونا اللحم الطري) أى أسمعونا الكلام الذى ورد على قلوبكم من حضرة الله عز وجل لأن هذا هو النافع المفيد لنا ما ليس عندنا . وما دَرَجَ السلف الصالح إلا على تأليف ما لم يسبقهم أحداً إليه وكانوا يقولون : من أراد جمع كلام الناس فليدل المرادين على الأصول التى أخذ مؤلفه ويسترح من التعب فى الكتابة وتضييع الزمان وتسويد الورق . فهذا كان السبب فى تأليفى لهذا الكتاب ليدوم النفع به على عمر الزمان ويكون ناثباً هنى فى النصيح بعد موتى أسوة العلماء (والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه) ^(١) فامع يا أخى فى تجميع مقام التخلق بها على يد شيخ صادق ولا يضرك غرابتها منه حيث غرابة طريقة فإنها أخلاق محررة على الكتاب والسنة وأخلاق السلف الصالح كتحرير الذهب والجوهر كما سبق إن شاء الله تعالى . لا يقدح فى معانيها إلا جاهل أو معاند أو مائل عن طريق الحق لأجل غرضه الفاسد ، وإن كان كلام البشر من الأمة لا يخلو عادة عن خطأ وسوء ولكن الحكم للأغلب فافهم .

وقد تلمعت هذه الأخلاق التى أذكرها فى هذا الكتاب عن نحو مبعين شيخنا من

== فى جبانة العبادلة وقد ناهز الثمانين وقبره ظاهر يزار . وكان سبب دخوله تلمسان أن أمير المؤمنين لما بلغه خبره ، أمر بإحضاره من بجاية ليتبرك به ، فلما وصل إلى تلمسان قال مالنا وللسلطان الليلة نزور الإخوان ثم نزل واستقبل القبلة وتشهد وقال ها قد جئت ها قد جئت وعجلت إليك ربى لترضى ، ثم قال : الله الحى وقاضى روجه رضى الله عنه . وأجمعت المشايخ على تعظيمه وإجلاله وتأديبوا بين يديه وكان ظريفاً جميلاً متواضعاً زاهداً ورعاً محققاً مشتملاً على كرم الأخلاق رضى الله عنه .

ومن كلامه : (ليس للقلب إلا وجهة واحدة متى توجه إليها حجب عن غيرها) . وكان يقول : أجمع ما أسقط تفرقك ومحا إشارتك والوصول استغراق أوصافك وتلاشى نعوتك .

وله كلام كثير فى علوم النصوص والأحوال .

(١) هذه جملة من حديث صحيح أخرجه مسلم فى صحيحه والحاكم فى المستدرک وأبو يعلى فى مسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه .

صاحب سیدی الشیخ ابراهیم المتبولی رضی اللہ تعالیٰ عنہ وعنہم أجمعین ، کشیخنا وقدوتنا إلى دخول حضرة الله تعالى الأمی الحمیدی صاحب الکشفات والمعارف والتصرف العظیم فی مصر وقرأها الشیخ علی الخواص^(١) رضی اللہ عنہ ، وکسیدی وشیخی المعارف بالله تعالى الذی انتهت إلیه الرئاسة فی تربية المریدین فی مصر : الشیخ علی المرصنی^(٢) رحمه الله تعالى . وکسیدی المعارف بالله تعالى المجذوب الصالح صاحب الکشفات^(٣) والمعارف والسرّات والخواص سیدی الشیخ عبد القادر الدشوطی^(٤)

(١) کان سیدی علی الخواص البرلسی أمیاً لا یقرأ ولا یکتب ومع ذلك کان الإمام الشمرانی یعزّز بأستاذیته له ویدکر دائماً أقواله : وانواقع أنه من خلال کتابات الشمرانی عنه نشعر أنه کان علی قدم کبیر فی التصوف بل یصل إلى مقام الأستاذیة فیه .
ومن أقواله : آفة العقل الحذر . وآفة الإیمان الإنسکار . وآفة الإسلام العمل . وآفة العمل النمل . وآفة العلم النفس . وآفة الحال الأمن . وآفة المعارف الظهور . وآفة العقل الجور . وآفة المحبة الشهوة . وآفة التواضع للذلة . وآفة الصبر الشکوی . وآفة التسليم للتفریط . وآفة النبی الطمع . وآفة العز البطر . وآفة الکرم السرف الزائد . وآفة البطالة الفقر . وآفة الکشف النکم . وآفة الإتیاع التأویل . وآفة الأدب التفسیر . وآفة الصحبة للنازعة . وآفة الفهم الجدال . وآفة المرید التسلل علی المقامات . وآفة الانتفاع التسلق . وآفة الفتح الإلتفات . وآفة الفقیه الکشف . وآفة للمساک الوهم . وآفة الدنیا شدة الطلب . وآفة الآخرة الإعراض .

(٢) هو الشیخ علی نور الدین المرصنی کان من أساندة الإمام الشمرانی توفی سنة ثیف وثلاثین وتسعمائة وکان علی قدم کبیر فی التصوف ومن أقواله : إذا وقع من المرید شيء مذموم عند شیخه وهو محمود عند غیره فالواجب علیه عند أهل الطرق رجوعه إلى کلام شیخه دون کلام غیره وإن قام للمرید أن کلام شیخه معارض لکلام العلماء أو دلیلهم فلیه بالرجوع إلى کلام شیخه وأولی إذا کان من الراسخین فی العلم .
(٣) فی المخطوط جاءت الكلمة وكانت شبه ممسوحة بلفظ کشفات ولكن الأصح أن تكون صاحب الکشف أو الکشف .

(٤) هو الشیخ عبد القادر الدشوطی وکان یسمى بین الأولیاء (صاحب مصر) وحجّ رضي الله عنه ماشياً جافياً وعمر عدة جوامع بمصر وکان السلطان قايتباي یرغ وجهه علی أقدامه .

رضي الله عنه وكسيدي الشيخ العالم العابد الورع الزاهد الذي كان اشتغله بنفع الأمة أينما
 ونهاراً سيدي محمد المنير^(١) الذي حج إلى بيت الله الحرام اثنين وستين حجة منها أربعين
 ماشياً ويركب جماله العاجزين رضي الله عنه . وكان معدوداً من الجماعة الذين يشفعون في
 المواقف بعرفات كل سنة في عصاة الحجاج . وكسيدي الشيخ العابد النائم المقبل على
 عبادة ربه ليلاً ونهاراً صيفاً وشتاءً سيدي محمد بن عمن^(٢) خادم الحجرة الحمدي من
 طريق الروحانيات فلا يدخل على رسول الله ﷺ من الأحياء والأموات إلا بإذنه رضي
 الله عنه . وكسيدي الشيخ الصالح الوارث الحمدي الشيخ أبو بكر^(٣) الحديدي رضي الله

= ومن أقواله : كل من قال السعادة بيد أحد غير الله كذب وإنني كنت جاهدان في
 الدنيا يضرب بي المثل فحصل لي جاذب إلهي وصرت أغيب لليومين والثلاثة ثم أفيق أجد
 الناس حولي وهم متعجبون من أمري ثم صرت أغيب الدشرة أيام والشهر لا آكل
 ولا أشرب فقلت : اللهم إن كان هذا وارداً منك فاقطع علائقي من الدنيا . فمات الأولاد
 ووالدتهم والبهائم ولم يبق أحد دون أهل البلدة شرحت سائحاً إلى وفاق هذا فهل كان
 هذا في قدرة العبد قلت له لا . توفي سنة ثيف وثلاثين وتسعمائة .

(١) هو العارف بالله الشيخ محمد المنير رضي الله عنه . من أصحاب الشيخ إبراهيم
 المتبولي رضي الله عنه .

وكان رضي الله عنه أكثر أوقاته يحج على التجريد ماشياً وعلى كتفه ركوة يسقى
 الناس منها وكان يكره الكلام في الطريق من غير سلوك ولا عمل ويقول : هذا بطالة
 ومكث نحو ثلاثين سنة يقرأ في الليل ختمة وفي النهار ختمة . توفي رضي الله عنه سنة ثيف
 وثلاثين وتسعمائة .

(٢) هو الشيخ محمد بن عنان وكان من الزهاد العباد وكان يضرب به المثل في قيام
 الليل وفي العفة .

وكان رضي الله عنه يقول : الفقير ما رأس ماله في هذه الدار إلا قلبه فليس له أن
 يدخل على قلبه من أمور الدنيا شيئاً يكرهه . توفي في صفر سنة خمس وتسعمائة .

(٣) هو الشيخ أبو بكر الحديدي : وكان من أكرم الناس وكان إذا دعا شخص
 لطعامه ولم يرض يكشف رأسه ويمشي خلفه حتى يجيبه توفي بالمدينة المنورة سنة خمس
 وعشرين وتسعمائة ودفن بالبقيع .

عنه . وكانوا يشتمونه بخانه الفقراء بمصر . وكسيدي الشيخ الصالح العابد الناسك الأُمي
محمدي سيدي محمد العدل^(١) بنواحي البحر الصغير بمصر وكانوا يسمونه جليس رسول
الله ﷺ على الدوام لما هو عليه من الطهارة الظاهرة والباطنة رضي الله عنه . وكسيدي
شيخ العالم الصالح الأُمي المحمدي سيدي الشيخ محمد السروي^(٢) صاحب الكرامات
والخوارق من كان يطير في الموتي ويمشي على الماء جهاراً إلى أن يغيب عن العيون ثم
يتى ويده مخضرة بأن بالدم ويقول : توجه إلينا شخص قد أمره الفرنج في البحر الملح
بخلصنا منهم بعد أن قتلنا كذا وكذا نفس من الكفار رضي الله عنه .

وكسيدي الشيخ عبد الحلیم بن مصلح^(٣) قطب زمانه في التواضع والكرم والإيثار
وخدمة الضعفاء والمساكين وكان ينفق من الغيب بمشاهدتي له حين يقبض الذهب والفضة
من الموتي رضي الله عنه وكان لا يختص عن الفقراء بشيء وربما عملت له عياله الدجاجة
فيفرقها على نحو سبعين نفسا ويقول :

(١) هو الشيخ محمد العدل الطناحي : كان ذا سمع حسن وقبول تام بين خاصة الناس
وعامةهم وأصل تسميته العدل أن شخصا رأى رسول الله ﷺ في المنام فقال له : قل لمحمد
العدل الطناحي يتبع سنتي وينفع الناس فاشتهر بالعدل .

(٢) هو الشيخ محمد السروي : وكان يكره للمريد قراءة الأحزاب والأوراد ويقول :
نحن ما نعرف إلا لا إله إلا الله بعزم وهمة ويقول : مثال أرباب الأحزاب مثال شخص من
أسافل الناس اشتغل بالدعاء ليلاً ونهاراً أن الله تعالى يزوجه بنت السلطان .

وتعلقنا على ذلك أنه يطلب عدم الكسل والتواني والاعتماد على القراءة المسترخية
دون عزم وهمة في العبادة سواء كانت لقراءة الأوراد أو غيرها .
توفي سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة .

(٣) هو الشيخ عبد الحلیم بن مصلح المتزلاوي : كان كثير التواضع والإزدراء
لنفسه وكان لا يسأله فقير إلا أعطاه حتى يخرج بعمامته ولبسه الكامل فيرجع بالفوطة
في وسطه وعمر عدة مساجد وكان له جامع بالمنزلة فيه فقراء وفيه سباط على الدوام
ومارستان للضعفاء من الفقراء والغرباء والمستضعفين توفي رضي الله عنه سنة ثيف
وثلاثين وتسعمائة .

إن الله تعالى يكره العبد العامل المتميز عن أخيه رضى الله عنه .

وكسيدي الشيخ العالم الزاهد قوام الليل وصوام النهار الشيخ يوسف الخربى كلن
يسمع لعشرة من الأطفال القرآن ويرد على كل واحد الغلط واللغبة لا يشغله واحد من
الآخر وهذا المقام من النخاق بأخلاق الله عز وجل خلعه عليه

وكسيدي وشيخي العارف بالله تعالى مربى المريدين الشيخ محمد الشناوى الأحمدي
وكان دأبه قراءة القرآن والذكر ليلاً ونهاراً لا يفرغ من الذكر إلا ويستفتح القرآن ولا ين
القرآن إلا ويستفتح الذكر وقد لازمته عشرين يوماً وليلة فما رأيت، نام مضجعا ليلاً ونهاراً
رضى الله عنه .

وكسيدي وشيخي العابد الزاهد المقبل على عبادة ربه ليلاً ونهاراً منشىء جميع مجالس
الصلاة على رسول الله ﷺ في مصر وقراها واليمن والقدس والشام ومكة والمدينة ومكة
في مجلس الصلاة على رسول الله ﷺ في جامع الأزهر في بلد سيدي أحمد البدوي رحمه
الله مدة ثمانين سنة كما أخبرني عن ذلك في مرض موته رضى الله عنه وقال : عمرى الآن
مائة سنة وإحدى وعشرين سنة ، وكان من أصحاب الخطوة وكانوا يرونه كل سنة في
عرفات ولو لم يكن له من المناقب إلا الذكر في حضرة رسول الله ﷺ صباحاً ومساءً
لكان في ذلك كفاية في علو شأنه ، فإني لما حججت سنة ثلاث وسنين وتسعمائة حضرت
مجلس نائبه وتلميذه الشيخ عبد الله اليمني في الروضة الشريفة وكان كلما فرغ من مجلس
الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وذكر الله يقول : بأعلا صوته الفاتحة للشيخ ترو
الدين الشوفى فيقرؤها الحاضرون ورسول الله ﷺ يسمع . وهذه مناقبه ما سمعنا بمثله
لأحد من الأولياء إلى عصرنا هذا . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وكسيدنا ومولانا الشيخ زكريا الذي ما كان جليسه يضبط عليه ساعة خفلة عن مصالح
دينه ودنياه وما كنت أمثله إذا جالسه إلا بالإمام الشافعي لما هو عليه من الخفر والحرمة
والهيبة والوقار وما خطر ببالى شيء بين يديه إلا وأخبرني به .

وكان بحجاب الدعوة جاءه شخص قد عمى سنين وقال له : أدع الله تعالى أن يرد على عرى فدعاه فرد الله عليه بصره ثانی يوم رضى الله عنه .

وكسيدنا ومولانا شيخ الإسلام العامل بعلمه للقبيل على شأنه الحافظ لسانه الشيخ برهان الدين بن أبي شريف رضى الله عنه .

وكسيدنا ومولانا شيخ الإسلام الشيخ برهان الدين القلقشندي .

وكشيخنا العالم الصالح الشيخ كال الدين الطويل شيخ الإسلام الذي بشره سيدي إبراهيم المتبولي / وهو دون من التمييز وقبل أن يقرأ القرآن بأنه يصير شيخ الإسلام .

وكالشيخ العالم العامل الورع الزاهد الشيخ عبد الحق السنباطي .

وكالشيخ الصالح الذي كان يجتمع بالحضرة عليه السلام كثيراً الشيخ يوسف الكردي .
وكالشيخ الصالح أحمد الغزاوي الذي كان يصلي للغرب كل ليلة بمكة لأشرفه مع سيدي إبراهيم المتبولي . وغيرهم ممن ذكرناهم في كتاب الطبقات رضى الله عنهم أجمعين .

وقد ذكرت نبذة من كلام جماعة من تلامذة هؤلاء أيضاً سيدي عمر البجاي للأفريقي مندفون بحوش عبد الله بن وهب بالقرافة .

وكسيدي الشيخ أبو العباس الحرمي .

وكالشيخ سليمان الخضيرى .

وكالشيخ الكامل الراسخ سيدي افضل الدين الأحمدى تلميذ الشيخ على الخواص ووارثه في عدة مقامات .

وقد خدمت بحمد الله تعالى جميع هؤلاء الأشياخ . وقرأت عليهم كتب الشريعة من فقه وتفسير وحديث وتصوف وغير ذلك حتى درجوا كلهم إلى رحمة الله تعالى وهم عنى رضون ، وذلك من أكبر نعم الله تعالى على .

ولما درجوا أظلمت مضر وقراها فإن بعضهم كان كالشمس ، وبعضهم كان كالقمر ، وبعضهم كان كالنجم يتهدى بهم في ظلمات الجهل ليلاً ونهاراً .

فلما خفت على نسيان الناس أحوالهم وأخلاقهم ولم أعلم أحد من تلامذتهم دون لهم كلاماً ولا أخلاقاً وضعت هذا الكتاب كالمبين لما اندرس من أخلاقهم وخفي من أنوارهم .
فلا تظن يا أخى أنهم كانوا على صورة بعض من برز في هذا الزمان بالمشيخة بغير حق فيخطئ الضريق ويسى الظن بالصديقين رضى الله عنهم .

والله ما كنت أمثل سيدى محمد بن حنان وسيدى عمر البهاى وسيدى أبا العباس الحرمى إلا كأن أحدهم بشر الحامى .

وما كنت أمثل سيدى على الخواص إلا كأنه معروف المكنى .

وما كنت أمثل سيدى على المرصنى إلا كأنه الإمام أبو القاسم الجنيد .

وما كنت أمثل الشيخ برهان الدين بن أبى شريف إلا كأنه إمام الحرمين .

وما كنت أمثل سيدى على النبتى إلا كالفضيل بن عياض .

وما كنت أمثل الشيخ عبد الحق السنباطى إلا كأنه الشيخ أبو إسحاق الشيرازى .

وما كنت أمثل سيدى الشيخ محمد المنير رحمه الله إلا كأنه سهل بن عبد الله التستري .

وما كنت أمثل الشيخ عبد القادر الدتطوطى إلا كأنه قضيب البان .

وما كنت أمثل أخى أفضل الدين إلا كأنه الشيخ نجم الدين الكبرى . أو الشيخ

محمى الدين بن العربى فى تحقيق المعلوم

فظوبى لعبد نظر لأحد من هؤلاء . له ولو مرة واحدة فى عمره أو نظره إلى أحد منهم حيناً من الدهر .

وقد كان سهل بن عبد الله التستري يقول : (١) .

(١) هو أبو محمد سهل بن عبد الله التستري : أحد أئمة الصوفية لم يكن له نظير فى وقته فى للأملات والورع .

وكان صاحب كرامات ، لقي ذا النون المصرى بمكة سنة خروجه إلى الحج .

توفى كما قيل ، سنة ثلاث وثمانين ومائتين ، قيل : ثلاث وسبعين ومائتين .

ومن قوله : كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء ، طاعة كان أو معصية فهو عيش النفس

وكل فعل يفعله بالافتداء فهو عذاب على النفس .

من أولياء الله من إذا مر على قوم من العصاة فسلم عليهم أو سلموا عليه فرد عليهم السلام غفر الله لهم جميع ذنوبهم وأمنهم من عذابه ، ومنهم من لا تأكل النار من جالسهم ولو في وقت من الأوقات أو حضر جنازتهم انتهى .

فيايك يا أخى إذا عملت شيئاً في هذا الزمان أن تظن بنفسك أنك على قدم واحد من هؤلاء الأشياخ الذين أدر كنهم في النصف الأول من القرن العاشر أو يخطر ذلك ببالك . وإن كان ولا بد لك من رؤية نفسك فلا تظن بنفسك ذلك إلا بعد مرورك على أخلاقهم حتى ذكرناها عنهم في هذا الكتاب ورؤيتك نفسك متخلفاً بها .

واعلم يا أخى تجد نفسك منسجمة من غالبها كما تنسجم الحية من ثوبها . وربما تأثرت من واضعها غاية التأثير لكشفها لك ما لبسته نفسك عليك ولإظهاره للناس نقائصك . أن كانوا سلموا لك دعوى أنك من الصالحين جهلاً بأخلاقهم فإن هذه الأوراق التي رقبناها في هذا الكتاب كالسيف القاطع لعنق كل مدع الطارق في هذا الزمان لما فيها من برازين والمحكمات التي تفلس المدعين للطريق مما لا يكاد أحدهما يجده الآن في رسالة أحد من أهل العصر .

وما هي كلها بين يديك في مصر وقراها فليطالع فيها من يشك في قولي يعرف صدق قولي فإني والله ناصح للإخوان ما أنا متعنت .

وأود لجميع إخواني أن يتخلق أحدهم بمثل هذه الأخلاق ليفوز برضى الله تعالى عنهم في الدنيا والآخرة إن شاء الله تعالى .

واعلم يا أخى أن كل من نتخلق بأخلاق هذا الكتاب كان معدوداً من متصوفة القوم وكانته صاحب جميع الأشياخ الذين أخذوها عن سيدي إبراهيم المتبولي عن رسول الله ﷺ وانتفع بصحبتهم .

وقد من الله عز وجل علي بالتخلق بها فلم أذكر في هذا الكتاب إلا ما تخلفت به . وجدت ذلك الخلق عزيزاً فأنبه على عزته بنحو قولي : وهذا الخلق لم أجده فاعلم . قرأني إلا القليل .

وربما ظن بعض من لا علم عنده بأحوال الفقراء أن ذكرى لذلك إنما هو من باب الافتخار للنفس واحتقاراً للأقران ، معاذ الله أن أقصد ذلك .

وقد نظر بعض علماء العصر في مسودة هذا الكتاب فقال : هذه الأخلاق لا تكون إلا للأنبياء وأنكر أن أحداً يقدر على التخلق بها في هذا الزمان حين ظن بنفسه أنه من العلماء العاملين ولم يقدر على التخلق بها فذوقه صحيح وحكمه خير صحيح على أن جميع ما ذكرته فيه إنما هو من أخلاق المريرين سيأتى بسطه في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

ولم أذكر فيه شيئاً من أخلاق العارفين إلا استشهاداً .

كما أنى لم أذكر فيه شيئاً من أخلاقي إلا ما أذن لى فى إنشائه بين الإخوان ليقننوا بى فيه كما أوضحته فى مقدمة كتاب المن الكبرى ، فإن كل من دعا إلى خير ولم يكن هو متخليقاً به قبل الناس ربما قالوا بلسان الحال والمقال : كيف تدهونا إلى التخلق بشيء عجزت أنت عن التخلق به مع علمك وصلاحك وقدم هجرتك ؟ فيقل نفع الناس به عادة وإن كان ذلك ليس بشرط فى الداعى إنما هو كمال فافهم .

وقد ذكرت فى التقرير مراراً أن سبب ذكرى الأخلاق التى تخلفت بها وعدم كنى لها ما سمعته من جماعة من الإخوان حين أمرتهم بالزهد فى الدنيا والثورع فى المطعم والملبس والمنطق وغير ذلك فقالوا لى : أرنا أحداً تخلق بذلك حتى نفتدى به وهامى معى كلها بين يديك فتأثرت لذلك غاية التأثير وشرعت بمون الله تعالى فى ذكر بعض ما من الله تعالى به على .

وقلت لهم : أنظروا فى هذه الأخلاق فكل خلق رأيتهم فى متخليقاً به فاتبعونى فيه وما لم أتخلق به فأنا وإياكم على السواء .

فمنا هو سبب ذكرى الأخلاق التى كان الأولى بنا كنمها عادة لولا حرصى على حصول الخير للاخوان فإياك أن تظن بى سوءاً أو تنازهنى فى قصدى فتقع فى الإنم لوقوعك فى أعراض الفقراء بغير علم ولا غرض صحيح .

واعلم يا أخى أن تخلق المريد بأخلاق العارفين إنما يصح منه بعد انتهاء سيره في
خدمته كما أن تخلق العارفين بأخلاق رسول الله ﷺ لا يكون إلا بعد انتهاء السير
كذلك وطول المجاهدة فيوفق الله تعالى المريد في بداية أمره لرعاية أقواله ﷺ ثم في
وسط سيره لحال الاقتداء بأعماله ﷺ وأحواله فيثمر له ذلك الأخذ في طريق التوصل
إلى مقام النهاية ليقدر على التخلق بنظير أخلاقه ﷺ على وجه الاحتياط

وفي الحديث : تخلقوا بأخلاق الله - أى بنظيره في الإسم فقط - دون التخلق بالكنة .
والحقيقة فإن ذلك لا يصح لأحد من الخلق ولو ارتفعت رتبته .
وقد سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : كان
خلق القرآن (١) .

ولم نقل كان متخلقا بأخلاق الله تعالى أدباً منها مع الله عز وجل فصيح حينئذ تخص به
غوره ﷺ في حقها .

« خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء » (٢) .

وكان السهروردي (٣) رحمه الله يقول :

(١) حديث السيدة عائشة رضى الله عنها (كان خلقه القرآن) أخرجه مسلم في صحيحه
من حديث طويل من طريق قتادة وأخرجه أحمد في مسنده عن الحسن قال : سألت عائشة
عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : كان خلقه القرآن .
وأخرجه بن جرير عن سعيد بن هشام وغيرهم .

(٢) حديث : خذوا شطر دينكم : قال ابن حجر : لا أعرف له إسناداً ولا رأيه
في شيء من كتب الحديث إلا في النهاية لابن الأثير ولم يذكر من أخرجه . وذكر الحافظ
في كثير أنه سأل عنه الذهبي فلم يعرفه .

(٣) هو الشيخ أبو النجيب عبد القادر السهروردي رضى الله تعالى عنه ويلقب بضياء
دين ونجيب الدين ونسبه ينتهى إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه يقول عنه الإمام الشعراني
« قد عليه إجماع المشايخ والعلماء بالاحترام وأوقع الله عز وجل له القبول التام في الصدر
المتواقة في القلوب . »

في قول عائشة كان خلقه القرآن شيء غامض وإنما خفي عن الأخلاق الربانية . فاحتشمت مع الحضرة الإلهية أن تقول كان متخلقاً بأخلاق الله عز وجل وهبرت بالمعنى بقولها كان خلقه . القرآن استحياء من سبحات الجلال ومترأ للحال وهذا من شدة وفور هلهلها وكمال أدبها .

قال : وبين قوله تعالى : « ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ^(١) » وبين قوله تعالى : « وإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ ^(٢) » مناسبة مشعرة بقول عائشة : كان خلقه القرآن انتهى .

وكان سهل بن عبد الله التستري رحمه الله يقول :

من السر الأكبر أن قلب العارف يصير بدوام الإقبال على الله تعالى ودوام ذكره بالقلب واللسان بمثابة العرش والعرش قلب الكائنات في عالم الخلق والحكمة وهناك يرتقى إلى ذكر الذات ويصير بمرآة واجبة من سمات القرب ويجرى في جداول أخلاق النفس صفاء النعموت والصفات ويتحقق العارف بالخلق بأخلاق الله انتهى .

وكان الشيخ أبو القاسم الكركاني يقول : إن الأسماء التسعة وتسعين تصير أوصافاً للعارف ^(٣) انتهى .

== ومن قوله أول التصوف علم ، وأوسطه عمل ، وآخره موهبة ، فالعلم يكشف عن المراد والعمل يعين على الطلب والموهبة تبلغ غاية الأمل .

وأهل التصوف على ثلاث طبقات مريد طالب ومتوسط طائر ومنته واصل فالمرید صاحب وقت والمتوسط صاحب حال والمتنهي صاحب يقين .

(١) سورة الحجر آية (٨٧) .

(٢) سورة القلم آية (٤) .

(٣) يقصد الشخلق بأخلاق الله تعالى .

ونقل ذلك أيضاً عن الشيخ الكبير أحمد بن الرقاعي^(١) ولهذه :

إذا بلغ العبد الكمال صار صفة من صفات الحق جل وعلا انتهى .

والمراد من قول هذين الشيخين رضى الله عنهما : أن العارف يأخذ من كل اسم إلهي وصفا يناسب ضعف بشريته وقصورها مثل أن يأخذ من اسم الله تعالى الرحيم معنى من الرحمة على قدر قصور البشر . وكل إشارات المشايخ في الأسماء والصفات التي هي أعز علومهم على هذا المعنى والتفسير وكل من توهم بذلك شيئاً من الحلول نزندق وألحد^(٢) فتأمل ذلك فإن نفيس .

واعلم يا أخي أننى حيث قلت : ومن أخلافهم كذا وكذا فرادى يرجع الضمير إلى المريدين الصادقين كملأه المشايخ الذين قدمنا ذكرهم ممن كان مربداً لسيدى الشيخ إبراهيم المتبولى رضى الله عنه دون مطلق المريدين من تلامذة الأشيخ الذين هم من سلسلة

(١) هو الشيخ أحمد بن أبي الحسن الرقاعي رضى الله عنه منسوب إلى بنى رفاعه قبيلة من العرب وسكن أم عبيدة بارض البطائح في العراق إلى أن توفى بها وكان على قدم كبير في علوم التصوف وشرح أحوال الصوفية ، وتخرج بصحبته جماعة كثيرة وتلاميذه خلائق لم يحصون وهو أحد من قهر أحواله ومملك أسرار له كلام عال على لسان أهل ختائق وقد سئل عن وصف الرجل المتمكن فقال هو الذي لو نصب له سنان على أعلى تهنق جبل في الأرض وهبت الرياح الثمان ما غيرته .

وكان يقول : من لم ينتفع بأفعالي لم ينتفع بأقوالى .

ويقول : طريقنا مبنية على ثلاثة أشياء لا نسأل ولا نرد ولا ندخر .

وكان إذا رأى على فقير حبة صوف يقول له : يا ولدى أنظر بزي من نزييت وإلى من تمسبت قد لبست لبسة الأنبياء وتحليت بحلية الأتقياء هذا زى العارفين فاسلك فيه مسالك حريين وإلا فاركه .

(٢) يقصد بذلك نفى تهمة الحلول عن الصوفية وأن مقصود كلام بعضهم عندما يقول : حق (أو غيرها من العبارات التي تشعر بالحلول والإتحاد إنما هو تخلق بخلق الله سبحانه وتعالى ومن تصور غير هذا فهو اتهام باطل .

الإمام أبي القاسم الجنيد^(١) فإن أخلاق هؤلاء تنزل عن درجة من يده. وبين رسول الله ﷺ رجل واحد فقط وهو سيدى إبراهيم رضى الله عنه^(٢). وربما كان تلامذة هؤلاء الأسياف لا يعرفون شيئاً من أخلاق هذا الكتاب إما جهلاً به لسكونه من غير طريقهم

(١) هو الإمام أبو القاسم الجنيد بن محمد : سيد طائفة الصوفية وإمامهم . أصله من نهاوند ومولده ومنشأه بالعراق . وكان فقيهاً على مذهب (أبي ثور) وكان يفتى في حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة . صحب السرى السقطى والحارث المحاسبى ومحمد بن على القصاب . سئل مرة عن العارف فقال : من نطق عن شرك وأنت ساكت ومن أقواله : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات . ويقول : من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة .

وقال الجنيد : علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ . وقيل للجنيد : من أين استفدت هذا العلم ؟ فقال : من جلوسى بين يدى الله ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة . وأوماً إلى درجة في داره . وكان الجنيد يدخل كل يوم حانوته ويسبل الستر ، ويصلى أربعاً ركعة ثم يعود إلى بيته .

وقال أبو بكر العطوى : كنت عند الجنيد حين مات فرأيت ختم القرآن . . . ثم ابتداء من البقرة . . . وقرأ سبعين آية . ثم مات رحمه الله . توفي سنة : سبع وتسعين ومائتين .

(٢) يقصد الإمام الشمرانى أن سيدى إبراهيم المتبولى تلقى الطريق عن سيدى رسول الله ﷺ مباشرة أما بقية المشايخ كالإمام أبى القاسم الجنيد فإن طريقهم كان نتيجة سلسلة من الرجال حتى يصلوا إلى سيدنا رسول الله ﷺ فعلى ذلك فإن مریدى الشيخ إبراهيم المتبولى هم أرفع درجة من مریدى بقية المشايخ لأنهم ليس بينهم وبين سيدنا رسول الله ﷺ إلا شخص واحد هو سيدى إبراهيم المتبولى .

ولكن سبباً لم يكن في عصرهم وكل مؤلف لا يذكر في مؤلفه إلا ما يحتاج إليه أهل عصره إذ الأخلاق تحدث في كل عصر بحسب حدوث الوقائع الواقعة من أهلته ترى رسالة القشيري^(١) مثلاً لا يغني عنها كتاب قوت لأبي طالب المكي^(٢)، ولا الرعاية للحارث المحاسبي^(٣)، ولا الحلية لأبي نعيم^(٤)، وترى كتاب الإحياء^(٥) لا يغني عنه كتاب عرارف المعارف للسهروردي^(٦)، كما لا تغني هذه الكتب كلها عن كتابنا هذا لأنه أسلوب غريب كما يعرفه من نظر فيه وربما أكرر فيه الخلق الواحد مراراً بقصد الاعتناء به لا ذهولاً ولا نسياناً لكن بعبارة أخرى وربما أستشهد به في أبواب متعددة تكميلاً للفائدة في فعل الإمام البخاري وغيره وقد رتبته على عشرة أبواب وخاتمة وضمنت كل باب منه جملة من الأخلاق في معان مختلفة فيأني ألفتها بحسب الوقائع والحوادث ولم يتفوق لي أن أختتم كل نوع إلى شكله كما يفعل المؤلفون في الفقه والأصول والنحو وغيرها وخصصت الخاتمة بذكر جملة صالحة مما قاماه أهل الله تعالى من تحمل البلياء والمحن والأذى من الخلق تشجيعاً للاخوان على التحمل وعدم مقابلة أحدهم من آذاه بسوء طول عمرهم فإن كل من

(١) رسالة القشيري هي الرسالة القشيرية للإمام (أبي القاسم عبد الكريم القشيري . ولقد ألف الإمام القشيري هذا الكتاب تصحيحاً وتوضيحاً للفكرة الصوفية في سلامتها ونقاؤها ودافع عن كثير من القضايا التي يثيرها الناس حول التصوف بالتأريخ لرجال التصوف وشرح أحوالهم .

(٢) كتاب قوت القلوب لأبي طالب المكي وهو كتاب في بيان حال الصوفية وأخلاقهم .

(٣) الرعاية لحقوق الله للحارث بن أسد المحاسبي وهو كتاب كسابقه .

(٤) كتاب حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني وهو تأريخ لرجال التصوف وبيان أحوالهم وأخلاقهم .

(٥) كتاب إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي .

(٦) وهو كتاب كسابقه في بيان أحوال الصوفية ومقاماتهم .

صدق في طلب الطريق فلا بد له من أن يتجنب على الأذى له جماعات كثيرة من الأشقياء
الأنس والجن لينفروا عن طريق أهل الله تعالى .

وأما الكاذب في طلبه فقد كفى إبليس المؤنة لاحتباط عمله بالرياء والنفاق فلم يحوجه
لأن يسوس لأحد بالأذى له لأنه لم يدخل الطريق ولا شتمها فأكرم به من كتاب جنة
على حين فترة من موت الأشياخ الذين أدر كتمانهم في النصف الأول من القرن العاشر
مجددا لما اندرس من معالم طريقهم كما هي سنة الله تعالى في عبادته في كل عصر .

فتجدد كل عالم ما اندرس من علوم العلماء قبله إما بإيضاح معانيها وإما بأن يرجح
خلاف ما رجحوه بأدلة أخرى لم يطلع عليها من قبله فلا يقال : أي فائدة لتأليف الكتاب
الكتاب القلاني وقد سبقه الناس إلى ذكر ما فيه لأننا نقول لا يغني مؤلف عن مؤلف
لأن كل متأخر لابد أن يكون فيه تعقيب لكلام المتقدم بذكر قيد أو شرط كما هو متكرر
بين العلماء^(١) .

وأسأل الله تعالى من فضله وكرمه أن يحفظ هذا الكتاب من كل حاسد وعدو
يدس فيه ما ليس من كلامي مما يخالف ظاهر الشريعة لينفر الناس عن النظر فيه كما فعلوا
ذلك في كتاب اليهود^(٢) وثارت فتنة في جامع الأزهر وغيره وما خمدت إلا بإرسال
نسخة السالمة من الدس التي عليها خطوط العلماء كما بينته في خطبة اليهود فالله تعالى

(١) فيما سبق توضيح من الإمام الشعراني لانهجه في تأليف الكتاب .

(٢) هو كتاب البحر المورود في الموائيق واليهود ، ألفه الإمام الشعراني في بيان
الموائيق واليهود التي أفرها مشايخ الصوفية على سريرهم وألزمواهم بإنباعها ، وقد أثار ذلك
الكتاب ثائرة العلماء في عصره نتيجة الدس الذي ورد على الكتاب وكان من ضمن الدس
أنه جعل نفسه أحد الأئمة المجتهدين وقد دافع الإمام الشعراني عن نفسه دفاعاً صريحاً ضد الذين
اتهموه بالكفر والزندقة في بعض الأحيان ، وقد أثرت هذه الحادثة في نفس الإمام
الشعراني ويبدو ذلك من ذكره لها باللمح في بعض كتبه .

يفغر لهؤلاء الحسدة ما جنوه آمين اللهم آمين والحمد لله رب العالمين . فأنمل يا أخى فى أخلاق هذا الكتاب بين الاعتبار والإنصاف تعرف الصادق من الفقراء من غيره .

وكذلك أقول فى غالب الأخلاق فأعرض يا أخى ما ذكرناه لك فى هذا الخلق على مرئى عصرى تعرف حالهم وحالك وذلك لأن الصادقين اختفوا من شدة فساد الزمان وما ظهر إلا بعض اللدنيين لرسم أهل الطريق من أمثالنا . بل سمعت سيدى الشيخ أبى السعود الجارحى ^(١) رضى الله عنه مع شدة ما كان عليه من المجاهدة والإقبال على الله تعالى ليلاً ونهاراً يقول : من أراد أن ينظر إلى مدع كذاب على الله تعالى فلينظر إلى . وكان يقول : والله إن لحيقى هذه لم تبلغ مقام مرئى انتهى .

فإذا كان هذا قول هذا الشيخ العظيم فكيف يكون حال أمثالنا . والله إن أمثالنا لمن المغرورين .

وسأنى فى الكتاب مواضع أنه لا بد أن يتقدم الدجال الأكبر جماعة من الدجاجلة يمهّدوا له الطريق فيظهر أحدهم الباطل فى صورة حق إذ الدجل فى اللغة هو تمويه الباطل بصورة الحق فطالب يا أخى نفسك وإخوانك بالتخلق بهذه الأخلاق ترى قدمك فى مقام الإرادة وبمدك عنه ولو تأمل أحدنا حاله بعين التحقيق لوجد نفسه لم تشم منه طريق القوم رائحة إنما هى دعاوى وجلال فقط والقلب خراب .

(١) هو الشيخ أبو السعود الجارحى : أحد تلامذة الشيخ شهاب الدين للرحومى رضى الله عنه وكان للشيخ أبو السعود كثير من المريدين والأتباع وكان الملوك والوزراء يحضرون بين يديه خاضعين وعملوا بأيديهم فى عمارة زاويته فى حل الطوب والعطين . ومن قوله : لا تجعل لك قط مرئى ولا مؤلفاً ولا زاوية وفر من الناس فإن هذا من الفرار .

وقال يوماً لفقهاء من الجامع الأزهر متى تصير هاء الفقيه راء . توفى سنة ينفى .

وسمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول : لا تنظروا إلى جلاّس فقراء هذا الزمان فانظروا إلى أفعاله وأقواله وأحواله وخذوا الطريق عن المتخاّق بأخلاقها لا عن المنجلدين بجلاّس أهلها وإياكم أن تقفوا مع إذن أشياخ هذا الزمان لتلامذتهم أن يلقنوا الله كره فإن تلقين الله كره ليس بإذن في إرشاد المريدين وإنما هو رواية سند .

وسمعتة يقول : جاء رجل إلى سيدي إبراهيم المتبولى رضى الله تعالى عنه يطلب الطريق إلى معرفة الله تعالى فقال له : تريد مشيخة سوقية ولا مشيخة بيتية ؟ فقال : يا سيدي بينوا ذلك لنا حتى نعرف المراد من ذلك فقال المشيخة السوقية أن أجلسك بجلاّس الفقراء الظاهر من لباس الصوف وإرخاء العذبة وآذن لك بالجلوس على السجادة فتصير تخبّط عندي وتصطاد الدنيا بذلك وكل من نازعك في مريد حوله إحسان وبرّ قامت عليه القيامة منك ومن زبائنتك ومن كان هذا حاله فهو من إخوان الشياطين وهو حال أكثر المدعين للطريق في هذا الزمان .

وأما المشيخة البيتية فإن تجلس عندي على قدم الانبعاث للسنة الحمديدية تخلفاً وتحققاً فلا تدع مأموراً إلا وفعلته ولا منهيّاً إلا واجتنبته ولا معروفاً إلا عملته ثم ترى نفسك بعد ذلك كله أنك قد استعقيت الخسف بك والمسيح بصورتك وأنتك لو سجدت على الجمر لله تعالى من اقتتاح الوجرد إلى انتهائيه لا تؤدي شكر ذرة واحدة مما تفضل الله تعالى به عليك من الحلم وعدم معاجلتك بالعقوبة ثم تمكف بقلبك على حضرة الله عز وجل فلا تلتفت لغيره من نعيم الدارين حتى تلقاه فهذه هي المشيخة البيتية فقال الرجل : لا طاقة لي بهذه الطريق فقال له سيدي إبراهيم : فاذهب إلى عمل الحرف والصنایع ولا تراحم الصادقين بالنداءوى الكاذبة فقال : ممعاً وطاعة انتهى .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : والله لو أن أحدنا شمع رائحة مقام فسقة الزمان الماضى لادعى القطبية الآن وسمعتة مراداً يقول : قد صار الموت اليوم تحفة للمؤمن فقد ذهب الصادقون وبقي الكاذبون على الله حتى أننى عددت من ادعى

وكان يقول : لا يكون الفقير عندنا رجلاً حتى يعرف ثمانين ألف أمة بأسمائهم وأنسابهم وأعمالهم الإانس والجن عالم واحد منهم انتهى .

وكان سيدي إبراهيم المتبولي صاحب أخلاق هذا الكتاب يقول : لا يكمل الفقير عندنا في الصفا حتى يصبر يعرف أعمال جميع العباد من حسن وقبح فلا تخفى عليه ما يفعلونه في قعود بيوتهم . ف قيل له : ومن أين تعرف ذلك وما ثم وحي ؟ فقال : يعرف الفقير ذلك من رؤية أنف أحدهم فإذا رأى أنفه عرف جميع ما فعله طول عمره حتى كأنه كان حاضراً معه .

وكان يقول : إذا صفى قلب الفقير صار مهبط الوحي ^(١) ومحل الأنوار وإذا تكدس كان محل الظلمة ومهبط الشياطين .

وكان يقول : قد أعطاني الله تعالى من الأخلاق الحميدة على لسان محمد ﷺ ما لم يعط لأحد من أولياء عصرى .

وكان يقول : آخى رسول الله ﷺ بيني وبين سيدي أحمد البدوي ^(٢) وقال :

(١) محلا للتجليات الإلهية .

(٢) هو أبو فراج السيد أحمد البدوي : ولد رضى الله عنه بمدينة فاس بالمغرب لأن أجداده انتقلوا أيام الحجاج إليها حين كثر القتل في الشرفاء فلما بلغ سبع سنين سمع أبوه قائلاً يقول له في منامه : يا على انتقل من هذه البلاد إلى مكة الشرفة فإن لنا في ذلك شأنًا وكان ذلك سنة ثلاث وستمئة : فزلوا بمكة وتلقاهم أشرفها بالترحيب ولقب فيها السيد أحمد بالبدوي بالبدوي لكثرة ما كان ينظم وقرأ القرآن وحفظه ومن شجاعته لقب في مكة أيضاً بالعطاب ثم تغيرت أحواله واعتزل عن الناس ولازم للصمت .

ثم توجه إلى مدينة طنطا وفي الطريق إليها مر بالعراق لزيارة الأولياء هناك وفي طنطا ربي كثيرا من المريدين وكانت مدرسته الصوفية هناك ذائعة الصيت في جميع الأقطار ولا زالت طريقته ومريدوه منتشرون في جميع أنحاء العالم الإسلامي وكان من كبار العلماء في التصوف والفقه والحديث وكان يدرس لتلامذته هذه العلوم ويحضهم على الجهاد في سبيل الله حيث كانت الحملات الصليبية في ذلك العصر مستمرة .

يرهم لو علمت أحداً أ كبر قوة من أحمد البدوي في الأولياء لأخيت بينك وبينه .
 ولكن يقول : أعطاني الله تعالى مقاماً لم يعط لأحد من الأولياء^(١) وهو سماطى الذى
 على سنة على فلا يتخلف عنه أحد من الأولياء الأحياء والأموات فيحضرون
 رسول الله ﷺ فيأكلون فيه طعاماً روحانياً جبراً لخطايرى وتقباء هذا السماط
 خسر^(٢) وإلياس^(٣) وعمار بن ياسر^(٤) والمقداد ربيب الأسود وأبو هريرة انتهى .

وقد ذكرت ذلك لسيدى الشيخ عبد القادر الدشتوطى فقال :

صلى سيدى إبراهيم وقد حضرت هذا السماط مراراً وأنا والشيخ على الخواص وجماعة
 من محبوب سيدى إبراهيم رضى الله عنه وكان سيدى إبراهيم يقول : كنت أرى النبى
 ﷺ وأنا صغير فى المنام فكانت أمى^(٥) تقول لى : يا إبراهيم كل الناس يرونه فى
 نومه ولا تكون رجلاً إلا إن صرت تراه فى اليقظة ويحدثك وتشاوره على أمورك كما
 تريد المريد شيخه^(٦) قال : وما وصلت هذا المقام حتى قطعت مائتى ألف مقام وسبعة
 وعشرون ألف مقام وتسع مائة تسعة وتسعين مقاماً فقليل له وكذلك الحكم فى غيركم
 : خسر بنى مقام الأخذ من رسول الله ﷺ بقظة إلا بعد مجاوزة جميع هذه المقامات ؟

يقصد خصوصية معينة .

- صاحب القصة المعروفة فى سورة الكف .

- من الأنبياء الوارد من ذكرهم فى القرآن .

- من الصحابة .

- يبدو أن أم سيدى إبراهيم للتبولى كانت من النساء الصالحات لمعرفتها هذه
 خسر الأولياء .

- يريد منه أن يكون شيخه سيدنا رسول الله ﷺ مباشرة دون واسطة من أحد

- كما يتعامل المريد مع شيخه وهذا من أعظم مقامات الأولياء حيث أن التعامل

- سيدنا رسول الله ﷺ يقربهم من مرتبة الصديقية وهى من أعظم المراتب

فقال : نعم لا يصح لأحد مقام الأخذ عنه عليه السلام إلا بعد مجاوزتها..

وكان يقول رضى الله عنه : أعطانى الله تعالى معرفة ذنوب كل من توضأ من مطهرة من زوية^(١) غسالة أعضائهم فأعرف غسالة الكبائر والصغائر والمكروهات وخلاف الأولى فأفارق بينها . وكان يقول : وعزة ربي هؤلاء الذين يتكلمون فى طريق المحبة كـ ابن الفارض^(٢) لم يعطوا من سر الله عز وجل ما يعطى شارب ناموسة^(٣) . وكان يقول : وعزة ربي كل فقير لم يجد صاحب الولية التى حضرها بالبركة انخفية طول عامه ويتحمل عنه جميع البلائى النازلة عليه فى ذلك العام فليس له أن يمد يده إلى لقمة^(٤) . وكان يقول : لياكم أن تروا نفوسكم كبرتم فتفظوا عن الرضاع من ثدى الأمداد الإلهية^(٥) . وكان

(١) يقصد من جانب غسالة أعضائهم .

(٢) كان من أكابر أولياء مصر وضريحه مشهد بحبل المقطم وكان من أبناء الوزراء . كان يستزل الناس بوادى المستصفين بالمقطم ويقيم فيه الشهور . ولا يرجع إلا إلى كراما لوالده . ومع ذلك كان لا يجد الفتح الذى يشتهاه فقال له أحد الأولياء أنه إن يفتح عليك إلا بمكة فتوجه إليها وفتح عليه هناك . ثم عاد إلى مصر وأقام فيها . له أشعار مشهورة أشهرها تائية بن الفارض التى قيل أن الفتوحات المكية شرح لها بناء على الخلاف بين المؤرخين : هل قابل سيدى عمر بن الفارض الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى أم لا .

(٣) يقصد تعظيم سر الله وبيان أفضليته فى العلم عن سيدى عمر بن الفارض فإن مقدار شارب ناموسة من سر الله من أعظم الدرجات عند الأولياء فهو مدح فى نفس الوقت لسيدى عمر بن الفارض .

(٤) هذا يقارب قول سيدى أبى الحسن الشاذلى عندما قيل له أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية : بقوله : كان يقبلها ليجازى بأكبر منها فهذا القبول يعد إكراما للمهدى أكبر من قيمة هديته بمراحل كبيرة فلا يكون قبول الهدايا معترفا به عند الصوفية إلا بهذه الشروط وكذلك حضور الولية .

(٥) فإن نفس المريد قد ينتابها الغرور إذا ظهرت عليها الفتوح فى أول الطريق وبالذات الكرامات .

رمى الله عنه يجوع حتى تعصب على بطنه الحجر ويطعم طعام المحتاجين إليه . وكان إذا شكى أحد إليه ضرب العزوبة يعطيه خيطا يشده في وسطه فلا تنشر له جراحة حتى يتزوج^(١) وإن طلب أن يكون ذلك دائماً يمسح بيده على ظهره ولا يشتاق إلى نكاح حتى يموت .

وكان إذا شكى أحد إليه فقراً أو ديناً يقول له اذهب إلى الخصى الذي في الغيط فرفع الحصا وخذ حاجتك فبرفعها فيجد قناة من ذهب تجري من عل وتنزل في مقل فيأخذ منها حاجته ومناقبه كثيرة رضى الله عنه .

(١) أى لا يشعر برغبة جنسية حتى يتزوج .

مقدمة الكتاب

مقدمة في بيان عدة أمور يتعين على مطالع الكتاب الوقوف

عليها قبل الخوض فيه بغير فهم ليعرف اطلاع القوم

إعلم يا أخى أن مرادنا بالأخلاق الحمدية حيث أطلقناها في هذا الكتاب وغيره ما يعم الصريح والمستنبط من نص أو قياس كما أطلق العلماء لفظ الشريعة على ما يشمل الصريح والمستنبط وكما أطلقوا مذهب المجتهد على ما صرح به وعلى ما فهمه المقلدون له من كلامه أى فكما يسمى ما ذكرناه شريعة ومذهباً كذلك يسمى ما استنبطه العارفون من أخلاقه ﷺ بأخلاق الحمدية فافهم والله أعلم .

وانبئين لك يا أخى ما اشتملت عليه هذه المقدمة بأوضح بيان فنقول :

بيان كون طريق القوم مشيدة بالكتاب والسنة

أعلم أن القوم كلهم قد أجمعوا على أن من خرج عن السنة الحمدية قيد شبر في ملبسه أو ما كله أو منامه أو قوله أو فعله فليس هو من القوم ولو تزيا بزيمهم وهم برعاً منه في الدنيا والآخرة كما تبرأ المجتهدون كذلك من كل قول يخالف ظاهر الكتاب والسنة وقالوا : إذا خالف قولنا ما صح رسول الله ﷺ فارموا بقولنا وأعملوا بقول رسول الله ﷺ ^(١) وكان الامام أبو حنيفة ^(٢) رضى الله عنه يقول كثيراً لا ينبغي لمن لم يعلم دليلي

(١) وكذلك كان قول الأئمة الأربعة ومن تابعهم من الأئمة المجتهدون .

(٢) هو الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت : رضى الله عنه ولد سنة ثمانين من الهجرة وتوفى ببغداد سنة خمسين ومائة وهو ابن سبعين سنة وكان فى زمنه أربعة من الصحابة هم : أنس بن مالك — عبد الله بن أبى أوفى — سهل بن سعد — أبو الطفيل وهو آخرهم موتاً .

وأكره رضى الله عنه على تولى القضاء وضرب على رأسه ضرباً شديدا فلم يقبل . =

- يعنى بكلامى . وتأمل يا أخى إذا كان علماء الظاهر يخطئون بعضهم بعضاً مع إنهم فى حُب واحد وشريعة واحدة ظاهرة للافهام فكيف لا يخطئون كلام من جاوز الفهم إلى أمور الكشفية ومعلوم أن دائرة الكشف تبتدى من بعد دائرة الفكر والفهم فلا يرى لصاحب الفكر أن يذوق من طريق الكشف إلا ما وافق صريح السنة . مع أن سوء الكشفية لا تأتى قط إلا موافقة للشريعة لأنها إخبار بالأمور على ما هى عليه فى نفسها كما هو الأمر فى الشريعة المطهرة ومن شهد خطأ فى الشريعة فذلك الخطأ راجع قطعاً - فهمه هو لا إلى الشريعة ويؤيد ذلك قول من قال : إن حكم الحاكم ينفذ ظاهراً وباطناً - فى الدنيا والآخرة لكن ينبغى تقييده بما إذا حكم بصريح النص أما إذا حكم بما فهمه - موافق الأمر الأخرى وقد يخالفه وقد تتبعتم بحمد الله تعالى أدلة أقوال المجتهدين - ثبت القول لا يخلو من أن يكون مسنداً إلى آية أو حديث أو مفهوم لها أو أثر أو - من صحيح على أصل صحيح .

وقد كان أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه يقول : علمنا هذا مشيد بالكتاب والسنة وكل من لم يفهم القرآن والحديث لا يقنذى به فى طريقنا ولو كان على عبادة اثنين قلت وإنما لم يذكر الجنيد رحمه الله القياس مع الكتاب والسنة لأنه لا يثبت نعم دلالة إلا بالكتاب والسنة وكذلك الإجماع فى نفس الأمر والله أعلم وكان سيدى

= وكان رضى الله عنه حسن الثياب طيب الرائحة كثير الكرم حسن المواساة لإخوانه . وكان رضى الله عنه يقول : ما صليت قط إلا ودعوت لشيعى حماد ولكل من حسنت منه علماً أو علمته .

وكان الشافعى رضى الله عنه يقول : الناس عيال على أبى حنيفة فى الفقه . وكان لا ينام الليل ويصوم الوتد لكثرة صلاته ، وصلى الصبح بوضوء العشاء أربعين سنة . وكان طامه الليل يقرأ القرآن كله فى كل ركعة وكان يسمع بكاءه حتى يرحمه . وخرم القرآن فى الموضع الذى مات فيه سبعة آلاف مرة .

إبراهيم الدسوقي^(١) رضى الله عنه يقول : من لم يحبس نفسه فى فقم الشريعة ويمتخنها عليها
بختام الحقيقة فليس هو من اتباعنا ولو مشى فى ركابنا .

وكان يقول أيضاً : أول من يتبرأ من الفقراء المبتدعة من السهروردية والقادرية
والرقاعية وغيرهم مشايخهم يوم القيامة .

(١) هو العارف بالله تعالى : سيدى إبراهيم الدسوقي القرشى رضى الله عنه من
أجللاء مشايخ التصوفية . يقول عنه الإمام الشعرانى : هو من أجللاء مشايخ الفقراء أصحاب
الحرف وكان من صدور المقربين وكان صاحب كرامات ظاهرة ومقامات فاخرة ومآثر
ظاهرة وبصائر باهرة وأحوال خارقة وأنفاس صادقة وهم عالية ورتب سنية مناظره بهية
وإشارات نورانية ونفحات روحانية وأسرار ملكوتية ومحاضرات قدسية . له المراج
الأعلى فى المعارف والمنهاج الأسنى فى الحقائق والطور الأرفع فى المعالى والقدم الراسخة
فى أحوال النهايات واليد البيضاء فى علوم الموارد والباع الطويل فى التصريف الناقد .
والكشف الخارق عن حقائق الآيات والفتح المضاعف فى معنى المشاهدات . وهو أحد
من أظهره الله عز وجل إلى الوجود وأبرزه رحمة للخلق وأوقع له القبول التام عند
الخاص والعام وصرفه فى العالم ومكنه فى أحكام الولاية وقلب له الأعيان وخرق له
العادات وأنطقه بالمغيبات وأظهر على يديه العجائب وصومه فى المهد رضى الله عنه وله
كلام كثير عال على لسان أهل الطريق .

ومن كلامه رضى الله عنه : من لم يكن مجتهداً فى بدايته لا يفلح له مرید ، فإنه إن
نام نام مریده وإن قام قام مریده وإن أمر الناس بالعبادة وهو بطل أو توبهم عن الباطل
وهو يفعلهم ضحكوا عليه ولم يسمعوا منه وكان ينشد كثيراً إذا قيل له انصحنأ وأرشدنا
يمثلين من قول بعضهم :

لا تعدلين الحرير حق تكويني مثلهن يقبح على معلولة تصف دواء الناس
وكان رضى الله عنه يقول يجب على المرید أن لا يتكلم قط إلا بدستور شيخه إن
كان جسمه حاضراً وإن كان غائباً يستأذنه بالقلب وذلك حتى يترقى إلى الوصول إلى هذا
المقام فى حق ربه عز وجل . فإن الشيخ إذا رأى المرید يراعيه هذه المراجعة رباه بلطف
الشراب وأسقام من ماء التريية ولاحظه بالسر المعنوى الإلهى فبأسعادة من أحسن الأدب
مع مریده وباشقاوة من آساء .

وصمعت سيدى علي المرصفي رضى الله عنه يقول : سبب ظن بعض الناس أن طريق لقوم خارجة عن الشريعة بعدم عن مخالطة أهلها ولو أنه خالطهم لوجدتهم متقيدين بكتاب والسنة .

وكان الشيخ عز الدين ابن عبد السلام^(١) قبل اجتماعه بالقوم يقول : وهل ثم عريق يتقرب بها إلى الله تعالى غير ما بأيدينا من العلم ؟ فلما اجتمع بالشيخ أبي الحسن فتذلى^(٢) وقطع السلسلة الحديدية بالكراس أى صار يقول : من أدل دليل على أن

(١) هو الشيخ عز الدين بن عبد السلام كان من أجلاء شيوخ مصر والشام وكان مشهوراً بلقباً وقول الحق حتى لقب بسلطان العلماء .

هاجر من الشام إلى مصر في زمن المماليك وعندما رأى ظلمهم وجورهم بالرعية ، يتوانى عن الإفتاء بيعهم لأنهم لم يعتقوا .

شارك مع الإمام أبي الحسن الشاذلى في معركة المنصورة .

وهو صاحب القولة المشهورة عندما سمع حديث أبي الحسن الشاذلى (اسمعوا هذا حديث القريب العهد من الله) .

(٢) هو على بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلى بالشين ولذلك المعجمتين هاجر من حرب إلى مصر وأقام بالإسكندرية .

في مبدأ حياته صاحب الشيخ نجم الدين الأصفهاني وسيدى عبد السلام بن شيش .

يقول عنه سيدى ابن عطاء الله السكندرى في كتابه الرائع لطائف المنن :

« نطب الزمان والحامل في وقته لواء أهل العيان حجة الصوفية علم المهتدين زين العارفين .

« لا كابر . زين الأسرار . ومعدن الأنوار . القطب الغوث الجامع أبو الحسن على الشاذلى .

« صمته عنه . لم يدخل طريق القوم كان يعد للمناظرة في العلوم الظاهرة . وشهد له

شيخ أبو عبد الله بن النعمان بالقطبانية : جاء رضى الله عنه في هذا الطريق بالعجب العجائب .

« ذكر الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد رضى الله عنه يقول ما رأيت أعرف بالله من الشيخ

« حسن الشاذلى رضى الله عنه . ومن كلامه رضى الله عنه عليك بالإستغفار وإن لم يكن

« ذنب ، واعتبر بإستغفار النبي صلى الله عليه وسلم بعد البشارة واليقين بمغفرة ما تقدم

« به وماتانى ، هذا فى معصوم لم يقترب ذنباً قط وتقدس عن ذلك فإظنك بمن لا يخلو

« نعيم والذنب فى وقت من الأوقات . وكان رضى الله عنه يقول إذا عارض كشفك

القوم قعدوا على أساس الشريعة وقعد غيرهم على الرسوم ما يقع على يدهم من الكرمات والخوارق ولا يقع شيء من ذلك على يد أحد من الفقهاء إلا إن سلك طريقهم .

وسمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله يقول : كيف ينسب القوم إلى مخالفة السنة وهم مجمعون على أنه لا يجوز لأحد منهم الإقدام على فعل أو قول حتى يعلم مستنده من الكتاب والسنة ؟ فإن كان مثل هؤلاء لا يصح تسميتهم مبتدعة ، فما بقي على وجه الأرض من المسلمين الآن سني .

وكان سيدي علي المرصفي يقول : من تأمل بعين الإحصاف وجد جميع ما يشكره بعض المجادلين على الصوفية جهل وجحد وعناد وحسد فإن حقيقة الصوفي أنه عالم عمل بعلم على وجه الإخلاص لا غير .

ويؤيده ما ورد عن السيد عيسى عليه الصلاة والسلام أنه كان يقول : من عمل بما علم فهو من أولياء الله تعالى .

وكذلك يؤيده قول الإمام الشافعي ^(١) رحمه الله : إن لم تكن العلماء العالمون بأولياء

الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك إن الله تعالى قد ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها لي في جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة مع أنهم أجمعوا على أنه لا ينبغي العمل بالكشف ولا الإلهام ولا للمشاهدة إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة .

(١) هو الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه :
ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتقي معه في عبد مناف . ولد رضي الله عنه في غزوة بالشام ثم حل إلى مكة وهو ابن سنتين وعاش أربعاً وخمسين سنة وأقام بمصر أربع سنين ونيفاً ثم توفي بمصر ليلة الجمعة سنة أربع ومائتين .

نشأ رضي الله عنه في ضيق حال يجالس في صباه العلماء ويكتب ما يستفيد في العظام ونحوها لمعجزه عن شراء الورق . تفقه في مكة على مسلم بن خالد الزنجي . وفي المدينة لازم الإمام مالك بن أنس وقرأ عليه الموطأ وكان سنه عند ما أتى الإمام مالك ثلاث عشرة سنة

الله تعالى فليس لله ولي^(١) انتهى .

فكذب والله وافترى من قال إن طريق القوم لم يأت بها كتاب ولا سنة وذلك من أكبر علامة^(٢) هلى جهل هذا القائل بالحقيقة والشريعة والحمد لله رب العالمين .

ثم رحل إلى اليمن واشتهر بها . ثم رحل إلى العراق وناظر محمد بن الحسن وغيره ونشر علم حديث ونصر السنة واستخرج الأحكام منها ورجع كثير من الناس إلى مذهبه ثم جاء بح مصر في آخر سنة تسع وتسعين ومائة . وألف مذهبه الثاني .

قال الربيع بن سليمان : رأيت على باب دار الإمام الشافعى رضى الله عنه سبعةائة راحة كتب سماع كتبه .

وكان الإمام الشافعى يقول : إذ اصح الحديث فهو مذهبي .

وكان رضى الله عنه يقول : وددت لو أن الخلق تعلموا هذا العلم على ألا ينسب إلى

— حرف —

(١) لأن الولاية تكون نتيجة العمل . وفي الحديث .

من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم (

— من أكبر العلامات .

بيان نفاسة طريق سيدى الشيخ إبراهيم المتبولى التى بنينا عليها غالب أخلاق
الكتاب رضى الله عنه وبيان بعض عقوبة من أنكر على أهل
الطريق وبيان أن كل من لم يخالط القوم بعد عن معرفة
اصطلاحهم فأخطأ طريق الصواب

وقد قال الشيخ أبو تراب النخشي^(١) رضى الله عنه : إذا أئف القلب الإعراض عن
الله صحبته الوقية فى أولياء الله أى لأنه لو أقبل على حضرة الله لعرف أهلها ومن هو
المقدم فيها وكان يحترمهم ضرورة فإنه ما عادى أحد أولياء الله وهو يعتقد ولايتهم أبداً
ولما يعاديه من حين يحجب عن مقامهم وحينئذ يرميهم بالنفاق والرياء والزندقة فأفهم .
وكان الشيخ أبو عبد الله القرشى^(٢) أحد الرجال الأكابر من أولياء مصر : يقول
من غضب من ولى الله عز وجل ضرب بسهم مسموم فى قلبه ولم يمت حتى تفسد
هويته^(٣) . انتهى .

(١) هو العارف بالله : أبو تراب عسكر بن الحسين النخشي : صاحب حاتم الأصم
وأبا حاتم العطار وهو من كبار مشايخ خراسان .
كان مشهوراً بالعلم والفضوة والزهد والتموكل الورع .

وكان يقول : لا ينبغي لفقر قط أن يضيف إلى نفسه شيئاً من اللال قط . ألا ترى إلى
موسى عليه السلام حيث قال : هى عصاى واوعى الملك لها ، قال الله عز وجل له : ألق
عصاك فلما قلب العين فيها لجأ وهرب فقيل ارجع ولا تخف .
توفى سنة خمس وأربعين مائتين .

(٢) هو الشيخ أبو عبد الله القرشى : كان جليل القدر ، وكان يعظم للفقراء أشد
الاعتظيم ، ويقول إنهم انتسبوا إلى الله تعالى .
ومن أقواله : ما رأينا أحداً قط أنكر على الفقراء وأساء بهم الظن إلا ومات على
أسوأ حال .

وكان رضى الله عنه يقول : إحتقار الفقراء سبب لارتكاب الرذائل .

(٣) وفى الحديث : من عادى لى ولها فقد آذنته بالحرب

وهذا من أكبر العقوبات لأن من ضرب في قلبه بسهم مسموم لا يقدر أحد من الأطباء يداوى له مرضاً فيقاسى من العذاب ما لم يعذب به أحد من العالمين إن كان في أجله فسحة ومن فسدت عقيدته صار لا يعتقد في الله تعالى ولا في رسوله ولا في أوليائه خيراً فيجنى ثمرة سوء ظنه بالله وأنبيائه وأوليائه ، فلا أحد يأخذ بيده في شدة ، لا في الدنيا ، ولا في الآخرة ، نسأل الله العافية من ذلك . إذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق .

كان سيدى إبراهيم للتبولى رضى الله عنه من أكبر الأولياء أصحاب الدوائر الكبرى^(١) وكان يقول . ليس لأحد من الأشياخ في رقبتي منة في طريقى وإنما للمنة على رسول الله ﷺ .

وكان في بداية أمره يبيع اللحم المسلوق بالقرب من جامع الأمير شرف الدين خارج الخسنية . ويأكل من كسبه . ولا يقبل من أحد شيئاً ، ولو كان أهن أصحابه .

ومات أبوه وهو صغير . فربته والدته ، وكانت من الصالحات ، ولها حال عظيم ، مع نفع عز وجل .

ورأيت سيدى عليا الخواص رضى الله عنه مع علو مقامه في التصريف^(٢) ، إذا حمله حملة شديدة ، يذهب على قبر والده سيدى إبراهيم ويحكى لها ذلك الأمر عند القبر ، منتضى الحاجة . وقبرها معروف بذلك إلى الآن .

وكان سيدى إبراهيم - وهو صغير - يرى رسول الله ﷺ في المنام كثيراً ويحادثه ، حتى أنه أمه : يا ولدى كل الناس يروونه في النوم وإنما الرجل من يراه في اليقظة .

ولا زال رضى الله عنه يترقى في للمقامات ، حتى صار يجتمع به في اليقظة ، ويشاوره به غيره كلها كما يشاور التلميذ الصادق شيخه ، والولد الموفق والده ، ويعمل بإشارته

من أصحاب المقامات العالية .

تصريف في المصطلح الصوفي يقصد به أن الله سبحانه وتعالى يعطى أوليائه بعض تصرف فيكون على مايجرى به قدره .

ﷺ . ولما عمر سيدى إبراهيم زاوينه ببركة الحاج وخرس البستان الذى هناك صار كما يحفر بئراً تنهال فشاور رسول الله ﷺ على ذلك فقال له : سأرسل لك على بن أبى طالب يخط لك بجريدة على جدار بئر أخى شعيب نبي الله الذى كان يستقى منها الغر - وكانت قد رددت ولا يعلم أحد مكانها - فأصبح سيدى إبراهيم فوجد الإمام علي رضي الله عنه قد خط له عليها . فحضر فوق على أساسها ، فهي دائرة يشرب منها الغر إلى الآن ^(١) .

وأخبرني سيدى الشيخ عبد القادر الدشوطى رضي الله عنه - وكان من أعز أصحاب سيدى إبراهيم - قال : قد خص الله تعالى سيدى إبراهيم للتبولى بخصيصه لم تكن لأحد من الأولياء وهي أزله كل سنة وليمة عظيمة يمد سحاطها على مد اسكندر ذى القرنين فلا يتخلف عن تلك الوليمة أحد من الأنبياء والمرسلين وصالح المؤمنين .

قال : وقد حضرتها كذا كذا مرة ، وصحبت الخضر والياس من هناك وأخبرني أن نقيب السباط هناك الإمام على وأبو هريرة والمقداد ابن الأسود وأعوانهما فيجتمعون ذلك السباط الأحياء من الأولياء والأموات . قال : وأما حضور الأنبياء فأما هو جبر خاطر منهم له .

فقلت لسيدى عبد القادر : فهل يسمع سد اسكندر هؤلاء الخلائق كامهم ؟ فقال لى : نعم طول السد مئمة ميل وعرضه خمسة أميال انتهى .

وأخبرني شيخ الإسلام زكريا ^(٢) رحمه الله قال : كان سيدى إبراهيم المتبولى من

(١) وهي لا زالت موجودة حتى الآن .

(٢) هو شيخ الإسلام الإمام زكريا الأنصارى الحزرجى : كان من كبار علماء مصر سواء فى الفقه أو التصوف .

وله شرح على الرسالة القشيرية وشرح على الأربعين النووية وعلى تفسير البيضاوى وغيرهم من الكتب .

دفن بجوار الإمام الشافعى بعد وفاته فى شهر ذى الحجة سنة ست وعشرين وتسعمائة .

الراغبين في العلم ، مع أنه كان أمياً ، لا يعرف الخط ، وكان يحل مشكلات الكتاب والسنة بحسن عبارة ، وعاش مائة سنة وسبع سنين لم يفتسل قط من جنابة ، لأنه لم يتزوج ، ولم يحتمل ، وكانوا إذا قالوا له تزوج بقول : يا أولادى ليس في ظهري ذرية تخرج منه إلى الدنيا وهم أهوال يوم القيامة لم يدع له شهوة إلى الجماع قال : وكان إذا شكى إليه أحد العزوبة يقول له تريد أن تخدم شهوتك طول عمرك أو حتى تقدر على مؤنة النكاح ، فإن قال : طول عمرى ، مسح بيده على ظهره ، فلا يشتهي الجماع ، إلى أن يموت ، وإن قال : حتى أقدر على القيام على المرأة ، يشد له على بطنه بخيط ، ويقول ما دام هذا على بطنك لا تنشر لك جارحه ، فإذا قدرت على التزويج فأنزع الخيط ، قال : الشيخ زكريا وكنا لانهل من أحواله شيئاً فرمى بما فعل فعلا باطنه حكمة وظاهره بدعة قال : وقد زرنه يوماً وكان معي خمسة عشر من العلماء فشق لنا بطيخة بيده وصار يعطى واحداً ويدع آخر راثنين ، وبدأ بالجانب الأيسر فأراد بعض الفقهاء أن ينكر عليه ، فقالت له : لا تنكر واكتب لى أسماء من فرق عليهم على الترتيب ، وأسماء من أخرجهم ، ففعل . قال : شيخ الإسلام فن أعطاه أولاً مات أولاً ، ومن أعطاه ثانياً مات ثانياً بعده ، وهكذا قال : وكان أعطاني آخر الكل فماتوا كلهم ولم يبق منهم غيرى وكانت تفرقته عليهم على حسب أعمارهم رضى الله عنهم .

وكان رضى الله عنه يصلى الظهر دائماً بالجامع الأبيض برملة لد^(١) وكان بعض الفقهاء ينكر عليه عدم حضوره الجماعة معه في عصر لجملة بحله .

قال سيدى على الخواص : وقد أوصانى بذلك أنا والشيخ عبد القادر الدشظوطى فمتخلفنا عن صلاة الظهر في هذا الجامع من حين أوصانا سيدى إبراهيم إلى وقتنا هذا . قال : وقد حضرت مع الشيخ مراراً في حياته ، وكان إمام الجامع نحيماً بلا لحية ونونه كازعفران فأمره بالدعاء لنا فدعا لنا وهكذا أخبرنى أيضاً الشيخ يوسف الكردي

(١) بلدة بالشام .

أحد أصحاب سيدي إبراهيم ، وأخبرني أيضاً : أنه اشتاق إلى أمه يوماً وهو مقيم عنده في بركة الحاج ، فشاور سيدي إبراهيم ، فقال : إن شاء الله تزورها في هذا اليوم قبل الغروب .

فتعجبت من قول الشيخ ، ولم أجد بُدّاً من تصديقه ، فصليت معه العصر بالزاوية ثم دخلت خلوتي ورددت الباب ، فبينما أنا أقرأ وردى ، إذ رأيت نفسي داخلاً بلدي ووالدي وأهلي يتلقوني بالأعلام والذكر فسلمت عليهم ودخلت على الوالدة ففرحت بي فرحاً شديداً ، وأتت عند أهلي تسعة أشهر ، أفرى وأطفلاً وأخطب وأصلى بالناس ، وكان الإمام مريضاً ، فلما مضت على تسعة أشهر تحرك شوقي إلى سيدي إبراهيم ولم أقدر أقيم عند أهلي بعد ذلك فودعهم وخرجت للسفر ، فشيء مني إلى المحل الذي كانوا يتلقوني منه ، وزودوني فاكهة ففتحت عيني فإذا أنا جالس في وردى في الخلوة والفاكهة بين يدي ، فخرجت أسلم على الإخوان سلام المسافرين ، فضحكوا هلى فصرت أحلف لهم أنى كنت مسافراً ولم يصدقوني ، فعلم الشيخ بذلك فقال لى : اكنتم ما رأيت قال : فسكتمت ومكث المفراء يضحكون زماناً ، ثم بعد سنة جاءتنى أمى ووالدى من بلاد الأكراد بهدية للشيخ ، وقالوا للشيخ : قد هجزنا فى يوسف أنه يكل عندنا سنته فلم نقدر عليه ، وقال : يكفى تسعة أشهر فتعجب المفراء من ذلك فقال سيدي إبراهيم : لا تتمجبوا فإن القدرة صالحة لأعظم من ذلك : وأخبرني سيدي على الخواص : أن شخصاً من الأولياء نزل من الهوى^(١) وجلس بين يدي سيدي إبراهيم منادياً فقال : يا سيدي مما أعطاني الله تعالى أنه لا ينزل حيوان من بطن أمه من جن وإنس ووحش وطيور وغير ذلك ولا يخرج ورقة من العود أو نبات من الأرض إلا ويعلمنى بذلك قبل ظهوره . فقال له سيدي إبراهيم : وعزة ربي هنا أمر قد أعطانيه الله عز وجل وأنا دون البلوغ فم أقب معه ، إنما الشأن يا ولدى فى الاقبال على ربك بحيث لا يكون لك

هذه إعراض في ساعة من ليل أو نهار ووالله إن قول العبد : سبحان الله مرة واحدة فضل من أطلاعه على ملكوت الدنيا والآخرة على التفصيل^(١) انتهى .

وقد بلغنا أن الله سبحانه وتعالى يقول في بعض كتبه المنزلة : « يا عبدي لو سقت إليك ذخائر الكرزين فنظرت بقلبك إليها طرفة عين فأنت مشغول عنا لا بنا انتهى . فتاب ذلك الولي وقبل رجل الشيخ وطار في الهوى ونحن ننظره .

وأخبرني أيضاً أن فقيراً كان في زاوية سيدي إبراهيم على قدم الجد والاجتهاد في عبادة فدعاه سيدي إبراهيم يوماً وقال لي : مالي أراك كثير الأعمال ناقص الدرجات ؟ قال : لأن والدي مات وهو ساخط علي فقال له سيدي إبراهيم : هل تعرف قبره ؟ قلت : نعم . فذهب بالولد إليه ، ونادى والده من القبر ، فأجاب واشق القبر وخرج من عرباً لا اعتقاده أن الساعة قد قامت فقال الشيخ : لا روعة عليك إنما دعوتك لنرضى عن ولدك هذا .

فقال اللهم إني أشهدك أنني قد رضيت عن ولدي .

فقال له : أرجع سالماً وسأله عن أحوال أهل القبور فأعلمه بأحوال بعضهم ، فبكى حتى بل الثرى ثم نزل والده إلى قبره ، وفاق ذلك الولد حتى صار من أهل الكشف ثم من ذلك اليوم .

وأخبرني الشيخ يوسف الكردي المتقدم ذكره قال : كنت أمشي خلف حمارة سيدي هير وهو ذاهب من مصر إلى بركة الحاج فتلقته امرأة وعانقت حمارته وقالت : سيدي بلدي أمره الفرنج ولا أعرف ولدي إلا منك .

(١) يعتبر المتصوفة أن ظهور الكرامات وخوارق العادات على يد أي منهم دلالة على أنه في مبدأ أمره بل إن كثيراً من المتصوفة الذين قطعوا في الولاية مراحل كبيرة من هذه الخوارق على أيديهم ولا يلقبون إليها بالآلاء بل إن الاتجاه الأكبر عندهم هو التوجه إلى الله سبحانه وتعالى فيكونون له وبه في كل لحظات حياتهم .
وفي حديث : عبدي أطعني تكن ربانياً .

فقال سيدي إبراهيم : هذه السكرامة إنما هي لسيدي أحمد البدوي فلم تطلق الحماره فخطأ الشيخ رأسه ساعة لحظة وقال : انظري هل هذا ولدك ؟ فإذا هو يمشي نحوهم فتلافت هي وإياه وعانفته فقالت له : كيف جئت ؟ فقال : كنت جالساً في دار التفتيش ففتحت عيني فإذا أنا أمشي بالقرب منكم .

وأخبرني أيضاً أن سيدي إبراهيم رأى الصغار الذين يلعبون بالحمام في طريق البرية فسلم علي صغير منهم على رأسه زنط من أولاد الترك وقال : أهلاً بشيخ الإسلام فتعجب الفقراء من تلقيبه بذلك .

قال الشيخ يوسف : فتبعت الولد حتى دخل مصر فعرفت بيت والده وصرت أتردد إليه كل قليل فأخذه والده بالقرآن والعلم فبرع حتى صار شيخ الإسلام .

وهو الشيخ كمال الدين الطويل الشافعي^(١) ، وقد تولى مشيخة الإسلام أيام السلطان الغوري وقرأت أنا عليه العلم ولما دنت وفاته رأيت سيدي إبراهيم في المنام وهو يقول لي : قل للشيخ كمال الدين تهباً للموت فقد دنا أجله فأرسلت له شخصاً أعلمه بذلك فقال ممماً وطاعة فعاش بعدها نحو شهر فتعجبت من اعتناء سيدي إبراهيم به في صغره وعنه وفاته حتى تهباً للقاء الله رضى الله عنه .

وأخبرني سيدي الخواص قال : كنا مع سيدي إبراهيم في وليمة على الخليفة الحاكم أيام النيل وهناك ولد لصاحب الولاية فالتهمي والده بالسماط فوق الولد في الماء في الليل وكان عمره نحو ثلاث سنين ، فلم يتذكروه إلا آخر الليل ، فأخبروا الشيخ بذلك فقال : اذهبوا إلى القنطرة تجاه جامع الظاهر تجدوه بجانب الجرف عائماً على الماء والروح

(١) هو شيخ الإسلام الشيخ كمال الدين الطويل : كانت الأنوار تنفق على وجهه ، وكه إماماً في العلوم والمعارف متواضعاً عفيفاً ظريفاً ، لا يسكاد جليسه يمل مجالسته ، انتهت إليه الرئاسة في العلم ، ووقفت الناس عند فتاويه ، وكانت كتب الإمام الشافعي نصب عينيه لأب كتب الأوزاعي والزرركشي .

توفي في أوائل حكم العثمانيين ودفن بترتبه خارج باب النصر .

فيه . فذهبوا فإذا هو حي ، كما قال الشيخ ، لم يصبه أذى من الماء ، ببركة سيدي
عزاهم .

وكان رضى الله عنه يلبس شملة الصوف الحمراء على عمامته ويقول : أتبرك بزي أخى
محمد البدوى فقد آخى رسول الله ﷺ بينى وبينه وأمرنى أن أصغر جرم خبزى كخبز
مبى أحمد .

وقال : وعزة ربى لو وجدت لك يا إبراهيم أحداً من الأولياء أكبر فتوة من أحد
فيموى لأخيت بينك وبينه ولكن ما ثم فى أولياء مصر بعد محمد بن إدريس ^(١) أكبر
حجة منه .

فقلت له : يا رسول الله فمن بعده في الفتوة من أولياء مصر ؟ فقال : السيدة نفيسة^(٢)
و... هذا الشيخ شرف الدين الكردي^(٣) بالحسينية وبعده الشيخ عبد الله المنوفي^(٤) انتهى .
وكان رضى الله عنه يعيب على من يشتغل بالأسماء الإلهية^(٥) لعله دنيوية ويقول : من

(۱) هو الإمام الشافعي .

(٢) هي السيدة نفيسة بنت سيدي حسن الأنور بن سيدي زيد الأبلج بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم : ولدت رضي الله عنها بمكة وكان سنة خمس وأربعين ومائة عاشت في العبادة وتزوجت بإسحاق المؤمن ورزقت منه بولدين القاسم وأم كاتوم ، وأقامت سبع سنوات وكان الإمام الشافعي يزورها ويصلي بها صلاة القيام في رمضان بمسجدها وميت سنة ثمان ومائتين .

(٣) هو الشيخ شرف الدين الكردي : المدفون بالحسنية وكان من أصحاب العارف
 رضي الله عنه السعود بن أبي العشائر وله مقام عظيم وكرامات مشهورة ، توفي سنة سبع
 وثمانين .

١ : هو الشيخ عبد الله المنوفي المالكي : يقول عنه الإمام الشعراني : أنه الصالح العابد
 ٢ : لا وحدثوا الكرامات الكثيرة ، مات سابع رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة .
 ٣ : نحو قبر السلطان قايتباي الآن بالصحراء .
 ٤ : يقصد بذلك علم الحرف وحساب الجمل .

فعل ذلك فهو كعبدة الأصنام بل عبدة الأصنام أكبر همه منهم لأنهم قالوا : ما نعبد
إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، وهؤلاء عبدوا الله تعالى بالأسماء طلباً للقرب من الدنيا .

وكان يقول لأصحابه : لا تكبروا تغطموا وانظروا أنفسكم بغير العنواية يدوم
رضاكم من الأمداد الإلهية بواسطة وبلا واسطة .

وكان يقول : لو احتجب عنى رسول الله ﷺ طرفه عين ما عدت نفسى من جهة
المسلمين^(١) يعنى الكاملين .

وكذلك بلغنا مثل هذا القول عن الشيخ أبى العباس المرسى^(٢) رضى الله عنه .
وكان سيدى إبراهيم إذا سأله : من شيخكم فى الطريق ؟ يقول : شيخى أمى لأنها
ربته فى الصغر .

وربما هنى بذلك رسول الله ﷺ .

وتارة يقول : شيخى أبونا إبراهيم الخليل^(٣) .

(١) بالنسبة لمقامه الصوفى .

(٢) هو الإمام العارف بالله سيدى أحمد أبى العباس المرسى ، يقول عنه سيدى أبوالحسن
الشاذلى أنه أعرف بطرق السماء منه بطرق الأرض . ولد بمرسية بأسبانيا والتقى بشيخه
أبى الحسن الشاذلى بالمغرب ، وهاجر معه إلى مصر ، وكان يقال إنه لم يرث علم الشيخ أبى
الحسن الشاذلى رضى الله عنه غيره .

ومن أقواله : « علوم هذه الطائفة علوم تحقيق ، وعلوم التحقيق لا تحتماها عقول
مهموم الخلق » .

وكان يقول فى معنى حديث : « من عرف نفسه عرف ربه » معناه : من عرف نفسه
بذاتها وعجزها عرف الله بعزه وقدرته .

وكان يقول : من أحب الظهور فهو عبد الظهور ، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء ،
ومن كان عبد الله فسواء عليه أظهره أو أخفاء . توفى عام ست وثمانين وستائة ، ودفن
بالإسكندرية .

(٣) يقصد أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام .

وأجاب سيدي علي الخواص عن ذلك فقال : ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ترجع إلى ملة محمد ﷺ لأنها فرع منها وإن كانت أمها لها من وجه آخر من حيث قوله تعالى : « أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً » ^(١) وسالت سيدي عليا الخواص : هل بلغكم أن أحداً من الأولياء السابقين أخذ من رسول الله ﷺ كما وقع لسيدي إبراهيم المتبولي ؟ فقال : نعم ما من ولي حق له قدم الولاية إلا وبصير يستمد من رسول الله ﷺ بلا واسطة ويستغنى عن جميع الوسائط فقلت له : حتى المجتهدين لأنه ما ثم أحد حق له قدم الولاية المحمدية إلا ويخرج عن التقليد لأن غايته الظن وعلوم الأولياء من علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ، وذلك فوق علوم الظن .

ومن اشتهر عنه من الأولياء أنه كان حنبلياً أو حنفياً كالشيخ عبد القادر الجيلاني وسيدي محمد الحنفي فذلك كان حاله قبل كماله وإلا فما ثم ولي كامل مقلد لغير رسول الله ﷺ أبداً .

قال : ومن باعنا من المتقدمين أنه لم يكن له شيخ غير رسول الله ﷺ أربعة لآخرين هم في الشهرة وهم الشيخ عبد الرحيم القناوي ^(٢) والشيخ أبي السعود بن أبي العشار ^(٣)

(١) أو ربما يقصد ما يسمى في الإصطلاح الصوفي أنه « على قدم سيدنا إبراهيم عليه السلام » فإن الأولياء يربون على خلق نبي معين والجميع مستمدون من خلق رسول الله ﷺ باعتبار أنه (كان خلقه القرآن) كما ورد في الحديث .

(٢) هو العارف بالله أبو محمد عبد الرحيم المغربي القناوي رضى الله عنه ، كان من أجلاء مشايخ مصر المشهورين وعظماء العارفين .

ومن أقواله : أدركت فهم جميع صفات الله تعالى إلا صفة السمع . وكان يقول : الرضا سكون القلب تحت مجاري الأقدار بنفى التفرقة حالاً وعلم التوحيد جمعاً فيشهد القدرة بالقادر .

(٣) هو العارف بالله أبو السعود بن أبي العشار بن شعبان بن الطيب البادين رضى الله عنه :

كان يزوره السلطان ، وتخرج بصحبته مشايخ لاحتصر لهم . وكان يسمع عند خلعه نعليه

والشيخ أبو مدين^(١) والشيخ إبراهيم المتبولي رضي الله عنهم .
وأما من لم يشتهر بذلك بين العلماء فكثير .

قلت : ومن أدركته أنا من الأسيان الذين اشتهر عنهم رؤية رسول الله ﷺ يقظة
وشافهة سيدي محمد المغربي^(٢) شيخ الجلال السيوطي ، ولكنه كان يقول : المراد
باليقظة انكشاف الحجاب عن القلب بطل المسافة بينه وبين رسول الله ﷺ حتى
يصير جليسه وهو في قبره الشريف ، لا أن رسول الله ﷺ كان يأتي إلى ذلك الولي
لأن ذاته الشريفة منزهة عن كثافة الجيء والرواح في البرزخ . قال : وهذا هو الحق
الصراح ، وإن كان الكامل يراه ﷺ على الوجوه بحسب عمره دعوته وسريانه نور
شريعته فلا يوجد نور شريعته في مكان إلا وهو ﷺ حاضر فيه ، هكذا يدركه
أهل الكشف .

وكذلك ممن أدركته أنا من أهل هذا المقام الشيخ محمد بن داود^(٣) ، والشيخ علي

كأنين المريض فسئل في ذلك ؟ فقال هي النفس تخلمها عند النعال ، إذا اجتمعنا بالناس
خشية التكبر ، وكان يقول : ينبغي للسالك الصادق في سلوكه أن يجعل كتابه قلبه .
توفي رضي الله عنه سنة أربع وأربعين وستمائة ، ودفن بسفح جبل المقطم .
(١) هو الشيخ أبو مدين المغربي السابق ذكره .

(٢) هو الشيخ محمد المغربي الشاذلي رضي الله عنه : كان من الراسخين في العلم ، أخذ
التصوف عن الشيخ أبي العباس السري تلميذ العارف بالله شمس الدين الحنفي .
وكان رضي الله عنه يقول : عندما سئل أن يصنف رسالة في الطريق ؟ أصنف الطريق
لمن هاتوا لي راجعاً صادقاً إذا قلت له أخرج عن مالك وعمالك خرج فسكنوا . وكان رضي
الله عنه يقول : الطريق كلها ترجع إلى لفظين سكتة ولفظة وقد وصلت (أي عدم الالتفات
لغير الله تعالى والإقبال على أوامر الله) .

(٣) هو الشيخ محمد بن داود المنزلاوي : كان يضرب به المثل في اتباع الكتاب والسنة
وخدمة الصوفية وطلب العلم ، مدفون بالسنية قرية بالمنزلة .

الخوَّاص ، والشيخ أفضل الدين ، والشيخ جلال الدين السيوطي ^(١) ، والشيخ علي النبتيني
نخريز ^(٢) ، والشيخ محمد العدل ، والشيخ أحمد الزواوي ^(٣) ، والشيخ نور الدين

(١) هو الإمام جلال الدين السيوطي ، صاحب التأليف الكثيرة المشهورة ، منها
خامع الصغير في الحديث وجمع الجوامع في الحديث وتفسيره للجلالين مشهور وله آراء
مشهورة في جميع فنون العلم ومصنفاته قد تزيد على الخمسمائة مصنف .

يقول عنه الشيخ عبد القادر الشاذلي في مناقبه : كان الشيخ جلال الدين رحمه الله محبوباً
على الخصال الحميدة في العلم والعمل ، لا يتردد على الأمراء والملوك ولا إلى غيرهم مدة
حينه رضي الله عنه ، وكان يظهر كل ما أنعم الله عليه [به] من العلوم والأخلاق ، ولا
يسكن منها إلا ما أمر بكتمه ، عملاً بقوله تعالى : « وأما بنعمة ربك فحدث » .

وكان الأمراء والأغنياء يأتون إلى زيارته ، ويعرضون عليه الأموال النفسية فيردها
، يرسل له السلطان الغوري خصياً وألف دينار ، فرد الألف ، وأعتق الخصى ، وقال
بهدية : لا تعد تأتينا قط بهدية فإن الله تعالى أغنانا عن مثل ذلك . وقال له مرة : إن بعض
نبياء كان يتردد على الملوك والأمراء في حوائج الناس فقال : اتباع السلف الصالح في
ما تردد هم ، أسلم لدين المسلم ، وكذلك في رد أموالهم عليهم . توفي سنة إحدى
خمسة وتسعمائة .

(٢) هو الشيخ علي النبتيني النخريز ، كان من أكابر العلماء العاملين . وكانت مشكلات
— ومعضلاتها ترسل إليه من الشام والحجاز واليمن وغيرها فيحلها بعبارة سهلة .

ومن قوله ، لا يجتمع الخضر عليه السلام بشخص إلا إن جمعت فيه ثلاث خصال ،
— يجتمع فيه فلا يجتمع به قط ولو كان على عبادة الملائكة . الخصلة الأولى ، أن
يكون قلبه على سننه في سائر أحواله ، والثانية أن لا يكون له حرص على الدنيا ،
الثالثة أن يكون سليم الصدر لأهل الإسلام لا غل ولا غش ولا حسد ، توفي سنة سبع
خمسة وتسعمائة .

(٣) هو العارف بالله أحمد الزواوي ، كان على درجة كبيرة في الولاية . ورده
— النبوة والولاية عشرين ألف تسبيحة ، وأربعين ألف صلاة على الرسول ﷺ .
توفي سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة .

الشونى^(١) والشيخ محمد الصوفى^(٢) بنواحي الفيوم ، والشيخ عمر الشونى المغربى ،
وورده فى الصلاة على رسول الله ﷺ فى كل يوم وليلة مائة ألف صلاة ، هكذا أخبرنى
من انظره رضى الله عنه .

وأخبرنى الشيخ أمين الدين الإمام بجامع الغمري^(٣) : إن سيدى محمد الغمري لما
أراد أن يعمر جامع برأس سوق أمير الجيوش بمصر أرسل خادمه يستأذن رسول الله
ﷺ على لسان شخص كان يبيع لبن المعز فقال له : تعال غداً خذ الجواب عند عتبة
باب النصر بعد الفجر فجاءه فى الموعد فقال له : قل للشيخ : قال لك رسول الله ﷺ :
عمر الجامع وتوكل على الله .

(١) هو العارف بالله الشيخ نور الدين الشونى ، شيخ الإمام الشعراى فقد لازمه
حوالى خمسا وثلاثين عاماً .
وهو أول من أنشأ مجالس الصلاة على الرسول ﷺ .

يقول عنه الامام الشعراى ، وكان رضى الله عنه حسن العشرة جميل الخلق كريم النفس
حسن السمعت كثير التبسم صافى القلب مموحاً كباطن الطفل سواء ، وهذه صفة من صفات
الخلقة . وكان إذا نزل بالمسلمين هم أو غم لا يقر له قرار حتى يرتفع وكان لا يتفوه قط
برؤية الرسول ﷺ وإنما يقول (رأى بعض الفقراء رسول الله ﷺ) .
توفى سنة أربع وأربعين وتسعمائة .

(٢) هو العارف بالله تعالى الشيخ محمد الصوفى ، وكان مقبلاً بالفيوم ، وكان يأكل من
عمل يده ، ولا يقبل من أحد شيئاً .

وكان يحل مشكلات الشيخ محيى الدين بن عربى .

(٣) كان رضى الله عنه من العلماء العاملين فقد كان يقرأ السبع القراءات ، وكان له
صوت فى القراءة له تأثير كبير فى نفوس السامعين فى عصره ، ولما دخل مصر العثمانيون
طلبوا إماماً للسلطان فأجمع المصريون على الشيخ أمين الدين .

وكان زاهداً كريماً ورعاً يقضى حوائج الناس ومصالح الأراذل والمساكين ووقته كله
كان فى عبادة الله سبحانه وتعالى على أى وجه كان .
توفى رضى الله عنه سنة تسع وعشرين وتسعمائة .

فإنه : فلا أدري أكان سيدي محمد الغمري ^(١) إذ ذاك لم يبلغ مقام السكال أو أنه يشاور بذل واسطة حياء من رسول الله ﷺ .

وإل الثاني هو الواقع ، فإن سيدي محمد هذا كان من المشهورين بالسكال ، حتى كانوا يسمونه فقيه الصوفية من كثرة متابعتهم السنة .

وتد قلت مرة لسيدي علي الخواص رحمه الله : ما شروط الاجتماع برسول الله ﷺ بقظة على الوجه الذي قررناه بحيث يصير يراجه ويسأله عن أحواله وعن الأحاديث التي قيل بضمها هل قالها أم لا ونحو ذلك ؟ فقال : بين العبد وبين هذا المقام مائتا ألف مقام وتسعة وتسعون مقاماً ألف إلا واحداً ، فلا بد لمن حق له مقام الأخذ عن رسول الله ﷺ أن يجاوز المقامات كلها ، فهو أمر عزيز وجوده ، في هذا الزمان انتهى .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : كان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله عنه يقول : لا يكمل الرجل عندنا في الطريق حتى يصير يستخرج جميع مذاهب المجتهدين من القرآن العظيم ، ثم يستخرج جميع أحكام القرآن من سورة الفاتحة ، ثم يستخرج جميع علوم الفاتحة من أي حرف شاء من حروف الهجاء ، وهناك يصح له مقام السكال والأخذ عن رسول الله ﷺ ^(٢) . قال : وقد من الله تعالى على بذلك ، فاستخرجت من سورة فاتحة مائتي ألف علم .

(١) هو الشيخ محمد الغمري رضي الله عنه : كان من أصحاب سيدي أحمد الزاهد تقيين ، وكان من العلماء العاملين ، وكان مريديه يضرب بهم المثل في الأدب والعلم ، وكان قد قسمهم إلى ثلاثة أقسام كهول وشباب وأطفال وجعل لكل قسم مكاناً يخصه ولا يختلط بآخر وكانوا لا يجتمعون إلا يوماً واحداً في الجمعة . فيتناقشون فيما وقع بينهم في بقية الأسبوع .

توفي رضي الله عنه في نيف وخمسين وثمانمائة .

(٢) يقصد بذلك ألا يصل أحد إلى الدرجات الكبرى في الولاية إلا بعد مروره على هذه العلوم .

وعلمت من كان في ظم آدم من السعراء حال كونهم ذرات فلا يزدون علي ما علمت ولا شخصاً واحداً ، وكذلك أطاعني الله تعالى علي جميع ما يفعله كل عبد حين أرى أنفه فأعرف ما وقع فيه في الماضي ، وما يقع فيه في المستقبل ، من خير وشر .

قلت : وينبغي التسليم لكل من ادعى أن الله أعلمه علي ذلك لأنه ادعى ممكناً^(١) والله أعلم .

وقد ادعى شخص مرة بأنه يجتمع برسول الله ﷺ يقطعة .

فقال له سيدي أفضل الدين : إن بينك وبين مقام الأخذ كذا كذا ألف مقام ، ومقصودي تخبرنا بعشر مقامات منها ، فتلجلج الشخص وما درى ما يقول .

فقال له : تب إلى الله يا أخي فإن هذا مقام الأكابر سيدي إبراهيم المنبولى وأضرابه ، انتهى .

وكان سيدي علي الخراس رحمة الله يقول :

سمعت سيدي إبراهيم المنبولى رضي الله عنه يقول : وعزة ربي معي سبعون وظيفة وستفرك بعدى علي سبعين رجلاً ويعجزوا عن القيام بها . منها تحمل البلاء عن جميع أهل مصر وقراها ودوام السباط في زاويتي ببركة الحاج ، والبلاء الذي يأتي من بلاد المشرق مدفوع عن أهل مصر فيا ويلهم إذا انقطع السباط من زاويتي وخربت .

قال سيدي علي : فقلت له : فمن يأخذ بعدكم خدامة الحجرة النبوية^(٢) ؟ فقال : هي لمحمد بن عنان فقلت له : وما محمد بن عنان هذا ؟ فقال : شاب يظهر من بلاد الشرقية لا يكون في عصره أحد علي قدمه في العبادة وقيام الليل وحفظ الأنفاس مع الله تعالى إلا

(١) لأن الذي يعرف تلك المقامات والعلوم كلها فقد وصل إلى قمة العلوم والتصوف قالوا لاية فالقطبانية فرؤية الرسول ﷺ .
(٢) الخدمة الروحية .

القليل ، فلا يدخل أحد من الأولياء حجرة رسول الله ﷺ بالروح ، أو بالجسم ، حتى يستأذنه انتهى .

ولا يلزم من ذلك أنه أفضل ممن يساويه من جميع الأولياء كما هو مشاهد في نواب الملك إذا دخل عليه أمير كبير فافهم .

وقد كان سيدي محمد بن عنان من أصحاب الخطوة^(١) والتطوير^(٢) ، فأخبرني سيدي علي الموصفي : أن سيدي محمد هذا كان لم يزل واقفاً بين يدي رسول الله ﷺ وهو معتمد على قضيب أخضر مع كونه في عدة أمكنة أخرى ، ومن حين كان صغيراً وهو يغزو بلاد الفرنج كل ليلة ، ويرجع إلى بلاده قبل الفجر ، وسمعته يقول : لا يكون الفقير كلاً حتى يطوف الشرق والمغرب ، وهو مضطجع على جنبه ، انتهى .

وسمعت سيدي محمد بن عنان رضي الله عنه يقول : كان سيدي إبراهيم المتبولي يحث صحابه على عمل الحرفة ، ويقول من لا كسب له فهو كالمرأة لا حظ له في الرجولية^(٣) . وترك شخص مرة الحرفة وجلس عنده في الزاوية ، فقال له الشيخ : لم تركت حرفتك ؟ ضل : رأيت مرة بومي^(٤) عمياء في طاقة في سفن الزاوية ورأيت صقراً يأتها كل يوم بحم فيدها ، فقلت في نفسي أتوكل على الله فإنه لا يضيعني .

فقل له : ولأي شيء تجعل نفسك كالبرمة العمياء ؟ لم لا جعلت نفسك صقراً تأكل من كسبك وتطعم غيرك^(٥) ؟ انتهى .

(١) أي طوى له المسافات .

(٢) أي من الأبدال .

(٣) وسادتنا الصوفية جميعاً يحضون على العمل والتكسب وإقتداءاً بسنة رسول الله ﷺ . وفي الحديث : أنه ذكر لرسول الله ﷺ رجلاً زاهداً يستغرق الوقت كله في العبادة . وأن أخوه هو الذي ينفق عليه فقال : (أخوه أعبد منه) .

(٤) بومة .

(٥) وما أروع هذا التشبيه .

فإن قيل : فهل للعلوم والآداب التي يأخذها الولي عن رسول الله ﷺ على ما قرره من مرتبة الأحاديث الواصلة إلينا على يد الرواة من الحديث (١) ؟

فالجواب : ليس لها مرتبة الشريعة الظاهرة لعدم عصمة الولي في كشفه ، لكن الولي العمل بها في نفسه بعد عرضها على قواعد الشريعة وليس له أن يأمر الناس بالعمل بها .

فإن قيل فإذا المدار على الشريعة الثابتة عندنا من طريق النقل ، فأى خصوصية لما أخذها الولي عن رسول الله ﷺ بلا واسطة ؟

فالجواب : وجه الخصوصية فيه زيادة اليقين بصحة ما قال بعض العلماء إنه ضعيف من الأحاديث مثلاً أو النقول إذ لا يأتينا علم قط من طريق الكشف الصحيح إلا وهو مؤيد بالشريعة لأن مائر دوائر علوم الأولياء من باطن دائرة علم رسول الله ﷺ .

ومن المحال أن يوحى الحق تعالى إلى رسول الله ﷺ بأمرهم بسائر أحوالهم من طريق الإلهام بخلافه . فافهم .

فهو فوق ما يراه النائم ودين شريعته الظاهرة .

وقد أجمع النجوم كلهم على أن الشريعة التي بين أظهرنا أصح مما يأخذها الولي من طريق الإلهام عن الله تعالى بلا واسطة ، فإن إبليس قد يلبس على الولي ويقيم له سماء أو كرسي أو عرشاً أو غمام مثلاً بحسب ما يعرف أن مقام ذلك الولي يصل إليه في مقام الأخذ ، وما كل ولي يعرف الفرق بين السماء المنحيلة مثلاً وبين الحقيقة .

وقد أقام إبليس مرة لسيدى الشيخ عبد القادر الجيلاني (٢) عرشاً حين كان قلب الشيخ عرشياً وناداه منه : يا عبدي قد أمسقت عنك التكليف .

(١) يشرح هنا الإمام الشعراني ما فهمه بعض الناس خطأ من أن السادة الصوفية إذا تعارضت عندهم الشريعة والحقيقة فضلوا الحقيقة بما يبين هنا خطأ هذا المفهوم .

(٢) هو عبد القادر بن موسى بن يحيى الجيلاني الحنبلي : يقول عنه صاحب الكواكب

فناداه سيدي عبد القادر : اخساً يا لعين فاضمحل ذلك العرش^(١) ، فلولا أن العناية
حلت السيد عبد القادر لحصل له فتنة في دينه .

وفي هذا القدر كفاية من التلويح بمقام سيدي إبراهيم وأصحابه فأقبل يا أخى على
عيب التخلق بأخلاقه من غير توقف فإنها أخلاق رسول الله ﷺ بالأصالة والله أعلم .
وأما بيان الدهليز الذى يدخل العبد منه إلى مقام التخلق بأخلاق هذا الكتاب ،
عبر السلوك على يد الشيخ كامل في علم الشريعة والحقيقة .

ومحال أن يقدر الإنسان على صعود السطح العالى بلا سلم إلا أن تحصل له جذبة إلهية
دأعت ذلك فاعلم يا أخى أن المريد لا يؤمر بالتخلق بأخلاق الكمال ، لا بعد
نجاه ملوكه .

ومن هنا وحده الأشياء وجرباً قصد المريد ونهوه عن الشركة في القصد من حيث أن
ذلك يقنطه ويبطئ سيره إلى المقصود الأعظم الذى هو معرفة الله عز وجل .

وتأمل في قول العلماء بحرمة عقوق الوالدين يعنى مخالفتهم فيما يطلبانه من الولد من

سيرة : من ذرية الحسن رضى الله عنه ، الذى طار ذكره في الآفاق وأجمع على إمامته
عبر خلاق والوفاق .

كان جرى اللسان ثابت الجأش والجنان ، وله إقدام وتمكن أقدام . وكان في الفقه إماما
يقتصوف لا يسام رفقته ولا يساماً ، قد تضلع من الأصول والفروع ، وتقدم على غيره
في مشروع .

عُرف له الفقهاء في عصره بذلك وكذلك الصوفية وحسبك قول العز بن عبد السلام
: هذا أبلغت الإمامة مبلغ القطب) ولد ببغداد سنة سبعين وأربعمائة ، وأنشأ بها حتى شب
في طريق القوم وجدوا اجتهد . ولم يزل على ذلك الحال حتى طرقه الحال فنام في البراري
حتى أن اتصف بالكل ورزق القبول للثام عند الخاص والعام ، فكان يأتيه الخليفة
بكره ، وعلى عدم زيارته إياهم يعاقبونه فيأبى ولا يجيب .

رضى الله عنه سنة نيف وستين وخمسمائة ببغداد .

وهذا دلالة على عدم جواز التحلل من الشريعة عند الصوفية .

المباحات . ثم لما أوجبوا عليه تعلم العلم الشرعى لم يلتفتوا إلى قولهم ما لو منعاه من ذلك لكون معرفة العبد مما يصحح عباداته و يقيم به شعار شريعة نبيه ، مقدما على غرض الوالدين ، فما حرم على الولد العتوق إلا إذا كان مشتغلا بأمر مباح أو مستحب أو مفضولا بالنسبة إلى حق الوالدين .

وقد أجمع علماء الشريعة والحقيقة على وجوب مجاهدة النفس الأبية على يد شيخ حتى تخرج عن الرعونات النفسية وتنقاد إلى فعل الأوامر الشرعية على الوجه المأمور به شرعاً وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب اللهم إلا أن يحصل للعبد جذبة من جذبات الحق تعالى فإن مثل هذا قد لا يحتاج إلى شيخ . وكذلك أجمعوا على أن علاج الأمراض الباطنة^(١) واجب بدليل ما ورد في الآيات والأخبار عن عقوبة من كان قلبه شياً من أمراض الباطن من حسد ، ومكر ، وكبر ، ونفاق ، وخداع ، وعجب ، ورياء ، وغل . ونحو ذلك في الدار الآخرة ، مع ما في ذلك من منعه من دخول حضرة الله تعالى في دار الدنيا ، ولو في صلاته .

فيجب جزماً على كل مكلف أن ينظف باطنه من صفات الشياطين ، ويحليها بصفات الأنبياء ، والعلماء ، والصالحين .

وسمعت سيدي على المرصفي رحمه الله يقول :

مقصود جميع الداعين إلى الله عز وجل من المريدين أن يطابقوا في جميع عباداتهم بين ظاهريهم وباطنهم ليخرجوا عن صفات المنافقين ويتخلقوا بصفات المخلصين . فهذا بعض قصدهم . فطلبوا بتسليطهم أن يلحقوهم برائحة ما كان عليه الساف الصالح من الصدق والإخلاص في جميع أعمالهم الظاهرة والباطنة مع رؤية التقصير واتهام نفوسهم في دعوى الإخلاص بعد ذلك . وهذا الذي ذكرناه من التخلص من صفات النفاق أمر لا يهتدى

(١) يقصد بالأمراض الباطنة وجود أهواء النفس فإنها تمنع المريد من الوصول إلى الله تعالى .

الإلسان بغير شيخ إلى الخروج منه . كما أنه لا يهتدى إلى الترقى إلى مقامات العارفين
ونو كان على عبادة الثقلين .

وسمعت سيدي عليا المرصفي رحمه الله يقول : لو أن مريدا عبداً لله تعالى كما بين السماء
والأرض بغير شيخ فعبادته كالمهباء المنشور ، لأنه لا يهتدى لمعرفة تطهيره من دسائس
الأعمال الظاهرة ، فضلاً عن الباطنة . بل ولا يعرف الطريق الموصلة إلى ذلك ، حتى يطلب
معرفة كيفية التطهير لأن طريق القوم غالبها غيب غير محسوس . ولا يكاد يدركها إلا من
كشف الله تعالى حجابها .

وسمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله يقول :

لو أن العبد قرأ ألف كتاب في العلم ، ولا شيخ له فهو كن حفظ كتب الطب مع جهله
بماء ، والدواء . فكل من سمعه ، وهو يدرس كلام الحكماء يقول : إنه لطبيب عظيم ،
ثم إذا سأله عن اسم الدواء وتنزيل الدواء عليه ، ولم يجد عنده معرفة بذلك يقول :
به جاهل .

وكذلك حكم من يحفظ مثل كتاب الإحياء للغزالي بغير فهم ولا شيخ لا يعرف
بداوى من مرضه ولا بداوى غيره ، فعلم : أن كل من لم يكن له شيخ في هذا الزمان
يخرجه من ظلمات الشكوك والأوهام ويبغضه في شهوات الدنيا التي تحجبه عن الله
تعالى ، فيبدو عليه الإخلاص في شيء من أعماله بل يرى الأعمال الخالصة وهي تقع على
يحيى الصالحين فلا يقدر على الوصول إلى العمل بمثلها . ولذلك جعلت لكل عهد من
عهد كتابي المسعى بمشارق الأنوار الفرعية في بيان الأخلاق المحمدية دهبزاً يدخل منه
من يريد التخلق بذلك العهد وكثيراً ما أقول فيه : وهذا العهد لا يصح لأحد التخلق
شيء من أخلاقه إلا بعد السلوك على يد شيخ صادق .

فإن غاية أمر من لا شيخ له في الإخلاص مثلاً أن يرى نفسه قد خلصت من الشوائب

الفادحة في مقام الإخلاص من الرياء والمعجب وحب الشهرة بالصالح وغير ذلك ، لكنه يطلب من الله الثواب على عمله .

ولو أنه تعالى أحبط عمله ولم يعطه ثواباً لتكدر في نفسه . وإيضاح ذلك أن كل من لم يسلك الطريق على يد شيخ حكمه حكم من يعبد الله على حرف^(١) ، كما ورد في حديث العابد^(٢) الذي عبد الله تعالى في جزيرة خمسمائة عام وقال له الحق تعالى : أدخل الجنة برحمتي فقال : بل بعملى .

(١) لأن هناك كثير من الأمور التي لا يفهمها المرید ولا يستطيع إيجاد تعليل لها مثل أمور الكشف للفاحي أو الكرامات غير المنتظرة ، كل هذه الأمور لا بد لها من مرشد أو خبير يوضحها لمريده ويأخذ بيده في طريقه للوصول إلى الولاية ، وأغلب الأخطاء التي تقع لبعض الصوفية إنما تقع بسبب عدم وجود شيخ مرشد .

وتوجد عند الصوفية شروط كثيرة لهذا الشيخ لعل أهمها أن يكون عاظاً بأمور الدين تفسيراً وحديثاً وفقهاً ، وأيضاً ملتزماً لها ومتبعاً سنة رسول الله ﷺ في جميع أموره ، ثم بعد ذلك أن يكون متمسكناً في طريق القوم بما لا يناقض أحكام الشريعة الإسلامية .

(٢) حديث العابد الذي عبد الله خمسمائة سنة أخرجه الحاكم عن سليمان بن هرم عن محمد بن المنكدر عن جابر وقال : صحيح الإسناد . ونص الحديث :

عن جابر رضى الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : خرج من عندي خليلي جبريل آتفاً . فقال : يا محمد والذي بعثك بالحق ، إن لله عبداً من عباده عبد الله خمسمائة سنة على رأس جبل في البحر عرضه وطوله ثلاثون ذراعاً في ثلاثين ذراعاً ، والبحر محيط به أربعة آلاف فرسخ من كل ناحية ، وأخرج له عينا عذبة بعرض الأصبع تفيض بماء عذب فيستمتع في أسفل الجبل وشجرة رمان تخرج له في كل ليلة رمانة ، يتعبد يومه فإذا أمسى نزل فأصاب من الوضوء وأخذ تلك الرمانة فأكلها ثم قام للصلاة فسأل ربه عند وقت الأجل أن يقبضه ساجداً وأن لا يجعل الأرض ولا شيء يفسده عليه . يبلى حتى يبعثه الله وهو ساجد قال : فقل فتحن نمر عليه إذا هبطنا وإذا عرجنا فتجد له في العلم أنه يبعث يوم القيامة فيوقف بين يدي الله تعالى فيقول له الرب : أدخلوا عبادي الجنة برحمتي ، فيقول : رب بل بعملى . فيقول : أدخلوا عبادي الجنة برحمتي . فيقول : رب بل بعملى .

هو أن هذا العابد كان سلك الطريق على يد عارف اعرف من أول ما دخل في الطريق .
عبد لا يدخل الجنة إلا برحمة الله دون عمله^(١) ، وكان لزم الأدب مع الله تعالى فإن
ما يتجلى العبد إذا اشتغل بالذكر ، توحيد الفعل لله ، ثم توحيد الملك لله ، ثم توحيد
نور الله ، فإذا تجلى له توحيد الفعل لله تعالى ، وخرج كشفاً و يقيناً عن شهود كون
نعمته ، وخرج به أيضاً عن طلب الثواب عليه ، وعن الكبر ، والعجب ، والرياء ،
بحسب في قضاء الإخلاص لله ، وما بقي له عمل يعتمد عليه .

وما من يشهد الفعل لنفسه فمن لازمه غالباً الوقوع في سائر الآفات المحيطة له ،
ولا يصدر عن الناقص إلا ناقص^(٢) .

وسأني في مواضع من هذا الكتاب أن من شرط الكمال أن يشهد أعماله كلها
حده تعالى وحده لا مدخل للعبد فيها سوى نسبة التكليف إليه لا غير .

جاء : قايصوا عبادي ينعمني عليه وبعمله . فتوجد نعمة البصر قد أحاطت بعبادة
خمسة سنة ، وبقيت نعمة الجسد فضلاً عليه . فيقول : أدخلوا عبادي النار فيجر إلى
نار مبدى : رب برحمتك أدخلني الجنة فيقول ردوه ، فيوقف بين يديه فيقول : يا عبادي
من حقت ولم تك شيئاً ؟ فيقول : أنت يارب . فيقول : من قواك لعبادة خمسمائة سنة ؟
جاء : أنت يارب . فيقول : من أنزلك في جبل وسط اللجة وأخرج لك الماء العذب من
جـ . وأخرج لك كل يوم رمانة وإنما تخرج مرة في السنة ، وسألتك أن يقبضك ساجداً
فيقول : أنت يارب ، قال : فذلك برحمتي وبرحمتي أدخلك الجنة . أدخلوا عبادي
جاء : العبد كنت يا عبادي فأدخله الله الجنة . قال جبريل : إنما الأشياء برحمة
الله .

فإن دخول الجنة يكون بالفضل ، وقول سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه :

« مكر الله ولو كانت إحدى قدمي في الجنة » لأبرز دليل على هذا .

• نحن بالمقدمة التي وضعناها للكتاب قد شرحنا هذا القول في مقام الإخلاص .

وتأمل يا أخى لو أن جارك قام الليل ، أو صام النهار وأنت نائم ، فمطر لا تراه ، ففعله ، ولا تعجب ، ولا ترى ، نفسك على الناس به لشهودك إن ذاك الفعل لغمر لا لك . فكذلك من يوحد الفعل لله كشفاً لا يصح له دهواه لنفسه أبداً . فلا بد لك من عينين : عين ينظر بها كون الفعل لله ، وعين ينظر بها نسبة الفعل لنفسه ، فبشك من جهة تلك النسبة ، ويستغفر الله من حيث كسبه لما فيه من النقص .

ولذلك قالوا : من نظر بعين البصيرة وجد أعماله كلها رياء ونفاقاً وأحواله كلها دعاوى

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول : لا يصح لعبد ذوق شئ من أحوال القوم إلا بعد أن يتجلى له التوحيد السكشفي^(١) .

وهناك يطلب الشيخ ضرورة إيرقيه إلى المقامات التي شتم روايتها بالتوحيد . وماد لم يتجلى له التوحيد فهو واقف مع نفسه لا يرى فوقه مقاماً لعدم شمه وزكاه . ولو أن أحد دعاه إلى الرقي لا يجيب لاستحسانه حاله فهو كمن كان سائراً في برية ومع جراب من الفلوس الجدد ثم سار فإذا هو بكوم من فضة ، فأفرغ الجدد وملاء من الفضة . ثم لما سار وج كوما من ذهب ، فأفرغ الفضة ، وملاء من الذهب ، ثم لما سار وجد كوما من جواهر ومعادن ، كل فص يساوي مائة ألف دينار مثلاً ، فإنه يفرغ جرابه من الذهب ويملاء جواهر وفصوصاً ومعادن ضرورة .

ولو أنك قلت له : لا تفرغ أبداً جرابك من الفلوس الجدد ودُم على حملة ولا تملأ فضة مثلاً لا يجيبك ، وربما سغه عقلك . كما أنه يسفه عقلك لو قلت له قبل رؤيته كومة الفضة مثلاً : أفرغ جرابك من هذه الفلوس رجاء أنك تعثر على كوم فضة .

وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه يقول : لا ينبغي لشيخ أن يأمر

(١) أى لا يرى نفسه فى أى شئ فلا فاعل إلا الله .

— ربحي الدنيا حتى يهد له بساطاً^(١) قبل ذلك ويعصف عليه ريح الترفيق ، فإن مثال
 — لا يرى ما يدعوهُ الشيخ إليه من الخير مثال قوم ركبوا سفينة ومعهم أهوالهم وأمتعتهم
 — رئيس المركب : إن في غد يهيج ريح شديدة كل من لم يرم متاعه غرق قارموا
 — في البحر في هذا الوقت فلا يجيبه أحد . ثم إذا جاء الغد وهاجت الريح بصير كل
 — يرم متاع نفسه طلباً لسلامته من الفرق . ولو أنك قلت له : لا ترم متاعك
 — أنت فلا يجيبك .

مكننا مثال من وقف على قدم الحجاب من الفقهاء وغيرهم انتهى .

سمعت سيدي علياً الموصفي رحمه الله يقول : لو لم يكن من شرف الطريق إلا أن
 — يعرفها بغير شيخ ولو صار شيخ الإسلام لكان فيه كفاية في علو مقدارها^(٢) .
 — حبيب في شرفها قول موسى للخضر عليهما الصلاة والسلام :
 — « تبتك على أن تعلمني مما علمت رشداً » .

— سيدي عليه الصلاة والسلام مع سعة علمه وكونه نبياً ومرسلًا طلب الإرشاد
 — بحقيقة من الخضر^(٣) . وكذلك بما يدل على شرفها أن الإمام أحمد بن حنبل^(٤)

— أي يمكنه في طريق التصوف أولاً فلا معنى لأمره بترك الدنيا وهو ممكن
 — أن يصل في التصوف إلى مقام يمكنه من تركها .
 — وكان الإمام الشعراني رغم علمه وفضله يتخذ سيدي علياً الخواص شيخاً له
 — عنه معرفته بالقراءة والكتابة .

— سيدي للعز بن عبد السلام رغم شهرته الكبيرة في الفقه كان يتخذ سيدي أبي الحسن
 — شيخاً له .

— شيخ الإسلام الشيخ زكريا الأنصاري يتخذ سيدي إبراهيم المتبولي شيخاً له .
 — وكلا العلمين آت من عند الله سواء الشريعة أو الحقيقة .

— إمام أحمد بن حنبل : صاحب المذهب المشهور في الفقه وصاحب المسند في

كان إذا توقف في مسألة سأل عنها الشيخ أبو حمزة البغدادي^(١) ، وقال له : ما تقول في هذه المسئلة يا صوفي ؟ فيحل أبو حمزة إشكالها فيتعجب الإمام أحمد من ذلك .

وكان يقول كثيرا : إن القوم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة وعلوا الهمة ، مع أن كان يقول لولده قبل اجتماعه بأبي حمزة : يا ولدي عليك بالحديث وإيك ومجالسة هؤلاء الذين يقولون إنهم صوفية فإنهم جهلة^(٢) . ذكره ابن أيمن في رسالته قال : ولما صح الإمام أحمد أبو حمزة أرسل له أبو حمزة في الليل ، جماعة من الفقراء الطيارة^(٣) ، فنزوا له من دور القاعة ، فتحادث معهم طويلا ، وأظهروا له علوما ومعارف لم يسمع بها قط . فاعترف بفضل أهل الطريق ، فلما أرادوا الانصراف قالوا له : يا أحمد اصعد معنا في الدار . فقال : لا أطيق ، فقالوا له : قد أثقلك أكل الشهوات ، ثم صعدوا وهو ينظر فصر

الحديث . رأى الله سبحانه وتعالى في المنام ٩٩ مرة فلما كان في المرة المائة قال : يارب ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك فقال : بكلامي يا أحمد . فقال الإمام أحمد بفهمهم : بغير فهم . قال الله سبحانه وتعالى : بفهم وبغير فهم .

وكان رضى الله عنه إذا جاءه حديث وحده لم يحدثه حتى يكون معه غيره .

وكان رضى الله عنه يضرب به المثل في اتباع السنة واجتناب البدعة .

وكان لا يدع قيام الليل قط .

(١) هو أبو حمزة محمد بن إبراهيم البغدادي البزار : صاحب السرى السقطى وح

المسوحى . وكان فقيها عالما بالقرآن . وكان الإمام أحمد إذا جرى في مجلسه شيء من كلام القوم يقول لأبي حمزة : ما تقول في هذا يا صوفي ؟

ومن أقواله : من المحال أن تحبه ثم لا تذكره ، ومن المحال أن تذكره ثم لا يوجدك طعام ذكره ، ومن المحال أن يوجدك طعام ذكره ثم يشغلك بغيره .

أوفى رضى الله عنه سنة تسع وثمانين ومائتين .

(٢) خوفا عليه أن يشغل بطريق القوم ويترك الحديث وهو لا زال في مستقبل عمره

فإن علوم الحديث في نظر الإمام أحمد أولى أن تتعلم ثم بعد ذلك له أن يدخل طريق الصوفية وهذا هو رأى الصوفية أيضا .

(٣) من الذين تطوى لهم الأرض .

يتأسف ظالوا : ولم يأكل أحد بعد ذلك شهوة إلى أن مات . وكان إذا ضعف من الجوع يأثم بالشحم والعدس ، يجعله في جرة ويضعه في النار ، حتى يستوى ، ثم يأكله .

وكان الإمام الشافعي : يجالس الصوفية كثيرا ، حتى صار يعرف اصطلاحهم ، ف قيل له مرة : لم تجالس هؤلاء مع غنائك في تعلم عنهم ؟ فقال : إني أسمع منهم فوائد لم أكن أعرفها . وقيل له مرة : ماذا استفدت من مجالسة الصوفية ؟ فقال : استفدت منهم شيئين : قولهم : الوقت سيف إن لم تقطعه قطعتك . وقولهم : إن لم تشغل نفسك بالخير شغلك غيره من الشر . انتهى .

وكان شيخنا شيخ الإسلام زكريا^(١) رضي الله عنه يقول : كل فقيه لا يعرف مصطلح القوم فهو كاتخبز الخاف من غير إدام^(٢) . وكذلك يكفيننا من شرف طريق القوم إذهاب الإمام أحمد بن شريح للجنيد واعترافه بفضله . وذلك أن جماعة من طلبته تركوا حلقة وصاروا يحضرون حلقة الجنيد فتسكدر من ذلك ، ثم إنه تنسكرو يوما وحضر الجنيد بين المغرب والعشاء فقالوا له : ماذا وجدت حال هذا الرجل ؟ فقال : لم أفهم من كلامه شيئا إلا أن صولة كلامه ليست بصولة مبطل . ثم إنه أتى إليه بكرة النهار بقصد مناظرته ، فكان من جملة ما قال للجنيد : طريقنا أقرب إلى الله تعالى من طريقكم ، فقال له الجنيد : على طريق أصحابنا أقرب . فقال له ابن شريح : ما الدليل على ذلك ؟ فقال : إن كل إنسان لا ينطق إلا بما هو الغالب على قلبه فخذ هذا الحجر والقه في حلقة هؤلاء الفقهاء فذهب بالحجر وألقاه في حلقتهم على خفلة ، فصاحوا كلهم : هذا حرام عليك .

فلما أخبر بذلك الجنيد فقال له : ألقه في حلقة هؤلاء الفقهاء ففعل فصاحوا بأعلى صوتهم : الله الله الله .

فرجع ابن شريح إلى قول الجنيد واعترف بفضله وتلمذ له فقال له الجنيد : طريقكم

(١) يقصد الشيخ زكريا الأنصاري .

(٢) ومصطلحات القوم جمعها الإمام القشيري في رسالته : الرسالة القشيرية .

هي أساس الصوفية التي بنوا طريقهم عليه ، واسكنهم زادوا هليكم بكثرة الزهد والورع ومراعات أنفاسهم مع الله تعالى ، فلو راعيتهم قلوبكم كما راعوا كنتم أنتم الصوفية وفهمتم اصطلاحهم من غير توقيف . انتهى .

وقد قالوا مرة لسيدى على بن وفا^(١) رحمه الله : لم ساد الصوفية ؟ فقال لكونهم عملوا بما علموا ، فإن حقيقة الصوفي عالم عمل بعلمه على وجه الإخلاص لا غيره ، وكذلك يكفيننا في شرف الطريق طلب الإمام الغزالي له شيخا يدلّه على الطريق ، مع كونه كان قد لقب بحجة الإسلام . وكذلك الشيخ عز الدين بن عبد السلام طلب الشيخ مع تلقيبه بسلطان العلماء فكان شيخ الغزالي الشيخ أبو محمد الباذعاني ، وكان شيخ الشيخ عز الدين الشيخ أبو الحسن الشاذلي .

ولما ذاق الغزالي الطريق على يد شيخه قال : قد ضيعنا عمرنا في البطالة يعني بتأليفه الإحياء وغيره من كتب التصوف^(٢) .

(١) هو سيدى على بن محمد وفا : يقول عنه الإمام الشعراوى : كان في غاية الظرف والجمال لم ير في مصر أجل منه وجهاً ولا ثياباً ، له نظم شائع وموشحات ظريفة سبك فيها أسرار أهل الطريق . وله عدة مؤلفات شريفة وأعطى لسان الفرق والتفصيل زيادة على الجمع وقليل من الأولياء من أعطى ذلك ، وله كلام عال في الأدب ووصايا نفيسة نحو مجلدات .

ومن قوله : كان يقول في قوله تعالى ، (والله متم نوره ولو كره الكافرون) فيا صاحب الحق لا تهتم بإظهار شأنك بهتماً بحملك على الاستمانة بالخلق ، فيانك إن كنت على نور الحق فهو يظهر بالله وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً ، وإن كنت على ظلمة الباطل فلا تسبب في إظهار ذلك وإشاعته فيانك لا تتمتع بذلك إن تمتع به إلا قليلاً ، ثم الله أشد بأساً وأشد تنكيلاً (فمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع) (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه) فافهم .

ولد رضى الله أشعر ليلة الأحد حادى عشر من محرم سنة إحدى وستين وسبعمائة كما أخبر عن نفسه . وتوفى عام أحد وثمانمائة .

(٢) يقصد أن الإمام الغزالي قد ألف هذه الكتب قبل أخذه الطريق على يد شيخ

ولما ذاق الشيخ عز الدين الطريق على يد الشاذلي صار يقول : مما يدلك على شرف
غريق القوم ما يقع على أيديهم من الكرامات والخوارق ولا يقع شيء من ذلك على يد
مقيه ولو بلغ في العلم ما بلغ إلا أن سلك طريقهم^(١) .

وحكى الياقني في كتابه المنهاج له قال : مكنت خمس عشرة سنة وأنا في نزاع من
نفسى فداع يطلب معنى الدوام على الاشتغال بالفقه ، وداع يدعوني إلى الاشتغال بالذكر
وآداب الطريق ، فبينما أنا يوما أمشي في شارع من شوارع مدينة زبيد إذ لقيني شخص
من أرباب الأحوال فقال : إلى كم أنت في علاج ؟ أقبل على طريق أهل الله فإنها تجمع
طريق الفقهاء وزيادة ، وثمرتها أشرف ، فأجبتة إلى ذلك . فقال : إذهب معي حتى أوضح
لك ثمرة طريق منهما . قال : فضيت معه إلى الزاوية ، فلما جلس أرسل النقيب إلى شخص
من علماء البلد وأمر الفقراء أن لا يردوا عليه السلام على الفور . فلما جاءوا به قال :
سلام عليكم فلم يرد أحد عليه السلام فقال : هذا حرام عليكم . فقال له الشيخ :
مـسـ معنا يسيرا فجلس فقال الشيخ : الفقراء في نفوسهم منك شيء . فقال : وأنا أيضاً
- نفسى منهم أشياء وأشار بأصابع كفه كلها فقام وهو ساخط بسب الفقراء .

ثم إن الشيخ أرسل خلف فقير من فقراء البلد وأمرهم ألا يردوا عليه السلام
: مسحوا له . فلما جاء وقال : السلام عليكم فلم يرد أحد عليه السلام فتبسم وأعاد
- ثانيا وثالثا كل ذلك وهو يتبسم ثم إنه جلس عند نعالهم فقال له الشيخ : يا أخى
- في نفوسهم منك شيء . فقال : أنا أقول استغفرها لله . ثم حلق النعال في عنقه وعلى
- فقال الشيخ للياقني : انظر ثمرة طريق الفقراء ورياضة نفوسهم ولومهم أنفسهم

مـ - وضعها بعد أخذه للطريق لربما كانت أروع من هذا وعلى وجه العموم فإن
- العزنى في التصوف تعد من القمم في هذا الباب .

مع أن السادة الصوفية يعتبرون ظهور الكرامات من علامات بدء الطريق

بمجرد إظهار إخوائهم التشويش وهي : تبسّمه حين لم يردوا عليه السلام ثلاث مرات ، وجلسه عند النعال : ثم جعلها في عنقه وعدم مطالبتهم بدليل على تشويشهم عليه ، بخلاف ما فعل الفقيه . قال : فمن ذلك الوقت أقبلت على الاشتغال بطريق الصوفية . حتى كان من أمري ما كان . وكنت قبل ذلك أقول : وهل ثم طريق ينقرب به . والله غير ما عليه الفقهاء ؟

ولا أكاد أطمح للصوفية في شيء . انتهى .

ووقع لسيدى مدين^(١) تلميذة سيدى أحمد الزاهد^(٢) : أن جماعة من طلبة الشيخ عبادة المالكي^(٣) تركوا الشيخ عبادة وتلمذوا لسيدى مدين ، فتسكدر الشيخ عبادة لذلك وصار يحط على الصوفية ويقول :

هذه طريق لم يأت بها كتاب ولا سنة .

فلما عمل الشيخ مدين مولده الكبير وامتلأت الزاوية من العلماء والأكابر أورد

(١) هو الشيخ مدين بن أحمد الأشموني رضى الله عنه ؛ أحد أصحاب العارف بالله الشيخ أحمد الزاهد وكان طريقه هو طريق الإمام الجنيد رضى الله عنه وقد تفرعت عنه هذه السلسلة بمصر وقد أكمل سيدى مدين تلمذته على سيدى شمس الدين الحنفى رضى الله عنه بعد وفاة سيدى أحمد الزاهد .

وكانت له الكرامات الظاهرة بمصر وكان ينفق على مريديه ويجمعهم عنده في جميع الأوقات لمجالس الذكر وتلاوة القرآن ودروس العلم .

(٢) هو العارف بالله : أحمد بن سليمان الزاهد : كان صاحب علم كبير بالفقه . وكان يقال : هو جنيد القوم — فقد كان أشهر صوفية عصره وقد أحيا كثير من علوم التصوف التي اندثرت في ذلك الوقت .

وكان يتمتعن المرید قبل أن يأخذ عليه العهد سنة أو أكثر .

وله أقوال كثيرة في الوعظ في المساجد فقد كان يكثر التردد عليها لوعظ للناس .

توفي رضى الله عنه سنة نيف وعشرين وثمانمائة .

(٣) أحد كبار علماء المذهب المالكي .

سيدى مدين خلف الشيخ عبادة ، وقل للقاصد : قل له : فلان يسألكم فى الحضور ليحصل
 له بركتكم ، فجاء الشيخ عبادة فأمر سيدى مدين الجماعة أن لا يفسحوا له ولا يقوموا ،
 فجلس فى صحن الزاوية ، متكدا نادما على مجيئه فرفع سيدى مدين رأسه وقام إلى
 شيخ عبادة ومسكه بيده وأجلده بجنبه ولاطفه حتى خمدت أخلاقه ، ثم قال له : يا سيدى
 هل يجوز لمسلم أن يقوم فى مذهبكم لمشارك مع عدم الخوف من شره ؟ فقال : عندنا
 لا يجوز ومن قام له فسق .

فقال له سيدى مدين : فإله عليك أما تسكدرت من عدم القيام لك ؟
 فقال : نعم . فقال : كيف تقوم لمن يقول لنا قوموا لى كما تقومون لله رب العالمين ؟
 وقد قال رسول الله ﷺ : « من أحب أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده
 من النار » ^(١) فدارت هذه الكلمة فيه ثم قام منتصباً ونادى بأعلى صوته : اشهدوا
 عى يا جميع من حضر أنى أسلمت إسلاماً جديداً على يد سيدى مدين ^(٢) .
 ثم قبل رجل الشيخ وتلقن عليه فى ذلك الحفل ، ولم يزل يخدم الفقراء عنده وترك
 جميع وظائفه إلى أن حضرته الوفاة ، فأوصى أن يدفن تحت عتبة تربة فقراء سيدى مدين
 سرق الخشب ، ففعلوا . فهو مدفون تحتها الآن تواضعاً للفقراء وهضماً لنفسه . وكان يقول
 فى حياته : لولا سيدى مدين لربما كنت من أهل النار الذين هم أهلها . انتهى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من فوائد الشيخ اختصار الطريق
 عن التريد وإراحتة من شدة التعب من غير ترقى . فهو كما قال سيدى عمر بن الفارض
 . مع الله فى حق من لا شيخ له : رضوا بالأمانى ، وابتلوا بحظوظهم ، وخاضوا بحار الحب
 سعياً فما ابتلوا ، فهم فى السرى لم يبرحوا عن مكانهم ، وما ظعنوا فى السير عنه
 ويحككوا :

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى وغيرهم عن سيدنا معاوية رضى الله عنه .
 (٢) يقصد بذلك أن علوم القوم أفضل مما هو فيه وإلا فهو مسلم ما دام يشهد بالشهادتين .

وقال سيدى علي بن وفا فى حقهم أيضاً تسبحوا من قبل أن يولدوا ، أى لأن أول عمر العبد ولادته فى الطريق ، فمن لم يدخل طريق القوم فكأنه فى بطن أمه لم يولد .

ومن كلام المسيح عيسى عليه الصلاة والسلام للحواريين : بحق أقول لكم : لن يلج ملكوت السموات والأرض من لم يولد مرتين انتهى .

فإذن حكم المريد بلاشيخ حكم من يريد أن يدخل فى زقاق لا يدري هل ينفذ أم لا فهو يدخل فيه إلى آخره فإذا رآه مسدودا رجع . ولو أنه كان سأل أحداً ممن له معرفة بالزقاق لقال له من أول دخوله : ارجع فإن هذا زقاق مسدود ، فكان يريجه من التعمير بغير منفعة . ومثل ذلك واقع للمريد الذى لا شيخ له . فإن أعماله فى الغالب كالدرج المسدود لا حتفافها بالعلل والآفات القادحة فى الإخلاص المانعة من الترقى فانهم انتهى .

وكان سيدى إبراهيم الدسوقي رحمه الله يقول : طلب الشيخ فى الطريق واجب على كل مريد ولو كان من أكابر العلماء . وكان يقول : لو أن طالب العلم كان يأتى بالمأمورات الشرعية على وفق ما أمر به من الإخلاص لما احتاج إلى شيخ كما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، لكنه أتى بها محتسفاً بآفات وعلل : تقدر فى صحتها أو قبولها .

فلذلك احتاج المريد إلى شيخ يبين له العلل والآفات التى فى أعماله . فلا يقال : لو كان علاج هذه الأمراض الباطنة واجباً لوضع السلف الصالح من التابعين والأئمة المجتهدين كتباً فى ذلك ، ولم نر لهم كتاباً واحداً فى ذلك لأننا نقول : إن هذه الأمراض التى حدثت فى أهل زماننا لم تكن ظاهرة فى عصر السلف ولو أنها كانت ظاهرة فيه لاستتبط المجتهدون فى ذلك كتباً كما فعلوا فى أحكام الدين الظاهرة بل أولى لما هم عليه من الخشية لله ومراعاتهم أنفاسهم معه تعالى ولا يقول عاقل قط : إن أحداً من الأئمة ينظر عند أحد كبرا أو نفاقاً أو رياء ويقره عليه أبداً : بل كان يستتبط له

الدواء من الكتاب والسنة ليخرجه من تلك الكبائر التي توعد الله تعالى عليها بالنار. وأيضاً فإن الأئمة المجتهدين رضى الله عنهم كانوا مشغولين بما هو أهم وأعم نفعاً للإسلام والمسلمين وهو جمع أدلة الشريعة وتحريرها بعد تفرقها في البلاد وظهور تناقضها. وكان مع كل طائفة من الناس شيء منها.

ولا شك أن هذا أمرهم من الاشتغال بعلاج بعض أمراض في بعض الناس فلولا جمع الأئمة للأدلة والبحث عن ناسخ الأحاديث ومنسوخها وهامها وخاصها لما عرف أحد يمشي في طريق الظاهر ولا الباطن. لأن تلك الأدلة هي مادة موازين الأعمال والاقوال في طريق الشريعة والحقيقة. ثم لما تعددت أدلة الشريعة كما ذكرنا وتمهدت قواعدها قيض الله تعالى لطريق الباطن أقواماً كالخارث المحاسبي^(١) وأبي طالب المكي^(٢) وأبي القاسم القشيري^(٣) وغيرهم فصنفوا في علاج أمراض الباطن كتباً

(١) كتاب الرعاية لحقوق الله : للخارث بن أسد المحاسبي .

وهو أبو عبد الله الخارث بن أسد المحاسبي .

يقول عنه صاحب الرسالة القشيرية (عديم النظير في زمانه علماً ، وورعاً ، ومعاملة ، وحالاً .

ويقول عنه النجاشي : هو إمام المسلمين في الفقه ، والتصوف ، والحديث ، والتفسير ، والكلام .

ويقول عنه الإمام الغزالي : المحاسبي خير الأمة في علم للعامة . وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال .

ومن كلامه : فقدنا ثلاثة أشياء : حسن الوجه مع الصيانة وحسن القول مع الديانة . وحسن الإخاء مع الأمانة . وسمى بالمحاسبي ؛ لأنه كان يحاسب نفسه عملاً بقول الرسول ﷺ حسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا)

(٢) هو صاحب كتاب قوت القلوب وهو من أشهر المصنفات في علوم التصوف وبيان حواله ومقاماته .

(٣) هو الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري الشافعي :

(٣٠٠ هـ) - (٤٦٥ م) .

واستدلوا على بطلان عبادة كل من لم يوافق باطن لظاهره فيها بأدلة قاطعة كحديث :
« كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » فشمّل الأعمال الظاهرة والباطنة .
فكما أبطل علماء الشريعة الصلاة المخالفة لأفعال الصلاة الظاهرة كذلك أبطلها علماء
الحقيقة بمخالفة الأعمال الباطنة ، فإن قوله ﷺ « ليس عليه أمرنا » شامل .
لذلك فهل كان صلى الله عليه وسلم يرى بعبادته أن أو يتكبر بها أو يعجب ؟
لا والله .

فكما أنه معصوم : كذلك من يتبعه يكون محفوظا . فامتنحن يا أخى جميع
أحوالك بهذا الميزان تجد جميع ماورد من الثواب فى عمل من الأعمال إنما هو فى حق
من أخلص فيه دون من دخله الدخول من الرياء والنفاق مثلا . فعلم من جميع ماقررناه
أنه يجب على من غلب عليه مرض من الأمراض الباطنة من عجب أو كبر أو حسد
أو رياء أو غل أو حقد أو مكر أن يطلب له شيخا .

وإن لم يجده فى بلده وجب عليه السفر إليه . وإن من رزقه الله تعالى سلامة الباطن
من هذه الأمراض المهلكة كالأئمة المجتهدين وأضرابهم لا يحتاج إلى شيخ فى الطريق لأن
هنا قد عمل بما علم على وفق السنة . وهذا هو غاية ما يطلب بالسلوك كما مر أول المبحث .

ولد رضى الله عنه سنة ست وسبعين وثلثمائة فى شهر ربيع الأول ؛ فى بلدة (إستوا)
وكان سكانها من العرب الذين قدموا خراسان .
وهو عربى من قبيلة (قشير بن كعب) .
ولقد ألف الإمام القشيرى كتاب الرسالة القشيرية ، توضيحا وتصحيحا للفكرة
الصوفية فى سلامتها ونقاؤها .
وقد بين فى هذا الكتاب متانين : الجانب الأول : سيرة رجال التصوف
وبعض أقوالهم .
الجانب الثانى : مبادئ السلوك ومناهجه .
توفى رضى الله عنه فى السادس عشر من شهر ربيع الأول عام ٤٦٥ هـ .

قال الإمام القشيري رحمه الله : وأول ما حدثت هذه الأمراض الباطنة أواخر للثلاثة
ثلاثة لقوله صلى الله عليه وسلم : « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين
بعدهم » (١) .

فمن شهد له صلى الله عليه وسلم بالخيرية فقد حاز رتبة السكالك انتهى . وسمعت سيدي
عبي الخواص رحمه الله يقول : كان لأهل القرن الأول كمال الإيمان ولأهل القرن الثاني
كمال العلم ، ولأهل القرن الثالث / كمال العمل ثم تغيرت الأحوال والمزاج في أكثر الناس
فجمع رأى العلماء العاملين على تسمية كل من جاهل نفسه وتبع سائفه الصالح في الأعمال
والأقوال صوفياً ، ومن نزل عنه في المقام عابداً ، ومن نزل عن ذلك عامياً ، وقلربا يعنى
حر القرآن ولا يطالب نفسه بالعمل بما فيه ، بل قنع في الغالب بتلاوته والعمل ببعض
أحكامه دون بعض ، ولم نزل الناس يتنازلون في كل قرن إلى أن صاروا كما ترى ، وربما
هو بعضهم أنه على قدم السلف في أحواله لجهله بأحوالهم . بل سمعت بعضهم يقول في
عنه : لو أدركت بمحمد الله الفضيل بن عياض (٢) . وإبراهيم بن أدهم (٣) وسفيان

(رواه الحاكم في المستدرک والطبرانی في الكبير عن جمعة بن هبيرة .
يرواه الترمذی والحاكم عن عمران بن حصين . ورواه أحمد والترمذی عن ابن
عمر . وغيرهم .

١٠ هو الفضيل بن مسعود بن بشر التميمي : يقول عنه صاحب الرسالة القشيرية :
« الفضيل شاطراً : يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس .
وكان سبب توبته : أنه عشق جارية . فبينما هو يرتقي الجدران إليها سمع تالياً يتلو (ألم
سین آمنوا أن نخشع قلوبهم لذكر الله) فقال : يارب قد آن .

صحيح بعد ذلك من كبار المحدثين والأئمة . المهتدين . وجاور الحرم ومن كلامه :
« حلف الله لم يغره شيء ومن خاف غيره لم ينفعه شيء » و (يهابك الخلق على قدر
صيتك) و (جعل الله الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا وجعل الخير كله في
سرحان مفتاحه الزهد فيها) . و (لو أن الدنيا بمخذا فيرها عرضت على ولا أحاسب بها
كنت تخذرها . كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب توبه .
هو أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور : من كورة بلخ رضى الله عنه .

الثوري ^(١) ومالك بن دينار ^(٢) وبشر الحافي ^(٣) لساكتهم الطريق ولساكننا لم ندر .
فما نوا بحجابهم انتهى . وهذا القول من قائله زور وبهتان ، وهو فوق الجنون بطبقات

كان من أبناء الملوك ، فخرج يوماً للصيد ، فأثار ثعلباً أو أرنباً وهو في طلبه ، فهتف .
هاتف : يا إبراهيم ، ألهذا خلقت ؟ أم بهذا أمرت ؟ ثم هتف به أيضاً من (قربور)
سرجه : والله ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت . فنزل عن دابته .
وصادف راعياً لأبيه ، فأخذ حبة الراعي الصوف ولبسها وأعطاه فرسه وما معه ، ثم
إنه دخل البادية ، ثم دخل مكة ، وصحب سفيان الثوري .
وكان من كلامه : أطب مطعمك ، ولا حرج عليك أن لا تقوم الليل ولا تصوم النهار
وكان عامة دعائه : اللهم انقلني من ذل معصيتك إلى عز طاعتك .
فقال : أرخصوه . أي : لا تشروه .

(١) هو سفيان بن سعيد الثوري ولد سنة ٩٧ هـ وتوفي بالبصرة سنة ١٦١ هـ وكان عنه
زاهداً . وكان يسمى أمير المؤمنين في الحديث . وكان إذا جالس للعلم وأعجبه منطقته ، يقطع
الكلام - خوفاً من الغرور - ويقوم ويقول : أخذنا ونحن لا نشعر ، وكان يعلل الحديث .
ويقول : والله لو رأي عمر بن الخطاب لضربني بالدرّة وأقام لي ، وقال : « من لك لا يصح
للحديث » وكان يقول للناس - إذا طلبوا منه الحديث - : والله ما أرى نفسي أهلاً لإمامة
الحديث ، وأنتم أهلاً لأن تسموه ، وما مني ومثلكم إلا كما قال القائل : « افتضحوا
فاصلحوا » .

(٢) هو أبو يحيى مالك بن دينار : كان يقول : لم يبق من روح الدنيا إلا ثلاثة .
لقاء الإخوان ، والتهجد بالقرآن ، وبيت خال يذكر الله فيه .
وكان يقول في دعائه : « اللهم لا تدخل بيت مالك بن دينار من الدنيا شيء » ، وقد
له بعض الولاية : إدع لنا . فقال : كيف أدعوا لكم وأنف واحد يدعون عليكم .
وكان يقول : إذا تعلم العبد العلم ليعمل به كثر علمه ، وإذا تعلمه لغير العمل زاده فجوراً
وتكبراً وإحتقاراً للعامة .

توفي رضي الله عنه سنة إحدى وثلاثين ومائة .

(٣) هو أبو نصر بشر بن الحارث الحافي : أصله من مرو وسكن بغداد ، ومات
بها . توفي سنة سبع وعشرين ومائتين .

مع أنه أبلغني أن هذا القاتل يفطر في شهر رمضان في بيوت المكاسبين^(١) . ولوعلت أنه يهتدى لقول مثلي : لبيذت له أنه لا يصلح أن يكون تلميذا لأحد من هؤلاء الأشياء الذين ذكرناهم ، وقد بلغ من ورعهم أن أحدهم كان لا يأكل الطعام حتى يفتشه إلى عاشر بديتناول عليه في الحل فإن لم يجد الأيدي العشرة تداولت عليه في الحل امتنع من كلة وطوى . وبلغ من ورعهم أن أحدهم لم يأكل من سمك الدجبل بعد أن تقص جندي سفرته فيها لاسمك إلى أن مات .

وكان كل واحد يقول : يحتمل أن هذه السمكة أكلت من ذلك الفئات أو أحداً من أمهاتها . وبلغ من ورعهم : أن أحدهم كان لا يأكل من زرع أرضه ، بعد أن دخلت بهيمته طين جاره في المطر ورجعت إلى أرضه ، وفي قوائمها من طين الجار فاختلط بطينه . وبلغ من ورعهم أنهم كانوا لا يعيشون في ظلي عمارة أحد من الولاة أو حاشيتهم فضلاً عن جلوس فيه أوفى ذلك البناء .

وبلغ من ورعهم أن أحدهم كان لا يسيق دابته من بئر حفرها أحد من الظلمة لا ضرورة كأبصار طريق الحجاز ونحوها مما تركه يفضي إلى الهلاك . وبلغ من ورعهم - جماعة إبراهيم بن ادم كانوا يحددون بالاجرة إلى آخر النهار ، ثم يردون تلك الاجرة على صاحبها ، ويقولون : نخاف أن تكون ما بذلنا طاقتنا وجهدنا في الحصاد هذا اليوم

قال أبو عبد الله بن الجلاء : رأيت ذا النون وكانت له عبارة ، ورأيت سهلاً وكانت له بسرة ورأيت بشر بن الحارث وكان له الورع .

ف قيل له : فإلى من كنت تميل ؟ فقال : لبشر بن الحارث أستاذنا .

ومن قوله : رأيت النبي ﷺ في المنام ، فقال لي : يا بشر ، أتدري لم رفعك الله من قرآنك ؟ قلت : لا ، يا رسول الله . قال : باتباعك لسنتي ، وخدمتك للصالحين ، عيحتك لإخوانك ، ومحبتك لأصحابي ، وأهل بيتي : هو الذي بلغك منازل الأبرار .

(١) رجال الضرائب والجمارك لأنهم كانوا يشتهرون بالظلم في ذلك الوقت .

ثم ينامون طابرين . وجاعوا يوماً من الحصاد وكان باب فرسهم قد تهدم بعضه فوجدوا شخصاً أصلحه لهم فلم يخبزوا فيه . بعد ذلك ، لأجل الطين الذي لطخه به .

وبلغ من وهمهم أنهم تركوا الأكل مما وصلت إليه يديهم آدم مطلقاً وصاروا يأكلون من حشيش البراري إلى أن صار بدن أحدهم ترى خضرة البقل من ظاهره .

وبلغ من عتوبة أحدهم على شربه من ركوة جندي في طريق الحجارة إن قلبه قسى عليه ثلاثين سنة حتى صار لا يستلذ بعبادة مع صيامه الدهر ثم نودي في سره بعد ثلاثين سنة الآن قد خلصت من تبعة تلك الشربة . وبلغ من ورعهم أنهم كانوا يقولون لأصحابهم : إياكم أن تقتدوا بنا في جميع أحوالنا فاننا قد خلطنا في أحوالنا وأعمالنا .

وبلغ من ورع جدي الشيخ على الشعراوي رحمه الله : أنه لم يأكل من عسل النحل ببلده إلى أن مات بعد أن قال له أهل البلاد المجاورة : إن نحل بلدكم يأكل زهراً فواكهنا . فاستفتى له والدي شيخ الإسلام يحيى المناوي فقال : هذا تنطع .

فقال له جدي : بل هو ورع . فقال شيخ الإسلام : قد قال الله تعالى وهو للمالك الحقيقي للنحل (كل من كل الثمرات)^(١) . فقال له جدي : إن هذا محمول على الثمرات المباحة دون المملوكة وقد رأيت أهل الزهد لا يسمحون بذلك .

فقال شيخ الإسلام : إن الحق أطلق فقال جدي : للعبد أن يترك الحلال إذا شاء . وكذلك بلغ الناس من خوف السلف من الله تعالى : أن أحدهم كانوا يشمون من جوفه رائحة السكيد المشوي منهم أبو بكر وعمر المشهود لهما بالجنة . ومنهم سفيان الثوري

(١) ونظام الآيات : وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كل من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون .

والحسن البصرى^(١) . وعطاء السلمي^(٢) وكانوا إذا سمعوا شيئاً من أحوال الأبرار يوم القيامة يمكث أحدهم الأيام والليالي يبكي ولا يأكل ولا يشرب . وخرج الحسن البصرى في جنازة فلما رآهم وهم ينزلون الميت صاح وخر مغشياً عليه فمأرجعوا به إلى بيته إلا في القميص . وبكى عمر بن عبد العزيز^(٣) ليلة حتى جرت دموعه ونزات من ميزاب غرفته .

وكان يغلب عليه البكاء فيصير يرش دموعه على الأرض حوله حتى يأتي الرجل فيظن أن ذلك ماء الوضوء . وبكى الفضيل وبشر الحافى وسفيان الدم بعد نفاذ الدموع . ولما مرض سفيان ذهبوا ببوله إلى حكيم من اليهود فقال : هذا بول رجل قد قطع الخوف من الله تعالى كبده ، ثم مات سفيان بعد ثلاثة أيام .

وكان السرى السقطي^(٤) رضى الله عنه كلما استيقظ من نومه يبادر إلى مسح وجهه بيده

(١) هو أبو سعيد الحسن البصرى : كان والده من أهل ميسان فسي فهو مولى لأنصار .

وكان قد غلب عليه الخوف حتى كأن النار لم تخاف إلا له وحده .

وكان يقول : ذهبت المعارف ، وبقيت المناكر ومن بقي من المسلمين فهو مغموم .

وكان يقول : ما من وسواس نذ فهو من إبليس وما كان فيه إلحاح فهو من النفس يستعان عليه بالصوم والصلاة والرياضة .

مات رضى الله عنه وهو صائم سنة أربع وتسعين .

(٢) وهو عطاء السلمي : غلب عليه الحزن والخوف حتى مكث أربعين سنة على فراشه لا يستطيع القيام .

وكان رضى الله عنه كثير الدموع ، حتى كان الناس يظنون لبلى الذى حوله من آثار الوضوء وهو من آثار الدموع .

(٣) خامس الخلفاء الراشدين .

(٤) هو أبو الحسن سرى بن المغلس السقطي : خال الجنيد وأستاذه .

وكان تلميذ معروف الكرخي . كان أوحد زمانه في الورع وأحوال السنة وعلوم التوحيد . ومن كلامه : التصوف : إسم ثلاث معان :

فقليل له في ذلك : فقال : أخاف أن يكون الله تعالى قد مسح صورتى بسوء ما أتعاظنه من الأعمال .

وكان معه امرأة لم يزل كل قليل ينظر وجهه فيها ويقول : إني أخاف أن يحول الله صورتى صورة خنزير .

وكثيراً ما كان ينظر كل قليل إلى أنفه ويقول : إني أخاف أن يكون وجهى قد أصد من المعاصي .

ولما مرض قال لأصحابه : أشتى أن أموت ببلد غير بغداد مخافة أن لا يقبلنى قبرى فافتضح .

وكذلك بلغنا عن شيخه معروف الكرخي^(١) .

وكان مالك بن دينار لا يخرج مع الناس في الاستسقاء ويقول أخاف أن يعطر الله عليهم حجارة بسببى .

وأخرجوه مرة مكرها فقال : أنتم تستبطلون المطر وأنا استبطل الحجر .

وهو الذى لا يطفى نور معرفته نور ورعه .

ولا يتكلم بباطن فى علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب أو السنة .

ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله .

توفى السرى سنة سبع وخمسين ومائتين .

(١) هو أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي : كان من الشايخ الكبار ، حجاب الدعوة ، يستشفى بقبره .

ومن كلامه : قال لى بعض أصحاب داود الطائى : إياك أن تترك العمل ؛ فإن ذلك يقربك إلى رضا مولاك . فقلت : وما ذلك العمل ؟

فقال : دوام طاعة ربك وخدمة للمسلمين ، والنصيحة لهم .

وقيل له فى مرض موته : أوصى .

فقال : إذا مت فتصدقوا بقميصى ؛ فإننى أريد أن أخرج من الدنيا عرياناً كما دخلتها عرياناً . توفى رضى الله عنه سنة مائتين .

وكان سفيان الثوري إذا مرت به سحابة وهو على الحديث يقطع التحديث ، ويقول :
أصبروا حتى تمر فإنني أخاف أن يكون فيها حجارة ترجئنا بها .

وطلب جماعة كرامة من سيدي عبد العزيز الديريني ^(١) رضى الله عنه فقال : وهل ثم
لعبد العزيز كرامة في القرن السادس أعظم من أن الله تعالى يمسك الأرض تحت رجليه
إذا مشى ولم يخسفها به ؟ ثم قال : والله ما أرفع رجلي عن الأرض ثم أضعها وأرى الأرض
ثابتة تحتها وفي عيني قطرة انتهى .

وكان آخر من أدركته أنا على هذا القدم ، سيدي هلى الضرير النبتيني ، وشيخ
الاسلام زكريا ، وسيدي على الخواص ، وسيدي محمد بن عنان ، والشيخ عبد الحلیم بن
مصلح ، والشيخ على النجدي ، وأخي أفضل الدين .

كان كل واحد من هؤلاء ، يغاب عليه البكاء والخوف ، فيصير يتمرغ في الأرض ،
كالطير المذبوح .

وبلغ من هضمهم نفوسهم ، مع شدة إخلاصهم ، وكثرة أعمالهم : أن أحدهم كان يقول :
من أراد أن ينظر إلى مرأى فليتنظر إلى .

وقالت امرأة لمالك بن دينار يوماً : يا مرأى . فقال : لقد عرفت يا هذه إسمي الذي
أضله أهل البصرة فلم يعرفوه .

وقال له شخص يوماً : يا شيخ السوء فقال : ما أبعدت عن صفتي .

وبلغ من شدة مراقبتهم الله تعالى وأقبالهم على عبادته : أن أحدهم كان يصلي الصبح
يؤضوه العشاء الأربعين سنة وأكثر .

وكان أحدهم يمكث السنة ، وأكثر لا يخطر في نفسه الطعام ، إلا إن أحضروه

بين يديه .

(١) هو العارف بالله سيدي عبد العزيز الديريني رضى الله عنه : صاحب المصنفات
الكثيرة في التفسير ، والفقه ، واللغة ، والتصوف . توفي رضى الله عنه سنة سبع وتسعين
وسنة .

وقال أبو القاسم الجنيد مرة للشبلي^(١) : يا أبا بكر إن خطر في بالك من الجمعة إلى الجمعة خير الله فلا تمد قاتنا فإنه لا يجيئك منك شيء في الطريق .

وكان لا يجتمع بالجنيد إلا يوم الجمعة فقط .

وكان سهل بن عبد الله التستري رحمه الله يقول لى : منذ ثلاثين سنة أكرم الله تعالى والناس يظنون أنى أكرمهم .

ومكث الشيخ عبد القادر الجيلي في بداية أمره سنة لا يأكل ولا يشرب ولا ينام . كما أخبر بذلك عن نفسه .

ومن أدركته على هذا القدم الشيخ مرشد مكث خمسين سنة لم يزد على زبينة كل يوم كما أخبر بذلك عن نفسه .

وكان الشيخ تاج الدين الذاكر^(٢) يمكث على الوضوء الواحد من يوم الجمعة إلى الجمعة .

(١) هو أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي : بغدادى للولد وللنشأة . وأصله من (أسروشنة) .

صحب الجنيد ومن في عصره ، وكان شيخ وقته : حالا ، وظرفا ، وعلماء . مالكي للذهب . عاش سبعا وثمانين سنة ، ومات سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وقبره ببغداد .

ومن كلامه : ليس من احتجب بالخلق عن الحق كمن احتجب بالحق عن الخلق . وقال : إن أردت أن تنظر إلى الدنيا فانظر إلى نفسك ؛ فذكها من تراب ، فإنك منه خلقت وفيه تعود .

وسأله رجل : أى الصبر أشد ؟ قال : الصبر فى الله ؟ قال : لا ، قال : الصبر مع الله ، قال : لا . قال : الصبر لله . قال : لا ، قال : فأى شيء . قال : الصبر عن الله . فصرخ الشبلي وأنشد :

الصبر يحمل فى المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يحمل

(٢) هو الشيخ تاج الدين الذاكر : كان ذا سميت حسن وتجمل بالأخلاق الجميلة . وكان له كثير من المريدين والإعتقاد التام فى قلوب الناس جميعا ، وكان كثير الشفاعات لدى السلطان والأمراء ، وكان يمكث السبعة أيام بوضوء واحد .

وكان لا يدخل الخلاء إلا كل خمسة عشر يوماً مرة ، وسائر وضرته إنما هو تجديد كما أخبرني بذلك خادمه الشيخ عبد الباسط الطائخاوى .

وكان يقول : كان الإمام الأوزاعى ^(١) رضى الله عنه لا يدخل الخلاء إلا كل شهر مرة فرقت بطنه فصار يدخل كل خمسة عشر يوماً مرة ، فكانت والدته تقول لأصحابه : أَدْعُوا لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ فَإِنَّهُ مَبْذُونٌ .

وكانت هي كذلك لا تدخل الخلاء إلا في كل ثلاثين أو أربعين يوماً .
وكذلك بائنا عن الإمام مالك ^(٢) والإمام البخارى ^(٣) أنهما كانا لا يدخلان الخلاء

ومن كلامه : ليس القناعة أن يأكل الفقير كل ما وجد من يسير الخبز والأدم ، إنما القناعة أن لا يأكل إلا بعد ثلاثة لقيات يقمن صلبه وأكثرها خمس .
وكان رضى الله عنه يقول : لا تصح الصحبة لشخص مع شيخه إلا إذا شرب من مشروبه واتحد به اتحاد الدم في العروق .

توفي رحمه الله سنة ثيف وعشرين وتسعمائة .

(١) هو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى : ولد سنة ثمان وثمانين ومات سنة سبع وخمسين ومائة . وكان مولده ببلبك ومات في بيروت .

وكان رضى الله عنه يقول : أدركنا الناس وهم أول ما يستيقظون ويصلون الصبح يفكرون في أمر معادهم وما هم صائرون إليه ، ثم يفيضون بعد ذلك في الفقه والقرآن .
ودخل عليه المنصور وقال له : عظمى : فقال ما أحد من الرعية إلا وهو يشكو ^{إلى} بلية أدخلتها عليه ، أو ظلامة سقتها إليه .

(٢) هو الإمام مالك بن أنس : إمام دار الهجرة ومحدثها الكبير وصاحب المذهب المالكي المعروف . ولد سنة ثلاث وتسعين ومات سنة تسع وسبعين ومائة ، ودفن بالبقيع .
وكان رضى الله عنه يقول : لا ينبغي للعالم أن يتكلم بالعلم عنه من لا يطعمه فإنه ذل وإهانة للعلم .

وكان يمضى في أزقة المدينة حافيا ماشيا ، ويقول : أنا أستحي من الله تعالى أن أطأ ترربة فيها قبر رسول الله ﷺ بحافر دابة .
ومناقبه أشهر من أن تعرف .

(٣) هو محمد بن إسماعيل البخارى : إمام أهل الحديث وصاحب الجامع الصحيح كتاب

إلا كل ثلاثة أيام ، وكانا يقولان : والله قد استحيينا من الله تعالى ، من كثرة ترددنا إلى
الخلاء ، في كل ثلاثة أيام .

وبلغ من حياتهم أنهم كانوا يرخون الطيلسان على وجوههم من الحياء ، حتى لا يراهم
أحد من الناس ولا يرونه .

فيقال لهؤلاء المدعين الذين جلسوا في زماننا هذا بغير إذن من أشياخهم : بالله عايضكم
هل شتمتم رائحة من ورع هؤلاء القوم أو خوفهم من الله أو هضمهم نفوسهم ؟ لا والله
ما شتم أحد منهم ذلك ، إنما هي دعاوى كاذبة .

ولو أن هؤلاء كان لهم شيخ لبين لأحدهم عيوبه ونقائصه ، وكان يخاف من الله تعالى
أن يدعى كمال مقام الإسلام فضلا عن غيره .

وقد درج الساف الصالح الذين لم نذكرهم ، ومن أدر كناهم من مشايخ مصر على هضم
نفوسهم مع شدة الاجتهاد في العبادة ليلا ، ونهاراً ، حتى لو أزه قيل لأحدهم : غداً تقوه
بالقيامة ما وجد زيادة من استغراقه الزمان كله بالعبادة .

ومع ذلك كان الحسن البصري يقول : والله لو حلف حالف أن أعمال الحسن أعمال
من لا يؤمن بيوم الحساب لقلت له : صدقت يا أخي لا تكفر عن يمينك .
وسئل الإمام أبو حنيفة عن الأسود وعلقمة : أيهما أفضل ؟ فقال : والله ما نحن
بأهل أن نذكرهم .

الحديث المتفق عليه بين جميع علماء المسلمين . ولد رضى الله عنه ببخارى سنة أربع وتسعين
ومائة ، ومات رضى الله عنه ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين ومائتين ، ودفن بخرتق
قرية من سمرقند .

وكان رضى الله عنه يقول : المادح والذام من الناس عندي سواء .
ومن أقواله : أرجو أن ألقى الله تعالى ، ولا يطالبني أنى اغتبت .
وربما قام في الليل نحو العشرين مرة يقدح الزناد ويسرج ويكتب أحاديث .
ومناقبه أشهر من أن تعرف .

فكيف تفاضل بينهم؟

وقال رجل لإبراهيم التيمي^(١) : ما تقول في هذه المسألة يا فقيه؟ فقال إبراهيم : والله إن زمانا صار مثلي فيه ينادى بالفقيه لزمان سوء .

وباع مالك ابن دينار : أن بعض الناس يصفه بالصلاح ، فقال : والله إن زمانا صار مثلي فيه موصوفاً بالصلاح ، لزمان ما بقي لأهله صلاح .

وكان ابن أبي رواد يقول : إذا ذكرت أحوال الصالحين بين أمثالنا افتضحوا .
فعلم من جميع ما قررناه من أحوال السلف الصالح : أن غالب هؤلاء المدعين الذين يبرزوا في هذا الزمان هن طريق الصالحين بمزل .

وما بسطت لك يا أخي هذا المحل إلا مبالغة في زجر هؤلاء للمدعين عن الدعوى لإرادة الطريق ، فضلا عن كونهم من المشايخ ، فضلا عن كون أحدهم قطبا .

وقد أفق بعض المتأخرين بأنه لا يجوز لنا الاقتداء بغالب هؤلاء المشايخ الذين ظهروا في النصف الثاني من القرن العاشر ، ولا الوقوف عند أقوالهم لجهلهم بقواعد طريق تقوم ، فإن من قواعد النضلع من الكتاب والسنة حتى يصير يقطع مشايخ الإسلام بالحجج في مجلس المناظرة .

وأما هؤلاء فهم كما ترى لعجز أحدهم أن يقرأ مثل كتاب أبي شجاع في الفقه . وعلم نتصوف الذين يزعمونه ، فقد أجمع مشايخهم على أنه مشيد بالكتاب والسنة كما سيأتي بيانه أوائل ذكر الأخلاق ، في الباب الأول إن شاء الله تعالى . والحمد لله رب العالمين .

(١) هو إبراهيم التيمي : توفي في سجن الحجاج سنة اثنتين وتسعين هـ .

قال الأعمش : قلت : لإبراهيم التيمي رضى الله عنه : بلغنى أنك تمكث شهر لا تأكل شيئا . فقال : نعم وشهرين ، وما أكلت منذ أربعين ليلة إلا حبة عنب ناولتها أهل قلعتها ولفظتها في الحال .

وكان يقول : إذا رأيت الرجل يشاؤون في التكسيرة الأولى فاغسل يديك منه .

وأما بيان أن القوم يبلغون درجة الاجتهاد المطلق

فاعلم رحمك الله أن هذا المقام يباغىه المرید فی حال سلوکه قبل أن یصل إلى درجہ السکال كما صرح بذلك الشیخ محی الدین فی باب صلاة الجنائز من کتاب الفتوحات فقال : وإذا باغ المرید مقام الاجتهاد هل یعمل بما ظهر له أو یقف عند قول شیخه ؟ أفترأاه أنه یقف عند قول شیخه لإرتفاع شیخه عن الظن بوصوله إلى علم الیقین ، أو عند الیقین ، أو حق الیقین انتهى .

ثم أن المرید یرتقی من مقام الاجتهاد فی الأحکام الظاهرة إلى الاجتهاد المطلق و الأحوال الباطنة فلیکل عبادة عنده شروط فی مقام الإسلام والإیمان والإحسان والإتقان یمتثل شروط المقام الآخر ، كما أن لهم فی مقام الاجتهاد فی طریق علم الیقین وعین الیقین وحق الیقین أركاناً وشروطاً وسنناً وآداباً تخالف ما فی العلم الآخر فلو وضوء والصلاة والزكاة والصیام والحج فی کل مقام شروط وأركان فیمکن العبد أن یرقی ما بعد ذلك المقام حتی یعرف تلك الشروط والأركان .

وهذا أمر ما رأیت أحداً نبه علیه إلا إن كان ذلك وقع ولم یباغنا . ومن تأمله وجه كثير من مشایخ هذا العصر من قسم العوام . وإنما فتحت لك یا أخى هذا الباب ليعرف إنكارك على القوم إذا رأیت لهم كلاماً لم تفهم معناه فتجعله من جملة ما استنبضوه باجتهادهم فی طریق الباطن من علم الیقین ، أو عین الیقین ، أو حق الیقین .

ولما صنعت کتابی المسعی بأسرار الطریق لم أجد له ذائقاً من إخوانی إلا القلیل فأشعت فی مصر إني غسلته ، حتی سکنتم نفوسهم مع أنه كله حقائق .

وكان سیدی على الخواص رحمه الله یقول : لا یذهب لأحد الإنكار على شیء من كلام القوم إلا إن رآه مخالفاً لصریح الأحادیث وقواعد الشریعة .

وكان شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول : لا يخلوا كلام القوم من ثلاثة
حوال : إما أن يوافق صريح السنة فهذا لا كلام لأحد فيه . وإما أن يخالف صريح
سنة فهذا لا يجوز لأحد العدل به . وإما أن لا يظهر لنا موافقته ولا مخالفته فأحسن
حواله للوقف إنتهى .

وحيث علمت أن في القوم مجتهدين في طريقتهم فسلم لهم يا أخى ما أدى إليه اجتهدهم
فـ تسلم للمجتهدين في الشريعة الظاهرة من غير مطالبتهم بدليل ، لاسيما ما حـكـرا فيه
بإجماع . وإليك أن تقول كما يقول القائل : هذا ، نزع صوفي كهيئة المنبرى منه فإن ذلك
سره أدب .

وإن كنت ولا بد قائلاً ذلك فقل عقبه : لا نطيق المشى عليه فإن ما شرطوه محذور
لا شك وكل عن مقام ينسلكم .

فما شرطوه في صحة الوضوء والغسل أن لا يكون على عضو من أعضاء التظاهر لمعة
من المعصية الباطنة والظاهرة ولا بقية ميل إلى معصية : وذلك بالتوبة النصوح عند
عمل كل عضو ليظهر العضو باطناً وظاهراً .

ومن كان عليه بقية ميل إلى تلك المعصية المتعاقبة بذلك العضو فوضوءه باطل عندهم .
ومـ شرطوه في الصلاة الخشوع ، وإن لا يشغل عن شهود الخلق تعالى بقلبه فيها إذا تدبر
في معنى الآيات .

وقالوا : إنما أمرنا الله تعالى بتدبر القرآن ليجمع بذلك قلوبنا عليه لا ليفرقنا بوجه
من لوجوه فأية تذهب بنا إلى الجنة ، وأية تذهب بنا إلى النار ، وأية تذهب بنا إلى
نحيب قوم نوح ، وما جرى لهم ، وقوم موسى وما جرى لهم ، فإذا تخيلهم للصلى في
دعوه حجب بذلك عن الله تعالى .

وإذا تعارض عندنا أمران راعينا الأفضل منهما . ولا شك أن الإقبال على مشاهدة
حق تعالى أعظم من الإقبال على أحكامه وعباده .

وقد قالوا : من شأن النفس عدم القدوة على اشتغالها بمراعاة شيتين معا في -
 واحد بحيث لا يشغلها أحدهما عن الآخر . ١ ه فإن مد الحق تعالى بعض أوليائه بالقوة
 على مراعاة شيتين في آن واحد فذلك فضل عظيم من الله تعالى .

ومما شرطوه أيضاً في صحة الصلاة : أن لا يسكن في باطن العبد غل ، ولا حقد .
 ولا مكر ، ولا بغى ، ولا شحشاء ولا رياء ، ولا نفاق ، ولا عجب ، ولا كبر ، بل يكرر
 طاهراً مطهراً من هذه الأمراض كلها .

ويجمعها كلها محبة الدنيا . فكل من رجع الذهب على التراب فصلاته باطلة عنده
 إلا إن كان ذلك الترجيح من حيث الحكمة التي جعلها الله فيه دون التراب ، فإن الله تعالى
 شرف الذهب على التراب من حيث المعاملة به لا غير ، وإلا فالتراب أب للذهب وغيره
 من سائر ما خلق منه أو استخلص منه .

ويتفاوت الناس في هذه الطهارة ، فمنهم من يؤخذ بخطور شيء من أمراض الباطن
 على قلبه في الصلاة ، ومنهم من يسير الحقد أو العجب مثلاً^(١) .

ومنهم من لا يسامح على صورة النجاسة الظاهرة على البدن على حد سواء بل صرامة
 الطهارة منها في الباطن أولى لأنها محل نظر الله عز وجل كما ثبت في صحيح مسلم مرفوعاً :
 إن الله لا ينظر إلى صوركم ولاكن ينظر إلى قلوبكم^(٢) .

ومنهم من يشترط في صحة صلاته الحضور مع الله من حين يحرم إلى حين يسلم .

ومنهم من لا يشترط في حقه ، إلا الحضور في أكثرها فقط .

ومنهم من يسامح بالغفلة في قيراط من أربعة وعشرين قيراطاً .

ومنهم من لا يسامح به وهكذا .

ومنهم من إذا سلم من صلاة الفرض يستمر معه الحضور مع الله إلى الصلاة التي بعده

(١) ويكون السامح في أول الطريق مثلاً حتى تنتزع من المرید أمراض النفس تدريجياً .

(٢) وتسام الحديث (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم ، ولكن ينظر إلى

قلوبكم وأعمالكم) .

كلامية من الأولياء الذين هم على قدم أبي بكر الصديق رضي الله عنه .
ومنهم من يستمر معه الحضور بعد سلامه إلى أواخر وقت تلك الصلاة .
ومنهم إلى الدرجة أو الدقيقة .

فعلم ، أنه يصدق على من دام حضوره إلى الصلاة الآتية أنه من : « الذين هم على صلواتهم دائمون »^(١) ، ويؤيده حديث (إن أحكم في صلاة ما انتظر الصلاة . كما أن للراة بالذين هم على صلواتهم يحافظون من يفتح صلاة أخرى كلما حصل عنده غفلة عن الله .
وعلم أيضاً أن من يستمر معه الحضور إلى الصلاة الآتية لا يطالب بكثرة النوافل لأنه لا معنى للاشتغال بالقيام والجلوس في حضرة الشهود ومعالم أن سائر العبادات ما شرعت بالأصالة . إلا ليحضر العبد فيها مع ربه ويصير مشاهداً له . وهذا المعنى قد حصل له بصلاة الفريضة ، ومن هذا قلت نوافل الملامية^(٢) .

وربما كان بعض من لا ذوق عنده بأحوال القوم يرجح العباد الذين يكثر من تنوافل على الملامية ، مع أن كل ذرة من أعمال الملامية يرجح على جبال العبادات من العباد .

اللهم إلا أن يكون من حصل له مقام الشهود داهياً إلى الله تعالى ، فله أن يقوم في الحضرة ويصلي ، وينزل جميع الأمور التي أمر الله تعالى بها مطلقاً ، ليقبض به الناس ، في ذلك . وينالذوا بنعيم مشاهدتهم له تعالى ، ويشكروه على تأهيله لهم في الوقوف بين

(١) ويؤيده حديث (أن رسول الله ﷺ قال : ألا أدلكم على ما يمحو الله به خطايا ويرفع الدرجات .

قالوا بلى : يا رسول الله قال : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد . وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط) رواه مسلم .

وروى الشيخان (عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : لا يزال أحكم في صلاة مادامت الصلاة تحبسه لا يمنع أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة) .

(٢) طائفة من الصوفية إلا أنهم يخفون أعمالهم من العبادة وغيرها عن الناس وينسرون سب حتى لا يفرق بينهم وبين العامة فتبعد عنهم صفة الرياء .

بيديه ، فإن ذلك أعظم نعيم في الدارين ولولا نعيم مشاهدته في الجنة ما أحبها أهل الله تعالى ، لأن غاية ما فيها أكل وشرب وجماع ونحو ذلك ، وليس هو مقصود القوم .

ولما علم ﷺ أن في أمته من لا يطيق الدوام على الحضور مع الله تعالى من صلاة الفريضة إلى آخرتها : شرع لأمته النوافل فيما بين الفريضتين مصلحة لهم ليقع لهم شهود بعد ذلك الحجاب الذي وقع لهم بعد سلامهم من الفريضة .

وشرع لهم قيام الليل وصلاة الضحى لبعدها زمن الذي بين صلاة العشاء ، والصبح وبين الصبح والظهر .

وأوجب الله تعالى ذلك على رسول الله ﷺ وجرب رحمة وتقريب لتلا بطول زمن الحجاب على أمته وليكون له ثراب كل من قام الليل أو صلى الضحى مشحلاً فإنه رأس الدعاة إلى الله تعالى ، واعتياد باطنه ﷺ أنه لا يمكنه مفارقة حضرة ربه ، ولو لم يوجب الحق تعالى عليه ذلك ، لأن ذلك نعيمه ﷺ فالألف سنة عنده فيها كالمحة ، وجميع ما سماه العلماء تكليفاً هو نعيم للخواص والسكفة فيه من حيث ما يحصل للخواص من عظيم هبة الله ، وإجلاله لا من حيث مناطق القباب ، والركوع ، والسجود مثلاً فإنه لا يتكافئ لذلك إلا المتأفقون الذين خذلهم الله تعالى وأضلهم على علم ولم يكن عندهم راحة محبة الله ، نسأل الله العافية فقد بان لك وجه تسميتها تكاليف في حق الخواص . والله أعلم .

ثم لما كان جميع الدعاة إلى الله أمناء الرسل على الأمم كان لهم مقام الاستحسان والاستئنان فلم أن يستنوا لتلاميذهم ويستحسنوا لهم ما يرونه أصابح لهم مما هو داخل تحت أصل ورد في الشريعة .

الإشكار علي من أعاد صلاته بخلال ظاهر رآه فيها.

وفي الحديث « الصلاة خير موضوع فاستكثر من ذلك أو أقل ^(١) » فلا يسمى بدعة إلا ما لم يكن مندرجا تحت أصل لأن مثل ذلك ، هو الذي ينكر ، لأنه زيادة لم يأذن بها الله فصور يا أخى كمال عبادة عبد ثم انه عن الزيادة على المشروع التي تشق .
وقد سن الشيخ أبو مدين بالمغرب لأصحابه صلاة ركعتين بعد الطعام فهم يفعلونها إلى الآن وأقره على ذلك علماء المغرب لأنها شكر لله على تلك النعمة .

وسن الشيخ محي الدين بن العربي صلاة الاستخارة صباحا ومساء لجميع ما يقع على يديه من الحركات والسكنات في ذلك اليوم أو تلك الليلة ، وقال : من لم يقدر على فعلها كل يوم فليفعلمها في كل جمعة أو شهر أو سنة ويقول في نيتها ^(٢) : اللهم إن كنت تعلم أن جميع ما أتحرك فيه أو أسكن من وقتي هذا ، إلى مثله ، من الغد ، أو من الجمعة ، أو لشهر ، أو السنة ، خيراً لي في حق نفسي ، وحق غيري ، أو يتحرك فيه غيري ، أو يسكن في حق نفسه ، وخيره خيراً لنا ، في ديننا ، ومعاشنا ، وعاقبة أمرنا ، وعاجله ، وآجله ، فاقدره لنا ، ويسره لنا إلى آخر الدعاء .

ثم إن هذا الذي قررناه ، وبطلان الصلاة من الوضوء ، بعدم التوبة من الذنوب فظاهرة وتوبة القلب من الكبائر الباطنة ، هو في مقام الإسلام الباطن ولهم في مقام الإيمان ، والإحسان الباطن ، من شروط أخر أرقى من هذه كما أوضحناه في كتابنا سمي بالنور المبين في بيان مقامات كمل العارفين ^(٣) . وهو كله يرجع إلى قولهم حنات الأبرار سيئات المقربين ، فما يتقرب به إليه ، يستغفر منه . الحسن .

(١) رواه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة : ونص الحديث : (الصلاة خير موضوع من استطاع أن يستكثر فليستكثر) .

(٢) روى الترمذي وحسنه عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

يَسْأَلُ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا حَتَّى يَسْأَلَهُ شَيْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ .

(٣) أنى ذكره في المقدمة عند ترجمة الإمام الشعراني .

وربما كان بعضهم يستغفر من حضوره مع الله تعالى ، وذلك لأن ما حضر مع الله تعالى حتى مثله في ذهنه وأقام ذلك في مخيلته . وتعالى الله في عاق ذاته ^(١) عن مثل ذلك . قال السكّال أن العبد يعبد ربه على الغيب فإنه اللائق بالتنزيه .

ومن هنا قال المحققون في حديث : (اعبد الله كأنك تراه ^(٢)) أنها حالة التعليم ثم . . . يترقى منها إلى حالة السكّال وهو أن يعبد على أنه تعالى هو الذي يرى عبده فيبقى مع نظره تعالى المحقق إياه لا مع نظره هو المتوهم .

وسمعت سيدي على الخواص رحمه الله تعالى يقول : إياكم أن تنكروا على شيء أمر تلهينه بتقديم صلاة النافلة على العالم لأنه طاب له الحضور مع الله تعالى حين رأى قلبه قد مات من طول الحجاب ^(٣) ، وقليل من الناس من تحصل له الحضور مع الله

(١) يقصد في حق ذاته .

(٢) وتام الحديث : روى الإمام البخاري : قال : حدثنا مسدد ، قال حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، أخبرنا أبو حيان القمي عن أبي زرعة عن أبي هريرة قال : كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس فأتاه جبريل فقال : ما الإيمان ؟

قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلغائه ورسوله وتؤمن بالبعث .

قال : ما الإسلام ؟

قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به ، وتقيم الصلاة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان .

قال : ما الإحسان ؟

قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

قال متى الساعة ؟ قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربتها ، وإذا تناول الإبل بهم في البنيان ، في خمس لا يعلمهن إلا الله ، ثم قال النبي ﷺ (إن الله عنده علم الساعة) الآية .

ثم أدبر ، فقال ردوه فلم يروا شيئاً .

فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم .

(٣) فترقيق للقلب وتصفيته أولى لكي يصبح واعداً صالحاً لذلك العالم .

تعالى حال مطالعة العلم أو الحضور مع الله تعالى في العلم ولا يكون إلا للكمل الذين انتهى سلوكهم وعرفوا الله تعالى ، وثم من المرئيين من لا يقدر على طول المكث في حضرة الله تعالى ، فهو طول الليل والنهار يخرج ثم يدخل فيؤمر بالصلاة كلما دخل الحضرة ، كما قالوا في الداخل إلى مكة : أنه يستحب له الإحرام بلبيك كلما دخل إلا أن يتكرر دخوله كخطاب وصياد . ومنهم من يطول مكثه في الحضرة ، ثم مرادنا بالحضرة الإلهية التي يدخلها الفقراء هو شهودهم أنهم بين يدي الله تعالى ، وهو ناظر إليهم ، فما دام أحدهم يشهد ذلك فهو في الحضرة ، فإذا احتجب عنه هذا الشهود خرج من الحضرة فافهم .

ومما شرطوه في قبول الزكاة والصدقة عدم المن بها على من يأخذها من الفقراء والمساكين وبقية الأصناف ولو بالقلب . فمضى خطر له أن له فضلا على ذلك الأخذ ولو بالقلب فقد من وجب عمله كما أطلقت الشريعة .

ومما شرطوه في صحة الاعتكاف عدم خروج القلب من حضرة الله تعالى ، من حين يدخل في الاعتكاف إلى أن يخرج ، ومتى مال إلى شهوة بقلبه وهو بين يدي الله ، وحجب عن شهود أن الله يراه ، فقد بطل اعتكافه فيجب عليه تجديد النية إلا أن يكون ممن أعطاه الله تعالى القوة على الاشتغال بالله وبخالقه معاً لا يشغله الخلق عن حق ، وعكسه بحكم الإرث لرسول الله ﷺ والله أعلم .

ومما شرطوه في صحة الصوم عدم ارتكاب العبد مكروهها فضلا عن المحرم ، لأن شرط صحة الصوم أن لا يخرقه صاحبه بارتكاب ما يكرهه الله ، فيدخل الشيطان حربه فينجسه ومعلوم أن الصوم صفة صمدانية مطهرة من الشوائب النفسانية والشيطانية بمقتضاها كل شيء ليس هو من جنسها على حكم وزان^(١) الصلاة عندهم فكما تقام الصلاة

(١) على قياس الصلاة عندهم .

قيمة الخروج منها كذلك يبطل الصرم الميل إلى فعل مكروه فيه فضلاً عن فعله المحقق .
وقد أجمع القوم على أن الله تعالى ما فرض صوم رمضان ، إلا ليحفظ العبد من دخول
الشیطان جوفه من العام إلى العام ، ومتى وقع الشخص في مكروه أو حرام فقد خرق
للشیطان خرقاً يدخل منه إلى قلبه فيهلكه .

ثم لا يخفى أن الله تعالى ما فرض صوم رمضان إلا طهارة لبني آدم وحفظاً من دخول
الشیطان جوفهم بخرقه صومهم .
وأما الأنبياء وأكابر الأولياء فهم في حجاب عن إبليس لعصمتهم أو حفظهم كما سيأتي
إيضاحه في الجواب عن أهل الحضرة الألهية إن شاء الله تعالى .

ومما شرطوه في صحة الإحرام بالحج وفعل تلك المناسك أن يفتح العقدة الإحرام
كل عقد يضاده مما فعله منذ وعى على نفسه فلا يبقى عنده ميل من شهوة من الشهوات .
وأن يتجرد عن كل شئ دون الله حين ينزع الخيط ، وأن يزول عنه كل علة ظاهرة :
باطنة بالغسل للإحرام ، وأن يجد في نفسه جواب التلبية بقوله تعالى : لبيك عبادي .

وأن يحزم إذا دخل الحرم بترك كل محرم أبداً ما عاش .
وأن يشرف عليه من الحق تعالى إذا أشرف على مكة حال يغيبه عن حسه إذا دخل
البيت أو المسجد أو الحجر بحيث يصير لا يشهد سوى ربه من شدة القرب .
وأن يشهد عند رؤية السكبة ما قصدت له وما مقامها في الموجودات .

وأن يشهد في رمله ثلاثاً : هروبه من الدنيا حتى ينفصل عنها وينقطع عن محبتها بحيث
يصير يتكدر كلما دخلت عليه . ويشهد عند مشيه أربعاً الأمن مما هرب منه ليزد .
شكراً بذلك .

وأن يجد في نفسه الأمان من العذاب ، ومن الحجاب عن الله تعالى في الدنيا والآخرة .
إذا صافح الحجر الأسود .

وأن يطلع علي مكانته من ربه وقبول قصده حين يصلي ركعتين خلف المقام ويعرف
حتى كون الحجر بين الله حين يقبله .

وأن يسمع تكبير الملائكة إذا كبر الله سبعا على الصفا حتى يكبر معها ، ويجد
حقيقة التكبير ذوقاً ، وأن ينصفى من كل علة إذا نزل من الصفا إلى بطن الوادي .

وأن يرى في هرولته فراره من السكون إلى الحق ، ثم يفر من فراره بوصوله إلى
وجوده ، وأن يرى السكينة على المروة إذا وصل إليها فيأخذ منها حظه إن لم تكن تنزل
عنه . وأن يتمنى على الله غير الحالة التي كان عليها من المعاصي وسوء الأدب إذا خرج
منه .

وأن يجد من الخوف من الله ما لم يكن عنده قبل ذلك إذا دخل إلى مسجد الخيف .
وأن يعرف الحالة التي خلق لأجلها ، والحالة التي تصير إليها إذا وقف بعرفات ،
وأن يعرف المعارف له هذه الأحوال ويرى المكان الذي إليه الإشارات وتقيس الأنفاس
تلك هناك في كل حال .

وأن يذكر الله تعالى عند المشعر الحرام ذكرًا ينسيه ذكر ما سواه في الدنيا والآخرة
حتى يصير لا شغل له بما سواه .

وأن يذبح نفسه بسيف المخالفة إذا رجع إلى منى تقرباً إلى الله تعالى . وأن يرى
حبه عنه بزيادة العلم الذي ظهر عليه عند رمي الجمرات ، وأن يحس بنقص أمه إذا حلق
منه أو قصره .

وأن يكشف بشيء من الحقائق عند طواف الزيارة ، ويرى زيادة السكرامات عليه
في زيارته في الحديث « الحجاج والعمار زوار الله وحق علي المزور أن يكرم زواره ^(١) » .

(١) في الحديث (الحاج والغازي وفد الله عز وجل ، إن دعوه أجابهم ، وإن استغفروه
غفر لهم) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة .

ويؤيد حديث : الحاج والمعتمر والغازي في سبيل الله والمجمع في ضمان الله دعوه دعاهم

وأن يعزم حين يحل من إحرامه، على أكل الحلال الخالص أبداً ما عاش.

وأن يخرج عن نفسه وروحه بالسكينة إذا طاف طواف الوداع انتهى.

فانظر في نفسك يا أخى هل فعلت بهذه الشروط حين حججت أم أخطأت بها فيكون عليك الحج ثانياً لتأتى بهذه الشروط ؟ وهذه شروط ذكرها السبكي^(١)، وهى على قدر مقامه حين حج وإلا فلا حج شروط أخر أعلى من هذه الشروط فإن الأذواق تتفاوت وما أعلمتك بذلك إلا لتعرف أنى لم أبتدع هذه الشروط التى ذكرتها فى الوضوء والصلاة والزكاة والصوم والحج وإنما أنا تابع لغيرى فى ذلك من أقدم وأنى لم أخترع من عند نفسى شيئاً لم يذكره غيرى.

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول : غاية صوفية زماننا هذا أن يصلوا إلى العمل بظاهر الشريعة فضلاً عن باطنها على وجه الظن.

وأما عملهم بالشريعة على وجه علم اليقين أو عين اليقين أو حق اليقين فذلك كالحال^(٢).

وسمعه مرة أخرى يقول : ما ثم كامل فى طريق الولاية إلا وقد خرج عن تقليد غيره فى العلم ما عدى^(٣) رسول الله ﷺ فيصير يأخذ العلم بالأحكام من حيث يأخذها المجتهدون.

وبعضهم لا يقنع بالظن فى علمه إنما يطلب الوصول إلى علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين التى هى علوم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فيصلون إليها بحكم الإرث للأنبياء

فاجابوه وسألوه فأعطاهم (الشيرازى فى الألقاب عن أبى هريرة.

(١) من كبار علماء الشافعية

(٢) يقصد بذلك أنهم غير موقنين إيقاناً كاملاً يصل إلى مرتبة علم اليقين أو عين اليقين أو حق اليقين أى لم يصلوا فى الولاية إلى اليقين الكامل.

(٣) ما عدا.

لا استقلالاً وهناك لا تنزلهم الأدلة ولا يرجعون عن قول قالوه لظهور دليل آخر ولا يبدوا
هم في الآخرة علم آخر خلافاً لم يكن في حسابهم .

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول : إياكم أن تبادروا إلى الإنكار على أحد
من أهل الطريق إذا وأبتموه يتكلم بكلام يخالف ما فهمه بعض العلماء فإن دائرة الفهم
واسعة وتربصوا في ذلك القول وانظروا فيه فربما كانوا أخذوه من مفهوم الأدلة أو لغة
عرب تشهد لذلك^(١) .

وقد روى الطبراني مرفوعاً (أن شريعتي قد جاءت على ثلاثمائة وستين طريقة ما من
طريق يسلكها العبد المؤمن إلا نجا من النار^(٢)) انتهى .

كل ذلك فتح أبواب التسليم للأئمة المجتهدين والعلماء العاملين في طريق الظاهر
والباطن ، فإن أعطاك الله تعالى يا أخي العلم بهذه الطريق كلها على وجه الكشف واليقين
ونظرت فيها ولم تجد لذلك الكلام الذي قاله ذلك الشخص مسنداً يشهد له من جميع
هذه الطريق فأنكره حينئذ كما تنكر على من خرق الإجماع على حد سواء .

وأعلم يا أخي أن علم النصوص ليس هو بأمر زائد على السنة ، وأقوال الأئمة . هو
مشيد بالأدلة وليسكن غالب الناس لما قل اعتناؤهم بالعمل بمخالفة النفوس لم يعموا النظر
في أدلة كلام القوم كما يلتفتون النظر في المسائل الفقهية ، وإن كان عين الفقه هو عين
النصوف ، وما ثم تمييز بين الطريقين إلا بالمقاصد في الأعمال .

فالفقيه مثلاً يطلب بعمله الثواب من الله عز وجل على أعماله من دخوله الجنة ، والخور ،
والقصور ، والمآكل ، والمشارب .

والقوم يطلبون من الله ما يطلبونه إظهار الكفاية والحاجة من باب المنة والفضل
لا من باب مقابلة الأعمال بالثواب .

(١) فيجب الثاني في ذلك وعدم الأخذ بظاهر القول فقد يكون له وجه آخر في المعرية
ثبوتها من العلوم .

(٢) رواه الطبراني مرفوعاً .

ثم إن منهم من يطلب من الحق مجالسته لا غير ، ومنهم من يستحي من ذلك ويقول :
أنزه ذلك الجلال البديع عن مجالسة مثلي ^(١) .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول : ما ثم عند المحققين حقيقة تخالف
شريعة أبداً إنما كل واحدة تأتي مؤيدة للأخرى في نفس الأمر . حتى أنهم أجمعوا على
قولهم : حقيقة بلا شريعة باطلة ، وشريعة بلا حقيقة عاطلة .

وكل من رأى بين الشريعة والحقيقة مخالفة فإنما هو لقصوره عن درجة الكمال كما هو
مشهود بين القاصر من الفقهاء وبين القاصر من الفقراء ، فإن الحقيقة غاية مراتب الشريعة
ولا يكمل الشريعة إلا بمراعاة الحقيقية .

فإذا صلى الإنسان ظاهراً وهو غير مقر بوجوبها عليه حملناه على المحامل الحسنة وأنه
مقر بها . ولو أنه قال أنا : أنا لا أقر بوجوبها عليّ أبطلناها في الحقيقة والشريعة .

ويظهر لك ذلك أيضاً في بيئة الزور في نفس الأمر . فإنه ينفذ فيها حكم الحاكم بها .
ولو أنه صرح له الشهود بأنهم شهدوا زوراً لم ينفذ حكمه لا ظاهراً ولا باطناً .

وإذا كانت البيئة صادقة نفذ حكمه ظاهراً وباطناً ، نظير الأعمال الخاصة والأعمال التي
دخلها الرياء إذا جوزى العبد بها في الآخرة ، فلا تخالف الشريعة الحقيقية إلا من حيث
القصد في الباطن لا غير . ولم يتعبدنا الله تعالى بالاعلاع على القلوب فافهم .

وكان سيدى إبراهيم الدسوقي رضى الله عنه يقول : الشريعة كالشجرة والحقيقة كالثمرة
فلا بد لكل واحدة من الأخرى .

ولكن لا يدرك ذلك إلا من كل ملوكه ، وأما غالب الناس فيشهدون الحقيقة
مخالفة للشريعة كما نبه على ذلك السيد مرسى عليه الصلاة والسلام بانهكراه الصورى
أولاً على الخضوع عليهما السلام .

(١) فإن الصوفية يعبدون الله لذاته ولا يطلبون شيئاً من الثواب .

نم إنه لما ترقى في درجة الحقيقة أفره ولم ينكر عليه ليعلم قومه بمرتبة الكمال فإن
عصر الشريعة لا يبيح لنا خرق سفينة غيرنا بغير إذنه إذا خفنا أن يغصبها منه ظالم ولا
قتل غلام إن خفنا أن يرهق أبويه طفيلاناً وكفراً في المستقبل .

وكذلك القول في الجدار ، فلولا أن موسى عليه الصلاة والسلام علم أن ما فعله
يضر له وجهه في الشريعة وإلا كان دام على إنكاره عليه وكان لا يقبل للخضر هندراً .
فتأمل في هذا المبحث فإنك لا تمجده في كتاب والحمد لله رب العالمين .

بيان نبذة صالحة من مصطلح القرم من حيث أخذهم بالعزائم دون الرخص
ذكرناه هنا ليطلع عليه من يطالع هذا الكتاب قبل الخوض
فيه بغير علم ، فرعما بادروا من لا يعرف مصطلحهم إلى
الإنكار عليهم بغير علم

قال الله تعالى : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » .
وقال تعالى : « وإذ لم يهتدوا به فسيقتلون هذا أفك قديم » .
ويكون على علم كل من طالع في هذا الكتاب أن طريق التقوم محرره على الكتاب
والسنة تحرير الذهب والجوهر كما مر أوائل الكتاب .

ولكن سبب مبادرة بعض المجادلين إلى الإنكار بعدم عن مخالطة أهل الله عز
وجل ، وإقبالهم على العلوم المتعلقة بالأحكام الظاهرة دون العلوم المتعلقة بأمراض القلوب
ودوائها ، حتى لا تسكاد تجدد أحداً من طلبة العلم بتطبيقاتها ، خلاف ما كان عليه السلف
الصالح من أدركناهم كشيخ الإسلام زكريا وشيخ الإسلام برهان الدين بن أبي شريف^(١)
والشيخ شمس الدين السمانودي والشيخ جلال الدين بن قاسم المالكي^(٢) .
وكانوا لا يقرءون أحداً العلم إلا أن رأوا نيته صالحة في طلبه .

وكان الشيخ شمس الدين السمانودي يسأل الطالب ماذا تريد بالاستغفال بالعلم ؟ فإن
قال له : أريد أتولى القضاء يكف عن تعليمه ويقول له : إذهب فاقراً على فقيرى .

(١) هو الشيخ برهان الدين بن أبي الشريف الشافعى رضى الله عنه : كان شيخاً للإسلام
وكان عالماً ورعاً زاهداً عابداً ، متمكناً في علوم الظاهر والباطن .

(٢) هو شيخ الإسلام الشيخ جلال الدين بن القاسم المالكي رضى الله عنه .
كان كثير المراقبة لله في أحواله ، وكانت أوقاته كلها معمورة بذكر الله عز وجل .
وكان يحفظ مدونة الامام مالك وشرح مذهبه عن ظهر قلب .
وقد شرح مختصر خليل ورسالة أبي زيد القيروانى في الفقه المالكي .

وهذا أمر قد أغفله غالب أهل هذا الزمان الآن لأمر يطول شرحها .
ومعلوم أن كل علم أو عمل لا ينبغي به صاحبه وجه الله أى مرضاته فهو مضمحل .
وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول : جميع ما ورد فى ثواب الأعمال إنما هو
فى حق المخلصين فيها .

وأما غير المخلصين فقد توعدهم الشارع ﷺ بالنار . فمن زعم أن له ثوابا فى عمله
وعمله الذى دخلته النية الفاسدة فقد افترى على الله الكذب ومثاله مثل التجار الذين
يبيعون بالفلوس طول عامهم ثم ينادى هليها السلطان بابطالها .

فلا تسأل يا أخى عما يقع لهم من شدة الندم .
فهذا مثال من يقصد بعلمه وعمله غير الله إذا ظهر له فساد نيته يوم القيامة انتهى .
إذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق : من مصطلح القوم الذى ربما يادر المجادل إلى
نكاره أخذهم العهد على المرید بتركه للمباح .

ويقول المجادل : كيف يأخذ هؤلاء العهد بترك المباح الذى جعله الشارع مباحاً
ويخرجونه عن حكمه إلى حكم المنهيات ؟ انتهى .
وهو إنكار بغير علم ، لأن جميع مشايخ الطريق إنما هم معدون لترقية المریدين إلى
لنقامات العالية .

ومعلوم أن المباح من حيث هو مباح لا ترقى فيه لأحد لأنه حظ النفس تتنفس فيه
من مشقة التكليف وحصول الملل من الطاعات .
ومن شأن النفس أنها تحب كل حالة لا تكون فيها تحت حكم أمر ولا نهى .
وفى المثل السائر يشيب العبد وفى خاطره أن يهرب من تحت حكم سيده هاربة يكون
فيها مطلق العنان لا تمجيد عليه^(١) .

(١) فبكون تركهم المباح هو بمحض إرادتهم فلا يشعرون بالاجبار الذى تكرهه
نفس .

وسمعت سيدي على الخواص رحمه الله يقول : ما جعل الله تعالى المباح إلا تنفيراً
لبني آدم من مشقة التكليف حين ركب الله تعالى في ذواتهم الملك من التكليف .

ولو أن الله تعالى لم يركب في ذواتهم الملك لم يشرع لهم المباح كما فعل بالملائكة
لأنهم لا يعرفون الملك طمعاً فلذلك كانوا يسبحون الليل والنهار لا يفترون .

قال : ولما كان القوم من شأنهم الأخذ بالعزائم دون الرخص طلباً للترقي كما هو معلوم
من أحوالهم طلبوا من المرادين العمل على تفليل المباحات جهدهم ويجعلون مكان ذلك
طاعة يثابون عليها .

فإن لم يجدوا طاعة نوراً بالمباح خيراً من أكل وكلام ونحو ذلك . كالنقوى على
العبادات بأكل تلك الشهوة أو زوال العبوسة بمباشرة إخوانهم ببعض كلام ، ونحو ذلك .
وقد أجمعوا على أن كل من مهد لنفسه ارتكاب الرخص دون العزائم لا يجيء منه
شيء من الطريق .

وسمعت سيدي على المرصفي رحمه الله يقول : لا يصح ما يريد قدم في الإرادة حتى يترك
فعل المباحات ويجعل مكان كل مباح تركه مأموراً شرعياً من مندوب أو أولى ويجتنب
المباح كأنه منهي عنه كراهة تنزيه ويجتنب المكروه كأنه حرام .

وسمعت سيدي على الخواص رحمه الله يقول : لا يبلغ المرید مقام الصدق حتى يزيد في
تعظيم أمر الله ونهيه فيفعل المندوب كأنه واجب ويجتنب المكروه كأنه حرام ويجتنب
الحرام كأنه كفر وينوي بجميع المباحات خيراً ليثاب على ذلك فينوي بالنوم في القيلولة
التقوي على قيام الليل ويتناول بعض الشهوات للمداواة لنفسه إذا نفرت من العبادات
بالسكينة فإن لسان حال النفس يقول لصاحبها : كن معي في بعض أغراضى وإلا صرعتك .
وفي الحديث مرفوعاً : « المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » .

والمراد بالمنبت : هو الذي حل دابته فوق طاقتها في السفر حتى رقت فلا هو قطع
الأرض ولا هو أبقى معها قوة يسير بها .

وكذلك ينوى بلباس الثياب الفاخرة إظهار نعمة الله عليه دون الحظوظ النفسانية .
وكذلك يأكل اللذيذ من الطعام والبارد الحلو من الشراب لأجل استجابة أعضائه
بشكر الله تعالى بمزم .

وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله يقول لأصحابه : كلوا من أطيب الطعام
واشربوا من ألذ الشراب وناموا على أوطأ الفراش وألبسوا ألين الثياب فإن أحدكم إذا
فعل ذلك وقال الحمد لله يستجيب كل عضو فيه للشكر بخلاف ما إذا أكل خبز الشعير
ملح ولبس العباءة ونام على الأرض وشرب الماء المالح الساخن وقال : الحمد لله : فإنه يقول
ذلك وعنده اشمزاز وبعض سخط على مقدور الله عز وجل .

- ولو أنه نظر بعين البصيرة لوجد الاشمزاز والسخط الذي عنده يرجح في الإنتم على من
تتمتع بالدنيا بيقين ، فإن المستمتع بالدنيا فعل ما أباحه الله .

ومن كان عنده اشمزاز وسخط فقد فعل ما حرم الله .

وممعت سيدى على الشاذلي رحمه الله ربيب الشيخ أبي المواهب يقول : طريقنا إظهار
نعمة في الملبوس وغيره دون الكشف لما فيه من رائحة عدم انشراح النفس به ، فثياب
مدنا كثياب الأغنياء وقلبه من أفقر الخلق إلى الله تعالى . فلا يكاد أحد ينسبه إلى
اعتق لما هو عليه من الفخامة وأكل الأطعمة الفاخرة .

وقد كان سيدى إبراهيم المواهبي رضي الله عنه إذا أتاه دينار مثلاً يشتري به لحماً
ويخبخ ذلك اليوم ويدعو إخوانه فيأكلون ، فربما حضر أحد معهم فرأى طعامه أوسع
من طعام التجار فيبسط لسانه فيه بغير حق ، والحال أنه أطيب نفساً وأخرج من صاحب
سرقعة وفي الحديث : المعرنة من الله تأتي على قدر المؤنة ^(١) .

(١) وفي الحديث : عن أبي هريرة رضي الله عنه : قال : قال رسول الله ﷺ ما من
يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما ، اللهم أعط متفقاً خلفاً ويقول
الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً .

فربما أنت مثل هذا المعونة من الله السنة المتوالية لكونه يطعم الناس بكل ما دخل له
كل يوم بيومه لا يبيت على دينار ولا درهم .

وكان سيدي محمد بن عنان رحمه الله يقول : لا يكمل الفقير حتى يكثر من الطاعات
بحيث لا يجده ساعة في ليل أو نهار إلا وهو في واجب وما ألحق به من المنسوب والأولى
أو في اجتناب حرام وما ألحق به من المكروه وخلاف الأولى .

وسمعت مرة أخرى يقول : من شرط الصادق من الفقراء أن لا تجده في غفلة عن
عبادة ربه ، فإن سكنت جوارحه تحرك قلبه ، فلم يزل في عبادة ظاهرة وباطنة .

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول : يحتاج صاحب المباح أن يكون له عدة
أعين : عين ينظر بها أنه من صدقات الحق تعالى عليه فيشكره على ذلك ، وعين ينظر
بها إلى أنه يكون استدراجاً وحيالة للمكر الإلهي به في هذه الدار فيخاف من فعله ، وعين
ينظر بها إلى رؤية كونه استدراجاً وحيالة للمكر من باب سوء الظن بالله عز وجل فيستغفر
منه ، وعين ينظر بها إلى أن المباح من جملة ما أخص به الحق جل وعلا فإنه هو الذي
يفعل ما يشاء ولا يدخل تحت التحجير .

وأما العبد فشرفه كونه تحت تحجير سيده إما في فعل مأمور به أو في اجتناب
منه .

وقد درج السلف الصالح كلهم على الخوف من المباح لكونها حالة يكون العبد فيها
مع نفسه لا مع ربه غالباً فيكون كالبهيمة السارحة انتهى
فاعلم ذلك وتأمله فإنك لا تجده في كتاب .

وبعد أن علمت أن لاقوم أخذ العهد على المرید بترك المباح لكونه لا ترقى فيه علمت
من باب أولى أن لهم كذلك أخذ العهد على المرید أو فعل ما سكت عنه الشارع ﷺ
ولم يصرح فيه بحل ولا بإباحة ، لأن الشارع قد أبهم عن شريعته بعدد ، وجعلهم نواباً
عنه في إرشادات الأمة ، فكثيراً ما ينهون المرید عن المباح تنزيهاً كما نهى رسول الله

ﷺ فاطمة رضي الله عنها عن لبس الحرير والتحلل بالذهب تنزيهاً من حيث أن ذلك من زينة الدنيا الفانية وقال لها : يا فاطمة من لبس الحرير والذهب في الدنيا لم يلبسهما في الآخرة ^(١) مع أنه ﷺ صرح في الأحاديث الصحيحة يحل الذهب والحرير لأنثى أمتة . وكانهي ﷺ عائشة رضي الله عنها عن الأكل في يوم واحد مرتين وقال لها : يا عائشة أكلتان في نهار واحد مرفى والله لا يحب المرففين .

مع أنه ﷺ أباح لأمتة الجمع بين الغداء والعشاء في اليوم الواحد كثيراً . ومن بلغنا أنه كان يأخذ بالنشيد من الصحابة عبد الله بن عباس وأبو ذر رضي الله عنهم فشدد عبد الله بن عباس ^(٢) على نفسه لما نزل الماء في عينيه وقل له الأطباء : إن تركت السجود أمكننا مداواتك فاختار المعنى على ترك السجود مع أنا لو أومأ بالسجود لكان ذلك كافياً له .

وحرم أبو ذر ^(٣) الادخار للقوات مع علمه بأن رسول الله ﷺ أدخر قوت عامهم . وتبعهما أشياخ الطريق على ذلك النشيد في حق أنفسهم وفي حق تلامذتهم فأخذوا لمزيد بأكله الشهوات المباحة لكونها توقفه عن الترفي . وأخذوه باليوم من غير ضرورة وبالأكل من غير جوع وبالكلام من غير حاجة .

(١) وفي الحديث : عن حذيفة رضي الله عنه قال : إن النبي ﷺ نهانا عن الحرير . ودياج والشرب في آنية الذهب والفضة . وقال : هن لهم في الدنيا وهي لكم في الآخرة متفق عليه .

(٢) هو الصحابي الجليل (عبد الله بن عباس) وكان يطلق عليه (حبر الأمة) لشدة علمه وفضله وجهاده في سبيل الحق ، ويؤثر عنه كثير من الأحاديث عن سيدي رسول الله ﷺ وله تفاسير مشهورة لآيات القرآن الكريم يظهر فيها العلم والذكاء وسعة الافق .

(٣) هو الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري : قال عنه سيدي رسول الله ﷺ : رحم غابر ذر ينشئ وحده ، ويموت وحده ، ويميت يوم القيامة وحده . وكان زاهداً عفيفاً يقول كلمة الحق ولا يخشى في الله لومة لائم .

هو مخالطة الناس إلا لضرورة فأرادوا أن يثاب مريدهم ثواب الواجبات في سائر أحواله .

فياً كل حين يجب عليه الأكل ويتكلم حين يجب عليه الكلام ، مثلاً فإن نزل عن ذلك فلا ينزل عن الاستحباب فياً كل حين يستحب الأكل ويتكلم حين يستحب الكلام .

وكذلك آخذوا المريد بالذسيان وبالاحتلام وبعد الرجل في ليل أو نهار إلا لحاجة .
وآخذوه بالخواطير ولو لم تستقر وغير ذلك مما هو مذكور في كتبهم كرسالة القشيري وعوارف المعارف ونحوهما .

ومما استدلوا به على مؤاخذتهم المريد بأكل الشهوات المباحة كون الحق جل وعلا نهي على السكفار شهواتهم بقوله : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون الآية » وقلوا : ما نعام الله على أهل النار وأدخلهم إليهم يسديه فنحن أولى بتركه والتباعد عنه .

ويؤيد ذلك ما قاله ابن مسعود^(١) رضى الله عنه في تفسير قوله تعالى : « فسوف يخلقون غيا » قال : هو واد في جهنم يقذف فيه الذين يتبعون الشهوات .

وفي زبور داود عليه الصلاة والسلام : يا داود حذر وأنذر قومك أكل الشهوات فإن قلوب أهل الشهوات غير محجوبة وكما أن أكل الشهوات يطرد العبد عن حضرة الله عز وجل فكذلك مد المريد رجله من غير حاجة بجامع سوء الأدب^(٢) .

ومما اشتدوا إليه في مؤاخذة المريد بالذسيان : كون المريد لا يقع في النسيان إلا لسهاه

(١) هو الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود : كانت له صحبة طويلة بالرسول ﷺ واشتهر بأنه أحد القراء الكبار للقرآن الكريم . وكان من الصحابة الذين أدلوا بنصيهم في كثير من أمور الفقه والتفسير والحديث .

(٢) إذا كان يريد للترفع والتكبر ، وأيضاً كون العبد بين يدي الله عز وجل .

في المقدمات ، بدليل أن الإنسان لما تتوجه همته إلى تحصيل أمر يصير لا يكاد يأخذه نوم بل ينام يحلم بذلك طول ليلته .

ويؤيد ذلك قول علمائنا في التميم : إذا نسي الماء في رحله أو أضله فيه وقتش عليه فلم يجده فميم أنه يقضى في الأظهر ولسبوه إلى التقصير في نسيانه أو اضلاله .

وكذلك يؤيده قولهم أيضاً : ولو صلى بنجس كان علمه ثم نسيه وجب القضاء على المذهب . وقالوا : لو أتلف إنسان مال إنسان أو أكل طعامه نسياناً وجب عليه ضمانه والنظائر في ذلك كثيرة . مع أن قاعدة الشريعة التي أتى بها الشارع رفع حكم الخطأ والنسيان والإكراه عن الأمة إلا فيما استثنى .

وأجابوا عن حديث : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان والأمر يستكروهون عليه ^(١) » بأن المراد رفع الإثم لا رفع الضمان .

والعلماء رضى الله عنهم أمناء الرسل على الشرائع والناس لهم تبع .

وذكر الشيخ محي الدين بن العربي في الفتوحات المسكية ما نصه : إنما آخذ القوم الأمر بالنسيان ، لأن مبني طريقهم على الحضور الدائم مع الله تعالى ، والنسيان فيها نادر ، والنادر لا حكم له . مع أن قاعدة الشريعة رفع حكم النسيان عن الأمة إلا ما استثناه فعلماء من ذلك لئلا يترك ما نسيته من الصلاة وأركانها انتهى .

وسمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله يقول : نسيان الأكبر تشريع لقومهم كما في رإلية خبر : إنما أنسى ليستن بي ليستن ^(٢) .

وأما نسيان الأصاغر فقد يكون للتساهل في ذلك الأمر ، وقد يكون لغيره ، قال : وينزل من يعتذر من المريد عن النسيان ، وأنه لم ينس ذلك الأمر استهانة به لو أن

(١) وتام الحديث : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكروه عليه » رواه البخاري في الكبير عن ثوبان .

(٢) وفي الحديث « إنما أنا بشر أنس كما تنسون ، فإذا نسي أحدكم فليسجد سجدتين » رواه الإمام أحمد في مسنده .

شخصاً من الأكابر الصادقين وعده بألف دينار إن قام تلك الليلة للتهجد ، وإن لم يقم .
يعطيه شيئاً : كيف يصير يحدث نفسه بذلك في نومه ويقتضيه ؟ وإن خاف استغراقه و
النوم أوصى من يوقظه ولو بأجرة ، كل ذلك حرصاً على الدنيا الفانية ولا شك ولا خدع .
أن ما وعد الله تعالى به قائم الليل من الأجر والثواب أفضل . بل كل ذرة منه لا يقاوم
ملك الدنيا كلها لأن كل ما فيه مرضاة الله لا يقابل بالإغراض الدنيوية وكم فأت الله
من الغنائم وكأن غرض القوم من رياضة المريد والتضييق عليه : أن يحولوا قلبه إلى
محبة الله والدار الآخرة ، ويقلب تلك الداعية التي عنده للدنيا إلى مرضات الله
عز وجل .

وكما أنه يعطى الأجرة لمن يوقظه للتهجد مثلاً لأجل الألف دينار : كذلك من باب
أولى أن يعطى الأجرة لمن يوقظه ليناجي ربه عز وجل بارتفاع الوسائط وتبارز بذلك
النعيم الذي لا يقاومه نعيم في الدارين . فإن قال قائل : فما حكم من يقدم أعمال الدنيا
على أعمال الآخرة في اليقظة ؟ فالجواب : أن هذا لم يصح له قدم في محبة الآخرة ، ولا
يجب منه شيء في بدايات الطريق فضلاً عن نهاياتها .

وقد سمعت سيدي محمد المغربي الشاذلي رحمه الله يقول : لا يصح لمريد هتدنا قدمه
في طريق الله عز وجل إلا بعد أن يزهد في شهوات الدارين ونعيمها ، وهناك أول
سيرة فإن الناس ثلاثة أقسام : عوام وخواص وخواص الخواص فالعوام هو كل من
يصبح والدنيا أكبر همه ، فلا يلتفت لورد بعد الصبح ولا غيره ، والخواص من يقدم
أعمال الآخرة على الدنيا طامعاً للشواب الذي وعده الله به ، وخواص الخواص من يعمر
الله امتثالاً لأمره لا خوفاً من عذابه ولا طمعاً في ثوابه انتهى .

ومما استندوا إليه في مؤاخذتهم المريد بالاحتلام كون الاحتلام لا يقع من مريد إلا
بعد إطلاقه بصره في النظر لما لا يحل له والتفكير فيه ، وإن وقع الاحتلام في حلاله
فلا بداهة كذلك من إطلاق البصر باليهن والتفكير في كيفية الاستمتاع به . ثم إن إبليس
إذا رآه متفكراً في ذلك وحيل بينه وبين شهوته أتاه بذلك الذي تعلق خاطره به في

النوم ليسخر به ويمنع من الصلاة وتلاوة القرآن حتى يصح له التطهر وربما منعه من ذلك الليلة كلها لكونه احتلم بعيد العشاء ولم يجد ما يتطهر به أو ما يصلح أن يتطهر به . فعلم أن كل من لا يطلق بصره لا يقع منه احتلام .

وكذلك لم يبلغنا أن أحداً من الأنبياء احتلم . وكذلك من حفظ من الأولياء وذلك لعصمة الأنبياء وحفظ الأولياء من أن يلعب بهم الشيطان في يقظة أو منام ، لكن لا يخفى أن لعبه بالمريدين في النوم أخف من لعبه بهم في اليقظة ، فينبغي لهم شكر الله على ذلك فافهم .

ثم إن قدر أنه وقع من أحد الأولياء احتلام فإنما يكون ذلك في حالته دون ما يحل له . وسبب ذلك ما ينجلي لقلوبهم من عظمة الله عز وجل ، فيذهلون عن تدبير أبدانهم . وقد وقع أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه احتلم مرة في جارية له فغسل وقال : لقد ابتلينا بهذا الأمر منذ ولينا أمر المسلمين واشتغلنا بمصالحهم انتهى .

وذكر سيدي علي الخواص رضي الله عنه : أن سيدي إبراهيم المتبولي لم يحتلم قط إلى أن مات بعد مائة وسبع سنين ، وكان يقول : من زعم أنه تاب من الزنا ثم احتلم بعد ذلك فيما لا يحل له فهو دليل على عدم توبته النصوح . إذ من شرط التوبة النصوح أن لا يصير في قلبه حلاوة لتلك المعصية التي تاب منها واحتلامه يدل على بقاء حلاوة تلك المعصية في قلبه . فلو لا وجود تلك الحلاوة في قلبه لما تفكر ولا احتلم انتهى .

ومما استندوا إليه في مؤاخذتهم المريد بمد رجله بغير حاجة في ليل أو نهار : كون العبد دائماً بين يدي الله عز وجل إيماناً أو شهوداً شعر بذلك أم لم يشعر فطالبوا من المريد أن يواظب على عدم مد رجله بغير حاجة بحكم الإيمان بأنه بين يدي الله عز وجل حتى ينكشف عنه الحجاب بعد انتهاء سلوكه ويصير حجاب إيمانه كلاً حجاب ، وهناك يكون دخول النار عليه أو ضربه بالسيف أهون عليه من مد رجله بغير حاجة .

وقد بلغنا عن السيد إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه أنه مد رجله في ليلة بغير حاجة فسمع هاتفاً في الحال يقول : يا إبراهيم تأدب فإنك بين يدي ربك جالس وما هكنا أحد يجالس الملوك . فقال : فما مد إبراهيم بعد ذلك رجله في ليل أو انهار حتى مات انتهى .

وقد أخبرني أخى أفضل الدين رحمه الله : إنه وقع له في بدايته رقة حجاب^(١) فصار يرى نفسه بين يدي الله لا يتمحجب ذلك عنه قال : فصرت لا أُنجبوا^(٢) أن أدخل الخللا ولا أكشف لى عورة عند الاستنجاء ولا يخرج لى بول ولا غائط من شدة الحياء من الله تعالى فما كنت إلا هلكت^(٣) . ثم إنى استغثت بالله عز وجل أن يسدل على الحجاب فأسده على رحمة بى . وكان رحمه الله بعد ذلك يقول : لولا أن الله تعالى حجب الخلق عن شهوده لما وقع أحد فى معصية ولا كادوا يموتون كلهم من هيبتة تعالى نحو يوم واحد انتهى .

وسمعت شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول إنما آخذ الفقراء المريد بتهمة الخلق له بالسرقة مثلاً — وإن كان الشرع يقضى بعدم المؤاخذة على ذلك — لأنهم إنما آخذوه بتعاطى مقدمات التهاون بحقوق الناس فما آخذوه إلا بأمر محقق وقع منه ولو أنه خاف من حقوق الناس وتكرر منه ذلك لشهد الناس ببراءته وكذبوا من اتهمه انتهى . فعلم من جميع ما قررناه إن طريق القوم كلها أدب وخير وأنها أجل الطرق ، خلاف ما يظنه بعض الأجلاف الذين كشف حجابهم فالله تعالى يتفضل عليهم بالعفو^(٤) . فإن الطمأن فى طريق أهل الله طمأن فى أخلاق الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين . وقد قدمنا عن أبى تراب النمخشى رضى الله عنه أنه كان يقول : إذا أُلِف القلب

(١) حال من أحوال الكشف ورفع الحجاب .

(٢) لا يستطيع دخول الخللاء .

(٣) كاد أن يهلك .

(٤) عبارة فى مدح الصوفية .

الإعراض عن الله سبحانه والوقية في أولياء الله ، أى لأنه لا يحترم جلساء الملك إلا من أجعل علي الله ودخل حضرة من المنتظرين من الأدناس .

أما المتلطفون بشيء من المعاصي الظاهرة أو الباطنة من حسد ، وكبر ، وهجب ، وفاق ، ورياء ، وحق ، ومكر ، وحرص على الدنيا ، فلا يمكن الملائكة أحداً منهم يدخل حضرة الله أبداً .

ومعلوم أن أهل حضرة الله عز وجل ثلاثة أصناف : أنبياء وملائكة وأولياء .
وليس أحد من هؤلاء يحب الدنيا ويقع في الحرص عليها أبداً وإن وقع من أحد من الأولياء شيء من ذلك فهو قبل كماله أو بعده ويتوب منه على الفور ليدخل حضرة الله تعالى التي هي قوت قلوبهم .

وقد انعمت إجماع أهل الله قاطبة على أن المعاصي الباطنة كالنجاسة الظاهرة على حد سواء فكما لا يصح صلاة من في ثوبه أو بدنه نجاسة : كذلك لا يصح صلاة من في قلبه نجاسة إلا ما عفى عنه العلماء في دولة^(١) الظاهر والباطن ليسير كبر أو عجب قياساً على يسير دخان نجاسة أو غبار زبل .

لكن هذا العفو إنما هو في حق العوام من أهل الطريق .

أما الخواص فلا يسامحون نفوسهم بمثل ذلك كما لا يسامحونها في ارتكابها المكروه أو خلاف الأولى .

فالكامل من طابق بين الظاهر والباطن في التطهير من الأدناس .

وسياتي في الكتاب أن الشيخ أبا الربيع المالقي رحمه الله سمع تلميذه الشيخ الكامل أبا عبد الله القرشي يقول : اللهم لا تفضحني بسريري على رؤس الخلائق في الدنيا أو الآخرة .

فقال له : ولأى شيء تجعل لك سريرة تفضح بها لم لا تطهر سريرتك كما تطهر ظاهرك

لتطابق بين باطنك وظاهرك وتخرج من صفة المناقنين انتهى .

وسمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله يقول كثيراً : قد أجمع المحققون من أهل الله عز وجل على أن حضرة الله محرم دخولها على من بقى عليه بقية من ارتكب المظهورات إلا بقدر ما يعفى عنه من النجاسة الظاهرة .

فكما أجمعوا على أن من صلى وفي ثوبه أو بدنه نجاسة لا يعفى عنها أو ترك لمعة من غسل أعضائه طهارته لا تصح له صلاة وكذلك من صلى وفي باطنه صفة مخفية^(١) بل النجاسة الباطنة عندهم أولى بالبدلان لأن القاب محل نظر الله تعالى من العبد .

وكان رضى الله عنه يقول : من صلى وفي قلبه غل ، أو مكر أو حقد ، أو محبة للدنيا فينبغي له إعادة تلك الصلاة لأن أهل الله لا يعبدون بمثل هذه الصلاة لأنهم يشهدون أن تلطخ باطنهم بشئ من المعاصي الباطنة لضمخهم بالنجاسة الظاهرة على حد سواء فلا يسقط عنهم الفرض فهي صلاة صورية لا حقيقية .

ولكن لما كان مبني أحكام العامة على ظاهر الشريعة رحمة بهم - كما بنا بصحة صلاتهم في الظاهر وحسناتهم على الله تعالى بخلاف مبني طريق القوم فإن بناها على مطابقة الظاهر للباطن في الدنيا والآخرة فإنهم قد خرقوا بهدوهم إلى الدار الآخرة ورأوا بنور الكشف الأعمال التي تقبل هناك والأعمال التي لا تقبل حتى كأنه رأى عين لهم من هذه الدار . ولكل مقام رجال .

فإن قال قائل : ما مرادكم بحضرة الله تعالى التي يمنع من دخولها من تلطخ بنجاسة ظاهرة أو باطنة ؟ فالجواب : المراد بحضرة الله تعالى حيث أطاعت بين القوم هي شعور العبد أنه بين يدي ربه عز وجل ويصير تعالى يراه ، فما دام يشعر ذلك فهو في حضرة الله فإذا حجب عن هذا المشهد خرج من الحضرة سواء كان في الصلاة أم خارجها .

وإذا خرج من الحضرة بطلت صلاته ، لأن من شروط صحة الصلاة عند أهل الله عز وجل

(١) صفة مخفية .

وجل دوام الحضور معه تعالى من حين يحرم بها إلى أن يسلم منها قال : وهذه هي حضرة
الإحسان المشار إليها بحديث : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه
يراك ^(١) » .

كما مر تقديره مراراً .

فعلم أن دخول هذه الحضرة إنما هو بالقلوب والأجسام تبع لها ، وعلم أيضاً أن من لم
يتطهر من النجاسات الظاهرة والباطنة لا يقدر على درام استحضاره أنه بين يدي الله
تعالى أبداً ولو قدر أنه تكلف ذلك زهت روحه من تلك الحضرة وخرجت قهراً عليه
بواسطة الملائكة الواقفين في تلك الحضرة يعلمون الناس الأدب مع الله ، فلا يمكنون
شعراً يشهد ، تعالى وهو متلطف بحوث ظاهر أو باطن غيرة على جناب الحق جل وهلا ،
بل لو خالف ولحظ جمال نور الحق تعالى في تلك الحضرة من غير علم الملائكة مثلاً
احترق بشهاب من شهب الحضرة . أو طرد منها لو بقي جسمه كما يطرد الشياطين حين
ترمى بالشهب من السماء ، فلهذا تسارع أهل ^(٢) تعالى إلى تطهير قلوبهم ولم يعأوا بطهارة
ظاهريهم فقط دون باطنهم بل طهروا باطنهم من كل صفة نهام الشرع عنها ولو تنزيهاً ،
حتى أن منهم من دخله عمل على عدم خطور معصية على قلبه السنة والنتين .

وكان الشيخ سليمان الديلمي رضى الله عنه يقول لى : منذ خمسين سنة ما أظن أنى ملت
إلى معصية ظاهرة ولا باطنة انتهى .

وذلك لأن العبد ما دام عنده ميل إلى المعاصى فهو يخطر على قلبه ضرورة .
فإذا لم يكن عنده ميل ذهب الخطور ضرورة كما هو مقام الأنبياء عليهم الصلاة
والسلام . ثم من ثمة تطهر العبد من المعاصى الباطنة عدم وقوره ، بعد ذلك في سوء
الظن بأحد من المسلمين ، قياساً على نفسه هو فإن كل صفة لم يتطهر العبد منها فمن لازمه

(١) ذكرنا الحديث بالكامل فيما سبق .

(٢) أهل الله .

سوء الظن بالناس غالباً إذ لو تطهر منها لم يبق عنده تصور لها .

وقد سمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله يقول مراراً : لا يكمل العبد حتى يصل إلى مقام لا تخطر الفحشاء فيه على قلبه . قال : ومن هنا أجمع الأشياخ على أنه لا يشترط في الشيوخ أن يكون يطلع على معاصي المرید الباطنة حتى يكشفها بها . بل أوجبوا على المرید أن يذكر هو أمراضه للشيخ ولا يهوجه إلى المكشفة بها ، وأن قدر أن أحداً من الكل أخبر مریده بشيء من عيوبه الباطنة فليس ذلك من باب قياس الشيخ المرید على نفسه وإنما ذلك من باب الإلهام إلى الله تعالى بواسطة صدق المرید في الطريق فانهم . وسمعت سيدي عليا المرصفي رحمه الله يقول : محل حسن الظن بالناس إنما هو في الأعمال التي يحتمل الخير والشر من الأعمال القلبية المتعلقة بالنيات ، أما الأقوال التي صرح الشارع بتحريمها فلا يجوز لمؤمن أن يحمل صاحبها على محمل حسن كشرب الخمر والأكل من الحرام فانهم .

وقد أجمع علماء الشريعة وعلماء الحقيقة على وجوب مجاهدة النفس الأبية حتى تنقاد لما يأمرها به أهل الله تعالى وينهونها عنه مما يمنع صاحبه دخول حضرة الله عز وجل ، ويصير يؤدي الأمور من غير خلل فيها ظاهراً وباطناً بحسب مقامه ، ولا يصح له ذلك إلا بأحد شيئين : إما جذب إلهي من الله تعالى بلا واسطة شيخ أو بواسطة شيخ قد تضلعت من علوم الشريعة والحقيقة ، وهذا من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وسمعت رضى الله عنه يقول أيضاً : قد أجمع العلماء كلهم على وجوب علاج أمراض الباطن حتى تتمد حركاتها عن الاستعمال .

وأما زوالها فلا يصح إلا للأَنْبياء عليهم الصلاة والسلام لأن الحق تعالى قد طهر طينتهم عن الأكدار بسابق العناية لا بعمل عملوه ولا بخير قدموه .

وقد أنشد سيدي علي بن وفاء في حق الأنبياء رحمه الله عليهم الصلاة والسلام وقال :
عبادك يا مولى الموالى الذين هم عبادك محفوظون حفظ الحيايب
من الدر لم يظهر بصافي ذواتهم سوى نورك الماحى لجنح الغيايب

مياه صفت ذاتاً ومجراً ومنبجاً وصينت عن الأكدار من كل جانب. انتهى
وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : قد جعل الله تعالى فى طينة بنى آدم سائر
الأضداد لجميع الصفات الحسنة والقبیحة نشرق وتغرب فى ذاتهم ، واسكن ما دامت
العناية الربانية تحف العبد بجميع الصفات القبیحة خادمة منقطعة عن الاستعمال فإذا تخلفت
هذه العناية تحركت للاستعمال ويحدث صفاته الحسنة ، ولذلك قال الله تعالى فى حق جميع
الخلق ما عدا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : « ومن يوق شح نفسه فأوائك هم
المفلحون » ، لم يقل تعالى ومن يزول شح نفسه بل أبقي الشح فيها إلا أن العبد يوق
العمل به بعناية الله عز وجل انتهى .

وميتاى بسط ذلك فى الأخلاق إن شاء الله تعالى والحمد لله رب العالمين ، وليكن ذلك
آخر المقدمة .

ونشرع بعون الله فى أخلاق رسول الله ﷺ الذى أخذها سيدى إبراهيم المتبول
رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ من طريق الكشف مصدرين ذلك بنبرة من
أخلاقه الثابتة من طريق النفل الظاهر استئناساً وتبركاً وتعظيماً للأكوان ،
فأقول بالله التوفيق .

الباب الأول

-

الباب الأول

في ذكر جملة من الاخلاق

كان رسول الله ﷺ ، أروع الناس ^(١) ، وأزهد الناس ^(٢) ، وأعف الناس ^(٣) ،

(١) روى الإمام مسلم ، عن سعد بن هشام أنه قال : قلت لعائشة رضي الله عنها : يا أم المؤمنين ، أنبئني عن خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : أأست تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى ! قالت : فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن . قال : فهمت أن أقوم ولا أسأل أحداً عن شيء حتى أموت ، ثم بدا لي فقلت : أنبئني عن قيام رسول الله ﷺ ؟ فقالت : أأست تقرأ « يا أيها المزمل » ؟ قلت : بلى ! قالت : فإن الله عز وجل افترض قيام الليل من أول هذه السورة ، فقام نبي الله ﷺ وأصحابه حولاً ، وأمسك الله خاتمها — أي آخر سورة المزمل — اثني عشر شهراً في السماء ، حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف — أي في قوله تعالى « فاقروا ما تيسر منه » فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة .

(٢) روى الطبراني بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ ذات يوم وجبريل عليه السلام على الصفا ، فقال رسول الله ﷺ : « يا جبريل والذي بعثك بالحق ما آسى لآل محمد سفة من دقيق ، ولا كف من سويق » . فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هذه من السماء أفزعته ، فقال رسول الله ﷺ : « أمر الله القيامة أن تقوم ؟ » فقال — جبريل — لا ، ولكن أمر إسرئيل فنزل إليك حين سمع كلامك ، فأثام إسرئيل ، فقال : إن الله تعالى سمع ما ذكرت ، فبعثنى إليك بمفاتيح خزائن الأرض ، وأمرني أن أعرض عليك أن أسير معك جبال تهامة زمرداً ، وياقوتاً وذهباً وفضة ! فإن شئت نبياً ملكاً ، وإن شئت نبياً عبداً ؟ فأومأ إليه جبريل أن تواضع ، فقال ﷺ : « بل نبياً عبداً » ثلاثاً .

وقد ورد ما يشابهه في ترغيب المنذرى وقال : رواه البيهقي في الزهد وغيره ، قال : ورواه ابن حبان في صحيحه مختصراً من حديث أبي هريرة .

(٣) روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ، وكان يقول « إن خياركم أحاسنكم أخلاقاً » .

وأعلم الناس^(١) ، وأكرم الناس^(٢) ، وأحلم الناس^(٣) ، وأعبد للناس^(٤) . وأبعدهم عن مواطن الريب ، لم يمس يده يد امرأة اجنبية قط تشريعاً لأمة واحتياطاً لهم^(٥)

(١) وفي الصحيحين — واللفظ — عن أنس رضى الله عنه : أن الناس سألوا نبي الله ﷺ حتى أحقوه بالمسألة ، فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال : « سلوني ، لا تسألوني عن شيء إلا بينته لكم » فلما سمع القوم أرموا أن يكون بين يدي أمر قد حضر ، فجعلت ألتفت يمينا وشمالا ، فإذا كل رجل لاف رأسه في ثوبة ييكي ، فانشأ رجل من المسجد كان يلاقى فيدعى لغير أبيه ، فقال : يا نبي الله من أبي ؟ قال : « أبوك حذافة » . ثم أنشأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : رضىا بالله ربا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولا ، عائذا بالله من سوء الفتن .

فقال رسول الله ﷺ : « لم أر كاليوم قط في الخير والشر ، إني صورت لى الجنة والنار فرأيتهما دون هذا الحائط » .

(٢) قال أنس رضى الله عنه : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس . رواه الشيخان .

وروى مسلم عن أنس رضى الله عنه قال : ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً إلا أعطاه ، فجاء رجل — وهو صفوان بن أمية — فأعطاه غنماً بين جبلين ، فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا ، فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخاف الفقر . وفي رواية : من لا يخشى الفقر . (٣) جرح سيدنا رسول الله ﷺ فى غزوة أحد وشج فى جبهته الشريفة ، وكسرت رباعيته ، وسال منه الدم ، ومع ذلك رفض أن يدعوا على المشركين عندما طلب منه الصحابة ذلك وقال : « إنما لم أبعث لعانا ، ولكن إبعثت داعياً ورحمة . اللهم اغفر لقومى — وفى رواية : اللهم اهد قومى — فإهم لا يعلمون » .

(٤) روى الشيخان عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماء .

وفى رواية عنها : أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تفطرت قدماء . وجاء فى رواية الصحيحين قالت عائشة : فقلت له : لم تصنع هذا يا رسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك ، وما تأخر ؟ قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً » .

(٥) وهذا من المؤكد لمن عصمه الله سبحانه وتعالى عن كل سوء ولا تغيب عن بالنا قصته عندما حاول شهود بعض اللهو فى مكة فعصمه الله سبحانه وتعالى من ذلك ، فكان

وكان ﷺ إذا وعظ الناس يرمل الكلام في حق كل الناس ، ولم يكن ينص في وعظه على أحد معين خوفاً أن ينجله بين الناس فيقول : ما بال أقوام يفعلون كذا^(١) .
وكان ﷺ أقنع الناس باليسير من الدنيا ، وأيسرهم بآخه كان يكفيه الله من الطعام والكف من الحشف^(٢) .

وكان يستحي من الله إذا أراد دخول الخلاء ، - حتى كان ينقع بردائه من شدة حيائه ﷺ ، وكانت الأرض تبتلع ما يخرج منه ﷺ^(٣) .
وكان ﷺ أشفق الناس على أمته^(٤) .
وكل يقول :

اللهم لا ترضني في أمتي سوءاً . وقد فعل الحق تعالى معه ذلك ، فلم يره في أمته سوءاً حتى توفاه الله عز وجل .

وكان ﷺ مغضاً عينيه عن رؤية زينة الدنيا ، فلم يمد عينيه إلى زينتها قط^(٥) .

رسول الله ﷺ دائماً الأمين على نفسه فلم يدنسها بسوء ، والأمين على غيره فما اعتدى على أحد قط إلا في حد من حدود الله تعالى .

(١) وهذا هو الملاحظ في غالب أحاديث سبدي رسول الله ﷺ مثل قوله : يا معشر أيهاكم - أو صيكم - احضروا - يا أيها الناس - نضر الله عبداً - استحيوا - يا غلام
(٢) سبق أن ذكرنا حديثاً في زهده ﷺ واختياره أن يكون نبياً عبداً .

(٣) كان معروفاً عن الرسول ﷺ شدة الحياء من الله سبحانه فكان لا يكشف عورته على الإطلاق وقد ذكر الإمام السبوطي في كتابه الخصائص الكبرى بعض ما يتعلق بهذا الشأن .

(٤) روى الطبراني والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « إنما أنا رحمة مهداة » وعند الطبراني : « بعنت رحمة مهداة » .

(٥) روى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال : كن في الدنيا كأنك غريب ، أو حابر سبيل ، وعد نفسك من أهل القبور .

وكان معصوماً من خائنة الأعين .

وكان ﷺ يستتر في غسله من الجباية وغيره ولم يغتسل عرياناً قط حياء من الله هز وجل ، وكان إذا طلب البراز يبعد عن الناس حتى لا يرى شخصه ﷺ (١) .

وكان ﷺ يلبس ما وجد فمرة ثملته ومرة برد حبره يمانيا ومرة جبة صوف ما وجد من المباح لبس . وكان إذا كساه أحد ثوبا لا يغيره عن هيئته من سعة أو ضيق ، ولبس مرة جبة ضيقة الكمين لا يستطيع أن يخرج يده من كها إلا بعسر .

وكان إذا توضأ فيها أخرج يده من ذيلها ليفسهما (٢) .

وكان ﷺ يردف خلفه عبده وصاحبه . وتارة يردف خلفه وأمامه وهو في الوسط لكن في الأطفال كالحسن والحسين ، وأولاد جعفر رضى الله عنهم (٣) ، ومن هنا نعلم أن محل جواز الإرداف ما إذا احتمله ذلك المركوب ، وكان ﷺ يركب ما وجد ، فمرة فرسا ، ومرة بعيرا ومرة حمرا ، ومرة بغلة ، ومرة يثى حافيا راجلا بلارداء ولا قلنسوة ليعود المرضى في أقصى المدينة (٤) .

(١) وفي الصحيح : أنه حمل الحجر وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة فجماههما في إزاره فانكشف فسقط مغشيا عليه حتى استتر بإزاره .

(٢) دلالة على أنه ﷺ كان سهلا هينا لينا .

(٣) عن عبد الله بن جعفر رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفر ملقى بالصبيان من أهل بيته ، قال : وإنه قدم مرة من سفره فسبق بي إليه ، فحملني بين يديه ، ثم جىء بأحد ابني فاطمة رضى الله عنها ، إما الحسن أو الحسين ، فأردفه خلفه ، فدخلنا المدينة ثلاثة على دابة .

(٤) ورد في الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ عاد سعد بن عباد ومعه عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهم ، فبكى رسول الله ﷺ ، فلما رأى القوم بكاء رسول الله ﷺ بكوا ، فقال : « ألا تسمعون ؟ إن الله لا يعذب بدمع العين ، ولا يحزن القلب ، ولكن يغضب بهذا أو يرحم » وأشار إلى لسانه .

وكان ﷺ يحب الطيب ويكره الرائحة الردية (١) .

وكان ﷺ يأكل مع الفقراء والمساكين والخدم ، وكان يقف للمساكين ثيابهم ولحامهم ورءوسهم (٢) .

وكان ﷺ يكرم أهل الفضل على اختلاف طبقاتهم ، ويتألف أهل الشرف بالإحسان إليهم (٣) .

(١) روى الطبري والبيهقي عن وائل رضى الله عنه قال : لقد كنت أصافح رسول الله ﷺ أو يمس جلدى جلده ، فأعرفه بعد فى يدي ، وإنه لأطيب رائحة من المسك .

وروى أبو نعيم والبيهقي عن عائشة رضى الله عنها قالت : كانت كف رسول الله ﷺ ألين من الحرير ، وكان كفه كف عطار ، مسها بطيب ، أو لم يمسها ، يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها ، ويضع يده على رأس الصغير فيعرف من بين الصبيان بريحها .

(٢) عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » .

وعن أبي موسى - رضى الله عنه - : أنه سمع النبي ﷺ يقول : « لن تؤمنوا حتى تراحوا ، قالوا : يا رسول الله ، « كلنا نرحم » قال : « إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ، ولكنها رحمة العامة » .

(٣) روى البزار والطبراني بإسناد حسن عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ : لم يكن أحد يأخذ يده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذى يرسله ، ولم يكن يرى ركبته - أو ركبته - خارجا عن ركبة جليسه ، ولم يكن أحد يصافحه إلا أقبل عليه بوجهه ، ثم لم يصرفه عنه حتى يفرغ من كلامه .

وروى الطبراني بإسناد حسن عن عمرو بن العاص قال : كان رسول الله ﷺ يقبل بوجهه حديثه على شر القوم ، يتألفه بذلك ، وكان يقبل بوجهه وحديثه على حتى ظننت أني خير القوم ، فقلت : يا رسول الله أنا خير أم أبو بكر ؟ فقال : « أبو بكر » قلت : يا رسول الله أنا خير أم عمر ؟ قال : « عمر » قلت : يا رسول الله أنا خير أم عثمان ؟ قال : « عثمان » .

وروى الترمذي وابن ماجه والبخارى فى الأدب المفرد عن على كرم الله وجهه قال : استأذن عمار على النبي ﷺ فعرف صوته فقال : « مرحبا بالطيب المطيب » .

وكان يكرم ذؤوا رحمة من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم .
وكان ﷺ لا يقطع على أحد حديثه ، ولا يجفوا على أحد بكلام ولا خيره ، ولو فعل معه ما يوجب الجفاء .

وكان ﷺ يقبل عذر للمتذر وإن كان مبطلاً ويقول : « من أتاه أخوه متنصلاً من ذنب فليقبل ذلك محضاً كان أو مبطلاً ، فإن لم يفعل لم يرد على الحوض ^(١) » .

وكان ﷺ يمزح مع النساء والصبيان ^(٢) ولا يقول إلا حقاً لقوله لهجوز وهو مبتسم : « لا يدخل الجنة هجوز أى لأن أهل الجنة أبكار عرب ^(٣) » .

وكان ضحكه ﷺ التبسم فقط ، من غير رفع صوت ^(٤) .

وكان ﷺ يرى اللعب المباح فلا ينكره ^(٥) .

(١) رواه الحاكم في المستدرک .

(٢) عن خارجة بن زيد أن نقرأ دخلوا على أبيه زيد بن ثابت رضى الله عنه فقالوا : حدثنا ببعض حديث النبي ﷺ فقال : وما أحدثكم ؟ كنت جاره ﷺ ، فكان إذا نزل عليه الوحي بعث إلى فأتية ، فأكتب الوحي ، فكنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا ، كل هذا أحدثكم عنه ﷺ .
وفي الصحيحين عن أنس رضى الله عنه قال : إن كان النبي ﷺ ليخالطنا — أى ليلاطفنا ويمازحنا — حتى يقول لأخ لى : « يا أبا عمير ما فعل النفير » .

(٣) رواه الترمذى عن الحسن البصرى .

وعرباً : جمع عروب ، وهى المفصحة عن محبة زوجها .

(٤) روى الإمام أحمد عن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ طويلاً الصمت ، قليل الضحك ، وكان أصحابه يذكرون عنده الشعر وأشياء من أمورهم ، فيضحكون ، وربما تبسم معهم . وروى الترمذى نحوه .

(٥) روى أبو داود وأحمد عن عائشة رضى الله عنها قالت : خرجت مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره وأنا جارية — أى حديثه السن — لم أحمل اللحم ولم أبدن ، فقال للناس : « تقدموا » فتقدموا ، ثم قال لعائشة رضى الله عنها : « تعالى حتى أسايقك »

وكان الأعراب يرفعون عليه الأصوات بالكلام الجاني فيحتمله ^(١) .
 وكان ﷺ لا يجزى بالسبئية السيئة ولكن يعفوا ويصفح ^(٢) .
 ولم يكن له أناء يختص به عن خدمه وإماءه ، بل كان يأكل معهم في أناء واحد تواضعاً
 معهم وتشريعاً لتكسبهم من أمته ^(٣) .
 وكان يجيب إلى الوليمة كل من دعاه ويشهد جناز للمسلمين من عرفه ، ومن لم يعرفه
 وكان منديله باطن قدسيه صلى الله عليه وسلم إذا ^(٤) إذا أكل .

فسأفته ﷺ فسبقت ، فسكت عن ، حتى حملت اللحم وبدنت وممنت ، فخرجت معه ﷺ
 في بعض أسفاره ، فقال ﷺ : « تقدموا » فتقدموا ، ثم قال : « تعالى أسأفك » قالت
 عائشة رضى الله عنها : فسبقت ، فجعل يضحك ﷺ ويقول : هذه بتلك .

(١) ورد في الصحيحين عن أنس رضى الله عنه قال : مشيت مع رسول الله ﷺ وعليه
 برد — أى ثوب — نجرانى غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابى فجبذه — أى جذب الثوب —
 جبذه شديدة ، حتى نظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ وقد أمر فيه — أى فى
 عنقه — حاشية البرد ، من شدة جبذته . ثم قال — الأعرابى — يا محمد : مر لى من ماله
 الله الذى عندك ، فالتفت إليه النبي ﷺ وضحك ، ثم أمر له بغطاء .

(٢) كان ﷺ ينفو ويصفح إلا إذا انتهكت حرمان الله فإنه يطبق حدود الله على
 الفجور ، ومن عفوه وصفحه قوله يوم أحد بعد أن شج المشركون وجهه الشريف « اللهم اهد
 قومي فإنهم لا يعلمون » .

(٣) ورد في الصحيحين عن أنس رضى الله عنه قال : خدمت النبي صلى الله عليه وسلم
 — وفى رواية أحمد : فى السفر والحضر — عشر سنين — وفى رواية أسلم ، تسع سنين — فأ
 قال لى أف قط ، ولا قال لثىء صنعته : لم صنعته ؟ ولا لثىء تركته : لم تركته ؟

وفى رواية أبى نعيم : قال أنس : فأسبى صلى الله عليه وسلم قط ، ولا ضربنى من
 ضربة ، ولا انتهرنى ، ولا عبسنى وجهى ، ولا أمرنى أمر فتوانيت فيه فعابنى عليه ، فلئن
 طابى عليه أحد من أهله قال : « دعوه ، لو قدر شىء كان » .

(٤) روى الإمام أحمد عن عبد الله بن قيس رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله
 ١٣ — الأخلاق المتبولة

وكان له صلى الله عليه وسلم إمام وخدم . وكان لا يرتفع عليهم في مأكل ولا مشارب .
وكان ﷺ مقبلا على عبادة ربه ليلا ونهارا لا يمضي له وقت إلا في عمل طاعة لله
هز وجل أو فيما لا بد له معه مما يعود نفعه عليه وعلى المسلمين ^(١) .

وكان ﷺ يخرج إلى بساتين أصحابه فيأكل من ثمارها ويخطب ثم يحمل ﷺ
الخطب إلى بيته تواضعا منه ^(٢) ﷺ .

وكان لا يحقر مسكينا فقيرا ، ولا يهاب ملكا لملكه ، يدهوا هذا وهذا إلى الله
هز وجل دعاء ^(٣) واحدا .

عليه وسلم كان يكثر زيارة الأنصار ، خاصة وعامة ، فكان إذا زار خاصة أتى الرجل في
منزله ، وإذا زار عامة أتى المسجد .

وروى الترمذي والنسائي عن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه
وسلم يزور الأنصار ويسلم على صبيانهم ، ويمسح رؤوسهم .

وروى البخاري في الأدب المفرد عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
زار أهل بيت من الأنصار ، فطعم عندهم طعاما ، فلما خرج - أي لما أراد أن يخرج - أمر
بمسكان من البيت فنفتح له على بساط ف صلى عليه ، ودعا لهم .

وروى الشيخان عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« إني لأعرف أصوات رفقة الأشعرين بالليل حين يدخل ، وأعرف منازلهم من أصواتهم
بالقرآن بالليل ، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار » .

وعن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انطلقوا بنا إلى بن واقف
نزور البصير » كان رجلا مكفوف البصر .

(١) ولعل قراءة متأملة لكتب السيرة تظهر لنا بوضوح هذا القول .

(٢) عن أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب ثوبه ،
ويخصف نعله ، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم .

وفي رواية : ويرقع دلوه ، ويفلى ثوبه ، ويحلب شاته ، ويخدم نفسه . رواه أحمد
وابن حبان وصححه ابن سعد .

(٣) روى الترمذي من حديث هند بن أبي هالة يصف النبي صلى الله عليه وسلم : لا

وكان ﷺ أرحم خلق الله على الإطلاق ، وأشفقهم على دين أمته . وكان إذا سبق لسانه إلى شتم لأحد قال اللهم اجعلها عليه طهوراً وكفارة ورحمة . ولم يامن ﷺ قط امرأة معيبة ولا خادماً ولا بعيراً . وكان إذا سئل أن يدعو على أحد عدل عن الدعاء ، عليه ودعاه وما ضرب ﷺ قط امرأة ولا خادماً ولا غبرهما إلا أن يكون في الجهاد أوفى حد من حذر الله فيأمر الجلال بذلك تطهيراً للمجلود . ودعى مرة خادماً له فلم يجبه فقال : « والله لولا خشية القصاص يوم القيامة لأوجعنك بهذا السواك ^(١) » .

وكان ﷺ لا يأتيه أحد من حر ولا عبد ولا أمة ولا مسكين يسأله في حاجة إلا قام معه وقضى حاجته ولو في أقصى المدينة أوفى القرى التي خارجها جبراً لخاطره ^(٢) .

وكان ﷺ لا يهيب قط مضجعاً وكانوا إن فرشوا له شيئاً جلس عليه واضطجع وإن لم يفرشوا له شيئاً جلس على الأرض واضطجع عليها .

وكان ﷺ هيناً لينام مع جميع أصحابه ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب ، في الأسواق . أي صياح فيها .

وكان ﷺ يبدأ كل من لقيه بالسلام من المسلمين . وكان إذا أخذ بيده ﷺ وسلم أحد سايره حتى يكون ذاك الشخص هو الذي ينصرف .

وكان ﷺ إذا لقي أحداً من أصحابه صاحبه ثم شابكه وشد قبضته على يده على عادة العرب .

تفضبه الدنيا وما كان لها ؛ فإذا تعرض للحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر لله ، لا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها . . الحديث .

(١) ويكفي قول الله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

(٢) عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الساعي على الأرملة والمسكين - أي الذي يسعى فيما ينفعهما - كالجاهد في سبيل الله ؛ وأحسبه قال : وكالقائم لا يفتر ؛ وكالصائم لا يفطر » رواه الشيخان ؛ وابن ماجه بلفظ : « الساعي على الأرملة والمسكين كالجاهد في سبيل الله ؛ وكالذي يقوم الليل ويصوم النهار » .

وكان ﷺ لا يقوم من مجلس ولا يجلس إلا على ذكر الله عز وجل .
 وكان ﷺ إذا جاء أحد وهو يمشي خفف ﷺ صلاته ثم سلم منها وقال له : « ألك حاجة » فإن قال : لا عاد إلى صلاته . وإن كان له حاجة قضاها له بنفسه أو بوكيله .
 وكان أكثر جلوسه ﷺ أنه ينصب ساقيه جميعاً ويمسك بيده عليهما شبه الحبوة .
 وكان ﷺ يجلس حيث انتهى به المجلس . حتى أنه لم يكن يعرف من بين أصحابه :
 قال أنس رضي الله عنه : وما رآني قط ماداً رجليه بضيق بهما على أحد . ولم يكن يمدما إلا إن كان المكان واسماً . وما كان ﷺ لا يعرف من بين أصحابه كان الأعرابي إذا جاء يسأل عن دينه ، لا يعرفه حتى يصير يسأل عنه فتكلم الأصحاب في عمل شيء يهزه ﷺ حتى يصير الأعراب تأتي إليه وتسأله ولا تحتاج إلى من يعرفه به ، فاتفق رأيهم على أن يبنوا له دكاناً من طين ثم فرشوا له حصيراً من خوص النخل .
 وكان ﷺ يجلس عليها حتى مات . وكان ﷺ أكثر جلوسه إلى القبلة ويقول
 « هو سيد المجالس » . وكانوا يجلسون بين يديه متحذتين .

وكان ﷺ يسكرم كل من دخل عليه ، ويؤثره بالسادة التي تكون تحته ^(١) ، فإن أبي أن يقبلها عزم عليه حتى يقبلها ، وربما بسط ﷺ ثوبه أورداه إن لم يكن بينه وبينه معرفة ولا قرابة ، ليجلس عليه تالياً لقلبه .

على أن الذي يبين لنا خلق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهورة موجزة وواضحة هي النصوص التالية :

روى الترمذي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه قال : سألت خالي هند بن أبي هالة ، وكان وصافاً عن حاية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا أشتي أن يصف لي من شيء أنفلق به فقال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم غمداً مفضماً ينثلاً وجهه تلاًو القمر ليلة البدر ، أطول من المربع ، وأقصر من المشذب ، عظيم الهامة رجل الشعر ، إذا انفرت عقيقته ^(١) زيادة في إكرامه .

وكان ﷺ لا يدخر عن الضيف شيئا ، بل يخرج إليه كلما وجد وكان ربما لم يجد له ما يكرمه به فيصير يعتذر إليه تطبيبا لخاطره .

وكان كثيرا ما يخرج إلى بيوت أصحابه من غير دعوة ويتفقدونهم إذا انقطعوا عن مجلسه وإذا رأى عند أحد منهم جناء أرسل إليه بهدية .

وكان ﷺ يداعب الحسن والحسين وربما أركبهما على ظهره وصار يمشي على يديه ورجليه ويقول : نعم الجمل جملكما ونعم العبدلان أنما . وأخذ ﷺ مرة بيد الحسن من علي ووضع رجله على ركبتيه وهو يقول حزقه خزقه برقه عين بقه هكذا كان أبو هريرة رضي الله عنه يقول .

وكان ﷺ يعطى كل من جلس إليه حظه من البشاشة حتى يظن ذلك الجالس أنه أكرم عليه من جميع أصحابه .

فرقا وإلا فلا ، يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره ، أزهر اللون ، واسع الجبين ، أزج الحواجب ، سوابغ في غير قرن ، بينهما عرق يدره الغضب ، أذن العرنيين ، له نور يملؤه بحسبة من لم يتأمله أشم .

كث اللحية سهل الخدين ، ضليع الفم مفليج الأسنان دقيق المتربة كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة .

معتدل الخلق ، بادن متماسك ، سواء البطن والصدر ، عريض الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، ضخم التكراديس ، أنور المتجرد ، موصول ما بين اللبة والتمرة بشعر يجري كالخط ، عاز الشدين والبطن مما سوى ذلك ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعلى الصدر . طويل الزندين ، رحب الراحة ، شثن الكفين والقدمين ، سائل الأطراف أو قال : سائل الأطراف .

نخضان الأخمصين ، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء إذا زال زال قلعا ، يخطو تكفيا ، ويمشي هونا ، ذريع المشية إذا مشى كأنما ينحط من صلب وإذا التفت للتفت جميعا . خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة ، يسوق أصحابه ، ويدبر من لقي بالسلام .

يقال الحسن رضي الله عنه : فقلت : صف لي منطق رسول الله ﷺ ، فقال : =

وكان ﷺ يسكن أصحابه ويبتدئهم بالكنا (١) ويدعوهم بها إكراماً لم واستماله قلوبهم وكان يسكني النساء اللاتي ولدن واللاتي لم يلدن . ويسكني الصبيان يستلين بذلك قلوبهم .

وكان ﷺ أبعد الناس غضباً ، وأمرهم رضى ، وكان أرف الناس بالناس ، وخير الناس للناس ، وأنفع الناس للناس .

وكان إذا قام من مجلسه يقول : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت . أستغفرك وأتوب إليك ثم يقول : علمني من جبريل عليه السلام وقال : « هن كفارة لما وقع في ذلك المجلس » .

وكان ﷺ قليل الكلام مسموح للفقالة ، يعيد الكلام مرتين أو أكثر ليفهم . وكان كلامه كخرزات النظم . وكان يسكني عن الأمور المستقبحة في العرف إذا اضطره الكلام إلى ذكرها (٢) ويعرض هن كل كلام قبيح .

وكان ﷺ إذا سلم سلم ثلاث مرات . وكان كثير البكاء ، لم نزل عيناه تهللن من الدموع كأنه حديث عهد بمصيبته ، قال أنس رضى الله عنه : وكسفت الشمس مرة فجعل ﷺ يسكني في الصلاة وينفخ ويقول : يارب ألم تعدني أن لا تعذبهم وأنا فيهم ، وإن لا تعذبهم وهم يستغفرون ونحن نستغفرك يارب .

== كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، طويل السكت ، لا يتكلم في غير حاجة ، يفتح الكلام ويختتمه باسم الله تعالى ، ويتكلم بمجوامع الكلم ، كلامه فصل لا فضول ولا تقصير ، ليس بالجافي ولا المبين ، يعظم النعمة وإن دقت ، لا يذم منها شيئاً ، غير أنه لم يكن يذم ذواقاً ولا يمدحه ، ولا تفضيه الدنيا ولا ما كان لها ، فإذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها .

(١) يقصد الكنية مثل يا أبا فلان .

(٢) من كمال أدبه ﷺ مع أنه لا حياء في الدين .

وكان ضحك أصحابه عنده التبسم من غير صوت اقتداء به ﷺ وتوقير آله . وكانوا إذا جلسوا بين يديه كأنما على رؤوسهم الطير من الهيبة والوقار . وكان ﷺ أكثر الناس تبسماً ما لم ينزل عليه قرآن ، أو يذكر يوم القيامة ، أو يخطب خطبة موعظة .

وكان ﷺ إذا نزل به أمر فوض أمره فيه إلى الله عز وجل وسأله الهدى واتباعه والبعث من الضلال واجتنابه ، ويبرأ من حرله ومن قوته ^(١) .

وكان أحب الطعام إليه ما كثرت عليه الأيدي ^(٢) . وكان ﷺ يجلس للأكل كالعبد فيجمع بين ركبته وبين قدميه كما يجلس المصلي إلا أن الركبة تكون فوق الركبة والقدم فوق القدم . وكان كثيراً ما يقول إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد . وكان ﷺ لا يأكل الطعام الحار ويقول : « لأنه غير ذي بركة فاردوه » ، « وإن الله لم يطعمنا ناراً » . وكان ﷺ يأكل مما يابيه ، ويأكل بأصابعه الثلاث ، وربما استعان بالرابع وكان لا يأكل قط بأصبعين ويقول : « إنه فعل الشيطان » . وكان ﷺ يأكل القشء بالرطب وبالملاح . وكان أحب الفاكهة الرطبة إليه الرطب والعنب . وكان ﷺ يأكل البطيخ بالخبز وبالسكر وربما أكله بالرطب ويستعين باليدين جميعاً . وكان ﷺ يأكل العنب خرطاً يرى زواله على لحيته كحدر اللؤلؤ وهو الملبأ الذي يتقاطر منه .

== إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدث اتصل بها وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غص طرفه ، وجل ضحيكه التبسم ، يفتر عن مثل حب الغمام .

قال الحسن رضي الله عنه : فكتمتها الحسين بن علي زماناً ثم حدثته فوجدته قد سبقني إليه فسأله عما سألته عنه ووجدته قد سأله عن مدخله صلى الله عليه وسلم ومخرجه ومجلسه وشكله فلم يدع منه شيئاً .

(١) هذا بعد اتخاذ الأسباب التي توصل إلى نجاح مقصوده بكل الوسائل والإمكانات وبعد ذلك يفوض أمره إلى الله في النتيجة ويدعوا الله ليسير تحقيقها .

(٢) فقد كان من شدة كرمه ﷺ يدعو الناس إلى طعامه .

وكان أكثر طعامه ﷺ التمر والماء وكان يجمع بين التمر واللبن ويسميها : «الأطيبين»
وكان أحب الطعام إليه ﷺ اللحم ويقول : « إنه يزيد في السمع ، وهو سيد الطعام في
الدنيا والآخرة » . وكان يكره إدمان أكل اللحم ويقول : إنه يقسى القلب . وكان ﷺ
يأكل النريد باللحم والقرع ، ويحب القرع ويقول : « إنه شجرة أخى يونس » . وكثيراً
ما يقول لعائشة : « إذا طبخى دباء فأكثرى من مرقتها فإنه يشد قلب الحزين » .

وكان ﷺ ومسلم لا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين . يقول له : « لبيك » .
ولا يغضب لنفسه ، وإنما يغضب إذا انتهكت حرمت الله عز وجل . وكان ﷺ ينفذ
الحق حيث كان ، وإن عاد ذلك عليه بالضرر ، أو على أصحابه ، وكان يعصب
الحجر على بطنه من الجوع ، ويكتم ذلك عن أصحابه وأهل بيته تحملاً للمشقة عنهم إذا
هلموا بجوعه ، ﷺ . وكان ﷺ يأكل ما وجد ولا يرد ما قدم إليه من الحلال وكان
لا يتورع قط عن مطعم حلال بل يأكل منه توسمة على أمته . وكان ﷺ يأكل ما وجد
فإن وجد تمرأ دون خبز أكل أو لحماً مشوياً أكل أو خبز برأكل أو خبز شعير أكل
أو حلوى أو عسلاً أكل أو لبناً دون خبز أكل واكتفى به ويقول . « ليس شيء يجزى عن
الطعام والشراب غير اللبن » . وكان ﷺ يأكل البطيخ ، والرطب ، ولحم الدجاج ،
والطير الذى يصاد : وكان لا يشتري الصيد ولا يصيده ويحب أن يصاد له فيرتى به فيأكله .
وكان ﷺ إذا أكل اللحم يطأطأ رأسه إليه بل يرفعه إلى فيه ثم يأكله . وكان صلي

قال الحسين رضى الله عنه : فسالت — علياً رضى الله عنه — عن دخول رسول الله صلى
الله عليه وسلم ؟ فقال : كان صلى الله عليه وسلم إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء :
جزأ الله ، وجزأ لأهله ، وجزأ لنفسه ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس ، فيرد ذلك
بالخاصة على العامة ، ولا يدخر عنهم شيئاً .

وكان من سيرته في جزء الأمة إشار أهل الفضل بأذنه وقسمه على قدر فضلهم في الدين ؛
فمنهم ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجةين ؛ ومنهم ذو الحوائج فيتشغل بهم ، ويشغلهم فيما
يصلحهم والأمة من مسائلهم عنه وإخبارهم بالذى ينبغي لهم ويقول : « ليلغ الشاهد منكم

الله عليه وسلم يأكل الخبز والسمن . وكان يحب من الشاة الذراع والكشف . وكانت هائشة تقول : لم يكن الذراع أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما ذلك لكونه أعجل الأشياء نضجاً . وكان يعجل به إليه لكونه كان لا يجد اللحم إلا غبياً . وكان صلى الله عليه وسلم يعجبه طعام الدباء ويحب من التمر العجوة ، ودعى في العجوة بالبركة وقال أنها من الجنة وشفاء من السم والسحر .

وكان صلى الله عليه وسلم : يحب من البقول الهندباء والشمار والرجلة . وكان يكره أكل الكلبيتين لمكانهما من البول . وكان لا يأكل من الشاة سبعاً الذكر ، والأنثيين ، والفرج ، والدم ، واللشانة والمرارة ، والغدد ويكره غيره أكل هذه للمذكورات .

وكان يقول : « أطيب اللحم لحم الظهر » . وكان صلى الله عليه وسلم لا يأكل النوم ، ولا البصل ، ولا السكرات وقال لعلى : « يا على كل النوم نيا فإنه شفاء من سبعين داء ولولا أن الملك يأتيني لأكلته » .

وما ذم صلى الله عليه وسلم طعاماً قط بل إن اشتهاه أكله وإلا تركه .

وكان له صلى الله عليه وسلم قصعة يقال لها الغرا لها أربع حلق يحملها أربعة رجال بينهم وكان له صاع ومد وسرير قرأه من ساج . وكان له صلى الله عليه وسلم ربعة يجمل فيها المرأة والمشط والسواك والمقراضين « وهما المqvص والملقاط » .

للغائب وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغها ؛ فانه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها : ثبت الله قدميه يوم القيامة لا يذكر عنده إلا ذلك ولا يقبل من أحد غيره . يدخلون رواداً ، ولا يفتقون إلا عن ذواق ، ويخرجون أدلة يعنى على الخير . قال الحسين رضى الله عنه : فسألت أبى — علياً رضى الله عنه — عن مخرجه ، كيف كان يصنع فيه ؟

قال : كان رسول الله ﷺ يحزن لسانه إلا فيما يعنيه ، ويؤلفهم ولا يفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويؤليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم

وكان له ﷺ سبع أعنز منأح ترعاهن له أم أيمن حاضنته ﷺ .
 وكان ﷺ يعاف الضب والطحل ولا يجرهما ، ويقول : « إن الضب لم يكن بأرض
 قومي فأجدني أعافه » . وأما الطحال فإنما كرهه ﷺ لأنه جمع أوساخ البدن .
 وكان يلعق الصفحة بأصابعه ويقول : « آخر الطعام أكثر بركة » .
 وكان يامق أصابعه حتى تحمر .
 وكان لا يمسح أصابعه بالمنديل حتى يلعقها واحدة واحدة . وكان يقول : « إنه لا يدري
 في أى الأصابع البركة » .
 وكان صلى الله عليه وسلم إذا أكل اللحم والخبز خاصة فسل يديه بالماء غسلا جيداً ،
 ثم يمسح بفضل الماء على وجهه .
 وكان صلى الله عليه وسلم إذا شرب لا يتنفس فى الأناء . وإنما ينحرف عنه ، وآتوه
 مرة بأناء فيه لبن وعسل فأبى أن يأكله وقال : « شربتان فى شربة » ، وإدامان فى إناء
 واحد لا حاجة لى بهما ، أما إني لا أحرم ذلك ولكنى أكره الفخر بفضول الدنيا ،
 والحساب على ذلك . وأحب التواضع لربى عز وجل فى جميع أحوالى فإن من تواضع لله
 رفعه الله .

بشره وخلقه ، ويتفقد أصحابه ، ويسال الناس عما فى الناس . يحسن الحسن ويقويه ،
 ويقبح القبيح ويوهيه معتدل الأمر غير مختلف ، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا ،
 لكل حال عنده عتاد ، لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه ، الذين يلونه من الناس خيارهم ،
 أفضلهم عنده أهمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة .

قال الحسين : فسأله — أى عليا رضى الله عنه — عن مجلسه صلى الله عليه وسلم كيف
 كان ؟ فقال !

كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر الله تعالى ، ولا يوطن
 إلا ما كن وينهى عن إبطائها ، وإذا انتهى إلى قوم : جلس حيث ينتهى به المجلس
 ويأمر بذلك .

يعطى كل جلسائه نصيبه ، لا يحسب جلسيه أن أحداً أكرم عليه منه . من جالسه أو

وكان صلى الله عليه وسلم في بيته أكثر حياء من العائق في حيرها^(١) ، كان لا يسألهم طعاماً ولا يتشاه عليهم ، إن أطعموه أكل وأطعم غيره وما أطعموه قبل ، ولو كان قليلاً . وكثيراً ما كان صلى الله عليه وسلم يقوم ، فيأخذ ما يأكل ، وما يشرب بنفسه . وكان صلى الله عليه وسلم إذا اعتم أرخى عمامته بين كتفيه ، وفي أوقات كان يفرزها في عمامته ، وفي أوقات كان لا يرخيها جملة ، هكذا قال بعضهم ، والجمهور على أنه صلى الله عليه وسلم لم يترك العذبة حتى مات .

وكان صلى الله عليه وسلم إلى الرسخ ، وهو المفصل بين الكف والساعد . ولبس صلى الله عليه وسلم القبا ، والفرجية ، والجبّة الضيقة السكينة في سفره . وكان صلى الله عليه وسلم إذا أهدى إليه ثوب يخالف هيئة ثيابه لا يغيره عن هيئته ، بل يلبسه على هيئته توسعة على أمته صلى الله عليه وسلم كما مر في الجبّة الضيقة السكينة . وكان له رداء طوله ستة أذرع في عرض ثلاثة أذرع . وكان إزاره صلى الله عليه وسلم أربعة أذرع وشبرا في عرض ذراعين وشبر . وكان صلى الله عليه وسلم يلبس الأبراد التي فيها خطوط حمراء^(٢) . وخضر^(٣) . وكان ينهى عن لبس الأحمر الخالص .

فاوضه في حاجة : صابره حتى يكون هو المنصرف ، ومن سأله حاجة لم يردده إلا بها ، أو بميسور من القول .

وقد وسع الناس منه بسطه وخلقه ، نصار لهم أبا ، وصاروا عنده في الحق سواء . مجلسه مجلس : علم وحياء ، وصبر ، وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تؤبن فيه الحرم ، ولا تنقث فلناته .

متعادلين ، بل كانوا يتفاضلون فيه بالتقوى متواضعين يوقرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب .

قال الحسين رضي الله عنه : وسالت أبي — عليا رضي الله عنه — عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في جاساته ؟ فقال :

(١) يقصد في خدرها . (٢) حمراء . (٣) خضراء .

وكان له صلى الله عليه وسلم^(١) سراويل ولبس النعل التي يسميها الناس الناسومة .
وكان له صلى الله عليه وسلم بردان أخضران يصلى فيهما الجمعة والعيدين .
قال بعض العلماء . ولم يلبس صلى الله عليه وسلم البرد الأخضر الخالص للخضرة أبداً
قالوا : وكان أكثر لباسه صلى الله عليه وسلم في الجمعة البيضاء . قالوا : وقوله أخضران
أي فيهما خطوط .

وكان صلى الله عليه وسلم يلبس الخاتم ويجعل فيه مما يلي كفه .
وكان صلى الله عليه وسلم يتمتع بردائه تارة ، ويتركه أخرى ، وهو الذي يسميه الناس
الآن الطيلسان أو البشنقة .

وكان أكثر لباسه صلى الله عليه وسلم ولباس أصحابه ثياب القطن .
وكان له صلى الله عليه وسلم عمامة قطرية وهي الغليظة من القطن .
وكان صلى الله عليه وسلم يلتحي كثيراً بالعمامة من تحت الخنك على طريق المغاربة
الآن في بلاد مصر ، وكان يلبس الشعر الأسود .
ولبس صلى الله عليه وسلم مرة بردة من الصوف ، فرجد لها رائحة الضأن فتركها .
قال أنس : وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وله بردة تنسج عند النساج .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم للبشر ، سهل الخلق لين الجانب ، ليس بفظ ،
ولا غليظ ، ولا صخاب ، ولا خاش ولا عياب ولا مشاح — وفي نسخة صحيحة : ولا مداح
ولا مزاح — يتغافل عما لا يشتهي .
ولا يؤيس منه راجيه ، ولا يحيب فيه ، فقد ترك نفسه من ثلاث : المراء . والإكثار
وما لا يعنيه .
وترك الناس من ثلاث : كان لا ينم أحداً ، ولا يعيبه ، ولا يطلب عورته ولا يتكلم
إلا فيأرجأ جوابه .

(١) يقصد وكان ﷺ (له) سراويل .

وكان صلى الله عليه وسلم يحب الرائحة الطيبة ، ويكره الرائحة الخبيثة^(١) .
 وكان صلى الله عليه وسلم يأكل من الكبد إذا شويت .
 وكان مع أهل بيته في الخدمة كأنه واحد منهم من حسن خلقه وحسن معاشرته .
 وكانت عائشة رضى الله عنها تقول : لم يكن أحد أحسن خلقاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت إذا هربت شيئاً تابعنى عليه . قالت : وكنت إذا شربت من السماء يأخذه فيضع فيه على موضع فمى ويشرب .
 وربما كنت حائضاً وكان ينمش فضلى من اللحم الذى على العظم .
 قالت : وكان صلى الله عليه وسلم يتكى فى حجرى ويقرأ القرآن .
 قالت : وربما أكون حائضاً .

وكان صلى الله عليه وسلم له غنم ، وكان لا يحب أن يزيد الغنم على مائة فإن زادت ذبح الزائد .

وكان صلى الله عليه وسلم يبيع ويشترى ولكن كان شراؤه أكثر من بيعه .
 وآجر صلى الله عليه وسلم نفسه قبل النبوة فى رعاية الغنم .
 وكذلك آجر نفسه لخديجة رضى الله عنها فى سفره لتجارتهما^(٢) .
 واستدان صلى الله عليه وسلم برهن ، وبغير رهن . واستعار وضمن ووقف أرضاً له .
 وحلف صلى الله عليه وسلم بالله تعالى فى أكثر من ثمانين موضعاً توسعة بذلك على أمته ، مع أنه كان أكثر الخلق تعظيماً لربه عز وجل .
 ولولا توسعته على أمته ما حلف صلى الله عليه وسلم بالله قط تعظيماً له .

وإذا تكلم أطرق جلساؤه ، كأنما على رؤوسهم الطير ، فإذا سكث تكلموا ، لا يتنازعون عنده الحديث ، ومن تكلم عنده أمستوا لا حتى يفرغ ، حديثهم عنده حديث أولهم ، يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون منه .

(١) سبق أن تحدثنا عن ذلك من قبل .

(٢) وكل هذا موجود فى كتب السيرة بتوسع .

وكان صلى الله عليه وسلم يستثنى في يمينه تارة ويكفرها أخرى ويمضي فيها أخرى^(١).
 وكان صلى الله عليه وسلم يثيب الشاعر على شعره إذا مدحه وضع الثواب^(٢) في حق
 غيره لئلا يتجراً الشعراء على المدح ويبالغوا فيه فيؤدى إلى الكذب بغیر حق وأمر
 أن يحثى في وجوه المداحين التراب وصورة ذلك أن الممدوح يأخذ تراباً بأصابعه من
 الأرض ثم يدريه بين يدي المداح على الأرض ويقول له « ماذا تمسح فيمن خلق من
 هذا ؟ لا أنه يرمى التراب في وجه الشاعر فيؤذيه بذلك كما فهمه بعضهم^(٣) .
 وكان صلى الله عليه وسلم يصارع لأجل معرفة مكاييد حرب العدو^(٤) ، وصارع ركانه
 كما قاله بعضهم .

وكان صلى الله عليه وسلم يغلى ثوبه من القمل الذى يصعد على ثيابه من مواضع
 الفقراء . ولم يكن ثوبه صلى الله عليه وسلم يقمل^(٥) .
 وكان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس مشياً وأسرعهم فيه إذا مضى للصلاة حتى كأنه

ويصبر للغريب على الجفوة في منطقته ومسالته ؛ حتى إن كان أصحابه ليستجلبونهم ؛
 ويقول : « إذا رأيتم طالب حاجة فأرقدوه » .
 ولا يقبل التناء إلا من مكافئ ؛ ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بنهى
 أو قيام .

وروى الطبرانى وغيره : قال الحسين رضى الله عنه : فسالت أبى علياً رضى الله عنه :
 كيف كان سكوته صلى الله عليه وسلم ؟

(١) يريد بذلك التشريع لأئمة عليهم السلام والتيسير عليهم .
 (٢) ربما يقصد المؤلف بذلك أنه يحول المدح على الآخرين .
 (٣) ولم يفعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم : فإنه كان صاحب خلق رفيع وكيف بمن يستحى من
 المدح ويتواضع لله أن يفعل ذلك .

(٤) فيضع خطط الحرب ويبعث الرسل لمعرفة أخبار عدوه .
 (٥) فإن القمل كان يأتي ثوبه صلى الله عليه وسلم من جلوسه مع الفقراء الناس وقضائه حوائجهم
 وأكرم به من قائد وراعى .

ينحط من صيب من غير التراب^(١) ولا تعب منه صلى الله عليه وسلم وكان أصحابه يحشون بين يديه وهو خلفهم ويقول « دعوا ظمري للملائكة » إذا سافر يكون ساقه أصحابه لأجل المنقطعين وإردافهم والنظر في حالهم^(٢) .

وكانت ثيابه صلى الله عليه وسلم كلها مشمرة فوق الكعبين يشد وسطه إذا كانت طويلة وأكثر أحوالها أنه كان يفصلها قصيرة فلا يحتاج إلى تشمير .
وكان إزاره فوق ذلك إلى نصف الساق^(٣) .

وكان قيصره ﷺ مسدود الإزار وتارة كان يترور بالازرار المعهودة وتارة بشوكة أو إبرة وربما أحدث التزرر في الصلاة .

وكان له ﷺ ملحمة مصبوغة بالزعفران وربما صلى بالناس فيها وحدها ، وربما لبس الكساء الأسود ، أو المخطط ، وما عليه غيره ، وكان يلبس الكساء المرقع ويقول : « إنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد » .

وكان له ثوبان للجمعة خاصة كما مر سوى ثيابه في غير الجمعة .

فقال : كان سكوته على أربع : الحلم . والحذر . والتقدير . والتفكير . وفي رواية : الحكم . والحذر . والتدبر . والتفكير .

فأما تقديره صلى الله عليه وسلم : ففي تسوية النظر . والإستماع بين الناس . وأما ذكره — أو قال تفكره — ففيا يبق ويغنى .

وجمع له ﷺ الحلم والصبر . فكان لا يغضبه شيء ولا يستفزّه .

وجمع له الحذر في أربع : أخذه بالحسن . والقيام لهم فيما جمع لهم الدنيا والآخرة . وفي رواية للطبراني : وجمع له الحذر ﷺ في أربع : أخذه بالحسن ليقنّدى به . وتركه للقبيح ليتناهى عنه . واجتهاده الرأي فيما أصلح أمته . والقيام فيما جمع لهم الدنيا والآخرة .

(١) ربما يقصد من غير إثارة للتراب .

(٢) أى يسير في القافلة يتبع أحوال الضعفاء فيها .

(٣) لكى لا تتلوث بالنجاسات أو الأقدار .

وربما لبس ازاراً واحداً ليس عليه غيره يعقد طرفيه بين كنفيه .
وربما أم به الناس على الجنائز . وربما صلى به في بيته ويلتحف به إذا كان واسماً ،
وربما كان ذلك الإزار هو الذي جامع فيه يومئذ ، وربما صلى في الليل في وسطه ازار
يرتدى بطرفه مما يلي هديه ويلقى البقية على بعض نسائه لطوله ويصلي فيه .

وكان لا يتحرك بحركة ركوعه ولا سجوده . وكان له كساء أسود ليس عنده غيره .
فاستكسأ شخص فكسأه له صلى الله عليه وسلم .

وكان له صلى الله عليه وسلم ، ملادة مصبوغة بالزعفران كما مر وكانت تنقل معه
إلى بيوت زوجاته فترسلها المرأة التي كان نائماً عندها لصاحبة النوبة^(١) فترشها بالماء
فيظهر رائحة الزعفران فينام معها فيها ﷺ .

وكان صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يخرج وفي أصبعه الخيط المربوط في خاتمه فيستند كر
به الشيء .

وكان يختم بخاتمه على الكذب ويقول : الخاتم على الكتاب خير من التهمة^(٢) .

وكان ﷺ يلبس القلائس تحت العائم ، وتارة يلبسها من غير حمالة وربما نزع
فلنسوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه ، وصلى إليها ، وكانت صوفاً ، وتارة كان يجعلها
قطناً محشوة مضربة ، ولم يباغتنا : أنه ﷺ لبس الزنط . قال العلماء : وهذا يؤذن بأن
طولها كان ثلثي ذراع حتى يصح كونها سترة للصلى .

النص الثاني :

بعد وفاة رسول الله ﷺ . سمع سيدنا عمر بن الخطاب يبكي ويقول :
« بابي أنت وأمي يا رسول الله . لقد كان جذع تخطب الناس عليه . فلما كثر الناس
اتخذت منبراً لتسمعهم . فحن الجذع لفراقك .. حتى جعلت يدك عليه فسكن . فأمتك كانت
أولى بالحنين إليك لما فارقتنا » .

(١) الزوجة التي سيبت عندها ليلته تلك .

(٢) لا لا يحدث تزوير في المكتوب .

وكان له صلى الله عليه وسلم عمامة تسمى السحاب فوهبها الى رضى الله عنه فرمى
طالع على رضى الله عنه وهى على راسه فيقول صلى الله عليه وسلم (لَيْلًا كَمْ هَلِي فِي السَّحَابِ)
وكان له صلى الله عليه وسلم فراش من آدم حشوه ايف ، وطوله ذراعان أو نحوهما ،
وعرضه ذراع وشبر ونحوه .

وكان له ﷺ عبادة تفرش له حينما تنقل ثنئى له طاقين فيجاس عليهما . وفرشتها له عائشة مرة بعد أن ثنتها أربع طاقات فنام صلى الله عليه وسلم تلك الليلة عن الوقت الأول من ورده . فقال : أعيدوها طاقين فإن لبثها أو وطئها ^(١) كادان يمنعنى قيام ليلتى . وكثيراً ما كان صلى الله عليه وسلم ينام على الحصى وحده ليس فوقه شيء .

وكان له صلى الله عليه وسلم مظهرة من فخر يتوضأ منها ويشرب .

وكان الناس يرسلون أولادهم الذين لم يبلغوا الحلم فيدخلون عليه صلى الله عليه وسلم فلا يمنعون ، فإذا وجدوا في المطهرة ماء شربوا منه ومسحوا منه على وجوههم وأجسامهم يستعنون بذلك البركة (٣) .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا صلى الغداة جلس في مجلسه فيجئ خدم المدينة
بآنية فيها الماء فسألوا به صلى الله عليه وسلم أن يضع يده في أوانيهم فيفعل وربما
جاءوه في الغداة الباردة فيغمس يده في الماء .

روى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما . قال : « كان النبي ﷺ يخطب الى جذع . فلما اتخذ المنبر تحول اليه . فحن الجذع . فأتاه فمسح يده عليه . »
« بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده : أن جعل طاعتك طاعته . فقال عز وجل .

« من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

(۱) ومماها وطأها .

(۲) دلیل علی جواز التبرک بآثار الصالحین .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا بصق يتسارع الناس إلى تلتقي بصافه ونخامة بأ كفهم ولا يقع له على الله عليه وسلم نخامة على الأرض فسكاً وابدأكون بتلك النخامة وجوههم وجلودهم طلباً أن لا يمسهم النار يوم القيامة^(١). وكانوا يقتتلون على فسالة ماء وضوئه .

وكان أصحابه يتكلمون عنده بخفض صوت مع الهيبة والإطراق . وكانوا لا يحدقون النظر إليه صلى الله عليه وسلم ، ولا يحدون بصرهم إليه تعظيماً له وتوقيراً^(٢) .

وكان صلى الله عليه وسلم لا يؤذى من يؤذيه ولا يتكلم فيما لا يعنيه ، ولا يذكر أحداً بغيبة ولا يشمت بمصيبة .

وكان إذا بالغ أحد في إيذائه صبر واحتمل ولم يقابله بنظيره ، وربما قال : (رحم الله أخي موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر) .

وكان صلى الله عليه وسلم يكره من يبلغه السوء عن أصحابه ويقول : (لا تبلغني عن أصحابي إلا خيراً فإنى بشر أغضب كما يغضب البشر) وقسم مرة قسماً بين أصحابه فلما انصرف قال شخص من القوم : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله تعالى . فلما رجع صلى الله عليه وسلم أخبره شخص بما قيل في حقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تبلغني عن أصحابي إلا خيراً فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر) .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ! لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء . وذكرك في أولهم فقال عز وجل :

« وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم » .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده : أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون .

(١) فهى من أزكى روح وأزكى جسد .

(٢) (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً

منيراً) الأحزاب : ٥٤ ، ٥٦ (من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيفاً) النساء آية : ٨٠ .

(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحبكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) آل عمران : ٣١

وكان صلى الله عليه وسلم إذا رأى أحداً يفعل مالا يليق لا يبادر إلى الإنكار عليه ولكن يثبت^(١) وينظر فإن رآه جاهلاً علمه برفق ورحمة كما في قصة الأعرابي الذي دخل قبل في المسجد فإنه نهى أصحابه أن يزعموه عن بوله وقال : (إنما بعثتم مبشرين ولم تبعثوا معسرين) فلما فرغ الأعرابي من بوله كلمه بخفض صوت ، وقال : (إنما جعلت المساجد للصلاة ، ولم تجعل للبول) .

وكان صلى الله عليه وسلم يركب الحمار موكوفاً وعليه قطيفة ، وإذا مر على الصبيان سلم عليهم وبأسطهم .

وأثره مرة برجل فأرعد من هيبتة صلى الله عليه وسلم فقال : « هون عليك يا أخى فلست بملك ولا جبار ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » .

وكان ﷺ إذا جلس لا يميز عن أصحابه بشيء ، فرمى أتى الغريب فلا يعرفه تواضعاً مع أصحابه وإجلالاً لهم ، فأثراه يوماً أعرابي يسأله عن أمر دينه فصار يسأل ويقول : أين محمد ؟ فتكلم الصحابة رضى الله عنهم فى شيء يميزه حتى لا يحتاج الغريب إلى سؤال فأدى رأيهم أن يجعلوا له دكاناً من طين يجلس عليه ففعلوا وفرشوا له عليه حصيراً من خوص كما مر .

وكان من تواضعه ﷺ أنه لا يدهوه أحد من أصحابه إلا قال له : لبيك .

« يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول »

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجراً تتفجر منه الأنهار ، فإذا ؟ أى فليس ذلك - بأعجاب من أصابك حين نبع الماء منها .

روى البخارى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما : عطش الناس يوم الحديبية والنبي ﷺ بين يديه ركوة ، فتوضأ فجهش الناس ، فأسرعوا وتكاثروا نحوه .

فقال ما لكم ؟ قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك . فوضع يده فى الركوة ، فجعل الماء يثور بين أصابعه ، كأمثال اليمون ، فشربنا وتوضأنا « قلت : كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف لكفانا ! ! كنا خمس عشرة مائة » : (١) ثانى .

وكان ﷺ مع أصحابه على ما يريدون ويحبون فإن تسكدهوا في أمر الآخرة تسكلم معهم أو في أمر الدنيا تسكلم معهم ؛ أو في طعام أو شراب تسكلم معهم رفقا بهم واستمالة لخواطرم .

وكان هينا لينا صلى الله عليه وسلم .

وكان لا يزجر أصحابه إلا عن حرام أو مكروه .

وكان صلى الله عليه وسلم يسابق عائشة بالمدو والهولة فيسبقها فإذا رآها غضبت تناقل لها حتى تسبقه .

وكان صلى الله عليه وسلم معتدل الخلق في السمن ، ثم بدن في آخر عمره . ومع ذلك كان (١) لعله متماسكا يكاد يكون على الخلق الأول لم يضره السمن قالت عائشة رضي الله عنها : وما مات صلى الله عليه وسلم حتى كان أكثر صلاته النفل جالسا .

وكان إذا تعب من القيام يجالس فيقرأ وهو جالس فإذا قارب الركوع قام فقرأ ما كتب له ثم ركم .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله !! لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر ورواحها شهر فإذا بأعجب من البراق حين سريت عليه إلى السماء السابعة ، ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح !!

بأبي أنت وأمي يا رسول الله !! لئن كان عيسى بن مريم قد أعطاه الله إحياء للوتى ، فما بأعجب من الشاة المسمومة حين كتبتك وهي مشوية ، فقالت لك الذراع : لا تأكلني فإني مسمومة .

مدوى ابن سعد في طبقاته :

(أخبرني سعيد بن محمد بن عمار ، عن أبي سلمة قال : كان رسول الله ﷺ ، لا يأكل الصدقة ويأكل الهدية ، فأهدت إليه يهودية شاة مصابة فأكل رسول الله ﷺ منها هو وأصحابه ، فقالت : إني مسمومة ، فقال لأصحابه : ارفدوا أيديكم ، فلما قد أخبر أنها مسمومة .

(١) لعلها كان .

وكان كثيراً ما يفتح قيلم الليل بركعتين خفيفتين ؛ ثم يطيل بعدهما ماشاء ؛ ويعلمها كالثافة التي قبل الفريضة ويسكثر فيها من الاستغفار أدباً مع ربه وتشريعاً لأمره ﷺ : انتهى ما ذكرناه من أخلاقه مع أصحابه ﷺ .

وكان من خلفه نسمية دوابه وسلاحه ومناعه .

وكان اسم رايته ﷺ العتاق ، وكانت سوداء . وكان له راية أخرى صفراء ، وأخرى بيضاء فيها خطوط سود .

وكان اسم جنته ﷺ الكانور ، واسم السكن^(١) ، واسم قضيبه المشوق ، واسم قدحه الربان ، واسم ركوته الصادر ، واسم سرجه الراح ، واسم مقراضه الجامع ، واسم سيفه الذي يحضر به الحروب ذر الفقار ، وكان له أسياف أخر . وكان له ﷺ منطقة من آدم فيها ثلاث حلق فضة .

وكان اسم ناقته القصري^(٢) وهي التي بقاله لها العفينا .

وكان اسم بغلته ﷺ دلدل ، واسم حمارة يعفور واسم شتمه التي كان يشرب منها عذبه .

قال : فرفموا أيديهم ، قال : فأت بشر بن البراء ، فأرسل إليها الرسول ﷺ فقال : حا حلك على ما صنعت ؟؟ فقالت : أردت أن أعلم إن كنت نبياً لم يضرك ، وإن كنت ملكاً أرحمت الناس منك ، قال : فأمر بها فقتلت « اهـ » .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله !! لقد دعا نوح على قومه فقال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً » .

ولو دعوت علينا بمنزلها لمهلكنا كلنا : فلقد وطىء ظهرك . وادى وجهك . وكسرت رباعيتك . فأبيت أن تقول إلا خيراً . فقلت : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله !! لقد اتبعك في قلة سنك . وقصر عمرك ما لم يتبع نوحا في كثرة سنه . وطول عمره . ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا القليل .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله . لو لم تجالس إلا كفؤاً لك ما جالستنا . ولو لم تسكح^(١) غير موجوده بالأصل . يقصد ناقته القصواء .^(٢)

وأما صفته ﷺ فلم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد، بل كان ينسب إلى
الربعة إذا مشى وحده، وإذا مشى مع الطويل ساواه .
وكان يقول : جعل الخير كله في الربعة .

وكان لونه ﷺ أزهر ، ولم يكن بالأسود ولا شديد البياض ، والأزهر هو الأبيض
المشرب بحمرة .

وكان عرقه ﷺ أطيب من المسك الأذفر يعني الخالص .

وكان شعره ﷺ يضرب إلى منكبيه ، وفي بعض الأوقات إلى شحمة أذنيه . وكان
مائلا إلى الصفرة . وكان شبيهه ﷺ في رأسه ولحيته نحو ثمان عشرة شعرة .
وكان ﷺ صافي البشرة .

وكان إذا غضب أو رضى يرى رضاه وغضبه في بشرته ووجهه .

وكان له ﷺ أواخر عمره ثلاث هكن : يغطي الازاو منها واحدة .

إلا كفثا لك ما نكحت إلينا . ولو لم تواكل إلا كفثا لك ما آكلتنا . فقد والله جالسنا
ونكحت إلينا . وآكلتنا ولبست الصوف وركبت الحمار واردفت خلفك . ووضعت طعامك
على الأرض تواضعا منك صلى الله عليك وسلم .

النص الثالث :

بعد أن انتهى هرقل من استئذنه إلى أبي سفيان قال له :

سألتك عن نسبه ؟ فذكرت أنه فيكم ذو نسب .

وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها .

وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟

فذكرت أن : لا

فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله . لقلت : رجل يأتي بقول قيل قبله .

فذكرت أن : لا .

قلت : لو كان من آباءه من ملك . قالت : رجل يطلب ملك أبيه .

وسألتك : هل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

وكان كفه ﷺ ألين من الحرير ، وكانت وأمتها كراثة كف المطار مسما بطيب
أم لم يمسا ، إذا صافح شخصا يظل يومه ذلك كله يجدر بها .
وكان ﷺ معتدل الخلق في السمن ثم بدن أو آخر عمره كما مر . وكان مع ذلك لحمه
متناسكا يكاد يكون على الخلق الأول لم يضره السمن انتهى .
وفي هذا القدر كفاية في فتح باب الناسي به وبأخلاقه ﷺ والحمد لله رب العالمين .
إذا هلمت فأقول وبالله التوفيق :

فذكرت ان : لا

فقد اعرف انه لم يكن ليزر الكذب على الناس ويكذب على الله !

وسألتك اشراف الناس اتبعوه ام ضعافهم ؟

فذكرت : ان ضعافهم اتبعوه .

وهم اتباع الرسل .

وسألتك : ايزيدون ام ينقصون ؟

فذكرت : انهم يزيدون .

وكذلك امر الإيمان حتى يتم .

وسألتك : ايرتد احد مسخطة لدينه بعد ان يدخل فيه ؟

فذكرت ان : لا

وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب .

وسألتك : هل يغدر ؟

فذكرت ان : لا

وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتك : بما يأمركم ؟

فذكرت : أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبينهاكم عن عبادة الأوثان

ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف .

فإن كان ما تقول حقا ؟ فسيهلك موضع قدمي هاتين .

وقد كنت أعلم أنه خارج .. لم أكن أظن أنه منكم . فلو أني أعلم أني أخاص إليه

لتجشمت لقاءه . ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه .. » .

من أخلاق سيدى إبراهيم المتبولى وأخلاق أصحابه
رضى الله عنهم أجمعين

أن يربوا أصحابهم بالتدريج رحمة بهم ، فيشغلوا المريد أولاً بالعمل على جلاء مرآة قلبه من الصدأ بكثرة ذكر الله تعالى ، وبالجد والاجتهاد فى السير إلى الحضرة الالهية بالأعمال المرضية .

ولا يأمره بالتخلق بالأخلاق العظيمة التى لا يقدر فى بدايته على التخلق بها ، فإنها تبطل عليه السير إلى مقام الكمال .

ثم إذا انتهى سلوك المريد إلى مقام الكمال فهناك يُصبغ فى تلك الحضرة بالأخلاق الحميدة بالخاصية^(١) من غير كلفة ولا مشقة .

ثم إذا أمر بالرجوع إلى السكون فلا يشغله بعد ذلك شيء منه ، لشهوده أن الحق تعالى هو القائم بكل شيء ومع كل شيء ، فلا يعتزل عن شيء ولا يهرب من شيء ويقضى على نفسه بالجهل فى حال مديرة^(٢) .

وقد كان الحق تعالى قادراً على أن يعطى العبد هذه الأخلاق بغير انتهاء سلوكه ، ولكن ذلك لم يسبق به علمه ، إنما سبق أن يكون السير والترقى على هذه الحالة^(٣) .

ولو أن العبد كان يشهد الحق تعالى خالقاً لكل شيء فى أحسن تقويم ومع كل شيء

(١) أى أخلاق الصوفية الكبار (الخاصة) .

(٢) كما فعل سيدى رسول الله ﷺ بالنسبة للتشريع فقد كان فرضه على المسلمين الأول بالتدريج مثل تحريم الخمر وغيرها من أمور التشريع .

(٣) فإن السعى للوصول إلى الكمال مطلوب فى الشرع والأخلاق الفاضلة لا توهب ، صحيح أن للبيئة والمجتمع تأثير ولكن المطلوب من المسلم الدفاع عن دينه وأخلاقه ضد المجتمع المنحرف والبيئة المنحرفة .

ما فر في بدايته من شيء وصورة المنتهى ^(١) صورة المبتدى ^(٢) ، ولكن المشهد مختلف .
ومن هنا جهل الناس مراتب الكاملين ، وظهر لهم الناقصون لتمييزهم بالأعمال البدنية
بخلاف الكاملين فإنهم إنما يتميزون بالأخلاق القلبية .

وسمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله يقول : إنما لم يؤمر المربدون بالتخلق بأخلاق
القوم في بداياتهم ، لضيقهم وعسر ذلك عليهم ^(٣) بخلافهم بعد انتهاء كمالهم ومجاهداتهم
وفطامهم على يد شيخ صادق ناصح ^(٤) ، فلذلك كانوا لا يشغلون المربد في بداية أمره إلا
بالتوحيد سرّاً وجهراً ليلاً ونهاراً ^(٥) ، فلا يزال أفراد العالم ينقص في شهوده ^(٦) شيئاً
فشيئاً كلما أكثر من الذكر إلى أن يصير لا يشهد إلا الله وحده ، كما هو الحال في صورة
وجود الله تعالى قبل خلقه الخلق ^(٧) ، فإن الله تعالى كان ولا شيء معه أصلاً ، ثم إنه لما
خلق أول مخلوق رأى ذلك المخلوق نفسه مع ربه فقط ، ثم لما خلق المخلوق الثاني صار
يرى نفسه ، ورفيقه مع الحق ، ثم لما خلق المخلوق الثالث صار يرى نفسه ، ورفيقه
مع الحق .

وهكذا إلى انتهاء الأعداد في الذهن ، ثم كما صارت دائرة الخلق تتسع في شهود العبد
كذلك صارت دائرة الحق تضيق في شهوده ، إذ لا حلول ولا اتحاد ^(٨) ، حتى ربما صار
العبد لا يشهده إلا الخلق ^(٩) .

فلما انتهى الأمر إلى شهود هذه الكثرة التي حجب العبد عن شهود عظماء ربه

-
- (١) لعله يقصد : وتكون صورة المنتهى هي صورة المبتدى .
(٢) أي صورة الكامل في الطريق إلى الله تعالى وصورة المبتدى فيه .
(٣) فإنهم لم يتخلصوا من شهوات الدنيا بعد .
(٤) فإنه يأخذ بيدهم ويرشدهم في جميع المجالات .
(٥) أي ذكر الله تعالى (٦) في وعيه (٧) فلا يرى إلا الله تعالى
(٨) نفي للحلول والاتحاد .
(٩) من إنصرفهم عن الله تعالى .

تعالى ، أرسل الله تعالى رسوله إلى الناس وأمرهم بالسلوك على مدرجة شرائع الرسل بالأعمال المرضية والأخلاق الزكية ، فصارت أفراد العالم تنقص في شهودهم شيئاً فشيئاً ، حتى رجع العبد إلى حالته الأولى التي لم يكن معه هناك أحد إلا الله تعالى ، وهناك صحت له مراقبته ومعاملته فإن المحجوب عن الله بشهود الخلق لا يهتدى لمعاملته ولا مراقبته انتهى ^(١) .

وسمعت سيدي على الموصي رحمه الله يقول : لو أن الأشياخ أمروا المريد بتأدية حقوق العباد في حال سلوكه إلى حضرة ربه لا يقطع عن السير ، لأن حكم ذلك حكم من يحمل في عنقه صخرات عظيمة ويطلب سرفاً بعيداً نحو عشرين سنة مثلاً ، فربما قذف على هدد حقوق العباد عمره كله ولم يصل إلى حضرة ربه ، فذلك قالوا له : لا يعمل على حق أحد من الخلق إلا إن كان هو نالك على السير وإياك أن تخالط الخلق ، أو تشفع ، أو تنام ، أو تسكن من الكلام ، أو تمسك شيئاً من الدنيا إلا اضرورة ، أو تأكل شهوة من الشهوات ، فإن ذلك كله يحجبك عن الله عز وجل ^(٢) .

ولكن إذا انتهى سيرك وعرفت الله تعالى المعرفة المعروفة بين القوم ، فهناك لا يشغلك شيء عن الله تعالى ، فترجع تخالط الناس ، وتأكل الشهوات ، وتملك الدنيا بمخادفها ، وتمكلم بالغو مع الخلق ، رغبر ذك بما كنت منهياً عنه في حال بدايتك وتصير ترى الملك في الأمور كلها لله تعالى . انتهى .

وسمعت أخي أنضل الدين رحمه الله يقول : إياكم أن تنسكروا على عارف بالله تعالى إمساكه الدنيا أو نكاحه المنعمات ، أو بناء الدور ، أو غرسه البساتين ، أو ركوبه

(١) وهذه هي مهمة الطريق الصوفي « صرف العباد عن شهود غير الله تعالى » .

(٢) وهذا كله في مبتدأ الطريق إلى الله تعالى وقد يكون ذلك عند دخول المريد الخلوة ولكن الأمر لا يستمر فبعد أن تتم تصفية النفس يعود المريد لمباشرة المصالح الدنيوية ولكن في هذه الحالة يكون قضاء هذه المصالح لله تعالى وليست بغرض شخصي وهذا يكون أكمل حيث تكون النية كلها لله تعالى .

الخليول المسومة ، أو أكله اللذيذ من الطعام أو الشراب ، ونحو ذلك فإن له مشاهد
صحيحة في ذلك^(١) بخلاف المبتدى فإن كل شيء من هذه الأمور تحجبه عن الله وتوقفه
عن السير إلى حضرة لضيقة وضعفه انتهى^(٢) .

وأعلم ذلك يا أخى وأعمل عليه وأعرضه على مریدی زمانك تعرف حالهم ولا تنس
نفسك والحمد لله رب العالمين .

(١) وجهة نظر شرعية في ذلك حيث أنه يكون من الكاملين فنيته كلها لله ولا يشهد
غيره ولا يقصد هذه الشهوات لذاتها .
(٢) فقد تطفية هذه الأمور وتبعده عن الله تعالى .

ومن أخلاقهم أن يشهدوا نفوسهم وتلامذتهم حال تربيتهم
لهم أنهم كلهم من جملة تلامذة رسول الله ﷺ
وهو الشيخ الحقيقي لهم

فإن جميع ما يربون به التلامذة إنما هو شرعه ﷺ مريحاً أو مستنبطاً كما مر في
خطبة الكتاب .

وكن لسان حال كل شيخ يقول لمريديه : يا أولادى إنما أربيكم بشرع نبيكم
ﷺ ، وأنا مبلغ لكم شرعه الصحيح وما استنبط منه فأقول لكم : قال نبيكم ﷺ :
كذا ، أو قد استنبط العلماء من شرع نبيكم كذا ، وليس لى من ذاتى شرع أمشيخ
عليكم به .

وكان سيدى إبراهيم الدسوقي رضى الله عنه يقول لتلامذته : قد أمركم نبيكم بكذا ،
أو نهاكم عن كذا .

فعلم أن كل شيخ غاب عن هنا المشهد الذى ذكرناه من شهوده وتلامذته من جملة
تلامذة رسول الله ﷺ فهو جاهل قليل الأدب ، وإنما الواجب عليه أن يجعل جميع
استمداده من رسول الله ﷺ بالأصالة ، ثم يصير بمد تلميذه من مدد رسول الله ﷺ
كما أن رسول الله ﷺ أعطى علم الأولين والآخرين ، ومع ذلك كان يأتيه جبريل بالوحي
فيصنفى إليه كائن ما علمه إلا منه إثباتاً للأسباب ، والوسائط ^(١) .

وكذلك قال الله تعالى : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه ^(٢) » ،
أى لا تسابق جبريل بما تعلمه مناسبقاً من الوجه الخاص بيننا وبينك ، بل اصغ إليه

(١) فكل طريق فيه تحلل من الشريعة لا يسمى تصوفاً بل هو بعد عن الله تعالى وكفر
به ، والإمام الجنيد شيخ هذه الطائفة وإمامها يقول « علمنا هذا مشيد بالكتاب والسنة » .

(٢) سورة مريم آية : ١١٤

كأنك ما علمته إلا منه ، هـكذا رأيته في كلام بعض العارفين ^(١) انتهى .

وكان سيدي ابراهيم الدسوقي رضى الله عنه يقول للمريدين : استمعوا لأشياخكم ولا تطالبوهم في قبولكم قولهم بدائل كما لا تطالبون بذلك من قلدهم . من المجتهدين رضى الله عنهم ، فإن شيخكم له مقام الأخذ عن رسول الله ﷺ بلا واسطة فإن فاته الأخذ من طريق النقل أخذ من طريق الكشف ^(٢) .

وسمعت سيدي على الخواص رحمه الله يقول : ما من شيخ تحق له قدم الولاية الحمديّة إلا وبرى نفسه نائباً لرسول الله ﷺ في جميع ما يأمر به وينهى عنه ^(٣) ، ويرى الفضل في ذلك لرسول الله ﷺ لا لنفسه .

ومنهم من يصير يربى مريده وهو يشهد في نفسه أنه دون ذلك المريد في الدرجة كما هو معروف بين أهل الذوق منهم .
فاعلم ذلك واعرضه علي مريدي زمانك تعرف حالهم ولا تنس نفسك والحمد لله رب العالمين .

(١) التفسير الظاهر المعروف هو لا تعجل به لكي تستطيع حفظه وتلقيه .
(٢) ولذلك يجب التسليم للشيخ تسليماً كاملاً فإنه كالطبيب أعرف بدخائل الأمراض من صاحبها نفسه .
(٣) أى خليفة له في هذه الأوامر والنواهي .

ومن أخلاقهم رميهم الدنيا وشهواتها من يدهم ومن
قلوبهم أول دخولهم في الطريق

فلا يصير لهم ميل إلى شيء من الدنيا ، وذلك ليحصل لهم صحة بناء الأعمال الأخروية
فإنه لا يصح لمريد أن يبنى في الآخرة شيئاً من أعماله إلا بعد كمال الزهد في ضررتها التي
هي الدنيا وكل من نلون^(١) علي شيخ أو أخذ عنه العهد وهو يميل إلى الدنيا فلا بد أن
يرجع من حيث جاء ، وترفضه الطريق^(٢) .

وكان سيدي محمد المغربي الشاذلي شيخ الجلال السيوطي رضي الله عنهما يقول : لا يصح
لمريد قدم في طريق أهل الله عز وجل إلا بعد أن يزهد في الدنيا ونعيم الآخرة^(٣) ،
وهذاك يبتدى في سيره في الطريق .

فإذا رأيتم شيخاً يطلب الدنيا ويزاحم عليها ويتكدر لمفارقتها فاعلموا أنه لم يشم
من طريق أهل الله تعالى رائحة ، بلى هو مدع كذاب ، انتهى .
فاعرض يا أخي ماذا كرناه على مريدي عصرك ، تعرف حالهم ، ولا تنس نفسك .

(١) لعله يقصد من تلقى .

(٢) فإذا كان هذا في أول تصوفه فكيف يستمر بعد ذلك .

(٣) أي لا يطلب شيئاً إلا الله تعالى سبحانه وتعالى .

ومن أخلافتهم أن لا يصدوا^(١) لأخذ العهد ولا لإلباس الخرقة ولا لتلقين الذكر إلا بعد اجتماع شروط هذه المراتب

وكثيراً ما سمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول : أربع مراتب زاحم الناس عليها في هذا الزمان من غير قيام بشروطها : وهي أخذ العهد على المريدين ، وتلقينهم الذكر ، وإلباسهم الخرقة ، وإدخالهم العذبة^(٢) .

فقلت له : وما شرط من يأخذ العهد على المريدين ؟ فقال : من شرطه أن يزهد في الدنيا ، ويتوب عن كل شيء يكرهه الله تعالى ظاهراً وباطناً . وذلك ليقتدى به المريد ويهتدى بهديه ، فإن الراغب في الدنيا الواقع في المعاصي لا يصلح أن يكون داعياً إلى طريق الله عز وجل .

ومن هنا أجمعنا على عصمة الأنبياء لكونهم مشرعين بجميع أفعالهم وأقوالهم فلو أنهم صح في حقهم شيء من المعاصي الحقيقية لصدق عليهم بشرايع المعاصي لقومهم^(٣) ، ولا قائل بذلك .

فقلت له : هذا مقام عزيز في غالب مشايخ هذا الزمان .

فقال : نعم هو مقام عزيز لأن صاحبه نائب لرسول الله ﷺ وخليفة له ، ومن شرط الخليفة أن يكون على صورة من استخلفه في التنزه عن الرذائل الظاهرة والباطنة ، وإن لم يلحق به^(٤) . وجميع ما نقل عن بعض الأنبياء من اسم المعصية فمن أمور صورية لا حقيقية^(٥) . فيجري الله تعالى على يديهم أموراً تشابه بعض ما يقع فيه قومهم ليروا

(١) لعله يقصد أعطوا العهد ولا إلباس الخرقة .

(٢) فإن الواجب إختبارهم قبل التكالب عليهم .

(٣) لعله يقصد لوقعت عليهم شرائع المعاصي في قومهم .

(٤) فإنه يحاول الوصول إلى كمال خلق رسول الله ﷺ .

(٥) بقصد التشريع والتيسير على الأمة .

قومهم كيف يتخلصون من المعاصي ، إذا وقعوا فيها ، مع كون الأنبياء منزّهين عن سائر الرذائل بإجماع الأمة هذا اعتقادنا الذي نلقى الله تعالى به انتهى .

وقلت وسيأتي بسط ذلك قريباً في الجواب عن أكابر أهل الحضرة الآلمية والله أعلم .
وسمعت سيدي محمد الشناوي ^(١) رحمه الله يقول : من شرط الداعي إلى الله تعالى أن تقساوي سريره وعلايته ، بل ترجح سريره في الخير على نيته ، وكذلك من شرطه أن يسكون عفيفاً عن الدنيا خير ناظر إلى مافي يدي من يدعوهم منها ، وهي الحكمة المشار إليها بقوله تعالى : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » ^(٢) .

قال بعض العارفين : الحكمة هي غناء الداعي عن مال المدعو فإنه إذا كان محتاجاً إليه هان في عينه ، ولم يبق لكلامه في قلبه موقع .

وأما الموعظة الحسنة فهي أن يمهّد الداعي المدعو بساطاً قبل أن يدعو ^(٣) . ويعلمه بما له في ذلك من المصلحة في الدنيا والآخرة ، حتى يكون ذلك للمريد يشكر فضل مربيه علي ما يرشده به من الخير ، لما يرى لنفسه فيه من الحظ والمصلحة . واعلم ذلك فإنه نفيس ولنرجع إلى تمام بقية الشروط .

فنقول قال سيدي علي الخواص : وأما شرط من يلحق المرید كلمة لا إله إلا الله على وجه النعيق دون التبرك : فهو أن يقدره الله تعالى على أن يفرغ على المرید حال قوله

(١) هو العارف بالله تعالى الشيخ محمد الشناوي : كان من الأولياء الراسخين في العلم أهل الإنصاف والأدب .

ومن أقواله : مادخلت على فقير إلا وأنظر لنفسى دونه وما امتنحت قط فقيراً .
وكان رضى الله عنه إذا افتتح مجلس الذكر بعد صلاة العشاء لا يخطمه في غالب أمره إلا الفجر فإذا صلى الفجر جلس في الذكر حتى الضحى .

توفي سنة اثنين وثلاثين وتسعمائة ودفن بزاويته .

(٢) سورة النحل آية : ١٢٥

(٣) أى يمهّد السبيل لدعوة المرید .

له قل : لا إله إلا الله جميع أحكامها ، فلا يصير يحتاج بعد التاقيين إلى مطالعة كتاب ، بل يصير يعرف جميع أحكام الشريعة للتفرقة في جميع مذاهب المجتهدين ويدرس الناس فيها ، وأما شرط من يرعى العذبة للمريد في عمامته بأن يقدره الحق تعالى على أن يعطى ذلك للمريد الذى أرخى له العذبة سر النمو والزيادة في كل شيء نظر إليه أو مسه ، حتى أنه لو مد العمود ، أو الخشب امتد معه ، فيكون إرخاء العذبة له إشارة إلى أنه من أصحاب هذا المقام من باب التحدث بالنعمة ^(١) .

قلت : وما يشهد لمشروعية العذبة ومقدارها ولبس الخرقة ما رواه البيهقي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ رأى على عبد الرحمن بن عوف من كرايس مصبوغة ، بسواد ، لما أمره على سرية عقد له اللواء فأخذها ﷺ فخاها ثم عممه بيده ، وأفضل موضع أربع أصابع أو نحو ذلك . وقال : هكذا فاعتم فإنه أحسن وأجل . وروى أبو داود عن عبد الرحمن بن عوف قال : عمى رسول الله ﷺ فسد لها بين يدي ومن خلقي ^(٢) . انتهى .

وأما شرط من يلبس المريد الخرقة من ثوب أو عمامة أو طاقية ، أو قلنسوة ، أو رداء فإن يقدره الله على نزع جميع الأخلاق الردية من ذلك المريد حال أمره له بنزع شيء مما عليه من الثياب ^(٣) ، ثم يفرغ عليه حل إلباسه له تلك الخرقة جميع الأخلاق المحمدية التي هي من مقامه ، فلا يصير يحتاج بعد ذلك إلى علاج في تحصيل خالق من الأخلاق انتهى .

قال السهروردي : واللبس الخرقة الزرقاء للمريد أولى عند الجمهور ، ولكن إن اختار

(١) يقصد بذلك أن يكون الشيخ من الكمال والقوة بحيث يوصل مريده إلى هذه الأمور .

(٢) مذكور في كتب السيرة والمغازي .

(٣) ويقصد الامام الشعراي من ذكر ذلك أنه مأخوذ عن سيدى رسول الله ﷺ .

(٣) فلا يقصد بذلك المعنى الظاهر وهو مجرد التغيير فقط .

الشيخ أن يلبس المريد غير الأزرق فلا اعتراض عليه ، لأن الأشياخ^(١) بحكم الوقت في كل ما لم يرد في الشرع تصریح به . وللشيخ أن يلبس المريد خرقاً على ذفعات . انتهى .

فعلم أن كل من لم يقدره الله تعالى على ما ذكرناه في هذه المراتب : فليس له المزاوجة على مراتب العارفين^(٢) . اللهم إلا أن يقصد بذلك التبرك أو التشبه بالقوم بشرط أن يعلم الناس بأنه متشبه بأهل الطريق لا متحقق بمقامهم فلا بأس بذلك .

وقد كان شيخنا الشيخ محمد الشناروى رحمه الله إذا لقن أحداً يقول له : اسمع منى يا ولدى قولى ثلاث تشبهاً وتبركاً برسول الله ﷺ وبالسلف الصالحين رضى الله عنهم . ثم يلقنه بعد ذلك^(٣) انتهى .

قلت : قد اختلف المحدثون في إثبات لبس الخرق من طريق الحسن البصرى عن على بن أبى طالب ، حتى أن الشيخ محيى الدين بن العربى لبسها من يد الخضر عليه السلام ، ومن يد رسول الله ﷺ ، لينتصل منده بها . ولكن قد صحح الحافظ ضياء الدين المقدسى والجلال السيوطى اتصال مندها من على ، وأن رسول الله ﷺ ألبس أم خالد خديجة فيها خطوط صفر وسود وقال لها : « إلبى وأخلقى » . وثبت في الحديث : أنه ﷺ ألبس عبد الرحمن بن عوف عمامة . وكذلك على رضى الله عنهما كما مر والحمد لله رب العالمين .

(١) يقصد بذلك أن الأشياخ يحكمون العصر في الأمور التى لم يرد فيها نص ولا كتاب من لدن الله تعالى أو رسوله ﷺ .

(٢) إستبعاد لكل من لا يقدر على هذه الشروط من جملة المشايخ المرشدين .

(٣) وذلك في مبتدأ طريقه .

ومن أخلاقهم كراهتهم لتقبيل أحد يدهم فضلاً عن رجُلهم

فإن في محبتهم لمثل ذلك إزدراء بإخوانهم ورضى بإظهار السيادة عليهم ، وما هكذا خرج السلف الصالح رضى الله عنهم كما سيأتى بسطه في مواضع من هذا الكتاب .

وقد كان سيدى إبراهيم المتبولى رضى الله عنه يقول : لا ينبغي لفقير أن يمكن أحداً من تقبيل يده أو التمسح بذيابه ، إلا إن صار فى مقام الحجر الأسود . فقيل له وما مقام الحجر الأسود ؟ فقال : من مقام حفظ عهود جميع من استلمه ، ويحمل خطايا بني آدم عنهم ، وفداؤهم بنفسه ، ولو أسود بذلك وجهه بين الناس .

ومن مقامه : أن يتطهر من تلويث قلبه بشيء من الأوهام ، حتى لا يصير يلتبس عليه أمر فى الدنيا والآخرة . وأن يتحقق بترك الشهوات كلها ، حتى لا يصير يقع فى شهوة تمجبه عن شهود الحق تعالى فى ساعة من ليل أو نهار .

ومن مقامه أن يكون مجالسته للناس مذكرة لهم بربهم وبنعمته عليهم ، حتى يبيض بذلك وجوههم وقلوبهم^(١) . ومن مقامه أن لا يخطر فى باله أن له مزية على من يقبل يده مثلاً من جميع العصاة ، إلا من حيث الشكر لله الذى حماه مما وقعوا فيه ، ومتى غفل عن هذا المشهد فلا ينبغي له أن يمكن أحداً من تقبيل يده انتهى .

فليُنظر الذى يمكن الناس من تقبيل يده فى نفسه ، فإن رأى فيها هذه الشروط غله أن يمكن الناس من تقبيل يده ، وإن كان الأولى له المنع من ذلك .

وسمعت محمد بن عنان وسيدى عليا الخواص رحمهما الله يقولان : لا ينبغي لفقير أن يمكن أحداً من تقبيل يده إلا بعد مجاوزته الصراط سالماً ، وكان أشد الناس كراهة لذلك .

(١) حتى تكون حياته كلها لله تعالى ويتبع فى ذلك سنة نبيه ﷺ .

وبالجملة فعلى العبد هضم نفسه ، وعلى المریدین التعظیم له من حيث كونه واسطة لهم
فيما بينهم وبين حضرة الله تعالى عز وجل . التي يريدون أن يكونوا من أعلامها . والحمد لله
رب العالمين .

فأعرض يا أخى ذلك على مریدی عصورك تعرف مقامهم ولا تنس نفسك والله
يتولى هداك .

ومن أخلافتهم كثرة تفنيتهم نفوسهم كل ساعة من ليل أو نهار
ليعلموا هل الحق تعالى راض عنهم أو ساخط عليهم

فيفرحوا ويستبشروا أو يندموا ويستغفروا . ويعرفون ذلك بوزن الأعمال البارزة
علي يديهم بالكتاب والسنة ولا يخلوا عن ثلاثة أحوال إماموفاة أو مخالفة أولا تظهر
فيها مخالفة ولا موافقه .

فأولى أحوال هذه الوقف فإن كان أحدهم ممن يتوب من شهوات النفس للباحة
رجع ذلك إلى قسم الذم ، فيستغفر صاحبه كما يستغفر من المكروه أو خلاف الأولى . ثم
لا يخفى أن أحدا إذا رأى أفعاله مخالفة لظاهر الكتاب والسنة وندم واستغفر فليس
هو على يقين من قبول توبته ورضى الله عنه أو مساحته بذلك الذنب ، وحيث لا يقين
فمن الأدب دوام الخوف والوجل من الله عز وجل . لأن الذنب قد يتحقق بمخالفة
الشريعة ، وأما القبول للتوبة فليس مع أحدا بذلك علم . وقد بلغنا أن الله تعالى أوحى
إلى داود عليه الصلاة والسلام : يا داود قل لفلان العابد مالى لأراك نائما على ذنبك أنتظن
أنك بتقادم عهدك به أنى قد غفرته لك ومن أخبرك عنى أنى قد غفرته ؟ انتهى .
وسياتى قريبا أن ذنوب الأنبياء كلهم صورية لاحتمالية فافهم .

وصحمت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إذا أذنب أحدكم فليكثر من التوبة
والاستغفار على الفور خوفا من الإصرار فيطبع الله على قلوبكم فلا يصير تصح لها
توبة من عدم الندم ^(١) . قال : ولعل أحدا يكون ربه ساخطا عليه على الدوام ،

(١) روى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « والله إنى لأستغفر
الله وأنوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » .

وروى الإمام مسلم عن الأغر بن يسار المزنى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنى أنوب فى اليوم مائة مرة » .

وذلك لتعاقب الأعمال القبيحة عليه فلا يتوب من ذنب إلا ويمتعه ذنب آخر ، وربما أسخط العبد ربه بالذنب الواحد اليوم ، واليومين ، وأكثر وهو مصر عليه من غير توبة . فمثل هذا لا يزال الحق ساخطا عليه حتى يقع في ذنب آخر يسخط به ربه . فمثل هذا سخط الحق تعالى عليه دائم ، وربما كان نظر في نفسه أنه من الصالحين فليتنبه الفقير لمثل ذلك ^(١) . فوالله لقد خلقنا لأمر عظيم ، نقص وخذلان وشيب وهيب ودموى حربضة بعد ذلك .

وقد كان السرى السقطى رضى الله عنه على أعمال ^(٢) يعجز غيره عنها ، حتى قال : أبو القاسم الجنيد كان السرى السقطى يقول لنا : يا أولادى عليكم بالأعمال الصالحة ، قبل أن تصيروا عاجزين مثلى ^(٣) . قال الجنيد : وكنا مع ذلك لانلحقه فى العدل وهو فى

وعن أبى حمزة أنس بن مالك الأنصارى خادم رسول الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره ، وقد أضله فى أرض فلاة » متفق عليه .

(١) يقول الإمام النووى : قال العلماء التوبة واجبة من كل ذنب ، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمى ، فلها ثلاثة شروط : أحدها : أن يقطع عن المعصية .

الثانى : أن يندم على فعلها .

الثالث أن يعزم أن لا يعود إليها أبدا .

فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته ، وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى ، فشروطها أربعة . هذه الثلاثة ، وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه وإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفو وإن كان غيبة استحلله منها .

ويجب أن يتوب من جميع الذنوب ، فإن تاب من بعضها صححت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب وبقي عليه الباقي .

وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة ، وإجماع الأمة على وجوب التوبة .

(٢) لعله يقصد أنه يقوم بأعمال يعجز غيره عنها .

(٣) تواضعا منه وتشجيعا لهم .

آخر عمره ، وقد أتت عليه ثمان وتسعون سنة فما روى مضطجعا إلا في علة للموت . قال الجنيد : وقد سمعته مراراً يقول لى : يا محمد لى منذ ثلاثين سنة وأنا أظن ان الله تعالى ينظر إلى نظر الغضب^(٤) انتهى .

قلت : وهذا القول من السرى رضى الله عنه من باب الاتهام لنفسه والا فاعتقادنا فيه ، بحسب ما تواتر عنه أنه كان مطهرا من الذنوب ، بل بلغنا عنه أنه كان يؤاخذ نفسه بخلاف الأولى فضلا عن المكروه لو لم يسكن له من الفضل إلا كون الإمام الجنيد الذى أجمع القوم كاهم على فضله وجلالته من جملة تلامذته .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : إذا كان الشيطان يركب أحدا كلبا غفل عن ذكر الله تعالى مع طهارة سرائرنا فكيف لا يركب أحدا إذا فعل ما يسيخط الله عز وجل عليه ؟ فإنه دائماً واقف تجاه قاب العبد ، وكما غفل عن الله استحوذ عليه ، وكما ذكر الله تعالى تركه ، قال نلو كشف لأحدنا لرأى إبليس يركبه وينزل منه طول الليل والنهار كلما غفل وكما ذكر الله تعالى .

وسمعت سيدى هانيا الخواص رحمه الله يقول : مادام العبد مستحضرا أنه بين يدى الله عز وجل لا سيبل لإبليس عليه . فإذا حجب عن هذا للشهد عبت به فاعلم يا أخى ذلك واعمل عليه واعرضه على مريدى زمالك تعرف حالهم ولا تنس نفسك والحمد لله رب العالمين .

(٤) من شدة ورعه وتقواه كان يعتقد أن كل أعماله لا تبلغ حق الله تعالى وأنه أقل

المسلمين شائنا .

ومن أخلاقهم توطئ نفوسهم على كثرة التعب في المرید الذي تقدمت
له صحبة بأحد من الفقراء الذين لا قدم لهم في الطريق

كغالب الأحديه والبرهانية والمطاوعة فإن الحكم غالباً للداع الأول والداع الثاني
طارىء^(١) .

وقد صحبت بعض من صحب المطاوعة فذاب قلبي من التعب فيه فاقرر له معالم
طريق الصوفية وقواعد طريقهم حتى أقول أنه ما عاد يخرج عنها ثم يرجع إلى قواعد
المطاوعة في أسرع ما يكون . وأعلم ذلك وأعرضه هلى مریدی عصرک تعرف حالهم
ولاتنس نفسك .

(١) أى أن المرید يتغلب عليه الإتياع لشيخه الأول مما يجعل من الصعب هدايته .

ومن أخلاقهم كثرة شفقتهم ورحمتهم على جميع عصاة هذه
الأمة المحمدية من شربة الخمر والمكاسين وسائر
من عليه تبعة للخاق

فإنه كالأسير لأصحاب الحقوق ومحبوس عن الجنة حتى يوفى ذوى الحقوق
حقوقهم .

ولعل غالب الناس لا يعد تبعات الخلائق بلاء ويعتقدان البلاء إنما هو الأوجاع
والآلام من زمانه وجذام وبرص ونحو ذلك وكان سفيان الثوري رضى الله عنه يقول :
إذا رأيتم أحدا من أعوان الظلمة فاسجنوا الله شكرا فإنهم من أهل البلاء وبلاؤهم اعظم
من البلاء في الجسد انتهى .

وكان سيدي علي الخراساني رحمه الله يقول : البلاء في الدين أشد من البلاء في الجسد ،
فأرحموا العصاة وادعوا لهم فإن غالب الناس لا يكاد يرحم أحداً منهم كما يرحم من ابتلى
ببلاء في جسده أو تحركات عنه نعمة . وقد أطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم
البلاء في قوله : « أرحموا أهل البلاء » . فلم يخص بلاء دون بلاء انتهى .

ثم اعلم بالأخى أنه لا فرق في رحمتنا للعصاة بين أن يكون أحدهم متلبساً بالمعصية أوفى
هقوبتها ولا يجوز لنا الشئمة به أو التشفي منه إلا على وجه أن ذلك تطهير له من ذنبه
فتفرح له بتلك العقوبة من حيث كونها مطهرة له من دنس المعصية لا لعلة أخرى ^(١) .

(١) روى الإمام مسلم عن أبي نجيد عمران بن الحصين الخزاعي رضى الله عنهما أن
امرأة من جهينة ، أتت رسول الله ﷺ وهي حبلى من الزنا فقالت : يا رسول الله أصبت حداً
فأفقه على مدما نبي الله ﷺ وليها فقال : أحسن إليها فإذا وضعت تأتني ، ففعل فامر بها نبي
الله فشدت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ، ثم صلى عليها ، فقال له عمر : تصلى عليها يا رسول
الله وقد زنت ! قال : ثابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت
أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل ؟

وقد روى الطبراني مرفوعاً « من لا يرحم لا يرحم ومن لا يغفر لا يغفر له ومن لا يتوب لا يتوب الله عليه » . وفي الحديث أيضاً : « ومن أتاه أخوه متصلاً من ذنب فليقبل ذلك محققاً كان أو مبطلاً فإن لم يفعل لم يرد على الخوض ^(١) » .

وروى البيهقي : « أن بدلاء امتي لم يدخلوا الجنة بالأعمال وإنما دخلوها برحمة الله وسخاوة الأنفس وسلاوة الصدور والرحمة لجميع المسلمين » انتهى .

والظلمة والعصاة كلهم من المسلمين وما خرج إلا الكفار فايدك يا أخي وقولك لمن هو في حقوبة ذنب فلان يستحق ذلك وأكثر فإنه تحصيل الحاصل مع أنه فيه رائحة الشماتة بالمسلمين ولولا عفو الله وحلمه لأهلك كل عاص على وجه الأرض عقب معصيته فضلاء عن كونه يجبسه أو يضريه مثلاً . وإياك والقساوة على أحد من عصاة المسلمين ، فإن ذلك للناس في أخلاق الصالحين . وعاملهم ظاهراً معاملة القاصي زجر الهم وأنت راحم لهم في الباطن عملاً بالشرعية والحقيقة .

فقد قالوا : من نظر إلى الخلق بعين الشرية مقتهم ومن نظر إليهم بعين الحقيقة رحمهم ^(٢) . وقد كان أبو سليمان الداراني ^(٣) يقول : اللهم إنك قد أدخلت في قلبي

(٢) سبق تخريجه .

(١) فإنه بعين الحقيقة ينظر إليهم على أن الله غافر الذنب وقابل التوب ، وأنه يغفر الذنوب جميعاً ولو كانت مثل زبد البحر ، ولو لم يوجد مذنبون وعصاة يستغفرون ، لخلق الله من يذنب ويستغفر ، فإن الله يحب التوابين .

(٢) هو أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني توفي سنة خمس عشرة ومائتين . ومن أقواله :

« من أحسن في نهاره كوفي في ليله ، ومن أحسن في ليله كوفي في نهاره ، ومن صدق في ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه » ، والله تعالى أكرم من أن يعتب قلباً بشهوة تركت له » .

وأيضاً : « ربما يقع في قلبي النكته من نكت القوم أياماً ، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين : الكتاب والسنة » .

الرحمة على العصاة فإن شئت أن تغديني عنهم فافعل . انتهى . وهذا من أبي سليمان من باب إظهار النعمة وقياماً بما كاف به العبد من حمل هموم المسلمين ، وإلا فهو يعلم أن الله تعالى أرحم بالعصاة منه . وقد رتب الله الأسباب على مسبباتها وأمر العبد بالشفاعة هنده في أخيه ، وجعل له الثواب في مدافعتة الأقدار الجارية عليه بالمعاصي ، وإن كانت منحتهم الوقوع فافهم ، وأعرض ذلك على مريدى همرك تعرف حالك ولا تنس نفسك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم مساعدة أحد من إخوانهم على تولية شيء من
الوظائف التي لا خلاص لهم فيها بميزان الشرع الشريف
الآن كالحسبة والقضاء

وهذا الأمر ربما يخل به كثير من فقراء الزمان فيسمى لمن يتولى القضاء أو الحسبة
مثلاً عند الباشا أو الدفتر^(١) أو قاضي المسكر ، ولا ينظر لسكونه يضر ذلك المتولى
والساعي أم لا .

فينبغي لمن يريد مساعدة أحد في تولية المناصب التي لا خلاص فيها أن لا يبادر إلى
مساعدته إذا سأله في ذلك ، بل يتربص ويتروى ويشاور الإخوان في ذلك . ثم إن
وثقوا كلهم بدينه وخيره وقلة بلائه^(٢) وعدم أخذه الرشأ^(٣) ، ولم يروا في البلد من هو
أصلح لذلك منه فهناك يساعدونه على التولية من باب ظلم دون ظلم^(٤) .

فعل أنه لا يجوز لأحد مساعدة القاضي مثلاً إذا لم يثق بدينه^(٥) .

ولكن إن أراد مساعدته فليسأل الله تعالى في إصلاح حاله فإن صلح حاله ساعده
وإلا وكل أمر ذلك إلى ولي الأمر ، ولا ينبغي لنا مساعدته ولو ساق علينا الساقات ،
فإنه كالطفل الذي لا يدري ما يضره ولا ينفعه ، ولا يقع في تولية القضاء في هذا الزمان

وقال : « أفضل الأعمال : خلاف هوى النفس » .

(١) ربما يقصد الدفتردار .

(٢) ربما يقصد قلة نهاوته أو شيء من أنواع التهاون في الشرع .

(٣) يقصد الرشوة .

(٤) وكان سيدنا عمر لا يعطي الولاية لمن يطلبها ، ورفض سيدنا أبو حنيفة التعمان تولى

القضاء ، وكذلك عدد كبير من الصالحين خوفاً من عدم الحكم بما أنزل الله .

(٥) فإنه إذا لم يكن للقاضي صالحاً فسدت كثير من أمور المساكين وانقطع العدل

من حياتهم .

إلا من لم يحتط لنفسه ، فإنه ولو كان ديناً يدخل عليه التلبيس من الأخصام وغيرهم ، فيحتاج إلى حذق زائد ، لأنه في النصف الثاني من القرن العاشر صاحب العجائب والغرائب .

وقد امتنع من تولية القضاء خلائق من الساف رضى الله عنهم ، كالإمام أبي حنيفة ، واصله بن أشيم^(١) وسفيان الثوري ، والإمام الشافعي وغيرهم .

وأما الإمام الشافعي فدعا المأمون إلى القضاء بالمشرق والمغرب فأبى .

وأما الإمام أبو حنيفة فضرب وحبس ولم يقول ، وكان الذي دماه إلى القضاء الخليفة المنصور .

وأما سفيان فهرب إلى بلاد اليمن متنكراً .

وأما صله بن أشيم فتحاق على الخليفة فتركه ، وكان من شهامته أنه لما دخل على المنصور لم يسلم عليه ، بل قال له : أيش طبخت اليوم ؟ وكم عندك حمار^(٢) ؟ فقال : أخرجوه عني .

وقد كان سبق من الإمام أبي حنيفة رضى الله عنه أنه قال : حين طلب للقضاء بعد موت القاضي شريح هو وسفيان واصله بن الأشيم وشريك : إني أخن لكم تخميناً : أما سفيان فيهرب ، وأما أنا فأحبس ولا ألى . وأما شريك فيقع ، وأما صله ابن أشيم فيتحاق ، ويتخلص ، وكان الأمر كما قاله الإمام رضى الله عنه قالوا : ولم يكن بعد القاضي شريح في العلماء أعلم ولا أروع ولا أزهد من هؤلاء الأربعة رضى الله عنهم .

ولما تولى أحمد بن شريح القضاء طاب عليه ذلك الشافعية وهجره تلميذه أبو على

(١) هو صله بن أشيم العدوي رضى الله عنه : كان يقول : إذا أمر بقوم يلعبون أخبروني عن قوم أرادوا سقراً فقطعوا النهار في اللعب شغلاً عن الطريق وناموا ليلا متى يصلون مقصدهم . ومات أخ له في بلاد بعيدة فسبق شخص فأخبره ، فقال رضى الله عنه : « قد أخبرني الله تعالى بذلك ، قال تعالى : « إنك ميت وإنهم ميتون » .

وكان رضى الله عنه يصلى حتى يزحف إلى فراشه ، رضى الله عنه .

(٢) يقصد بذلك إدماء الجنون حتى لا يولى القضاء .

حق مات ، وقال : لم يكن هذا الأمر في أصحاب الإمام الشافعي إنما كان في أصحاب غيره . ولما مات ابن شريح طلبوا أبو علي للقضاء فدخل بيته واختفى منهم فطينوا عليه الباب عشرين يوماً ثم فتحوا عليه الباب فإذا هو قائم يصلي فأنشدوا في ذلك :

وطينوا الباب على أبي علي عشرين يوماً ليلى فما ولى

وكذلك بلغنا عن الشيخ أبي الحسن الششتري المغربي صاحب الموشحات الربانية رضى الله عنه أن سلطان المغرب طلبه للقضاء ، لما أشتهر للناس من زهده ، وعفته ، وسعة علمه واعداهم ، إلى بكرة النهار ، ثم دخل الفجر إلى الحمام ، وأرمى شعر لحيته وحواجبه بالنورة ، وخضب يديه ورجليه بالحناء ولبس ثوباً معصفاً وجعل على رأسه طرطوراً ، فلما أتوه بالبغلة والعاشية ، خرج لهم على هذا الحال ، وركب البغلة وذهب إلى السلطان ، فقال : لا حاجة لنا بمثل هذا . وعرف السلطان أن ذلك إنما عمله حيلة حتى لا يتولى فبكى السلطان ورق لحاله وأطلقه ، فمن ذلك اليرم ، خرج الشيخ سائماً في الأرض يعمل الموشحات والزجل ، إلى أن مات كما أشار إلى ذلك في أول ديوانه ، ولما بلغ علماء عصره ما فعله من الحيلة حمدوه على ذلك وعرفوا دينه .

وبلغنا عن الإمام أبي حنيفة أن المنصور^(١) أخرجه من الحبس وقال له : لم لا تتولى وتنفع الإسلام ؟ فقال : لا أصلح لذلك . فقال له الخليفة : بلى تصلح . فقال : لا يخلو إما أن أكون صادقاً ولا يصلح من قضاء وإما أن أكون كاذباً فالكاذب كذلك لا يصلح أن يكون قاضياً . انتهى . فأعجز الخليفة .

ولما طلبوا أبا قلابة للقضاء هرب إلى الشام وقال : ليس القضاء اليوم قضاء وإنما هم شرطيون . ومن علامة ذلك : أن أحدهم يستغنى ويكثر ماله إذا تولى . انتهى .

قلت : ويؤيد ذلك قول إمامنا الشافعي رضى الله عنه : من ولى القضاء ولم يفتقر فهو لص^(٢) .

(١) أحد خلفاء الدولة العباسية العظام ، بل يعتبر هو المؤسس الحقيقي لهذه الدولة .
(٢) أى أن المطلوب في القاضى الورع الشديد فلا يأخذ الرشاوى ولا يتسامح مع الكبراء ويعطى كل ذى حق حقه .

ولما غضب أحمد بن طولون^(١) هلى القاضى بكار^(٢) هلى القضاء كان يقضى بين
الجن والإس احتساباً وهو متخلل بالرداء وعلى رأسه قطعة لبد . وكان ابن طولون
يعطيه كل سنة ألف دينار فيضعها عند أمه فى الصندوق . فلما وقع بينه وبينه وجبه
قال له : يا بكار أين جوازى ؟ فأرسل لأمه فحلبوها له وكانت اثنى عشر ألفاً عدد
السنين التى تولاهما : فلم يزل القاضى بكار فى الحبس حتى مات فيه ، ولما حبس انقطع
التحديث من مصر . فمضى العلماء إلى ابن طولون وقالوا له : أطلقه لنا يوماً فى الجمعة
يملينا الحديث ثم يرجع إلى الحبس فأبى . فسأله ثانياً فأمر لهم بفتح طاقة من الحبس
بقدر ما يرون وجهه فقط . وكان يلبس ثوبه ويتطيب كل يوم جمعة ويقول للسجان :
دعنى أجيب داعى ربى ثم أرجع . فيقول له : ما معى بذلك اذن فيرجع إلى داخل
الحبس ويقول : اللهم اشهد . وبلغ من ورع القاضى بكار أن رسول الخليفة لما أتاه من
يغداد يطلبه للقضاء وجده يخبز فى الفرن فانتظره حتى خرج . فقال له الرسول : قف
حتى أكلمك . فقال : إن الرداء الذى هلى لوالدى قد استأذنتها أن أخبز فيه فقط .
فقف حتى أدخل وأستأذنها فدخل ، فأذنت له . وأخر مرة القضاء بين اثنين فى جمل
تنازعا فيه فمات الجمل بعد ساعة ، فوزن له ما ثمنه ، وقال : لو كنت حكمت لأحدهما به
لمات على ذمته انتهى .

فإذا كان أهل المائة الثانية والثالثة من زمنه عليه السلام قد امتنعوا من تولية القضاء مع
إكراههم عليه وشدة ورعهم وزهدهم ولم يتقوا بخلاص نفوسهم فيه ، فكيف بأهل
النصف الثانى من القرن العاشر كما مر تقريره ؟

وقد كان قضاة السلف يجوعون ، ويلبسون الثياب الخلقة ، ويرقعونها بالخيش

(١) من ملوك مصر نيابة عن الخلافة العباسية .

(٢) كان من كبار المحدثين والقضاة الأفاضل فى مصر فى زمن أحمد بن طولون ، تولى
القضاء وكان مشهوداً له فيه بالعهف والشرف .

لتعطلهم عن الكسب بالاشتغال بالقضاء بين الناس وعدم أخذهم مالا على القضاء^(١) .

وكان أحدهم لا يجد غداء ولا عشاء في أكثر أيامه . وكانوا يصومون أيكونوا في عبادة فيها رضى الله عنهم خوفاً أن يسوء خلقهم بالجوع فيلتبس عليهم الحكم رضى الله عنهم .

فعلم من جميع ما قررناه أنه لا ينبغي لفقير أن يتوجه إلى الله تعالى في تولية أحد من أصحابه ، إلا بطريق شرعى بعد تربص واستشارة ، وربما توجه الفقير إلى الله في تولية من لا يصلح ، فأخذ الرشاء في الأحكام ، وكان ذلك الفقير شريكاً له في الإثم لأنه كن أعان ظالماً على ظلمه^(٢) ، لا سيما إن كان قد أقسم على الله تعالى بأنبيائه ورسوله حال توجهه إليه أنه يوليه .

وقد كان سيدي على الخواص رحمه الله يقول : إياكم أن تقسموا على الله تعالى في توليته أحداً من أصحابكم شيئاً من هذه الوظائف المشحونة بالظلم ، قهلكوا نفوسكم وتهلكوا صاحبكم . ولكن إن كان ولا بد لكم من سؤال الله تعالى فقولوا : اللهم إن كان سبق في علمك أنه يتولى وهو أهل لذلك فوله ، وإن لم يكن أهلاً لذلك فدبره فيما سبق به علمك ، وارزقه القناعة والعفة حال ولايته ، وتسلموا من مشاركتة في الإثم .

(١) فكانوا يتفرغون للقضاء تفرغاً تاماً فلا يشغل فكرهم أى شيء غير القضايا التي تقدم إليهم فيمعنوا التفكير فيها أشد الإمعان ،

(٢) روى البخارى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » فقال رجل : يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً ، أرايت إن كان ظالماً ، كيف أنصره ؟

قال : « تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره » ،

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم ، لا يخنونه ولا يكذبه ، ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام ، عرضه ، وماله ، ودمه ، التقوى ها هنا ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » ،

ثم من أقل ما يحصل لمن يتولى القضاء في هذا الزمان : أنه يصير كالعبد لمن سعى له في تلك الولاية ، ويزدوى ثيابه ومركبه وزوجته . ويطلب أعلى من ذلك لأجل مجالسة الأكابر . ولا يصح له ذلك إلا إن أخذ معلوماً على القضاء . وربما وقع في الحكم لبعض الأمراء بالباطل مراعاة لخاطره لا سيما إن كان ذلك الأمير ممن يحسن إليه عادة .

وقد رأيت قاضياً يبالغ في مدح بعض الظلمة ويطعن في بعض العلماء والصالحين ، فقلت له : أعكس الحال يا أخى فصار يقيم البراهين على تفضيل ذلك الظالم . نسأل الله العافية .

فاعرض يا أخى هذه الآفات على من تساعد فاعلمه يرجع عن طلب القضاء . وقد زكيت مرة قاضياً عند قاضى عسكر فظهرت قلة أمانته فلا تسأل يا أخى ما حصل لى من الندم . وقد عازمت على أنى ما عدت أشفع لأحد فى تولية القضاء الى أن أمرت إلا أن خالطته مخالطة شديدة .

فاعرض يا أخى ما قررناه لك على مريدى زمالك تعرف مقامهم ولا تنس نفسك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم للمواظبة على قيام الليل ولا يتركون ذلك
إلا لعذر شرعي دون السكسل

ويفتتحون قيام الليل بركتين خفيفتين يقرأون في الركعة الأولى بعد الفاتحة قوله تعالى:
« ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله
تواباً رحيماً » ^(١) وفي الركعة الثانية بعد الفاتحة « ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر
الله يجد الله غفوراً رحيماً » ^(٢) . ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل
بهتاناً وإثماً مبيناً » ويسى هاتان الآيتان آيتي الاعتراف بالذنوب ^(٣) .

وكان سيدى ابراهيم المتبولى رضى الله عنه يصلى بعد ركعتين أخريين يقرأ في كل
منهما بعد الفاتحة ^(١) سورة القدر مرة ، ثم سورة قل هو الله أحد ^(٢) ست مرات ، ثم
المعوذتين ^(٣) مرة واحدة ، ويقول : قد ورد في ذلك حديث حسن ، وأن من واطب

(١) سورة آل عمران آية ٦٤ (٢) سورة النساء آية : ١١٠

وتعالمها : النساء

« ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ، ومن يكسب
خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » .
(٣) لأن فيهما الاستغفار والتوبة إلى الله ورسوله وفي كلتا الآيتين يجد الله تواباً رحيماً
وغفوراً رحيماً .

(١) عن أبى سعيد رافع بن المعلى رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله ﷺ : « ألا
أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد » ، فأخذ بيدي ، فلما أردنا أن
نخرج قلت : يا رسول الله إنك قلت لأعلمك أعظم سورة في القرآن ، قال : « الحمد لله رب
العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذى أوتيته » رواه البخارى .

(٢) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في قراءة
قل هو الله أحد : « والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن » رواه البخارى .

(٣) عن عقبة بن عامر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ألم تر آيات أنزلت
هذه الليلة لم ير مثلهن قط ، قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس » .

عليهما حفظ الله تعالى عليه إيمانه حتى يلقاه^(١) ، وقد علمتهما جماعة المجلس وهم الآن مواظبون عليها لـسكن بعد طلوع الشمس وارتفاعها كرمح .

وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه يقول : لأن يلقى أحدكم ربه بالإيمان أكمل عن النقص خير له من أن يلقاه بعبادة الثقيلين وفي إيمانه ثلثة انتهى . .

ولعل مراد الشيخ بالإيمان الأكمل أى بالنسبة لمقام كل عبد ، وإلا فلا يكمل إيمان عبد حقيقة إلا إن كان لا يخل بشيء من الأمور الشرعية ، ومتى خل^(٢) بأمور واحد صدق عليه نقص الإيمان فانهم .

وأما حكمة الركعتين الخفيفتين التى يقرأ فيهما آيتى الاعتراف فهو فتح باب الصفح أو العفو أو الرضى فيعرفوا بذلك أهل الحق أنه صفح عنهم أو عفى أو رضى عنهم قبل أن يتمثلوا بين يديه فى الصلاة حال التجلى الأسمى فيهما كالادمان للوقوف الخاص بين يديه للإسلام من التفات القلب فيه لغير الله تعالى أو كالسنة التى قبل الفريضة .

وقد نقل الشيخ أحمد الزاهد أن رسول الله ﷺ كان يفتح بهاتين الركعتين صلاة الليل ، ثم يطيل بعد ذلك ماشاء الله تعالى ، ولم يكن عليه ﷺ ذنب ولم يكن الحق تعالى غير راض عنه قبل فعلهما وإعما فعلهما تشريعاً لأمتة .

وكان سيدى إبراهيم للتبولى رضى الله عنه إذا فعلهما يصير يردد كل آية حتى يظن أن الله تعالى قبل استغفاره واستغفار نبيه فى حقه .

(١) لأن سورة الفاتحة هى أم القرآن وتلخيص له وهى تقصر الاستعانة على الله وحده فى جميع الأمور .

وسورة القدر فيها تعظيم لكتاب الله وهو القرآن الكريم .
وسورة الإخلاص فيها تلخيص الإيمان فكثرة ترديدها فيه تثبيت لهذا الإيمان وتقوية له .
أما المعوذتين فإنها الاستعانة بالله لإبعاد أى سوء .
فكل هذه الآيات تقوى الإيمان وتحفظه .

(٢) لعله يقصد أخل .

وكان إذا قرأ « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول » يمثل أنه بين يدي رسول الله ﷺ ويصير يقول :

اللهم إني ظلمت نفسي فأغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، فإذا تم الورد قال :
يا سيدي يا رسول الله استغفر لي ربك صلى الله وسلم عليك ، ألا يزال يسكرها حتى يفرغ
الورد من العدد ثم يقول : اللهم إني أسألك بك أن تقبل استغفار نبيك ﷺ في حتى
قاصداً بذلك مساعدة نبيه ﷺ من باب أعنى على نفسك بكثرة السجود ، وربما كان
ﷺ يستنحي من الله تعالى أن يسأله في ذلك الوقت لكونه كان أشد حياء من العذراء
في خدرها .

واعلم يا أخي أن كثرة تكرار سؤال المغفرة ليس هو من باب سوء الظن بالله تعالى ،
ومن ظن ذلك فعليه الاستغفار من ذلك ، وإنما هو من باب عدم استحقاقنا
لإجابة دعائنا .

وسمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله يقول عن هاتين الركعتين : أنهما كلوقوف
بعرفة بالنسبة للوقوف في المسجد الحرام . انتهى ..

ثم إذا أحس العبد بأن الله تعالى قبل منه استغفاره واستغفار نبيه ﷺ بنور الكشف
أو بنور الإيمان من خلف حجاب ركن إذ ذاك لأن الركوع كالإيمان من باب الله
بالنسبة للسجود ، ثم إنه يقوم من السجود وقد غاب على ظنه أن الله تعالى قد غفر له
غالب ذنوبه ، فيقوم للركعة الثانية ليغفر له بقية ذنوبه ، وإن كان غلب على ظنه مغفرتها
كلها بالركعة الأولى قام الركعة الثانية شكراً لله ويكون استغفاره في الركعة الثانية إظهاراً
لل فقر والفاقة ، وقياماً بشعار العبودية كما هو الحكم في استغفار الأنبياء عليهم الصلاة
والسلام ثم إذا قرأ قوله تعالى ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه إلى آخرها يصير يرددها
حتى يغلب على ظنه من باب الإلهام أن الله تعالى قد قبل توبته ، وكيفية ذلك
أن يقول :

اللهم إني عملت سوءاً وظلمت نفسي وأنت العليم الحكيم ، فاغفر لي ، فلا يزال
يكررها حتى يفرغ الوارد ويغلب على ظنه أن الله تعالى قبل استغفاره عن بقية ذنوبه
التي لم تغفر في الركعة الأولى ، ثم يقول :

اللهم إني قد اكنسبت الخطيئة والإثم ، وربما رميت به أحداً من البراء من عبادك
ذوراً وبهتاناً فاغفر ذلك لي من فضلك وإحسانك يا أرحم الراحمين .
وكان سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول :

إذا ظن أحدكم أن رسول الله ﷺ ممن غلب عليه الحياء من الله تعالى في ذلك
الوقت أن يسأل الله لأحد المغفرة ، فمن الأدب الصبر حتى يخف عنه ﷺ وارد الحياء
الشديد من ربه عز وجل ألا يكون نبيه بسؤاله له في ذلك الوقت ثم لا بأس باعتذاره
لرسوله ﷺ بعد ذلك ويقول : يا سيدي يا رسول الله اهدني في إلحاحي عليك أن
تستغفر لي ربك ، فإنك رحمة بأمثك وأنا شخص مضطر إلى سؤال العفو عني وليس لي
وجه عنده إلا بواسطتك .

وكان أخي أفضل الدين رحمه الله يقول :

ينبغي للعبد إذا سأل ربه أن يقبل استغفار نبيه في حقه أن لا يقصد بذلك حفظه نفسه ،
وإنما يقصد بذلك المسارعة إلى مساعدة نبيه ﷺ خوفاً أن لا يقبل الله تعالى في ذلك
الوقت استغفاره في حق ذلك العبد فيخجل ﷺ ، انتهى .

فاعرض ذلك علي مريد عصرك ولا تنس نفسك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن لا يقرأوا قرآنًا ولا حديثًا ولا يسمعون الله تعالى
ولا يفعلون شيئًا من الأذكار إلا جالسين ماداموا
قادرين على ذلك^(١)

فإذا عجز أحدهم فليستأذن ربه بقلبه ثم يضطجع ويقرأ أو يذكر ، فإن حكم ذلك
حكم من أرسل له السلطان مرسوماً يقرأ عليه ، فلا يليق به أن يكون مضطجماً حال
قراءته عليه إلا بعذر واضح يعذر بمثله^(٢) .
فانهم وأعرض ذلك والحمد لله رب العالمين .

-
- (١) إحتراماً لله عز وجل وتهيئة للنفس لكي تتلقى واردات الذكر ولكي تستغرق
فيه فلا يخطر لها خاطر غيره .
- (٢) يقول الله تعالى : إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي
الالباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم .
وعن السيدة عائشة رضوان الله عليها قالت : كان رسول الله ﷺ يذكر الله على
كل أحيانه . رواه مسلم .

ومن أخلاقهم إذا نام أحدهم عن قيام الليل وفاته الوقوف في
تلك للواكب الشريفة والحضرات المنيفة
أن يندم ويستغفر

ثم يشكر الله تعالى على العافية التي خامها عليه حتى نام وشبع من النوم ، فإن فاته
الخير من جهة ذلك التهجيد فقد حصل له الخير من جهة شكر الله تعالى على العافية ، فإنه
هو الذي يمكن تداركه بعد فوات وقوفه في تلك المواكب ^(١) ، وإن كان الشارع ﷺ
قد جعل الثواب لمن قضى ورد الليل قبل الزوال .

فإنهم فليس حكم النائم حكم القائم ، وإنما قال ﷺ : فسكأنما فعله في الليل جهراً
لمصيبة من حصل له ندم مع أن قوله : فسكأنما هو التشبيه وذلك لا يقتضي المساواة من
كل وجه .

وسياتى في الكتاب أن الأكابر كلهم يعظمون أوامر الله ويخافون من تأخيرها من
وقت الفضيلة حتى أن الخليل عليه الصلاة والسلام لما أمره الله بالاختتان بادر إلى الفأس
فاختن بها ولم يتمهل حتى يجرد موسى ، وقال : إن تأخير أمر الله عظيم ، انتهى .
فلكل مقام رجال والحمد لله رب العالمين .

(١) يقول الله تعالى : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك
مقاماً محموداً) .

وقال تعالى : تتجافى جنوبهم عن المضاجع) .

وقال تعالى : (كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون) .

وعن السيدة عائشة رضوان الله عليها قالت : كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر
قدماه . فقلت له لم تصنع هذا يا رسول الله . وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ،
قال : (أفلا أكون عبداً شكوراً) متفق عليه .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ
« يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل » متفق عليه .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ذكر عند رسول الله ﷺ رجل نام ليلة حتى
أصبح قال : « ذلك رجل بال الشيطان في أذنيه أو قال : أذنه » متفق عليه .

ومن أخلاقهم إذا سافروا إلى بلاد الريف وخافوا أن يتبعهم الناس
أن يسافروا ليلاً تخفيفاً على أهل البلاد

وقد تساهل بعض إخواننا في ذلك فما وصل بلاد الغربية حتى صار معه نحو خمسمائة
نفس ومن كان يسكره السفر في النهار سيدي محمد بن عنان ، وسيدي محمد الشناوي ،
وسيدي أبو الحسن الغمري رضي الله عنهم فافهم ذلك ^(١) .

ومن أخلاقهم أن لا يظهروا الكسل والنوم بمحضرة مريدتهم فيمدونه بالنوم والكسل
لأنه ليس للمريد مادة يستمد منها غير الشيخ ، فإن نام مد مريده بالنوم ، وإن غفل عن
الله مد مريده بالغفلة ، وإن أقبل على الدنيا مد مريده بذلك ، وهكذا في سائر الحركات
والسكنات والصفات فاعلم ذلك ^(٢) والحمد لله رب العالمين .

(١) حتى لا يكلفوا الناس مشقة استقبالهم وتوديعهم والإعداد لمدة إقامتهم .
(٢) لأن المريد يستمد حاله من حال شيخه فعلى حسب ما يفعل شيخه يكون فعل
المريد وأيضاً فإن الشيخ هو الأستاذ والمريد التلميذ فعلى حسب ما يرى المريد من تصرفات
أستاذه تكون تصرفاته لأن أصل العلاقة هو إلزام المريد بتصرفات الشيخ .

ومن أخلاقهم إذا قصر املهم أو ضاق الوقت عن تأدية تلك العبادة عادة
أن يبدؤا بقراءة جوامع الكلم الواردة في السنة أو بقراءة
تلك الآيات والصور التي ورد تفضيلها على غيرها ^(١)

أى من حيث تلاوة التالى لها لامن حيث للمتلو لأنه كله في مرتبة واحدة بالنظر
لرجوعه إلى الذات ، وذلك كقراءة آية الكرسي أو آخر سورة الحشر أو ألهاكم التكاثر ،
فإنه ورد أن كل واحدة من ذلك تعدل قراءة ألف آية ، فمن صلى بآية الكرسي ، فكأنه
قرأ في صلاته بألف آية وفي الحديث : انه يكون من المقنطين ^(٢) يعنى الآخر ، وقد
هددت الألف من أول البقرة إلى قريب من قوله تعالى في الانفال « واهلوا انما خنتم
من شيء » الآية وكذلك ورد ان سورة إذا زلزلت تعدل ربع القرآن / أو نصفه ، وسورة
الكافرون تعدل نصف القرآن ، وسورة قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ، لو قسم
أرباعاً أو أنصافاً ، أو أثلاثاً هكذا قال الشيخ محي الدين بن العربي ^(٣) رحمة الله ، وهذا

(١) مثل آية الكرسي وسورة يس والفاتحة والمعوذتين .

(٢) أى يكون ثوابه كبيراً .

(٣) هو الشيخ الأكبر سيدى محي الدين بن عربى : صاحب الفتوحات المكية وخصوص
الحكم وغيرها من قمم الكتب — توفى رضى الله عنه سنة ثمان وثلاثين وستائة .

يقول عنه الشيخ صفى الدين بن أبى منصور فى ترجمته له : هو الشيخ الإمام المحقق رأس
أجلاء العارفين ، والمقربين ، صاحب الإشارات الملكوتية ، والنفحات القدسية ، والأنفاس
الروحانية ، والفتح المونق ، والكشف المشرق ، والبصائر الحارقة . والسرائر الصادقة ،
والمعارف الباهرة ، والحقائق الزاهرة ؛ له الخل الأرفع من مراتب القرب فى منازل الأنس ،
والمورد العذب فى مناهل الوصل ، والطول الأعلى من معارج الدنو ، والقدم الراسخ
فى التمكين من أحوال النهاية ، والباع الطويل فى التصرف فى أحكام الآية ، وهو أحد
أركان هذه الطريق رضى الله عنه .

ويروى الإمام الشعرانى : وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخ الإسلام بمصر
المحروسة يحط عليه كثيراً ، فلما صحب الشيخ أبا الحسن الشاذلى رضى الله عنه ، وعرف

الذى ذكرناه من قراءة هذه الآيات والسور وان لم يرد فهو من باب الحزم وربما كان الحق تعالى جعل ذلك اعتناء بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، كما قال الإمام مالك في حكمة ، كون قيام ليلة القدر خيراً من ألف شهر : ان الله تعالى ، لما جعل أمة محمد خير أمة أخرجت للناس ، مع قصر أعمارهم أعطاهم في كل قيام ليلة القدر في كل سنة أجراً نيفاً ومائتين سنة ، الذى هو العمر الغالب ، فمن قامها خمسين سنة مثلاً كان كن عبد الله تعالى نحو خمسمائة سنة .

ونظير ذلك ، قوله صلى الله عليه وسلم : « من أدرك ركعة من الوقت فقد أدرك »^(١) فانه إنما جعل له ذلك جبراً لمصيبته حين فاتته فرط الحرص والا فمعلوم ، ان فضله دون فضل من أدركها كلها في الوقت فضلاً عن فضل من صلاها أول الوقت .

فعلم ان من غلب عليه النوم حتى كاد الفجر أن يطلع^(٢) فمن الحزم أن يصلى بآية

أحوال القوم صار يترجمه بالولاية والعرفان والقطبانية .

وللإمام الشعراني كتاب « اليواقيت والجواهر » في الرد على الشبهات التي أنثرت حول كتاب الفتوحات المكية لسيدى محى الدين ، وكذلك كتاب « تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر الأولياء .

(٢) رواه الشيخان .

(١) فإن من أرسخ المعتقدات لدى الصوفية ضرورة الاستيقاظ قبل صلاة الفجر بوقت كان للتهجد والصلاة والإستنفار .

يقول الله تعالى : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) .

وقال تعالى : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) الآية .

وقال تعالى : (كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون) .

وعن رسول الله ﷺ قال : لأفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل

الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل (رواه مسلم .

وعن جابر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن في الليل لساعة

لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله تعالى خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه ، وذلك

كل ليلة) رواه مسلم .

الكرسى وبقل هر الله أحد واضراهماء وكذلك القول في جوامع السكلم في الأوراد نحو
سبحان الله وبحمده عدد خلقه إلى آخره وكذلك القول في الصلاة على رسول الله صلى الله
عليه وسلم ومن أجمع صلاة وأخصرها في كيفية الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم
اللهم صل على محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على
إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين انك حميد مجيد .

ومما ألفتة أنا من الكيفيات الجامعة للصلاة والإستغفار اللهم انى أسألك بك أن تصلى
وتسلم على سيدنا محمد وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعلى آلهم وصحبهم أجمعين وأن
تغفر لى ماضى وتحفظنى فيما بقى ، انتهى فأقولها ألفاً كل صباح أو مساء وقد وجدت
بركتها وأحب للاخوان أن يعملوا بها فاعرض يا أخى هذا الخلق وما قبله على مريدى
زمانك تعرف مقامك ، ولا تنس نفسك والحمد لله رب العالمين .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : ذكر عند رسول الله ﷺ رجل نام ليلة حتى
أصبح قال : (ذاك رجل بال الشيطان فى أذنيه أو قال أذنه) : . متفق عليه .

ومن أخلاقهم كثرة محبتهم لأهل العلم

ولو أنكروا عليهم من حيث أنهم حملة شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن محبة الفقراء لأهل العلم يزدادون بها علماً إلى علمهم وقد خالف في ذلك بعض المتصوفة فبعدوا عن العلماء ، فازدادوا جهلاً إلى جهلهم .

وقد أدركنا بحمد الله تعالى أكثر من مائة شيخ فكانوا يجلون العلماء ويتبركون بهم ، منهم سيدي محمد بن عنان ، وسيدي محمد الشناوي ، وسيدي علي المرصفي رضي الله عنهم وان قدران العلماء أنكروا عليهم شيئاً من أحوالهم فلا يقسح ذلك في كمالهم ودينهم فقد أنكر موسى علي الخضر عليهما الصلاة والسلام وما بلغنا عن أحدهما أنه تكدر من الآخر أبداً (١) .

(١) يقول الله تعالى : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب) .

وفي الحديث : عن أبي مسعود عقبة بن عمرو البدوي الأنصاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ، فإن كانوا في القراءة سواء ، فأعلمهم بالسنة ، فإن كانوا في السنة سواء ، فأقدمهم هجرة ، فإن كانوا في الهجرة سواء ، فأقدمهم سناً ، ولا يؤمن الرجل الرجل في سلطانه ، ولا يقعد في بيته على تكبرته إلا باذنه » . رواه مسلم .

وفي رواية له : « فأقدمهم سلماً بدل سناً - أي إسلاماً - وفي رواية . يؤم القوم ، أقرؤهم لكتاب الله ، وأعذبهم قراءة ، فإن كانت قراءتهم سواء ، فيؤمهم أفدّمهم هجرة فإن كانوا في الهجرة سواء ، فليؤمهم أكبرهم سناً ، والمراد بسلطانه محل ولايته أو الموضع الذي يخص به ، وتكبرته بفتح التاء وكسر الراء وهي ما ينفرد به من فراش وسرير ونحوها .

وعنه قال : كان رسول الله ﷺ ، يمسح منا كبنّا في الصلاة ويقول : « استنوا ولا تختلفوا ، فتختلف قلوبكم ، ليلني منكم أولوا الأحلام والنهي ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » . رواه مسلم .

وكان سيدي على الخواصر رحمه الله يقول : لا لوم على الفقيه في انكاره على الفقير^(١) ، وانما اللوم على الفقير الذي لم يحفظ ظاهره من مخالفتنا السنة في أقواله ، وأفعاله ، وهما يده ولوانه كان كاملا لم يظهر المناس إلا ما وافق ظاهر الشريعة^(٢) كي كان عليه أبو القاسم الجنيد ، واضرابه ولذلك أجمعوا على جلالته لأنه كان يكلم كل جالس بما يناسبه رضى الله عنه انتهى .

وكان رضى الله عنه يقول من سعادة الفقير خلطته بالفتاء ، فإنهم لا يكادون يقرونه على شيء فيه رائحة بدعة ، بل يتسكرونه عليه فهم من جملة جنود الله له ، فيا سعادة من كان ساكنا في مثل جامع الأزهر ، فإن العلماء الذين هناك يقومون عوجه كلما أعوج ، ويقومون له مقام الشيخ المرشد ، ونعم الصديق الذي يقوم معوج أخيه فلا يتكدر من الانكار عليه إلا كل غاش لنفسه محب الرياء والنفاق ، ثم أقل ما في انكارهم عليك يا أخي من النفع ، أنهم يمنعونك عن أن تصير من أئمة الضلال ، لا سيما إن كان لك معتقدون فإنهم يقتدون بك في كل أمر ،

ولو كان مخالفاً لظاهر الشرع ويقولون : لولا أن لسيدي الشيخ دليلاً في الأمر الثنائي مافعله ، وقد ورد في الاثر انه لا بد إن يتقدم الدجال الأكبر دجاجة كثيرة يمهدون له طريق الدجل ، وهو تمويه الباطل بالحق حتى يكاد قليل العقل يهزم بأنه حق ، وقد دخل على شخص من الثقات حال كتابتي لهذا الموضع فأخبرني أنه في حصر عظيم من شيخ برز في حارته .

فقلت له : وماذا : فقال انه يقبل النساء الأجانب بمحضرة أصحابا ويقول لهم : أنالي حال آخر مع الله تعالى خلاف ما يظهر لكم . فقلت له : كذب هذا علي الله فإن الله

(١) لأن الفقيه يتكلم بصوت الشرع وأحكامه .

(٢) لأن مخالفة الشرع لا يجوز عند الصوفية فيجب عليهم مراعاة ذلك في أحوالهم وظواهرهم .

تعالى أرسل رسوله بالشرع العام لساير الخلق ، ومن قال أنا لى حال مع الله تعالى خلاف ماظهر منى ، وكأنه يقول ان الله تعالى سارونى بشرع آخر بينى ، وبينه خلاف ماأوحى به إلى رسوله وذلك كفر فإن الله وانا إليه راجعون .

وسمعت سيدى محمد بن عنان رحمه الله يقول : من أعظم فتنة دخلت على المطاوعة معاداتهم لافقهاء فلا معهم علم يمشون فى نوره ولاهم يسمعون لمايقوله لهم العلماء فاستحوذ عليهم الشيطان حتى أن منهم من أمره الشيطان بالوضوء بالبول والسجود للشمس كل يوم وصار يخبره بما يقع من الناس فى بيوتهم فلولا عناية الله تعالى له باجتماعه على سيدى أبى العباس الغمري لكان مات على كفره انتهى (١) .

وقد من الله تعالى على بحجة جميع علماء عصرى ، وكل من انكر على أكثر أحببته أكثر ، كما مياتى ايضاحه فى الخاتمة إن شاء الله تعالى ، فأعرض بأخى ماقررتك لك على مريدى عصرك تعرف حالهم ، ولاتنس نفسك والحمد لله رب العالمين .

(١) ولعل فقه كبار السادة الصوفية كالسيد البدوى وسيدى إبراهيم الدسوقي وسيدى أبى الحسن الشاذلى والعز بن عبد السلام يكون نبراسا مضيئا لصوفية هذا العصر حيث نراهم يتحدثون فى جميع فروع العلوم من تفسير وحديث ولغة وغيرها مما جعلهم دائما بمنجى عن الانحراف والتحلل من الشريعة .

ومن أخلافهم التي أجمعوا عليها ونفذت بها وصاياهم إلى سائر أقطار
الأرض أنه لا يجوز لأحد التصدر في طريق القوم لارشاد المريدين
إلا بعد تبصره في علوم الشريعة المظهرة والحقيقة

من تفسير ، وحديث ، وفقه ، وأصول ، وبعد اطلاعه على أقوال المجتهدين سلفاً
وخلفاً ، وأقوال المحققين من العارفين كذلك ، بحيث يعد المناظرة العلماء ، ورد المبتدعة
فإن لم يصل إلى ما ذكرناه فما يفسده أكثر مما يصلحه ، وقد تقدم في المقدمة أن طريق
القوم مشيدة بالكتاب والسنة ، وأن لهم في كل حركة ، وسكون ميزاناً شرعياً فلا يقدم
أحد منهم على قول أو فعل حتى يعرف ميزانه من كتاب أو سنة ، ^(١) وأنهم لا يسامحون
نفسهم في تركهم إقامة الميزان على أحوالهم كلها في حال من الأحوال اكتفاء بعمل
الناس ، فقد يكون ذلك العمل من جملة البدع التي ابتدعت .

وهم رضى الله عنهم منزهون عن ارتكاب البدع ، أو الأهواء ، وكل من أنكر
عليهم ، فانما هو لجهله بدليلهم ولم يزل أكبر السلف رضى الله عنهم يخافون من التدين
بشيء زائد على السنة خوفاً من الوقوع في البدعة ، حتى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه
ربما كان يهيم بالأمر بفعله فيقول له شخص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفعل
ذلك فيرجع عنه لوقته وقد رضى الله عنه مرة ، أن ينهى الناس عن لبس ثياب بلغها أنها

(١) يقول الله تعالى : (وقل رب زدنى علماً) .

ويقول تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) .

وفي الحديث : عن معاوية رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من يرد الله
به خيراً يفقهه في الدين » متفق عليه .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « ومن سلك طريقاً
يحتس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة » . رواه مسلم .

وعنه أيضاً رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « من دعا إلى هدى كان له من
الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً » . رواه مسلم .

تصنع ببول العجايز ، فقال له شخص في أذنه قد كانت هذه الثياب في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يراها على الناس فلا ينكرها ، فاستغفر عمر رضي الله عنه ورجع عن ذلك وقال في نفسه ، لو كان ترك لبسها من الورع لكان رسول الله عليه وسلم نهي أصحابه عنها .

وكذلك بلغنا عن الإمام زين العابدين ^(١) رضي الله عنه ، أنه قال يوماً لولده : يا ولدي اتخذ لي ثوباً أبسه عند قضاء الحاجة ، وأنزعه وقت الصلاة ، فلا أصلي فيه لأنني رأيت اللذباب يجلس على العذرة ثم يقع على ثوبي في الخلا ، فقل له ولده : أنه لم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ثوب واحد خللته ، واصلته فرجع الإمام عما كان عزم على فعله انتهى .

-
- (١) هو سيدي علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وهو على الأصغر وأما الأكبر فقتل مع سيدنا الحسين رضي الله عنه .
- ومن كلامه : كيف يكون صاحبكم من إذا فتحتم كيسه فأخذتم منه حاجتكم فلم ينشرح لذلك .
- وكان يقول : إذا نصح العبد لله تعالى في سره أطلعه الله تعالى على مساوي عمله فتشاغل بذنوبه عن معائب الناس .
- وكان إذا توضأ اصفر وجهه ، فيقول له أهله : ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء . فيقول : أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم .
- وكان إذا مشى لانيجاوز يده بخذه ولا يخطر بيده .
- وكان إذا بلغه عن أحد أنه ينقصه ويقع فيه يذهب إليه في منزله ويتلطف به ويقول : يا هذا إن كان ماقلته في حق فيغفر الله لي وإن كان باطلا فغفر الله لك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .
- توفي رضي الله عنه سنة تسع وتسعين وقد بلغ ثمان وخمسين سنة .

وأما ما بلغنا عن الشيخ أبي يزيد^(١) من أنه كان له ثوب خللاه ، وثوب لصلاته ، فليس هو لأجل وقوع الذباب المذكور علي ثوبه ، وإنما ذلك حتى لا يكون ثوب خللاه ثوب صلاته لأن الخللا بيت الشياطين يقصد بذلك ، تعظيم حضرة الله الخاصة ، أن يقف فيها بثوب تدنس بحضرة الشياطين من حيث أنها رجس ، وهو نظير ماورد من النهي عن استقبال القبلة ببول أو غائط بشرطه وقال : شرّ قوا أو غربوا حتى لا يجعل العبد جهة خللاه ، جهة صلاته ، وتقدم أوائل المقدمة قول أبي القاسم الجنيد رضى الله عنه طريقنا هذا مشيد بالسكتاب والسنة قال الله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »^(٢) وكان يقول أيضاً لو رأيتم رجلاً متربعا في الهوى فلا تعمدوا به إلا أن رأيتموه واقفاً عند حدود الله تعالى .

ومما وقع للشيخ أبي عبد الله القرشي أنه قال يوماً : اللهم لا تفضحنى بسريرتى على رعوس الخلايق فقال له شيخه : يا محمد ولأى شىء تجعل لك سريرة تفتضح بها يوم القيامة لم لا تنظف باطنك من الأدناس حتى لا يكون لك سريرة تفتضح بها ، وما وقع أن معروفاً السكرخى نظر يوماً إلى السماء فتكدر قلبه فشكى ذلك للحسن البصرى فقال :

(١) هو أبو يزيد بن طيفور بن عيسى البسطامى ، يقول عنه سبى محي الدين بن عربى أنه كان القطب الغوث في زمانه .

ومن كلامه : ليس العالم من يحفظ من كتاب الله فإذا نسى ما حفظ صار جاهلاً ، بل من يأخذ علمه من ربه أى وقت شاء بلا تحفظ ودرس ، وهذا هو العلم الربانى .
وقال : أخذتم علمكم ميتاً عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت .
وسئل أبو يزيد : بأى شىء وجدت هذه المعرفة ؟

فقال : يطن جائع ، وبدن عار .

وقال : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى إلى الهواء ، فلا تفتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة .
مات سنة : إحدى وستين ومائتين . وقيل : أربع وثلاثين ومائتين .

(٢) سورة الحشر آية : ٧

لعلك نظرت إلى السماء وأنت عاطل عن الاعتبار وعن الله تعالى فانظر يا أخى هذا الضبط العظيم فإذا كان هذا في الأمور المباحة فكيف بالأمور المكروهة أو الحرام .

وقد بلغنا أن السرى السقطى رحمه الله رفع طرفه مرة إلى سقف بيته فموقف على ذلك بوجع الضرس مدة أيام لسكونه لم يجر له نية صالحة قبل رفع بصره إلى السقف ، ولعل مثل ذلك هو المراد بحديث كانت خطيئة أخى داود النظر ، فلم يبالغنا في حديث صحيح ولا ضعيف إن المراد به النظر إلى مالا يحل فإن العصمة تمنع من وقوع ذلك .

وإذا كان آحاد هذه الأمة يعاقب على مثل ما ذكرناه ، لإعتناء الحق تعالى به والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أولى وأحق بذلك الإعتناء ، وليست المؤاخذة الواقعة على ذلك بغضاً للمعاقب وإنما هو تكريم له واعتناء به ، كما يربى الوالد الشفيق ولده بالضرب والصفع محبة فيه وإذا رآه واقفاً على شفير بئر لاحتضير على فمها ، وهو صغير يعرف أذنه ويجذبه جذباً عنيفاً ، ويقضى هتول الناس كلهم ، إن ذلك من شدة محبته خوفاً عليه من الهلاك ، وما ينقل عن الربور الذى غيرته اليهود من أن داود عليه الصلاة والسلام كانت خطيئته النظر إلى امرأة لما سافر زوجها في بعض الغزوات من تحريف اليهود وتبديلهم فاستحلوا أعراض الأنبياء ، بمنزلة ذلك ، فعلم من جميع ما قررناه أن التبخر في الشريعة هو أساس طريق الحقيقة ، وإنهما من لازمات ملازمة الظل للشاخص ، وإن من جلس لإرشاد المريدين من غير تبخر في الشريعة ، فقد ضل وأضل ، وأول من يتبرأ منه أشياخه الذين يزعم أنه من أتباعهم وقد قررنا مراراً أن سيدى ابراهيم الدسوقي كان يقول : من لم يتقيد بالكتاب والسنة فلا يلم بنا ولا يمشى في ركابنا ، وكل من عمل على وفق الكتاب والسنة فهو ولدى لصلبي ، وإن كان من أقصى البلاد ، ومن خالف السنة فهو عدوى ولو كان ولدى من صلبى ، وقد دخل شخص مرة على الجنيد رضى الله عنه فقال له : قد بلغنا إنك تقول : طريقنا هذه مشيدة بالكتاب والسنة ، فما دليلكم في قراءة هذه الحكايات التى تتداولونها بينكم في أحوال القوم من القرآن فقال دليلها قوله تعالى لمحمد ﷺ :

« وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ^(١) » .

فكما ثبت الله تعالى فؤاد محمد ﷺ بما قص صلى الله عليه وسلم من أحوال الأنبياء قبله فكذلك ثبت فؤاد المريدين على الطريق بما نقصه عليهم من حكايات سلفهم .

فقال له : فما الدليل على قواكم إن الله تعالى لا يعذب حبيبه ؟

فقال : الدليل على ذلك قوله تعالى : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم ^(٢) » . أى لو كنتم أحباؤه ما عذبكم في النار وقد أخير تعالى على لسان الصادق المصدوق أنه يعذبكم بالنار أبد الأبد .

فقام الرجل وقبل رأس الجنيد وقال : أنت أستاذ الناس ، فمن ذلك اليوم لقب الجنيد **شيخ القوم بالأستاذ** .

وعلم أيضاً مما قررناه أن من جلس بغير إذن من شيخ لإرشاد المريدين مع جهالة بشيء من أحكام الشريعة التي صرح بها الشارع ﷺ فإنه مدع كذاب ، لا ينبغي لأحد الاقتداء به ، لأنه يخطئ في كل شيء جهله من الشريعة فربما صادف الأمر الذي يحكم به على المرید خلاف الشرع ، فزن يا أخى كل من رأيت تصد لإرشاد المريدين بهذا الميزان فإن رأيت متبحراً في علم الشريعة فسلم له وإلا فاعرض عنه من غير أزدراء وكل أمره إلى الله تعالى ، كما هو شأن كثير من فقهاء هذا الزمان فترى أحدهم يعجز عن تدريس مختصر في الفقه ، مما يفهمه أضعف الطلبة ، وهو مع ذلك يدعى المشيخة والكمال ، وله عمامة صوف ، وعذبة .

وقد دخل على شخص وأنا أكتب في هذا المحل فصار يتكلم في الفناء والبقاء ،

والهجر ^(٣) .

(١) سورة هود آية : ١٢٠ . (٢) سورة المائدة آية : ١٨ .

(٣) أى في العلوم العالية من التصوف التي لا ينبغي التكلم فيها إلا بعد معرفة الأحكام الشرعية وعلوم القرآن وغيرها حتى لا يناقض حديثه أحكام القرآن والسنة .

فقلت له : يا أخى هذا الذى تقوله إنما يكون معرفته الإنسان بعد السلوك على وفق الشريعة المطهرة بالأعمال الزكية ، والأخلاق المرضية اللائقة بالسالك قفل لى : ما شروط الوضوء ؟ وما شروط الصلاة ؟ وما شروط الصوم ؟ وما واجبات الحج ؟

فلمجلى وما درى مايقول فقلت له : لم لا تجيئى عما سألتك ؟ فقال : لم أقرأ شيئاً فى علم الفقه ، فقلت له : فإذا أنت من إخوان الشياطين ، ثم إنه انقطع عنى من ذلك اليوم . فإن جاءك يا أخى أحد من هؤلاء فلا تسأله عن شيء من أحكام الدين ^(١) فإنه ينجل ويسكت ، وقد كثر هذا الحال فى المنتسبين إلى الفقهاء فى هذا الزمان ، وربما يقول أحدهم الفقهاء محجوبون عن الله بعلمهم ، وذلك كفر فإنه جعل الهدى يحجب عن الله ، والضلال يوصل إلى حضرة الله نسأل الله العافية .

وقد درج السلف الصالح من أبى القاسم الجنيد ، إلى أبى القاسم القشيري ، إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني ، إلى الشيخ عمر الدهروردي ، إلى سيدى أحمد بن الرفاعي ، إلى سيدى أحمد الزاهد ، إلى سيدى محمد الغمري ، إلى سيدى على المرصفي رضى الله عنهم على تدريسهم فى علوم الكتاب والسنة من فقه ونحو وأصول ، وغير ذلك إلى أن ماتوا ومؤلفاتهم فى الحقيقة والشريعة تدل على ذلك ، ولكن لما توهرت طريق العمل بالكتاب والسنة على غالب الناس أشغلهم إبليس بشقة اللسان بألفاظ اصطلاح القوم عليها لا يفهم هؤلاء معناها ، فظنوا أنهم صاروا بذلك صوفياً ، وقال لهم الفقهاء محجوبون عن طريقكم فاضلهم وأعمى أبصارهم .

فأهل الطريق كلهم مجمعون على وجوب الاشتغال بالعلم ، وإن وقع أن إحداهم منهم منع مريداً من الاشتغال به ، وأمره بالذکر فليس ذلك راجعاً لذات العلم وإنما هو لأمر عرضت للمشغل به من رياء ، وعجب ، وكبر وازدراء للامة لكشفة حجابها ، فقالوا له : اشغل بالذکر حتى يرق حجابك ويستدير قلبك وتخرج عن الحجاب ويبرزول

(١) يقصد فإذا سأله عن شيء من أحكام الدين فإنه ينجل ويسكت .

هناك العجب بالعلم والرباء به، ثم بعد ذلك اشتغل بالعلم على وجه الأدب والإخلاص فإن
صح عن أحد من أهل الطريق أنه قال العلم حجاب أولئنا على وجه حسن أدباً مع
العارفين رضى الله عنهم .

وسمعت سيدى علياً الخواص رحمه الله يقول كثيراً : إنما قال بعضهم العلم حجاب
أى لأن صاحبه لا يكاد يستحضر حال قراءته ، وإقراءته ، ومجادلته أنه بين يدى الله
تعالى أبدأً إنما ذهنه فيما يقرره فقط ، كما هو حال أكثر المريدين بخلاف العارفين ،
فإنهم يحضرون مع الله تعالى فى كل علم قرروه من فقه ونحو ، وأصول ، ومعانى وبيان
ونحو ذلك جلالة مرآة قلوبهم من الصدا والرهونات البشرية ، هذا معنى كلامهم ، وإلا
فكيف ينكرون على شيء هو أساس طريقهم ونشأها .

وقد ذكرنا فى كتاب المنن عدة الكتب التى طالعناها فراجعها^(١) وإياك ونسبة
القوم إلى ما يخرج ظاهر الشريعة وأعرض يا أخى ذلك على من يدعى الصدق من
مريدى عصرك تعرف حالهم ولا تنس نفسك والحمد لله رب العالمين .

(١) وكتاب المنن ألفه الإمام الشعرانى ترجمة لسيرته الذاتية وفيه بيان الكتب التى قرأها
الإمام الجليل وعددها ضخمة فى جميع فروع العلم ، ويقصد بذلك بيان أن طريق
القوم لا يتنافى مع العلم ولا يبعد عنه بل هو من ألزم الأمور فى الطريق الصوفى .

ومن أخلاقهم سترهم لزلات من تاب على يديهم
تخلقاً بأخلاق الله عز وجل

ولا يعلمون أحداً من جماعتهم بزلاتهم التي تاب منها ، وحكاهم ، وهذا أمر يقع من غالب فقراء هذا الزمان فليحذر الفقير من مثل ذلك ، فإنه خلاف ما جبل الله تعالى أوليائه عليه من كثرة سترهم على العباد ، وقد وقع لبعضهم أن شخصاً كان يستحسن على عياله زماناً طويلاً ثم جاء وتاب على يده ، وجلس عنده في الزاوية فصار كل من سأله الدعا يقول له : أسأل الله تعالى أن يتوب عليك كما تاب على هذا المستحسن فجاء إلى الشيخ وقال له : ما كان لي حاجة بالتوبة على يديك ، فإن لي نحو ثلاثين سنة وأنا مرتكب ذلك الأمر ، والله يسترني فيه ، وأنت قد هتكتني في يوم واحد^(١) انتهى .

وسمعت سيدي على الخواص رحمه الله يقول : لا ينبغي لفقير أن يتصدر لأخذ العهد على الناس ، إلا بعد كماله وإذن شيخه له ، وبعد أن يصير أشفق على المرید من نفسه في كتم سيئاته ، وأشفق عليه من أمه ، فاعرض يا أخى ذلك علي مریدی عصرك تعرف حالتهم ولا تنس نفسك والحمد لله رب العالمين .

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا يستر عبد عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة » رواه مسلم .

وعنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كل أمتي معافي إلا المجاهرين ، وإن من المجاهر أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله عليه ، فيقول : يا فلان عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله عليه » متفق عليه .
وعنه عن النبي ﷺ قال : « إذا زنت الأمة فتبين زناها فليجلدها الحد ، ولا يثرب عليها ، ثم إن زنت الثانية فليجلدها الحد ، ولا يثرب عليها ، ثم إن زنت الثالثة فليبيعها ولو يجبل من شعر » متفق عليه .
والنثر : التوبيخ .

ومن أخلاهم : أن لا يتولى أحدهم نظراً علي مسجد أو يتيم
ونحو ذلك مما تشترط فيه العدالة إلا أن يكون
عدلاً في الباطن

وذلك ليعينه الله تعالى على المشى بالاستقامة وحماية ذلك المال من الظلمة ، وصرفه
في مصارفه الشرعية ، وغير ذلك ، فإن من لبس على الناس وأظهر الصلاح والزهد
والورع ، وهو في الباطن على خلاف ذلك فهو عدو الله وعدو الله من لازمه تخلف
نصرة الحق عنه ، وإن وقع له نصرة فهي استدراج ومكر به .

وسمعت سيدي الشيخ زكريا رحمه الله يقول : لا ينبغي للنظر على وقف أن
يكون له سريرة سيئة ، بحيث لو اطلع الولاة عليها لمنعوه من ذلك النظر . قال :
وهذا أمر يخفى على كثير من النظر فيصير يأخذ معلوم نظره من قبيل الشبهات انتهى
فأعلم ذلك واعرضه على نفسك وعلى أقرانك تعرف حالك وحالهم^(١) والحمد لله
رب العالمين .

(١) ولعل هذا من كمال أخلاق السادة الصوفية فإنهم لا يريدون أن يأكلوا في بطونهم
ناراً ولا يصلون سعيراً .

يقول الله تعالى : « إن الدين يا كلون أموال اليتامى ظلماً ، إنما يأكلون في بطونهم
ناراً وسيصلون سعيراً » .

وقال تعالى : « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن » .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا يا رسول الله
وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا
وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » . متفق
عليه . والموبقات : المهلكات .

ومن أخلاقهم عدم الاعتناء بنظم الشعر في رسائلهم
وإنما يتمثلون به فقط من كلام غيرهم

قال الله تعالى في حق رسوله ﷺ (وما علمناه الشعر وما ينبغي له ^(١)) ونهى ﷺ بعض الصحابة عن الشعر وقال : « لأن يملأ أحدكم جوفه قبحاً خيراً له من أن يملأه شعراً » ^(٢) وما وقع له ﷺ من تقرير حسان بن ثابت ^(٣) ، وغيره على هجاء المشركين بالشعر ، فذلك رخصة لسكونة أقطع في المشركين من النثر ، لسهولة حفظ النظم وسهولة التمثيل به على النفوس ، وأيضاً فإن الشعر يحتاج عادة إلى إتعايب فسكر فيه ، ونظر في كتب اللغة ، وغير ذلك مما يشغل القلب عن الله حال نظمه عادة ، وربما جازف في وصف من مدحه أو هجاء ، فوقع في الذم .

قال ﷺ « لا غيبة في فاسق » قال بعض العارفين أى لا تستغيبوه وهذا وإن كان خلاف المفهوم الظاهر فيؤيده ما رواه الحافظ أبو نعيم عن محمد بن سيرين ^(٤) أن رجلاً

(١) سورة يس آية : ٦٩

(٣) وتام الحديث : « لأن يمتلئ جوف رجل قبحاً حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعراً » رواه الإمام أحمد .

(٤) كان من كبار الشعراء في عصر الرسول ﷺ ونافح عن سيدنا الرسول ﷺ كثيراً بشعره وله أشعار رائعة خرجت جميعاً في ديوان صدر حديثاً ، وكان رضى الله عنه من خيره صحابة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) هو محمد بن سيرين رضى الله عنه : كانوا إذا ذكروا أحداً عنده بسوء يذكروه بالخير ، وكان ذا سمت وخشوع ، وكان إذا كلم أمه لا يكلمها بلسانه كله إجلالاً لها . ومن كلامه : من الظلم البين لأخيك أن تذكر شر ما فيه وتسكت خير ما فيه عند غضبك . وكان إذا سئل عن الرؤيا يقول للسائل : اتق الله في اليقظة فلا يضرك ما رأيت في النوم .

مات سنة عشر ومائة وهو ابن نيف وثمانين سنة .

وقع في عرض الحجاج بن يوسف ^(١) عنده فقال يا أخى اعلم أن الله تعالى حكم « عدل » فكما ينتقم من الحجاج ، كذلك ينتقم للحجاج انتهى .

وأما من شطح في نظمه من أرباب الأحوال كسيدي عمر بن الفارض وغيره ، فلا كلام لنا معه لأنه مغلوب على عقله ، وهو تحت حكم حاله ، وكلامنا إنما هو في حق أرباب التمكن المتقيدين بالسنة ، في جميع أحوالهم ، فإنهم يقولون : لو كان الشعر محموداً مطلقاً لكان رسول الله ﷺ أولى به ، وفرق بين كلام الصحابة والسكران وقد بلغنا أن عصفورا راود عصفورة عن نفسها في قبة سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ، فأبت فقال لها : تأبين على وأنا لو شئت لقلبت القبة على سليمان وجنوده ، فحملت الريح ذلك إلى سليمان ، فأرسل وراءه فجاء وهو يردد فقال : ما حملك على الكذب في قولك كذا وكذا وأنت عاجز عن مثل ذلك فقال : مهلا يا نبي الله أنا عاشق لها والعشاق إنما يتكلمون غالباً بلسان العشق والسكر ، لا بلسان العلم والتحقيق فعفى عنه . انتهى .

ففي ذلك عذر لسيدي عمر بن الفارض في نحو قوله :

فطوفان نوح عند نوحى كأدمى وإيقاد نيران الخليل كلوهى
إلى آخرها قال فاعلم ذلك واعرضه على نفسك وأهل عصرك تعرف حالك وحالهم
والحمد لله رب العالمين .

(١) هو الحجاج بن يوسف الثقفي : كان من ولاية الخليفة عبد الملك بن مروان واشتهر
بجسوة والظلم والطغيان .

ومن أخلاقهم ارتباط قلوبهم بكل إمام صلوا خلفه

حتى إن أحدهم لو سمع صوت من يشبه إمامه كل الشبه يكبر مثلاً لا يطاوعه ، لأن قلبه يعلم أن ذلك ليس بإمام له ، وهذا أمر قل من يراعيه الآن من الفقراء ، فيصلي خلف كل من رآه يصلي بالناس من غير ارتباط قلبه به ، ويكتفي بارتباطه الظاهر ، وهذا نقص في مقام الفقراء لعدم مطابقتهم بين الظاهر والباطن ، وصاحب هذا المقام لا يحتاج إلا إلى مبلغ يبلغه أفعال إمامه ، ولو كان بينه وبينه أكثر من ميل ، وهو في ظلمة لا أدراكه بقلبه حركات قلب إمامه فضلاً عن أفعاله وأقواله الظاهرة .

وقد نبه ﷺ على هذا الارتباط تشريعاً لأئمة لما صلى بأصحابه ، وقرأ في صلاته سورة الروم وألصقت عليه الآية فلم يعرفها . فقال : إذا جاء أحدكم إلى الصلاة ليحكم طهارة فانكم لبستم على قراءتي أو كما قال .

فانظروا يا أخى كيف مرسى عدم إحكام الطهارة من المأموم إلى الإمام ، فإن من ترك لمعة من أعضائه بغير غسل فصلانه باطلاً ، فلما تعاق بالإمام من ليس هو في صلاة لبس عليه لعدم استحقاق المأمور اسماعه القرآن على وجهه الذى أنزل فعلم أن من ادعى تخلقه بهذا الخلق في صلاة وسمع تكبير خير إمامه للركوع مثلاً ، فتبعه على ذلك فهو لم يتحقق بهذا الخلق ، وقد امتنع بعض العارفين من الصلاة خلف كل من يخطر بباله غير الله فيها لبطلان صلاته عنده فاعلم ذلك ، واعرضه على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم استنادهم في سائر أوقاتهم إلى كبير من أهل الحضرة الإلهية
ليحميمهم من الآفات التي تصيبهم في الدنيا والآخرة

ولا يكتفون بكثرة الأعمال الصالحة من خير استناد إلى من ذكر .

ويقولون : إن الأعمال الصالحة تنهض بنا كما يقع فيه كثير من المتعبدين ، وغاب عنهم
أن العبد يصل بخدمة الأكبر ومحبتهم إلى ما لا يصل إليه بالأعمال .

وتأمل يا أخي إلى غلام الوالي إذا رآه الخفراء سكراناً لا يتعرضون إليه بسوء إكراماً
لوالى لشدة اصوقه به بخلاف العابد الزاهد الذي لم يستند إلى الوالي إذا رآه الخفراء على
طاحشة يسكرانه ويصفعونه ، ولا يوقرونه لعبادته ، بل يضربونه ، ويحبسونه ، ويفرمونه
المال . وفي الحديث ما يؤيد ما أومأنا إليه فورد :

أن عبداً يأتي يوم القيامة فيوقف بين يدي الله عز وجل فيؤمر به إلى النار ، فتقول
الملائكة : يا ربنا كان من عبادته كذا وكذا ، ويدكرون ما شاء الله من صيامه وقيامه
وصدقته وحجه وعمرته ، فيقول الله عز وجل : بلى ولكن كان لا يوالى من والاني
ولا يعادى من عاداني . انتهى .

فانظر يا أخي إلى هذا العابد كيف لم تنفعه عبادته ، لعدم استناده إلى الله تعالى ولو
بواسطة نبي أو ولي ، ولو أنه كان استند إلى نبيه ﷺ أو شيخه استناداً حقيقياً بحيث
أنه والى من والاه ، وعادى من عاداه . كان أخذ بيده وشفع له عند الله تعالى ^(١) ، فانهم .

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « الرجل على دين خليله ،
فينظر أحدهم من محال » رواه أبو داود والترمذي بإسناد صحيح وقال الترمذي :
حديث حسن .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « المرء مع من أحب »
محقق عليه وفي رواية قال : قيل للنبي ﷺ : الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ؟ قال :
للمرء مع من أحب .

فعلم أنه لا يكفي العبد في ادعاء المحبة لله ولرسوله كثرة الأعمال الصالحة مع عدم نصرته لشرع الله وشرع رسوله ﷺ ، وأن المحبة أنجح في قضاء حوائجه في الدنيا والآخرة من كثرة العبادات لاسيما أن دخلها العمل كطلب الثواب عليها والحمد لله رب العالمين .

وعن أنس رضي الله عنه أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ متى الساعة ؟ قال رسول الله ﷺ : ما أعددت لها ؟ قال : حب الله ورسوله . قال : « أنت مع من أحببت » متفق عليه وهذا لفظ مسلم ، وفي رواية لهما : « ما أعددت لها من كثير صوم ولا صلاة ولا صدقة ولكن أحب الله ورسوله » .

وعن أسير بن عمرو ويقال : ابن جابر وهو بضم الهمزة وفتح السين المهملة قال : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم : أفبكم أويس ابن عامر ؟ حتى أتى على أويس رضي الله عنه فقال له : أنت أويس بن عامر ؟

قال : نعم . قال : من مراد ثم من قرن ؟ قال : نعم .

قال : فكأن بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم ؟

قال : نعم . قال : لك والده ؟ قال : نعم .

قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن ، كأن به برص ، فبرأ منه إلا موضع درهم له والده هو بها بر لو أقسم على الله لأبره فإن استطعت أن تستغفر لك فافعل » فاستغفر لي ، فاستغفر له ، فقال عمر : أين تريد ؟ قال الكوفة قال : ألا أكتب لك إلى عاملها ، قال : أكون في غرباء الناس أحب إلي .

فلما كان من العام المقبل حج رجل من أشرافهم فوافق عمر فسأله عن أويس فقال : تركته رث البيت قليل المتاع . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يأتي عليكم أويس ابن عامر مع أمداد من أهل اليمن من مراد ثم من قرن ، كأن به برص فبرأ منه إلا موضع درهم ، له والده هو بها بر لو أقسم على الله لأبره ، فإن استطعت أن تستغفر لك فافعل . فأتى أويساً فقال : استغفر لي . قال أنت أحدث عهداً بسفر صالح فاستغفر لي . قال : لقيت عمر ، قال : نعم فاستغفر له ، ففطن له الناس ، فانطلق على وجهه . رواه مسلم .

ومن أخلاقهم حشهم لأصحابهم علي كثرة العبادة من حيث كونها يرجع
نمرتها إلى صحائف رسول الله ﷺ

بالأصالة دون صحيفته هو عملا بمحديث « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من
أهله وولده والناس أجمعين »^(١) . ومن أحب كثرة الأعمال لتزيد في صحيفته هو غافلا
عن كونها ترجع إلى صحيفة رسول الله ﷺ فهو نافص الإيمان ، كما سيأتي بسطه في
هذه الأخلاق إن شاء الله تعالى والحمد لله رب العالمين .

(١) رواه البخاري .

ومن أخلاقهم زيادة الستر على الأكابر من العلماء والصالحين

لأنهم رؤوس الأمة ، وذكر نقايصهم ينفر الناس عن الاقتداء بهم ، وعن الاهتمام بأمرهم ، ونهيهم لهم لتشكيل نقائص الداعي لهم إلى خير في قلوبهم^(١) .

اللهم إلا أن يترتب على كثرة الستر إحداث خرق في الشريعة فمثل ذلك يجب علينا إظهار الإنكار على فاعله مصلحة له ، وللشريعة خوفاً أن يصير ذلك العالم من أئمة الضلال ، لكن لا بد لنا مع الستر عن زلات من ذكر إذا رأيناها بعيننا من زجره عنها فيما بيننا وبينه ، قياماً بما كلفنا به .

وقد رأيت مرة شخصاً من الوعاظ في عصرنا سعى على وظيفة فقلت له : إن الواعظ من قسم الصالحين فلا يليق به من مزاحمة الفقهاء على الوظائف فقال : إني فقير ، فدمت فرأيت تلك الليلة ، وقد تطور تمساحاً في تلبس مخيط عليه من جهة رأسه وذنبه فعرفت أنه غير صادق في الفقر .

فاعرض يا أخي هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالهم والحمد لله رب العالمين .

(١) وفي الحديث : عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا يستر عبد عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة » رواه مسلم .
وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويعرف شرف كبيرنا » حديث صحيح رواه أبو داود والترمذي قال الترمذي حديث حسن صحيح .

ومن أخلاقهم تعظيمهم للسنة الواردة واعتناؤهم بالعمل بها

أكثر من عملهم بأقوال الأئمة المجتهدين التي أخذوها من الكتاب والسنة من طرق الاستنباط - وإن رجع كل ذلك إلى الشريعة - أدبا مع رسول الله ﷺ ، حتى أن بعضهم كره أن يجمع بين رسول الله وبين غيره في ضمير واحد تعظيما^(١).

وكذلك من شأنهم أنهم يأخذون ما صرح به القرآن بمزيد اعتناء أكثر مما سنه ﷺ وإن رجع ما سنه إلى القرآن « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى »^(٢). وبذلك أخذ الإمام أبو حنيفة قوله بالفرق بين الفرض ، والواجب وأنهما غير مترادفين هروبا من مساواة الخلق للحق في الاصطلاح ، فجعل الفرض ما جاء في القرآن والواجب ما جاء في السنة أدبا مع الله تعالى .

ونظير ذلك اصطلاح العلماء على تخصيص الصلاة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، بلفظ الصلاة دون لفظ الرحمة ، وإن كانت الصلاة من الله هي الرحمة .

وسمعت سيدي علي المرصفي رحمه الله يقول : من أدب العارف أن يأخذ ما فرضه الله تعالى ابتداء من غير سؤال من الخلق بشدة اعتناء أكثر مما فرضه الله عن سؤال من الخلق بالخال أو القال كآية الحجاب . انتهى . وهو كلام غرره بميد فليتأمل .

فعلم من باب أولى أنه ينبغي لقارئ القرآن أن يزيد في طهارة الباطن والأدب حال تلاوته أكثر مما يكون حال قراءة الحديث ، ويزيد من ذلك إذا قرأ الحديث أكثر مما يكون حال قراءة كلام المجتهدين . وهكذا فيجالس صاحب كل كلام قرأه . بمزيد التعظيم اللائق به ، ومتى غفل عن شهود مجالسته لصاحب ذلك الكلام فقد أخل بتعظيمه وفاته الحظ الأوفر من ذلك الكلام ، وما شرع الله تعالى عبادة من العبادات

(١) ربما يقصد تعظيما له .

(٢) سورة النجم الآيات : ٣ ، ٤ .

إلا طلباً لحضور عبده معه فيها ، وما زاد على ذلك فهو بحكم التبعية فلم أن من لم يحضر مع الله في عبادته فكأنه لم يفعلها .

وسمعت سيدي محمد المنير رحمه الله يقول : من تأمل بنور البصيرة وجد ما شرعه الشارع صلى الله عليه وسلم أكثر نوراً وأنساً مما شرعه المجتهدون ، كما أن ما شرعه المجتهدون أكثر نوراً مما شرعه من بعدهم على اختلاف طبقاتهم وذلك لأن الشريعة هي النور الأعظم وجميع ما زاد عليها مقتبس من نورها وكلما قرب المقتبس منها كان نوره أضوأ ، ثم ما زال المقتبسون يبعدون عن ما صرحت به الشريعة حتى خفيت مداركهم وجهلت أقوالهم لبعد زمانهم عن نزول الوحي بل ربما خطئوا أصحاب تلك الأقوال ، ولو أسمع بصر الناس لوجدوا جميع أقوال العلماء ترجع إلى الشريعة المطهرة لكانت قول قريب . وقول أقرب ، فالشريعة كالعين الأولى من شبكة الصيد وأقوال علماءها كالعيون المتفرعة عنها إلى دائرة الشبكة الأسفل فكل عين سلكت منها أوصلت إلى العين الأولى كما هو معروف بين أهل الكشف ، فعلم أن كل من حجب عن شهود تفاضل نور أقوال العلماء فليتنظر إلى قلبه حال فعله لما شرعه الشارع وحال فعله لما شرعه غيره ، فإنه يجد النور والأنس الذي في قلبه حال فعله لما شرعه الشارع أكثر بيقين ، وكذلك الحكم فيما شرعه المجتهد بالنسبة لما شرعه من بعده ، وهكذا .

وقد أقيمت صلاة الظهر بعد صلاة الجمعة مرة بمحضرة سيدي علي الخواص ، فقال : أين نور هذا الظهر من نور الجمعة ؟ وأين الأنس الذي يجده الإنسان حال صلاة الجمعة من الوحشة التي يجدها مصلّي الظهر بعد الجمعة ؟ مع أن إعادة الظهر من جملة الإحتياط في الدين . انتهى .

واعرضه على نفسك وأهل عصرك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم تفقدهم تكرار محفوظاتهم في العلم خوف النسيان

فإن كتب العلم حاوية لما تعبدنا الله تعالى به من أحكام القرآن ، فمن نسيها فكأنه نسي القرآن ، فعليه من الإثم كمثل إثم من قرأ القرآن ثم نسيه^(١) . وهذا الخلق قد أغفل به غالب الفقهاء اليوم فضلاً عن الفقراء ، فلا تكاد تجد أحداً منهم يكرر محفوظاته لاشتغاله بمطالعة الشروح ، ولو أنه نظر بعين البصيرة لوجد حفظه لمتن كتاب المنهاج مثلاً أنفع له من مطالعته في كتب العلم طول عمره مع نسيانه متن المنهاج ، فإن من حفظ حجة على من لم يحفظ .

ولو نظر في نفسه لوجد المسائل التي تعرفها من متن المنهاج يقيناً أكثر من المسائل التي استفادها من المطالعة ، ولو سئل من يكثر مطالعة العلم بلا حفظ للمتون عن مسألة ، هل هي ذات قول أو ذات وجه مثلاً ؟ لا يهتدي لذلك .

وقالوا : علم الإنسان هو ما يدخل به الحمام .

وقالوا : أيسر بعلم ما حوى النظر ما العلم إلا ما حواه الصدر .

وذكر الغزالي أنه سافر في طلب العلم من طوس إلى بغداد ، فكتب علماً كثيراً ووضعه في جراب ، فلما رجع به إلى بلده لقيه اللصوص فأخذوا الجراب ، نصار يقول : ردوا علمي وخذوا ما عداه ، فضحك منه اللص وقال : كيف يكون علمك في الجراب ؟ إنما علمك ما كان في صدرك . قال : فأخذت من ذلك ما اعزبت به وشرعت بعد ذلك في حفظ العلم حتى لو عراني اللصوص لم يفارقني علمي . انتهى .

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول : ربما أكثر الفقيه من مطالعة

(١) وفي الحديث : عن أبي موسى رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تعاهدوا هذا القرآن فوالذي نفس محمد بيده لو أشد ثقلنا من الإبل في شفاها » متفق عليه . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مثل صاحب القرآن كمثل الإبل المقفلة ، إن طاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت » متفق عليه .

الكتب الواسعة ، فضمنت قوته الحافظة عن معرفة الجواب عن كل ما يسأل عنه على سبيل الجزم به ، فصار علمه كالشكوك فيه فقل نفعه ، وفائدته ، ولو فتش نفسه لوجد جميع ما يريد تحصيله بالمطالعة دون المسائل التي في كتابه الذي نسيه انتهى .

وسمعت مرة أخرى يقول : لو تأمل حافظ المنهاج مثلاً لوجد نفسه أعرف بالراجح والمرجوح ممن طول عمره يطالع الشروح من غير حفظه للمتون .

ولو أنه قيل لحافظ المنهاج مثلاً وهو في الحمام عريان : هل هذه المسألة ذات قولين : أو ذات وجهين أو هل فيها نص للإمام الشافعي أم هي من كلام الأصحاب ؟ لأجاب هن ذلك بأحسن جواب في الحال فيسود ذلك الباب في ذهنه ، ويخبرك بالمتقول فيها ويعرف موضعها من الكتاب بخلاف من لا يحفظ فإنه يقول لك : حتى أخرج من الحمام وأكشف لك عنها .

وكثيراً ما يذكر العلماء مسائل في غير أبوابها المعقود لها فيصير الذي لا يحفظ المتون قائماً لا يعرف موضعها ، وربما صار يفتش عليها نحو الشهر حتى يجدها وقد صنف الزركشي رحمه الله كتاباً في المسائل المذكورة في غير أبوابها سماه خبايا الزوايا ، وأستمع مني لما حفظت الروض أطلعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا على اثني عشر مسألة كان ذكر في شرحه أنها من زوايد الروض على الروضة ، والحال أنها مذكورة في الروضة في غير أبوابها ، فضرب على قوله أنها من زباده على الروضة .

وكذلك لما كنت أقرأ على شيخنا الشيخ نور الدين الحلبي رحمه الله وكانت المسألة تأتي إليه فلا يدري جوابها ولا أين هي في المنهاج فيقول لي : هذه المسألة في أي باب من المنهاج ؟ فأقول له : في الباب الفلاني فيكشف عليها ويفق السائل ، ولو أنه كان يحفظ متن المنهاج لاستغنى عن سؤالي .

وقد اشتغلت مرة بمطالعة الكتب عن تكرار محفوظاتي فنظرت فإذا أنا صرت أغلظ فيها . فرأيت شيخ الإسلام زكريا بعد مماته وهو ماسك كتاب المنهاج وهو يقول لي : تعال أسمع لك الذي نسيته من المنهاج ، ثم قال لي : أما علمت أن من نسي كتابه

الذى حفظه في العمقه أو بعضه فهو كن نسي القرآن بعد حفظه وإن علمه من الإنم مثل
ما على من نسي القرآن أو بهضه ؟ فأصبحت واشتغلت بتكراره حتى صرت أحفظه مثل
القرآن ، وأعرف متشابهاته كالقرآن .

ومن أدركته من الأشياخ على هذا القسـ دم سيدى الشيخ عبد الحليم بن مصلح ،
وسيدى أبى الفتح الغمرى الذى قيل أنه قطب قبل موته ، فكانوا لا ينفلون عن
تكرار محفوظاتهم ويقولون قد صار علم كل من لا يحفظ المتون فى لسانه لا فى قلبه .
فلا يقدر على إلقاء درس إلا إن طالعه ولو أن علمه كان فى قلبه لا كتفى بما عنده
من النور وقرر كلام ذلك المتن أو ذلك الشرح لأنه بلسان عربى وهو طول عمره يطالع
فيه فاعلم ذلك واعمل علمه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلانهم التصديق بكل ثوب أو عمامة أو قلنسوة أو سراويل
أو رداء عَصَوْا ربهم فيه

حتى أن بعضهم يود أن الله يبدله جسمًا غير جسمه الذي عصى به وبه ، وبعضهم
كان إذا عصى كان يود لو أن الله تعالى يميتَه لوقتِه حتى لا يعصيه مرة ثانية إِنْشَارًا
لجناب الحق تعالى .

وبعضهم يخلق رأسه وحواجبه ولحيته لأنه هو الذي يمكنه إزالته من جسده بغير
ضرر يمنع أنه مخلوق وهذا وإن كان فيه تعظيم لجناب الله فاتباع السنة أولى ، وأما
التصديق بذيابته التي عصى فيها فهو لا بأس به لأنه كالكفارة^(١) والله أعلم .

(١) ويقصد الإمام الشعراي من ذلك بيان شدة ندمهم على أفعالهم السابقة عند توبتهم
مما يدعوهم إلى فعل تلك الأمور فإن من شروط التوبة ضرورة الندم عليها .

ومن أخلافهم كثرة أجوبتهم الحسنة عن أكابر الحضرة الإلهية

من رسل ، وأنبياء ، وصحابة ، وتابعين ، وأئمة مجتهدين ، وجميع أتباعهم من المقلدين
أدبهم الله عز وجل ، الذين هم في حضرة على اختلاف طبقاتهم كل منهم على قدر حفظه
ونصيبه من القرب من شهود الله عز وجل ، وخوفاً أيضاً هلى أنفسهم من المقت إذا
خاض أحدهم في حق أكابر الحضرة بغير علم ولا إرث لهم في المقام كما يقع في ذلك كثيراً
من المجادلين .

فيبادر أحدهم إلى الكلام على معنى خطيئة آدم أو داود عليهما الصلاة والسلام ،
ويحصل ذلك على حسب ما يتبادر إليه فهمه ، وأين المقام من المقام ؟ وأين الحال
عن الحال ؟

وقد قال الشيخ محي الدين في شرح ترجمان الأشواق : ليس لنا ذوق في مقامات
الأنبياء حتى نتكلم على أحوالهم وليس لأحدنا من مقامهم الإرث من مقامهم إلا كما
يمر خيال النجوم على وجه الماء . وقد طلب أبو يزيد من الله تعالى أن يدخله مقام نبي
عن الأنبياء ، فأهطاه الله منه مقدار الشعرة البيضاء من الثور الأسود ، فكاد أن يحترق ،
وسأل الله الحجاب عن ذلك المقام ، وقال : لا طاقة لأمثالنا بدخول مقام أحد من
عن الأنبياء^(١) انتهى .

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول : لو أن أحداً من هؤلاء المجادلين رأى
شخصاً مقرباً عند سلطان أو أمير لا كرمه لأجله رجاء إحسانه أو خوفاً منه^(٢) ، فالله
أحق بذلك من عبده .

(١) ولعله يقصد بذلك الخوض في سير الأنبياء بذكر أن لهم خطيئة أو إثباتها
وهذا من الغلط المبين فإن عصمة الأنبياء قد استدلل عليها العلماء بل إتنا نرى في كتب
التفسير كالفخر الرازي دفاع عن الأنبياء وعصمتهم بالأدلة العقلية والنقلية ما يجعلنا نرد
كل ما قيل عن الأنبياء من وقوعهم في الأخطاء مما حكته الإسرائيليات الواردة في الروايات
الضعيفة والموضوعة .

(٢) ولربما برر له أخطاؤه .

وسمعه أيضاً يقول : يجب علي كل مؤمن أن يجيب عن أولياء الله ويحملهم على أحسن المحامل كما يفعل ذلك في المقربين عند أكبر ملوك الدنيا بل الأولياء أولى بالوجوب .
وسمعه أيضاً يقول : من الواجب على كل مسلم الذبّ عن أعراض الصحابة فضلاً عن الأنبياء ، وعن أعراض التابعين فضلاً عن الصحابة ، وهكذا لأن هؤلاء هم حماة الدين والقدس فيهم طعن ، في جميع ما كانوا واسطة لنا فيه ، من الأحكام ، فكان من نسبهم إلى نقص يريد أن يهدم أركان الدين كلها ، وقد امن الله تعالى من غير حدود الأرض فكيف بمن يغير حدود الدين ؟ انتهى .

وقد منّ الله تعالى عليّ بحسن الأجوبة عن الأئمة ومقلديهم من الفقهاء والصوفية من حداثة سني إلى وقتي هذا ، حتى ربما ظن بعضهم من كثرة توجيهي لأفعالهم وأقوالهم أنني لا أتقيد بمذهب ، والحال أنني مقلد للإمام الشافعي رضي الله عنه ، وإنما أجيب عن الأئمة من باب حسن الظن بهم ، وكثرة اطلاعي على أدلتهم ، لا تعصباً لهم بغير علم . معاذ الله أن أقع في ذلك ، فلكل فعل أو قول ورد عن نبي أو ولي أو فقيه عندي محمل صحيح بحمد الله تعالى لا تأباه العقول السليمة ، وأرجو من فضل الله تعالى أن كل من أجبت عنه من الأنبياء والعلماء والصالحين يتبسم في وجهي يوم القيامة إذا رأي وياخذ بيدي بخلاف من كان يرمي الأكبر بما لا ينبغي ، ويحملهم على حال نفسه هو ، وربما عبسوا كلهم في وجهه يوم القيامة ، أو نظروا إليه شزراً أو لم يتبسموا له كل ذلك التبسم أو تبسم الم غضب .

وأيضاً وكما وجب علينا حمل آيات الصفات ، وأخبارها على محامل تليق بالباري جل وعلا ، فكذلك يجب علينا الذبّ عن رسله عليهم الصلاة والسلام وحمله شريعتهم من الفقهاء والمحدثين وغيرهم ، لأن مقام هؤلاء لا ذوق لأمثالنا فيه لحجاب أحدنا من دائرة شيخه الأدنى فضلاً عن الأعلى ، ولأن النبوة يبتدى مقامها من بعد نهاية مقامات الأولياء ، فإذا كان لاذوق لأعلى الأولياء في مقامات الأنبياء حتى ينكلم عليها

على وجه المطابقة فكيف يكون لأمثالنا ذوق فيها^(١).

وكان سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لا يجوز لأحد من الأولياء أن يتكلم على مقام نبي إلا بحسب ما ورث من مقامه فقط فإنه محال لولى أن يرث مقام نبي على الكمال . انتهى .

فإن كنت يا أخى وارثاً لأحد منهم فتكلم فى مقامه بحسب الإرث إلا وجب عليك السكوت خوفاً من دخولك فى مقت الله تعالى بخوضك فى أعراض أهل حضرته بغير علم . وبالله التوفيق .

إذا علمت ذلك فقد أجيب به عن أبينا السيد آدم عليه الصلاة والسلام فى أكله من الشجرة التى جعلها الله تعالى لبليه من بدمه ، كالحبة فى الفخ للطائر هو أن تعلم يا أخى أن للراد بقوله تعالى : « وعصى آدم ربه فغوى »^(٢) هم بنوه الذين كانوا فى ظهره^(٣) عليه الصلاة والسلام وبذلك قال جماعة من العلماء نظير قوله تعالى فى حق نبينا^(٤) محمد ﷺ « لئن أشركت ليحبطن عملك »^(٥) ونحوها من الآيات .

وقال الشيخ عبد العزيز الديرى رضى الله عنه : لم تكن معصية أبينا آدم عليه

(١) قال الله تعالى : « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى ما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته ، ولئن استعاذنى لأعبدنه » رواه البخارى .

(٢) سورة طه آية : ١٢١

(٣) يقصد بذلك عصيان بنى الذين من صلبه .

(٤) ربما يقصد لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

(٥) سورة الزمر آية : ٦٥

الصلاة والسلام حقيقية ، وإنما كانت صورية فكأنه يعلم بنيه بصورة ما وقع على يديه كيف يفعلون إذا وقع أحدهم في معصية ربه عز وجل من التوبة والاستغفار وعدم الاحتجاج بالقضاء السابق الذي لا مرد له ^(١) ، فإن آدم عليه الصلاة والسلام قال بعد ما وقع في الأكل من الشجرة صورة « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » ^(٢) ، مع علمه يقيناً بأن ظاهر ما وقع فيه كان بقضاء وقدر لا مرد له ، وأن الله تعالى قدره عليه قبل أن يخلقه من التراب ، ففتح عليه الصلاة والسلام بذلك لبنيه باب التوبة والاستغفار ، وفتح إبليس لبنيه وجنوده بالاحتجاج بالقضاء والقدر والاباية عن السجود باب الشقا والدمار والاستكبار والافتخار ليقضى الله أمراً كان مفعولاً .

ولذلك قال تعالى في آدم عليه الصلاة والسلام : وعصى آدم ربه فغوى وفي إبليس « أبى واستكبر وكان من الكافرين » ^(٣) .

وفي ذلك حكمة لا تذكر إلا لأهلها مشافهة لأن الكتاب يقع في يد أهله وغير أهله فاعلم ذلك .

وسمعت سيدى افضل الدين رحمه الله يقول : كان في أكل أبنينا آدم بن شجرة النهى بيان حكم حضرتى الأمر والنهى ، وأن من كمال العبد المؤمن ذوقه لهما ليعرف مقدار الوصل والهجر ، ومن هنا قالوا : إن بنى آدم أكل في المقام من الملائكة لأنهم لا يذوقون للنهى طعماً لعدم وقوعهم فيه وعدم ميلهم إليه ، ففاتهم الأجر الذى جعله الله لبنى آدم في نظير اجتنابهم للنهى ^(٤) ، وفاتهم مقام محبة الله تعالى لهم في قوله : « إن الله

(٥) يقصد بذلك أنها جاءت تشريعاً وتعليماً لبنى آدم .

(٦) سورة الأعراف آية ٢٣

(١) سورة البقرة آية : ٣٤

(٢) فإن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . أما الإنسان فإن في نفسه دائماً التنازع بين الخير والشر وهذا سر عظمته عند الله تعالى إذا اجتنب نواحيه واثمر بأمره .

يجب التوازين^(١) .

فعلم أنه لولا ذوق بنى آدم النهى ما عرفوا قدر ما أنعم الله عليهم في امتثالهم الأمر ،
إذ لا يعرف مقدار شيء إلا بضده .

ولو أن آدم عليه الصلاة والسلام لم يأكل من الشجرة الأكل الضرورى لكانت
ذريته المؤمنون ناقصين من الأجر والثواب والشكر لله ، وأما هو عليه الصلاة والسلام
فكان كاملا فى كل حال والله تعالى رضى عنه فى حال أكله من الشجرة كحال توبته
وندمه على حد سواء لأن تلك المعصية كان المراد بها غيره من ذريته لا هو .

وقد أجمع أهل الكشف قاطبة على أن ترقى الأنبياء فى اللقائمات دائم فلا ينتقلون من
حال إلا لأعلى منه وأكمل ، وأن هبوط آدم عليه الصلاة والسلام إلى الأرض كان هبوط
كرامة ، وشرف ، وترقى فى مقامه ، لأن الأرض هى محل خلافته التى شرف بها ، ولم يجعل
الحق تعالى له فى تلك الجنة التى كان فيها خلافة ولا خروج ذرية من أنبياء ولا غيرهم ،
فكان فيها كالعقيم الذى لا ولد له .

وقد امتن الله تعالى على الرسل عليهم الصلاة والسلام بالذرية بقوله تعالى « ولقد
أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية^(٢) » وأما وصف الحق تعالى يحيى بن
زكريا عليهما الصلاة والسلام بأنه حصور فليس ذلك صفة كمال كما قاله الشيخ محيى الدين
رضى الله عنه ، وإنما هى حكاية عن الحال التى كان عليها . انتهى .

قلت : وبمقتضى أن ذلك صفة كمال لا يحى عليه السلام من باب الخصوصية له .

ومحمد سيدى على المرص فى رحمه الله يقول : لو لم يكن من فائدة هبوط آدم عليه الصلاة
والسلام إلا كون حسنات جميع بنيهِ فى صحيفته لكان فى ذلك كفاية فى شرفه لأن حسنة
الولد من حسنات الوالد وليس على الوالد من وزر بنيهِ شيء . انتهى .

(١) سورة البقرة آية : ٢٢٢

(٢) سورة الرعد آية : ٣٨

وسمعت بعض أهل السكشف يقول : جميع ما وقع من آدم عليه الصلاة والسلام كان الحق تعالى قد أعلمه به قبل ذلك ، وقال له أنه قد سبق في علمي خلقتك واخراج ذرية من ظهرك فيهم أنبياء ورسل وأولياء وصالحون ومؤمنون وكافرون ومقرون وجاحدون وأرسل رسولي جبريل إلى الرسل من أولادك بكتب وصحف وأحكام وتكاليف .

وكذلك سبق في علمي أن أخلق لذريتك وغيرهم من الجن دارين اسم أحدهما الجنة والأخرى جهنم فأجعل الجنة للأنبياء والمرسلين ومن أطاعهم وصدقهم وجهنم لكل من خالف كتبى ورسلى ويكون شرفك بذلك ، وسبق في علمي أن أوقع على يديك صورة ما يقع من بعض بنيك من المعاصي وأعلمك كيف يتخلصون منها إذا وقعوا فيها ، وإن من تاب منهم واستغفرنى وندم قلبه ولم ينقص ذلك من مقامه عندي ولا بد لك من حجة أقيمها عليك في الظاهر وأنادى عليك بالعصيان تقبيحها في عين بنيك لئلا يستهينوا بمحارمى فأثبت ولا تضجر فانك عندي مصطفى مختاراً .

واعلم يا صفى بأنى كريم ، ولا يندبى للكريم أن يخرج عبده من جواره إلا بحجة تقام عليه ، ليتميز سيده بالكمال المطلق ، ويتميز نفسه بالنقص المقيد النسبى انتهى .

فلما أعلمه الحق تعالى بما ذكرناه صار عليه الصلاة والسلام مترقباً لخروجه من تلك الجنة إلى دار خلافته ، وليرتب الله تعالى الأسباب على مسبباتها كما سبق في علمه ، وأيضاً فإن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : في قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها ^(١) » قال : علمه كل اسم آلهى وكونى حتى القصعة والقسية والمقسية والمحراث والطاحون والفاص والقدرة ونحو ذلك مما لا يحتاج إليه أهل تلك الجنة التى كان فيها .

وكان آدم عليه الصلاة والسلام منتظراً خروجه إلى الأرض ليستعمل تلك الأسماء والمسميات فيها ، ويكون آلة في تنفيذ قضاء الله وقدره في عباده .

وكان لسان حال الارادة الآلهية يقول لآدم عليه الصلاة والسلام لا أخرجك من

جوارى إلا بحجة تقام عليك ونهى لك من الأكل من الشجرة هو قرب أوان إخراجك من جوارى إلى محل آخر في جوارى تكون فيه خلافتك ، وقد قدرت عليك الأكل الصورى من الشجرة دون أن أمرك بالأكل منها ، فإن ذلك تصير القبضتين إلى قبضة واحدة وهو خلاف ما سبق فى علمى من جعلهم قسمين شقى وسعيد فإنى أريد المعاصى من عبادة ولا أمر بها أن الله لا يأمر بالفحشاء . انتهى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول مراراً :

كانت معصية آدم عليه الصلاة والسلام صورية لا حقيقية ، فإن الحق تعالى كان قد ألهم آدم من الوجه الخاص الذى بينه وبينه وقال له : إنى أريد أن أبرز ما كان فى مكنون علمى من ترتيب الأسباب على مسبباتها ، واقدر على يديك صورة ما يقع من بئيك السعداء ، دون الأشقياء ولا أؤخذك بصورة ما يقع على يديك من صورة ما يقع فيه بنوك ، واجمل صورة ما يقع على يديك صورة تقود الاقدار التى لا انتهاك فيها لمحارمى خلاف ما يقع من بعض بئيك ، فكانت المسئلة بمثابة جماعة قال لهم الملك : إنى أريد أن أحدث فى ملكى أمراً وأرتب عليه أحكاماً وأنهى خليفتى عن شىء فى الظاهر وأريده منهم فى الباطن ، واجمل عدم الأذن له فى المنهى ظاهراً إذناً له باطناً ، وكل من كان حاضراً هذا الاتفاق من المقربين أو اطلع عليه من طريق كشفه لم يسم ذلك معصية حقيقة . ومن كان غائباً عن هذا الاتفاق أو لم يكشف له عنه جزم بأنه معصية ظاهراً وباطناً قال : فما ثم إلا مطيع من وجه واحد أو من وجهين وكل من لم يطع الأمر أطاع الإرادة « إن كل من فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً » حتى أن من ادعى الألوهية من العبيد ما احتماها إلا بإرادة الله تعالى له أن يدع ذلك .

وإن كان الشرع ~~ي~~ نهى عن الاحتجاج بالإرادة إذا تجردت عن الأمر فإن أحداً لا يطيع ولا يعصى إلا بالإرادة ، ولكن إذا أرادت القدرة الإلهية للعبد امتثال الأمر ~~لله~~ لا محالة ، وسمى ذلك للعبد مطيعاً لله تعالى ظاهراً وباطناً من وجهين ، لأنه الأمر

وافق الإرادة وإن لم ترد القدرة الالهية للعبد امتثال الأمر ظاهراً لم يصح منه طاعة وسمى عاصياً للأمر مطيعاً للإرادة باطناً .

فعلم أن نداء الحق تعالى على آدم عليه الصلاة والسلام بالمعصية ، إنما هو لأجل المحجورين عن الانفاق المذكور لأنهم هم الذين يتعدون حدود الله تعالى ، ويقعون فيها وأما للمقربون فهم يعرفون الأمر على ما هو عليه ، ويعلمون إنما وقع من آدم عليه الصلاة والسلام كان مراداً به غيره ، وقد يضرب الملك عبده المقرب عنده تخويفاً لبعض العبيد الخارجين عن طاعة الملك برضى منه مع الملك واتفاق على ذلك ليقول الخارجون عن طاعة الملك :

إذا كان هذا فعلة في عبده المقرب فكيف بالعبء المطرود عن حضرة فيتحرك هؤلاء المارقون عن الطاعة لفعلها ويخافون منه أن تركوها فكان آدم عليه الصلاة والسلام فاتحاً لباب احكام الدنيا وحاملاً عن بنييه شدة الندم والخوف والبكا .

فقد نقل الكسائي أن آدم عليه الصلاة والسلام بكى حتى صار مردوعه بركة عظيمة ومكشيت الوحوش والطيور والبهائم يشرب منها مدة ثمانين سنة فكان من فتوته وعزمه وشفقته على بنييه أن تحمل عنهم هذا البكاء العظيم ولولا ذلك لاشتد البكاء والنحيب والندم والحزن على بنييه أكثر مما يقع لهم الآن ، وربما كانوا يتعطلون عن أمر معاشهم فجزاه الله تعالى عن بنييه خيراً^(١) .

وسميت أختي أفضل الدين رحمه الله يقول : أجمع أهل الكشف على أن نداء الحق تعالى على أئبنا آدم عليه الصلاة والسلام بالعصيان والغواية ، كان المراد به غيره نظير

(١) كل هذا دفاع عن عصمة الأنبياء ومحاولة نفي الخطيئة عن سيدنا آدم عليه السلام وهذا يتفق مع الجو الصوفي في نفي الخطيئة عن الأنبياء صلوات الله عليهم وإثبات العصمة لهم . يقول الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه ، كنت مع الشيخ في سفر ونحن قاصدون إلى الإسكندرية حين مجئنا من المغرب فأخذني ضيق شديد حتى ضعفت عن حمله ، فأتيت إلى الشيخ أبي الحسن رضى الله عنه ، فلما أحس بي ، قال : أحمد .

قوله تعالى لمحمد ﷺ « لئن أشركت ليعبطن عملك ولنكونن من الخاسرين ^(١) » .
وقوله تعالى : « يا أيها النبي اتق الله ^(٢) » ونحو ذلك . انتهى .

وقد مر بعض ذلك فمن رحمة الله تعالى بعباده أن جعل فيهم أنبياء وأعطاء القوة على تحمل صولة خطابه مما لو يحمله غيرهم لهلك وذاب وأيضاً فلما سبق في علم الله تعالى إعراض العصاة عن أوامر الله .

كذلك أعرض تعالى عنهم بالخطاب وخاطبهم في غيرهم بغضاً لهم ومقابلة للإعراض بالأعراض وجميع أهل الكشف من المتربين يعلمون من الله تعالى شدة اعتناؤه بأنبيائه عليهم الصلاة والسلام وأنه قد عصمهم من الوقوع في كل شيء يكرهه تعالى وأنهم ليسوا بمحل لوقوع المخالفات الحقيقية ومن كان كذلك لا يحتاج في ترك المخالفات إلى شيء فافهم .

وكذلك أجمع أهل الكشف كلهم على أن مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حضرة الإحسان التي يعبد العبد فيها ربه كأنه يراه ، وتلك حضرة لا يصح للعبد أن يعصى ربه فيها أبداً ، فلا بد للعاصي من حجاب حتى يقع منه المعصية ، ولا يصح للعبد أن يعصى ربه على الكشف والشهود بأن الله تعالى يراه أبداً ، فما وقع أحد في معصية إلا وهو محجوب عن ربه بسبعين ألف حجاب .

قلت : نعم ياسيدي .

قال : « آدم خلقه الله بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأسكنه الجنة نصف يوم — خمسمائة عام — ثم نزل به إلى الأرض والله ما نزل الله بآدم إلى الأرض لينقصه ولكن نزل به إلى الأرض ليكمل له ، ولقد أنزله إلى الأرض من قبل أن يخلقه بقوله :
(إني جاعل في الأرض خليفة) .

(١) سورة الزمر آية : ٦٥

(٢) وتعام الآية (يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين) سورة الأحزاب

آية : ١

وإذا كان الولي إذا دخل حضرة الإحسان يحفظ من الوقوع في المعاصي فكيف عن
هو مقيم فيها من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على الدوام .

وكان الشيخ محي الدين بن العربي رضي الله عنه يقول : من أعظم دليل على عصمة
الرسول عليهم الصلاة والسلام ، كون الحق تعالى جعلهم مشرعين لأمرهم بأقوالهم ،
وأفعالهم كلها ، نلو أنه كان يصح من أحدهم معصية حقيقة لصدق عليهم تشريع الوقوع
في المعاصي ولا قائل بذلك انتهى .

وكان يقول أيضاً قد أجمع أهل الكشف الصحيح على أن الأسباب المانعة للعبد من
الوقوع في المعاصي ، أربعة لا خامس لها : وهي المعصية أو الحفظ أو الحياء والخوف والرجاء
وهذه الأربعة مجموعة في كل نبي لله بلا شك انتهى .

قلت : ومن هنا تعرف معنى حديث نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه أي لو قدر
أنه لم يخف الله تعالى لكان معه ثلاثة أسباب مانعة من الوقوع في المعصية وهي عدم
التقدير في علم الله تعالى والحياء والرجاء ، وقس عليه بقية الأربعة كما لو قيل نعم العبد
صهيب لو لم يستح من الله أو لم يرج ثواب الله أو لم يقدر الله تعالى عليه معصية
لم يعصه .

وما يؤيد قولنا أن معاصي الأكابر تورثهم الاجتناء والاصطفاء من غير أن ينقص
مقامهم حال وقوعهم في مسمى المعصية عند الله تعالى ، قول الشيخ أبي الحسن الشاذلي
رضي الله عنه :

وما قال في الجنة ولا في السماء ، فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة لا نزول
إهانة ، فإنه كان يعبد الله في الجنة بالتعريف ، فانزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف ،
فلما توفرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفة ، وأنت أيضاً لك قسط من آدم ،
كانت بدايتك في سماء الروح في جنة المعارف ، فأنزلت أرض النفس لتعبده بالتكليف ،
فلما توفرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة .

لو عرف آدم أنه إذا نزل إلى الأرض يعود إلى الجنة بمائة ألف نبي وأربعة وعشرين ألف نبي منهم محمد رسول الله ﷺ لأكل الشجرة بكالها .

وكذلك يؤيد ما ذكرناه ما ذكره الشيخ محي الدين بن العربي رضي الله عنه في الباب التاسع والثلاثين من الفتوحات المسكية : من أن هبوط آدم عليه الصلاة والسلام عقب أكله من الشجرة إلى الأرض هو وحوّى لم يكن عقوبة لهما كما وقع لابليس لعنه الله ، وإنما كان هبوط شرف فإنه أهبط بالوعد السابق أن يكون هو وبنوه خليفة في الأرض أي يخلفون الجن والبن الذين كانوا قبلهم في الأرض وكانوا ملائكة أرضيين .

ولو أنهم كانوا من ملائكة السموات لم يقع منهم اعتراض لصفاء عنصرهم ورفع حجابهم الطيفي الكثيف وكانوا قد ذاقوا وقوع الفساد منهم في الأرض وسفك بعضهم دماء بعض فقاموا آدم عليهم .

ولو أنهم كانوا من ملائكة السماء لما قالوا ذلك لعدم ذوقهم للقتل والفساد في السموات ظفهم .

وسمعت سيدى هاليا الخواص رحمه الله يقول : ما بلغنا قط في كتاب ولا سنة ، أن أحداً من أهل السماء يفسد فيها أو يسفك دم أخيه من الملائكة أبداً بخلاف الملائكة الأرضية لقربهم من أحكام أهل الأرض قال : ثم بنقدير أن معصية آدم المذكورة لم تكن ضرورية ، فما أنزل إلى الأرض إلا بعد وقوع توبته المقبولة وندمه وبكائه وتلقيه الكلمات من ربه بقوله « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا ^(١) » إلى آخره تعالماً لبنيه أن

وما يوضح فكرة الإمام الشعراني قولنا في تحديد معنى النبوة : لفظ النبي مأخوذ من الإنباء ، فيتضمن هذا معنى الإعلام والإخبار ، لكنه في عامه موارد استعماله أخص من مطلق الإخبار فهو يستعمل في الأمور الغائبة المختصة دون المشاهدة المشتركة ، كما قال :
(وأنبئكم بما نأكلون وما ندخرون في بيوتكم) .

(١) وتام الآية (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين)
سورة الأعراف آية : ٢٣

يعترفوا بذنوبهم إذا وقعوا فيها ولا يحتجون بالقضاء والقدر فإنه عليه الصلاة والسلام لم يحتاج بالقضاء والقدر بل قال مع هلمه بأن ما وقع علي يديه بقضاء وقدر لا مرد له ربنا ظلمنا أنفسنا .

فعلم أولاده أدب العبيد مع سيدهم جل وعلا إذا خالفوا أمره بسبق إرادته .
وكان اعترافه عليه الصلاة والسلام في مقابلة قول إبليس للحق جل وعلا كيف تؤاخذني على ذنب قدرته على قبل أن أخلق؟ فسمد آدم باعتراؤه وشقي إبليس بجذاله بغير حق .

وقد بلغنا أن الحق تعالى أدحض حجته بقوله تعالى له : متى علمت إني قدرت عليك
الآية من السجود قبل وقوعك في الآيات أم بعدها ؟
فقال : بعدها .

فقال له الحق جل وعلا : بذلك أخذتك .

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام ذكر بارحمه الله يقول : إنما أخبرنا الحق تعالى باعتراؤه
أبيننا عليه الصلاة والسلام بالذنب واعلمنا تعالى بشدة اعتناؤه به ، ووعدده على ذلك
بالاجتناب لنفعل مثل صورة فعل أبيننا عليه الصلاة والسلام إذا وقعنا في الذنب ، ونعترف
بذنوبنا ، كما أنه تعالى ما عرفنا بمقالة إبليس إلا لنحذر من الوقوع في مثاها عند وقوعنا
في المخالفة لأمر الله بارادة الله انتهى .

وسمعت سيدي هايا الخواص رحمه الله يقول : أقبح من كل قبيح قول العاصي لربه
كيف تؤاخذني على أمر قدرته على قبل أن أخلق ؟

وقال : « فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا ؟ قال نبأني العليم الخبير » .
وجمع النبي أنبياء ، وهو من النبأ ، وأصله الهمزة وقد قرئ بها ، وهي قراءة نافع ،
يقرأ النبي ، لكن لما كثر استعماله لينت همزته كما فعل ذلك في الذرية وفي البرية .
وقد قيل : هو من النبوة بفتح النون وسكون الباء ، وهي العلو ، فعني النبي : للعلو
الرفيع للنزلة ، والتحقيق أن هذا للمعنى لازم الأول ، فمن أنباء الله وجمله منبأ عنه فلا

فشكل من اعترف بذنبه ، ولم يحتج على ربه أنسه تعالى يوم القيامة جزاء على أدبه ، وقال له : يا عبدي لا تخف في هذا اليوم من ذنبك فما كان ذلك في دار الدنيا إلا بقضائي وقدرى .

قال : وعند ذلك يكاد العبد يطير من الفرح والسرور حين صار الحق تعالى يعتمدر عن عبده ، ويقيم له الحجة ، فانظر يا أخى ما أحسن جزاء أدب العبد مع سيده في دار الدنيا انتهى .

وسمعه أيضاً يقول : لا يعتمدر الحق تعالى يوم القيامة إلا عن عباده الموحدين فإياك والغلط .

وكان رضى الله عنه يقول : من ندم على ذنبه واستغفر ربه منه واعترف به فقد صحت توبته لأن الله تعالى لم يقص علينا في توبة أبينا آدم عليه الصلاة والسلام إلا الاعتراف والندم فلو كان ثم أمر زائد لقصه علينا .

وقول العلماء أن من شروط التوبة الاقلاع وعزم أن لا يعود إنما أخذوه بطريق الاستنباط إذ النادم على شيء من لازمه الاقلاع وعزم أن لا يعود انتهى .

وسمعه رضى الله عنه يقول مراراً من زعم أن هبوط آدم وحوى^(١) عليهما الصلاة

يكون إلا رفيع القدر عليا ، وأما لفظ العلو والرفعة فلا يدل على خصوص النسوة إذ يوصف بهذا من ليس بنبي كما قال تعالى :
(ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون) .

يقول ابن تيمية : وقراءة الهمز قاطعه بأنه مهموز ، وما روى عن النبي ﷺ أنه قال : « أنا نبي الله ولست بنبي الله » فما رأيت له إسناداً ، لا مسنداً ولا مراسلاً ، ولا رأيت في شيء من كتب الحديث ولا السير المعروفه ، ومثل هذا لا يعتمد عليه .

ويبين رحمه الله أننا إذا اعتبرنا النبي مهموز الأصل ، فإن الهمزة يمكن أن تلين فذلك (١) يقصد سيدتنا حواء رضى الله عنها .

والسلام من الجنة كان عقوبة لها فقد افترى انما عظيم ، إنما كان والله هبوطهما لزيادة
الكرامة والتقريب وليخرج الله من ظهر آدم عليه الصلاة والسلام ، وبطن حوى الذرية
التي بها يعمر الدنيا والآخرة كما سبق في علم الله تعالى .

وليكون ثواب طاعات جميع بنيهما في صحائفهما من الأنبياء والمرسلين وصالحى المؤمنين
من غير أن ينقص من أجورهم شيء وأما أوزار بنيهما فليس عليهما منها شيء كما مر ولا
يكون الوزر إلا على من تسبب فيه بالقصد .

وقد كان الشيخ أبو مدين للمغربى رضى الله عنه يقول : لو كنت مكان أبينا آدم عليه
الصلاة والسلام ، واطلعتنى الله تعالى على ما اطلعه عليه من هدم المؤاخذة بما يقع على
يديه من صورة ذنوب بنيه لأكلت الشجرة كلها لما ترتب على أكلها من الخير والبركة فإنه
عليه الصلاة والسلام كان فاتحاً للقبضة في حق أولاده لا في حقه ولذلك لم يتكرر منه
الذنب إنما وقع مرة واحدة انتهى فليتأمل .

وكان يقول أيضاً ما وقع من آدم عليه الصلاة والسلام كان كالحتم الواجب وقوعه ،
إذ لا بد من فاتح يفتح الباب حتى لو لم يقع ما وقع من آدم عليه الصلاة والسلام لكان
وقع من غيره لا محالة .

جائز ، فتصير حرفاً معطلاً ، فيعبر عنه باللفظين ، فتد إلى القراءتين بخلاف المعتل فإنه
لا يجعل همزة ، فيجب القطع بأن النبي مأخوذ من الإنباء لا من النبوة بفتح النون
وسكون الباء .

هذا هو التحديد اللغوى لمعنى النبوة ، قد رجحنا فيه أن لفظ النبي مأخوذ من الإنباء ،
ففيه معنى الإخبار ، لكنه في عامه استعماله خاص بالأمور الغائبة المختصة دون المشاهدة
المشتركة : اللفظ من النبوة (بفتح النون وسكون الباء) وهى العلو ، فعنى النبي عندهم :
المعلّى الرفيع المنزلة والأصح أن هذا المعنى لازم لمعنى الإنباء والإخبار فإن لفظ العلو
ورفعة المنزلة قد يوصف بها من ليس نبياً فلا يدل على خصوص النبوة ولا يدل على خصوص
صفه النبي أن من كان نبياً كان رفيع الشأن عالى المنزلة ، كما قدمنا .

وكان آدم عليه الصلاة والسلام بما وقع فيه ، كالألة التي تنفذ فيها احكام القضاء والقدر
من غير أن ينقص له مقام بذلك انتهى .

وكان يقول أيضاً : إنما أهبط آدم من الجنة ليتخلق بالذل والمسكنة والحاجة التي هي
أعلي أوصاف العبيد في دار التكليف ، فإن الجنة التي كان فيها ليست بمحل لذلك وإنما
محل ذلك الأرض .

وقد بلغنا أن أبا يزيد رضى الله عنه كان يقول : رأيت ربى هز وجل في المنام .
فقلت له : يارب بم يقترب إليك للمتقربون .
فقال : بما ليس من صفى .

فقلت له : يارب وما ذلك فقال جل وعلا : الذل والانكسار وسيأتى قريباً أن هذا
من أعجب الأمور لأن القرب عادة إنما يكون بالتخلق بصفات المحبوب ومن بعد عنها
يمعد عنه انتهى .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : إنما نسب آدم الأمر القبيح إلى نفسه
بقوله : « ربنا ظلمنا أنفسنا » الآية ليعلم بنيه الأدب مع علمهم بماه العلم عليه انتهى .
وكان رضى الله عنه يقول : أيضاً قد يجرب الحق تعالى عبده بوقوعه في الزلة ليرى
العبد صدق دعواه العبودية أو كذبه فيها ليرقيه في مقامات العبودية والرضى عنه في
خصائه .

على أنه إذا كان هذا هو التحديد اللفظى واللغوى لمعنى النبوة ، فإن أغلب تحديدات
حتى النبوة تدور حول هذا ولا تزيد عنه إلا قليلا .
فإن المشهور في عرف الشرع — كما يقول الإمام الألوسى — :
(أن النبي من أوحى إليه سواء أمر بالتبليغ أم لا) .
أما صاحب شرح المقاصد على المواقف فيقول :
« إن النبوة هو كون الإنسان مبعوثاً من الحق إلى الخلق » .

كما وقع أن إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه نام ليلة عن ورده فأصبح حزينا على ذلك فعوقب بحرمان القيام سبعة أيام ، حتى كاد قلبه يتفطر من الجفا والبعد عن حضرة الله تعالى ، ثم نودى في سره يا إبراهيم كن عبداً لنا تسترح فان انماك ، ثم وأن أقتناك قم وايس لك في الوسط شيء وأنا غنى عن عبادة خلقى انتهى .

قال إبراهيم : فمن تلك الليلة ما حزنت على شيء فأتنى إلا من حيث ما فيه من . شاهدته الحق جل وعلا إذ الحق تعالى لا يجالس عبده قط إلا فيما شرعه وأمره به لا غير انتهى . وكان سيدي عبد القادر الجيلي رضى الله عنه يقول : من كمال أدب العبد مع الحق تعالى أن يشكره إذا أحجبه عن مشاهدته من باب إحسان الظن بربه ويقول لولا أن فى ذلك مصلحة لى ما حجبنى عنه .

وكان يقول أيضاً : قد يوقع الله تعالى وليه فى الزلة رحمة به إذا خاف عليه ما هو أقوى وأخفى من تلك الزلة كالعجب بعمله ، والكبر على الناس ، والادلال بعمله على الله تعالى فيتحصل له بذلك غاية التأديب ويصير يستحي من محاسبة الناس ، ويرى نفسه أحقر عباد الله تعالى انتهى

أما الإمام تقي الدين أحمد بن تيمية فيحدد لها فى معرض كلامه على النبوة يقول :

« أن النبي هو الذى ينبئ الله وهو ينبيء بما أنبأ الله به . »

أما الإمام محمد عبده فيقول : « النبوة تحدد ما ينبغى أن يلحظ فى جانب واجب الوجود من الصفات ، وما يحتاج إليه البشر كافة من ذلك ، وتشير إلى خاصتهم بما يمكن لهم أن يفضلوا به غيرهم فى مقدمات عرفانهم ، لكنها لا تحدد إلا ما فيه الكفاية العامة . »

إذا نظرنا إلى هذه التعريفات فإننا نجد أنها لم تخرج عن نطاق التحديد اللفظى للنبوة إلا قليلا ، ولم يخرج عن هذا النطاق سوى الإمام محمد عبده ، حيث تكلم عن أهدافها دون تحديد تعريف لها .

ولكن كيف يتأتى لنا أن نحدد معنى النبوة ؟

تقلت ومن هنا قال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله^(١) : معصية أورثت ذلاً وانكساراً خيراً من طاعة أورثت عزاً واستكباراً ، أى بالنظر للأثر المترتب هليهما فإن الله تعالى ما شرع التكليف إلا لبذل بها نفوس المتكبرين ويزكى بها نفوس المقربين فمن تكبر بعبادته فقد قلب الموضوع وطلب عكس الحكمة فاستحق الطرد والمقت بما يقرب غيره من النفوس الزكية فلو كان عنصر العبد طيباً لم يزد بالطاعات إلا تواضعاً فاعلم ذلك .

وكان الشيخ محي الدين رضى الله عنه يقول لو لم يكن فى وقوع أهل الله تعالى فى الزلات ألا ترك العجب والكبر اللذين يحصلان للطيعين عادة لكان فى ذلك غاية التأديب لهم ، والاعتناء بشأنهم فإن العجب والكبر هما الذنبان اللذان أخرج بهما إبليس من الحضرة .

وقال فى الباب التاسع والثلاثين من الفتوحات المكية : اعلم أن الله تعالى ما قص

إن التعريف الذى يحدد لنا معنى النبوة هو التعريف القرآنى ، وهو الذى يخرجنا من هذه الدائرة الضيقة للتعريفات السابقة .

وتبدو لنا أولى الآيات التى نحدد لنا المعنى المراد فى قوله تعالى : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً ، وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » ويقول : « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » . ويقول : « وألقيت عليك محبة منى ولنصنع على عبنى » .

(١) هو العارف بالله أحمد بن عطاء الله السكندرى : يقول عنه الشيخ أحمد زروق : هو الشيخ الإمام العالم العارف بالله المحقق الكامل أبو الفصّل تاج الدين وترجمان العارفين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء الله ، الحذامى نسباً ، المالكي مذهباً ، الاسكندرى داراً ، الفاهري مزاراً . توفى بالقاهرة سنة سبع مائة وتسع فى جمادى الآخرة ، وكان أعجوبة زمانه فى التصوف وغيره كما قيل :
حلف الزمان آياتين بمنله حنث يمينك يا زمان فكفر

ويذكر الشيخ زروق من مؤلفاته :

(التتوير فى إسقاط التدبير) (لطائف المنن) (تاج العروس) (مفتاح الفلاح)
(القول المجرد فى الإسم المفرد) .

علينا ما قص من خطيئة ايبنا آدم الصورية وما اتيتني على ذلك من التوبة والاجنباء إلا لنظن بالله خيراً إذا زل أحدنا زلة ، ونزل عن مكانه العلى الذى كان يشهد في نفسه من استشعار القرب من حضرة الله والانس به وأن تلك الزلة لا تقضى بشقائنا الأبدى ولا بدبل يجب علينا أن نظن بربنا الخير أن هبوطنا عن مقامنا الظاهر بين الناس ، كهبوط ايبنا آدم من الجنة على حد سواء من حيث ترقينا بالذل والانكسار في مقامات العبودية ان شاء الله تعالى فإنه ما ثم قرب إلى حضرة الحق جل وعلا إلا بكثرة الذل ، والافتقار ، والانكسار سواء كان ذلك في العلويات أو في السفليات إذا الحق تعالى لا يتميز والقرب منه قرب بالقلوب لا غير .

قال في موضع آخر : وهذا من أعجب الأشياء أن يكون القرب من المحبوب بالتخلق بضد صفاته كالذلة والافتقار وبعده عن حضرته بالتخلق بصفاته كالكبرياء والعلوية ، وأطال في ذلك .

نم قال : نعمين هبوط الولي منا عند الزلة ، وما يقوم به من الذلة ، والحياء والخجل هو عين ترقيه إلى أعلى مما كان فيه ، لأنه استفاد من وقوعه في تلك الزلة علما آخر بالله لم يكن عنده قبل ذلك ، وعرف مقدار الوصل الذي كان فيه ، ومقدار الأنس الذي كان يجده في قلبه من الطاعات كما قالوا : من سبقت له العناية لم تضره الجناية انتهى .

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله يقول : ما سخط الله تعالى ابليس على عباده المقربين ، إلا ليردهم إلى حضرته إذا شردت قلوبهم منها ففرغهم تعالى إلى حضرته بعين

تدلنا هذه الآيات على أن الله يصطفى الأنبياء ويمجتيهم لنفسه ، ويرسم حياتهم قبل ميلادهم ؛ فيختار لهم النسب الشريف الذي يميزهم عن غيرهم ويضعهم على عينه .
يقول رسول الله ﷺ : « ابن الله اصطفى من ولد إبراهيم ، إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل ، نوح كنانة ؛ واصطفى من نوح كنانة قريشا . واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفاني من بنى هاشم » . رواه مسلم .

ما طرد به أهل شقوته ، وإذا حقت على عبد كلمة الشقاء فما حسناته إلا ذنوب لحبوطها بالكفر بخلاف من سبقت له السعادة ، فإنه كالزراع الذي يميله الريح يميناً وشمالاً ، وأصله ثابت في الأرضي فلا يخلد في النار موحد الله تعالى وأطال في ذلك .

ثم قال : هذا حكم زلات أهل الله الذين سبقت لهم منه السعادة والحسن .
وأما من فقد الذل والانكسار والتوبة النصوح على الفور وبقي على الإصرار فليس هو من أهل هذا المقام .

قال ونحن إنما نتكلم على زلات أهل الله تعالى إذا وقعت منهم .
أما زلات غيرهم فهم إخوان الشياطين لا يزدادون بالزلات إلا طرداً وبعداً انتهى .
وقال في الفتوحات في موضع آخر ، ربما ظن بعض الأولياء أنه نزل عن مقامه العلى بالزلة التي وقع فيها والحال أنه ترقى بها مقام لم يكن ذاقه ، لأن علو مقام الولي إنما هو بزيادة المعرفة والحال وقد زاد من العلم بالله بالذلة والانكسار ما لم تكن عنده قبل ذلك .
قال : وإنما أخفى الله تعالى عن بعض الأولياء شهود ترقيه بالذلة والانكسار الخاصين بالذنب ، لئلا يجترى أحدهم بعد ذلك على المعاصي ، ولا يصير يندم على فعلها فيهلك مع الهالكين .

وليس هناك دليل على ما ذكرنا من قبل أكثر من قول الله سبحانه وتعالى عن سيدنا عيسى عليه السلام قبل أن يولد : « وإذا قالت الملائكة : يا مريم إن الله يختارك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين » .

« ولنجعل له آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً » .

ولعل مما يشرح الآيات السابقة بتفصيل أوسع ذلك الحديث الذي ذكره الإمام البخاري عن كيفية استدلال هرقل على صدق رسول الله ﷺ وفيه ركز هرقل تركيزاً كبيراً على حياة الرسول ﷺ قبل البعثة ويرجع إلى الحديث في أول الباب الأول عند تحدثه عن النصوص التي توجز صفات الرسول ﷺ .

لذلك كان الحق تعالى يجلس وليه في مقام الندم والتطبعة حتى يكاد ينوب جسمه
وغله كما وقع لآدم عليه الصلاة والسلام ظاهراً من كثرة بكائه وندمه ، ومن نظائر
الخلل والتاج من هلي رأسه والنداء عليه ، بأنه لا يجاورني من عصاني .

كل ذلك كان منه عليه الصلاة والسلام صورياً أو حقيقةً وحمل ذلك كله عن بنيه فتوة
منه عليهم فكانت تلك الدموع الكثيرة في صورة دموع جميع بنيه الذين يقعون في
الآلات إلى يوم القيامة ، فكان كثرة نك الدموع ، وذلك البكاء ، وشدة ذلك الندم
حكمة صورة حال بنيه إذا وقعوا في الزلة كما مر تقريره مراراً انتهى .

فإن قيل : قد ورد في الأثر أن آدم عليه الصلاة والسلام لما أكل من الشجرة أسود
جسده كله ولو أن المعصية كانت صورية لم يسود جسده .

فالجواب : أنا نقول : أن أسوداد جسده أيضاً كان صورياً أيضاً لينزجر بنوه عن
الوقوع في معاصي ربهم ويحتمل أن يكون أسود جسده عليه الصلاة والسلام حقيقةً
ويكون علامة على سيادته بأكله من الشجرة إذا رجع إلى الجنة التي خرج منها حيث أنها
لم يكن محل خلافته ، كما قالوا في الحجر الأسود فإنه خرج من الجنة وهو أشد بياضاً من
الابن فسودته خطايا بني آدم فإن بعض العارفين .

قال : معنى قوله فسودته خطايا بني آدم أي جعلته سيداً بالتقبيل له .

وكان أدل شيء على سيادته إذا رجع إلى الجنة لون السواد فكساه الله اللون الأسود

ثم نأتى للجزء الثاني من المنهج القرآني لتحديد النبوة وهو حالة تلقى الوحي . فبعد
أن يصطفى الله رسله ويربهم ويعني بهم العناية الكاملة يفاجئهم بتلقى الوحي .
يقول الدكتور عبد الحليم محمود في كتابه (التوحيد الخالص) عن مرحلة بدء
الوحي . وهو في هذه النقطة يسير معنا في دائرة الإنجاء القرآني — يقول : فإذا
أصبحت نفوسهم — أي الأنبياء — بتربية الله وعنايته أهلاً للتلقى ، فاجأها الوحي وهي
سائرة ، في الوادي المقدس وفي البقعة المباركة .

(وهل أتاك حديث موسى) ؟

لتعلم أهل الجنة أنه سود بهذا اللون ، وبذلك الخروج فكما زاد مقامه بالسواد عما كان عليه في الجنة .

فكذلك القول في سواد جسد آدم عليه الصلاة والسلام .

ثم إن ذلك السواد زال عن آدم عليه الصلاة والسلام بصيام الثلاثة أيام البيض كما ورد كان بمثابة نزع من خلع عليه الملك خلعة السيادة بعد أن طاف على الناس بها حتى علموا كلهم بها .

فعلم من جميع ما قررناه أن هبوط آدم عليه الصلاة والسلام كان هبوط خلافة وسيادة وتقريب لا هبوط بعد وقطعية ، بخلاف إبليس كان هبوطه هبوط طرد ومقت وخذلان واكتساب أوزار ، لأن جميع معاصي الجن وبني آدم في صحيفته من شرك وكفر ونفاق وغير ذلك .

ومعلوم أن الجنة التي كان فيها مع آدم ليست بدار شرك وكفر ولم تكن معصيته حصرية كما وقع لآدم عليه الصلاة والسلام إنما كانت حقيقية لشدة ظلمة قلبه وغلظ حجابيه واندكخلد في النار .

ولو أن قلبه كان مستنيراً لما وقع في الافتخار والمعصية الحقيقية ، ولكن سعد كما سعد آدم عليه الصلاة والسلام .

وقد اختلف العلماء في إبليس هل يصح أن يسلم والجمهور على عدم وقوع إسلامه ووافقهم أهل الكشف كلهم على ذلك ، إذ لو صح إسلامه في دار التكليف لتعطلت

« إذ رأى نارا فقال لأهله » :

« امكنوا إني آنست نارا لعل آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ، فلما أتاها نودى ياموسى : إني أنا ربك فاخلع نعليك ، إنك بالوادي للقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ، إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكري ، إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى . »

قضيه أهل الشقاء ولم يبق لهم من يوسوس لهم بالمعاصي إذ لا يعصى أحد إلا بواسطته »
فهو الذى يسن الكفر والشرك فى الأرض .
ولو أنه يصح منه إسلام لما دخل النار أبداً .

وقد جاءت النصوص القطعية بدخوله النار ، وأنه يخطب فيها لاتباعه ويتبرأ منهم
ويقيم الحجة عليهم ، لكن لا ينفعه ذلك التبرى لأنه لم يكن فى دار التكليف فافهم .
كما لا ينفع قوله للكافر إذا وسوس له بالكفر : إني برىء منك إني أخاف الله رب
العالمين لأنه خوف نفاق ، فإنه ما وسوس لأحد بالكفر أو الشرك ، حتى يصوره فى
نفسه ذوقاً على الصورة التى إذا حصلت فى نفس المشرك مثلاً ، زالت عنه صورة التوحيد
فإذا تصورهما فى نفسه على هذه الصورة ، فقد خرج عن التوحيد ضرورة وحصل له
بذلك الشقاء الأبدى والا فغاية امتناعه من السجود لآدم عليه الصلاة والسلام ، أنه
عصى أمر الله تعالى وعصيان الأمر مرة واحدة لا تقتضى الخلود الأبدى فى النار وماخلد
فى النار إلا بالشرك .

وكان سيدي على الخواص رحمه الله يقول لو صح توحيد إبليس بقوله : إني أخاف
الله رب العالمين لذهبت صفة الشرك فى العالم ولما وجد المشرك من يحدثه بذلك فى قلبه
لا تقطاع من يمد المشرك بصفة الشرك .

فعلم أن إبليس مشرك بلا شك ولا ريب ، وهو أول من أشرك بالله ، وأول من سن
الشرك فى الأرض ، وهو أشقى العالمين انتهى .

فلما قضى موسى الأجل ، وسار بأهله : آانس من جانب الطور نارا ، قال لأهله امكثوا
إني آنست نارا ، لعلى آنيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ، فلما آتاهانودى
من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ، أن ياموسى ، إني أنا الله
رب العالمين .

ويفاجئ الرسول ﷺ الوحى وهو فى الغار :

وممته كثيرًا يقول لأصحابه أياكم أن تقرؤا أحدًا من أهل الشطح على جوابه عن ابليس نظير ما أجبتنا به عن آدم عليه الصلاة والسلام ، لأنه لعنه الله قد أصر على ذنبه ولم يستغفر منه ، ولم يتب ، ثم لو قدر أنه ندم وبكى لما تقبل منه ذلك لأنه نفاق كما قررناه مرارًا انتهى .

وهذا يقع فيه كثير ممن لم يتقيد بالكتاب والسنة ، ولم يسلك على يد شيخ ، وقد جادلني مرة شخص في شأن ابليس ، وأورد على قوله ﷺ ، إذا سجد ابن آدم اعتزل الشيطان يبكي وقال : يا ويلى أمر ابن آدم بالسجود فسجد ، فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلى النار انتهى .

وقال قوله : يا ويلى ندم منه والندم توبة كما ورد .

فقلت له : لو صح له الندم حقيقه لصارت قبضة الشقا سعيدة ولم يدخل أحد النار وقد وهب الله تعالى بأنه يملأوها من الجنة والناس أجمعين ، فسكت ، ولم يدر ما يقول .

وقد ضبط جمهور المحدثين قوله ﷺ ولكن أعانى الله عليه فأسلم بضم الميم أى سلمنى الله من وسوسته مع بقائه مع الكفر ، وبتقدير أن شيطانه أسلم وتوحد فذلك من

وعندنا في الإسلام الوثيقة الوحيدة في العالم كله عن كيفية بدء الوحي ، وهى وثيقة تحمل في طياتها كثيرا من المعاني الخاصة بالنبوة ، وبصفات الرسول ﷺ ، وهى تشير بصراحة ويسر وسهولة إلى كثير من الآيات الدالة على صدق رسول الله ﷺ وخاتم النبيين :

وهذه الوثيقة رويت بشئ للطرق ومختلف الأسانيد ، والقرآن يشير إلى الحالة التى تذكرها بصراحة لا لبس فيها : يقول سبحانه : وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين » .

والوثيقة التى يحدثنا عنها كنا بنا (التوحيد الخالص) وردت في صحيح البخارى : عن السيدة عائشة رضوان الله عليها أنها قالت : أول ما بدى به رسول الله ﷺ ، من الوحي .

بخصائصه ﷺ علي أن كلامنا في القرين ليس هو في حق الشيطان الأكبر صاحب المرتبة
باجتماع وقد اجتمع بي شخص آخر من أهل الشطح .

فقل لي أن قول إبليس : « إني أخاف الله رب العالمين » يقتضي جمعه بين الشرك
والتوحيد ، فهو يوسوس بالشرك للناس لتنفيذ قضاء الله تعالى في عبادته ، وهو في نفسه
يعلم ويتحقق أن الله تعالى واحد لا شريك له .

فقلت : في هذا جمع بين الضدين ، وهو محال ، فإنه إذا وجد الشرك خرج التوحيد
وبالعكس ، فلا يجتمع توحيد وشرك في قلب أبداً ولذلك كان الكفار لا يوزن لهم
أعمال يوم القيامة ، ولو قالوا لا إله إلا الله في دار الدنيا لأنهم لم يقرولونها عن إيمان ، ولا
قالوها لقول الشارع لهم قولوا : « لا إله إلا الله » .

فعلم أن إبليس لعنه الله مشرك بالله ظاهراً وباطناً انتهى .

وكذلك دخل علي مرة شخص من أهل الشطح وله تلامذة ومعتقدون فقال : من أين
أخذتم الدليل على شقاء إبليس مع قوله « إني أخاف الله رب العالمين » ^(١) ؟

الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حجب إليه
الحلاء ، وكان يحلو بغار حراء ، فيتحنث فيه : وهو التعبذ الليالي ذوات العدد قبل أن
ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في
غار حراء فجاء الملك فقال : اقرأ قال : ما أنا بقارىء .

قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ .

قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، فقال : اقرأ .

فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني ، فقال : « اقرأ باسم ربك
الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم » .

فرجع بها رسول الله ﷺ ، يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله
عنهما ، فقال : زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر :

(١) وتام الآية : (فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين)

صورة الحشر آية : ١٦ .

فقلت له : أخذناه من قوله تعالى « فكبكبوا فيها هم والغاؤون وجنود إبليس أجمعين ^(١) » فقال : ليس في هذا دليل له وإنما ذلك لجنوده فقامت له : أولا رضاه بالكفر ما كانوا جنوده والرضى بالكفر كفر انتهى .

وقد بلغنا أن إبليس اجتمع بسهل بن عبد الله التستري رضى الله عنه وحصل بينهما مناظرة من بعد صلاة الصبح ، إلى أن تعالى النهار ، وكان من آخر ما قل : يا سهل الله تعالى يقول : « ورحمى وسعت كل شيء ^(٢) » وأنا شيء بلا شك فبأى دليل يقولون إن رحمته لا تناولنى قال سهل : ففصصت بربقى ولم أدره له جوابا وصرت أردد الآية مرارا وولى عنى بعيدا بظهره ثم اننى رأيت الحق تعالى قد أخرجه بقوله تعالى : « فساأ كتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ^(٣) » إلى آخر النسق فنادية : تعال خذ جوابك فالتفت إلى

« لقد خشيت على نفسى » .

فقالت خديجة : كلا ، والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى — ابن عم خديجة — وكان امرؤ قد تنصرف فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية إلى ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمى .

فقالت له خديجة : يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك :

فقال له ورقة : يا ابن أخى ، ماذا ترى ؟

فأخبره رسول الله ﷺ ، خبر ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس ، الذى أنزل على موسى ، يا ليتنى فيها جذعا ، ليتنى أكون

حيا إذ يخرجك قومك ؟ قال أوخرجنى هم

(٢) سورة الشعراء آية : ٩٥ .

(٣) وتام الآية : (قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمى وسعت كل شيء) سورة

الأعراف آية : ١٥٦ .

(٤) سورة الأعراف آية : ١٥٦ .

متبسماً وقال : لعلك تقول انه تعالى قيدها بالكتابة للذين يتقون ويؤتون الزكاة إلى آخرها .

فقلت له : نعم : فقال : التقييد صفتك لصفة الحق جل وعلا فانه يفعل ما يشاء ثم قال : يسهل لبتك سكت فإنك اظهرت لى جهلك وما كنت اظن أنه يبلغ بك الجهل إلى هذا الحد مع شهرتك العظيمة بالعلم والصلاح ولم أرد له جواباً غير ذلك .

ثم قال لى : يسهل اللعن فى لسانكم مامعناه .

فقلت له : هو الطرد عن حضرة الله عز وجل .

فقال : من كان لا ينجرك إلا أن حركته القدرة الآلهية فكيف طرده .

قال : فقلت له : أنت مطرود عن حضرة الأمر إلى حضرة الإرادة المجردة عن امتثال الأمر ، وتلك لا تقتضى السعادة وإنما تقتضى الشقاء .

فقال : أما تقرأ القرآن .

فقلت : بلى .

قال : نعم لم يات رجل قط بما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحي .

هذا هو المنهج القرآنى لتعريف النبوة ولما أن نوحى فنقول النبوة سفارة بين الله وخلقه يقصد بها صلاح أمرهم ، وهبة من الله سبحانه وتعالى يمنحها لمن يصطيفهم من عباده بعد أن يربهم التربية الصحيحة التى بها يكونون مؤهلين لتلقى الوحي من الله سبحانه وتعالى فى أى وقت .

ملاح النبوة فى رأى الامام الغزالى : يقول : فإن وقع لك شك فى شخص معين : أنه نبي أم لا ؟ فلا يحصل لليقين إلا بمعرفة أحواله : إما بالمشاهدة ، أو بالتواتر ، وللتسامع .

فإنك إذا عرفت الطب والفقہ ، بمسكنك أن تعرف الفقهاء والأطباء بمشاهدة أحوالهم ، وسماع أقوالهم وإن لم تشاهدهم .

فقال : أما قال لي تعالى : « اجلب عليهم بخيلك ورجلك ^(١) » وهذا أمر بيقين
وما وسعني إلا امتثال أمره .

قال : سهل : فقلت له : إنما كان ذلك القول لك من الحق جواباً لإقسامك عليه
بجزته تعالى لأغوينهم أجمعين ولم يكن ذلك ابتداء أمر منه سبحانه وتعالى ، فإنه تعالى
لا يأمر بالفحشاء ، فكان شقاؤك بطلب الغواية للعباد فرد شؤم ذلك عليك كما هو جزاء كل
عن بطلب السوء للعباد ، فلا يصلح أن يكون ذلك حجة لك .

ثم قال لي : يا سهل كيف تزعمون أنكم أكثر مراقبة لله تعالى مني وأكثر إخلاصاً
ولأن أهل بلد أخدم قاموا عليه بالتكبر ورموه بالعظائم بين المحبين وللعقدين لتكدر
ولم يكتف بعلم الله فيه وأنا جميع الوجود يلعنني ويخزيني ليلا ونهاراً ولا يتغير مني شعرة
اكتفاء بعلم الله تعالى في .

قال سهل فقلت له ليس يكدر أحدنا على ربه بالعظائم لمراعاتنا الخلق دون الحق
تعالى من حيث حظوظ نفوسنا وإنما ذلك لانداعاة إلى الله تعالى ومن هنا أجابت الأنبياء

ولا تعجز أيضاً عن معرفة كون « الشافعي » رحمه الله — فقيهاً ، وكون « جالينوس »
طبيباً ، معرفة بالحقيقة ، لا بالتقليد عن الغير ، بل بأن تتعلم شيئاً من الفقه والطب ، وتطالع
كتبهما وتصانيفهما ، فيحصل لك علم ضروري بحالهما .

فكذلك إذا فهمت معنى النبوة ، فأكثر النظر في القرآن ، والأخبار ، يحصل لك
العلم الضروري ، بكونه ﷺ ، على أعلى درجات النبوة وأعضد ذلك بتجربة ما قاله في
العبادات وتأثيرها في تصفية القلوب ، وكيف صدق في قوله .

(من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم) ؟

وكيف صدق في قوله : (من أمان ظالمًا سلطه الله عليه) ؟

وكيف صدق في قوله : من أصبح وهمومه هم واحد (هو التقوى) كفاء الله تعالى
هموم الدنيا والآخرة) .

(١) سورة الإسراء آية : ٦٤ .

عليهم الصلاة والسلام عن أنفسهم لأن كل رسول يطلب براعة صاحته عند قومه ليقبلوا ما جاء به ، وكذلك الحكم في كل داع إلى الله تعالى يأمر الناس بالخير محبة في طاعة الله تعالى وهروباً من معصيته ولو أنه أظهر الرضى بالتجريح أو مسكت عليه بمحضرة اتباعه لربما ظنوا فيه السوء فعدموا النفع به وعدم النفع بهم بخلافك أنت ، فإنك رأس قبضة الشقاء ليس لك قدم في محبة الله ولا محبة أهل طاعته فسكت ابليس .

ثم قال : يسهل كيف تزعمون انكم انصار نبيكم وحملة شريعته وأنتم ليلاً ونهاراً تسعون في تكذيبه ؟ .

فقلت له : كيف معينا في تكذيبه ؟ .

فقال : قد أخبر نبيكم أنه لا تقوم الساعة حتى يكفر الزنا والربا وترك الصلاة ومنع الزكاة ويترك الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك فأنا أوسوس لهم بفعلها وأزين لهم الوقوع فيها ليصدق نبيكم فيما أخبركم وجميع علمائكم يقولون للناس كلهم لا تقعوا في شيء من ذلك ومن لازم ذلك تكذيب نبيكم ولوانه لم يبق للساعة إلا يوم واحد لمنعم الناس من الوقوع فيما أخبر نبيكم بوقوعه وان كان في ذلك تحقيق ما وعد الحق به .

قال سهل : فقلت له : قد يتعبدنا الله تعالى بحث الناس إلى امتثال أمره ولم يتعبدنا بحثهم على وقوع معصيته ، وان كان في ذلك تحقيق ما وعد الحق به وكما ان الله تعالى

فإذا جربت ذلك في ألف ، وألفين ، وآلاف - حصل لك علم ضروري لا تتارى فيه . فمن هذا الطريق : اطلب اليقين بالنبوة ، لامن قلب العصاة تعباناً ، وشق القمر ، فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده ، ولم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر - ربما ظننت أنه سحر أو تخيل ، وأنه من الله إضلال ، فإنه تعالى :
(يضل من يشاء ، ويهدي من يشاء) .

وترد عليك أسئلة المعجزات ، فإن كان مستنداً إيمانك إلى كلام منظوم في وجه دلالة المعجزة ، فينجزم إيمانك بكلام مرتب في وجوه الأشكال والشبه عليها .

لا يأمر بالفحشاء ، فكذلك كل من هو تحت طاعته لا يأمر بالفحشاء من سائر الدعاة ، وما يأمر بها إلا من أشقاه الله من انبعاك فانت ولو قصدت ايقاع العباد في المعاصي ، لا يصح لك نصره محمد ﷺ فأنت شقي ولولزم من وسوستك لهم بالمعاصي تصديق رسول الله ﷺ والاجر والثواب والرضى من الله تعالى داير مع صحة القصد لاعم اللازم .

فإن لازم للمذهب ليس بمذهب عند جمهور العلماء ولذلك لم يقل أحد بأشقاء الدعاة إلى الله تعالى حيث كانوا سببا لعصيان العباد وعقوبتهم في الدنيا والآخرة كما قال الله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »^(١) ، فأخبرانه لولا إرسال الرسل ما عذب أحداً وكلاهما لا يواحد الله تعالى الدعاة إلى شرعه باللائم كذلك ، لا يرضى عنك باللائم . فقال : قطعني بالحجة ثم انصرف انتهى كلام سهل رضى الله عنه .

فياك يا أخى من أن تصفى إلى وسوسة إبليس فإن كلاله كاه غرور ومكر بالعبد واستدراج ، وربما استدراج العبد حتى صار يقيم العذر لابليس ، ويحجب عنه فيستوجب النار بذلك وقد علمت من جميع ما قررناه أنه لا يمكن رفع المعاصي من الأرض إذ لورفت لتعطل كثير من حضرات الأسماء الإلهية ، وذلك لا يصح فإن تعالى سمي نفسه المعز والمذل ، ولا عز إلا بالطاهر ، ولا ذل إلا بالمعصية ، وإن زلات غير أهل الله تعالى لا تزيدهم إلا طرداً ومقنا لكونهم يأتونها بحسب الغفلة والطبع والميل والشهوة بخلاف زلات أهل الله تعالى إذا وقعت فربما يكشف لأحدهم عن تقديرها عليه فيذوب عظمه

فليكن مثل الخوارق ، وإحدى الدلائل والقرائن في محجة نظرك ، حتى يحصل لك علم ضرورى لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين كالذى يخبره جماعة بحج متواتر : لا يمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين ، بل من حيث لا يدرك . ولا يخرج عن محجة ذلك ، ولا بتعيين الآحاد . فهذا هو الايمان القوى العملى .

وأما الذوق ، فهو كالمشاهدة ، والأخذ باليد . ولا يوجد إلا في طريق الصوفية . فهذا القدر — من حقيقة النبوة — كاف في الفرض الذى أقصده الآن .

(١) سورة الإسراء آية : ١٠ .

وجسمه من هيبة الله عز وجل هروبا من مواطن مسخطة فيصير يسأل الله تعالى في التخفيف عنه وفي كلامهم ليس من يأتي المعاصي وهو يبكي كمن يأتها وهو يضحك .

وكان على الخواص رحمه الله يقول : لو كشف لولى عن تقديره مفضيته على تلميذه ، لا يجوز له ان يقول له افعلها بل يجب عليه الصبر وسؤال الافالة ومحو تلك المعصية فإن الولى ولو بلغ الغاية فى الولاية لا يعرف ما فى علم الحق تعالى وغاية رصوله إلى اللوح المحفوظ ، وذلك معدود من عالم الشهادة لا من علم الغيب المشار اليه بقوله تعالى : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو » (١) .

قال وقد يكون ذلك اللوح الذى طمح بصر ذلك الولى إليه من تمثيل إبليس له فإن الله تعالى قد جعل له قوة التخيل فيخيل للولى سماء وكرسيا وعرشا وغما بحسب ما يرى قلبه يستمد منه فان أيد الله تعالى ذلك الولى بالتأييد الآلى أعطاه التمييز بين السما الحقيقية أو الكرسى الحقيقى مثلا ، وبين السما المتخيلة والكرسى المتخيل فيرجع إبليس خائبا والافتنه وأهله فقد يكون ما كشف لذلك الولى فى اللوح المحفوظ من

أما ابن خلدون ورأيه فى النبوة : فيقول : أعلم أن الله سبحانه ، اصطفى من البشر أشخاصا فضلهم بخطابه وفطرهم على معرفته ، وجعلهم وسائل بينه وبين عباده : يعرفونهم بمصالحهم ، ويحرضونهم على هدايتهم ، ويأخذون بحجزاتهم عن النار ، ويدلونهم على طريق النجاة .

وكان — فيما يلقبه إليهم من المعارف ويظهره على ألسنتهم من الخوارق والأخبار الكائنات المغيبة عن البشر التى لا سبيل إلى معرفتها الا من الله بوساطتهم ، ولا يعلمونها الا بتعليم الله إياهم . . قال ﷺ :

« ألا وانى لأعلم الا ما علمنى الله » .

واعلم أن خبرهم فى ذلك ، من خاصيته وضرورته الصدق ، لما يتبين لك عند بيان حقيقة النبوة .

(١) سورة الأنعام آية : ٥٩

معصية تلميذه متخيلاً لاحقيقة له ومن هنا حرمت على الولي المبادرة إلى فعل ما كشف له من المعاصي وكل من أمر تلميذه بفعل ما كشف له فهو () (١) من اتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام لأن الرسل مشخلقون باخلاق الله تعالى فافهم .

وكان الشيخ محي الدين رحمة الله يقول : كما أنه تعالى لم يأمر بالفحشاء كذلك لا يريدها ، فيقال قضاها وقدرها ولا يقال أرادها ، بيان كونه لا يريدها ، ان كونها فاحشة ما هو عينها ، وإنما هو حكم الله تعالى فيها وحكم الله في الأشياء غير مخلوق كما هو القول في القرآن العظيم فتدرجه الارادة لا يكون إلا على غير المعصية لا على وصفها بالتحريم الذي هو حكم الله ، فإن ذلك قديم لم بجر عليه الخلق ومالم بجر عليه الخلق لا يكون مراداً للحق تعالى .

قال : فان الزمنا بذلك في جانب الطاعات التزمناه ، وقلنا : الارادة للطاعة ثبتت سمماً لا اعتلا فثبتوها في الفحشاء ونحن قبلناها ايماناً كما قبلنا وزن الأعمال مع كونها مراضاً فلا يقدر ذلك فيما ذهبنا إليه لما اقتضاه الدليل انتهى

وعلاوة هذا الصنف من البشر : أن توجد لهم - في حال الوحي - غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيظ كأنها غشى أو إغماء في رأى العين ، وليست منهما في شيء ، وإنما هي - في الحقيقة - استغراق في لقاء الملك الروحاني ، بإدراكهم المناسب لهم ، الخارج عن مدارك البشر بالكلية ، ثم ينزل إلى المدارك البشرية ، إما بسماع دوى من الكلام فيتفهمه أو يتمثل له صورة شخص يخاطبه بما جاء به من عند الله .

ثم تنجلي عنه تلك الحال ، وقد وعى ما ألقى عليه .

قال ﷺ ، وقد سئل عن الوحي :

« أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علي ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعني ما يقول » .

ويدركه أثناء ذلك من الشدة والغيط ما لا يعبر عنه .

(١) كلمة مطموسة في الأصل .

وهو أمر دقيق فليتأمل ، وقد تلخص ماقررناه انه يجب على العبد ، ولو شهد الله لا يتحرك إلا ان حرك ، ولا يفعل إلا ما قدره الله تعالى عليه قبل أن يخلق أن يتوب من كل مخالفة ويقوم بما كلف ، ولا يخرج بالإرادة المجردة عن امتثال الأمر فإنها حجة إبليس وإن من لم يتب طبع الله على قلبه فلا يزداد بالمعاصي إلا مقتاً ، ويكون تطهيره يوم القيامة أن لم يعف الحق تعالى عنه بالنار ، كما أن تطهير التائب في هذه الدار بالتوبة والاستغفار والحمد لله رب العالمين .

ومما أجيب به عن السيد يوسف عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى : « ولقد همت به وهم بها »^(١) ، أى همت به لتقريره على فعل ما تريده منه ، وهم بها ايقمها بالدفع عنه بشدة وعنف فكان البرهان له من ربه أن الحق تعالى قال له . في سر : ادفعها برفق ولطف فإنها امرأة ضعيفة الحال على كل حال لا تحمل شدة عزمك ، وقوة بطشك بها فهناك ساسها عليه الصلاة والسلام برفق ولطف وعذرها في شدة شغفها بذلك الجمال العظيم ، فاهم منها ومنه لفظ مشترك والقصد مختلف ، فعلم أنه لا يجوز أن يقال الأنبياء هليهم الصلاة والسلام غير معصومين من الهم بالمعاصي كما وقع فيه بعضهم ، فإنهم معصومون من شهوة الميل فضلا عن وقوع الميل .

وإذا كان سليمان الديلمي الذي هو من آحاد أولياء هذه الأمة يقول لى : منذ خمسين

ففي الحديث :

« كان مما يعالج من التنزيل شدة » .

وقالت عائشة :

كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد للبرد ، فيفصم عنه وإن جبينه لينفصد عرقاً وقال

تعالى : « إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً » .

(١) سورة يوسف آية : ٢٤

وتمامها « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء

والفحشاء إنه من عبادنا المخاصين » .

حسنة ما خطر لي خاطر مكروه فضلا عن الحرام فكيف يكمل الرسل عليهم الصلاة والسلام .
وكذلك بلغنا عن الإمام الليث بن سعد رضي الله عنه أنه كان يقول : من منذ وعيت
هلي نفسي وأنا دون البلوغ ما خطر في بالي معصية لله قط انتهى .

وكذلك بلغنا من أبي سليمان الداراني أنه كان يقول ما أتذكر انني فعلت شيئا
تستحي منه طول عمري سوى قربى من أهلي انتهى والحمد لله رب العالمين .

وبما أجيب به عن داود عليه الصلاة والسلام في خطبته المشهورة في نحو حديث
كانت خطيئة أخى داود النظر أن المراد به أنه رفع بصره مرة إلى السماء غافلا عن الاعتبار
بغير قصد لأن الاكابر من الأولياء ، إذا كانوا يواخذون بكل حركة أو سكون وقعت
مع غفلة عن الله تعالى فكيف يكمل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكان أحمد بن رزين
يقول : من رفع بصره إلى شيء بغير نية الاعتبار كتبت عليه خطيئة .

وسمعت سيدي شيخ الإسلام زكريا يقول : رفع عمر بن عبد العزيز ليلته بصره إلى
السماء فحصل في قلبه قساوة فشكى ذلك لأمه رضي الله عنها .

فقلت : لعلك يا ولدي نظرت إليها على غير وجه الاعتبار والحضور مع الله تعالى ،
فإن الله تعالى إذا اعتنى بعبد أخذه بكل حركة أو سكون لم تقع عن حضور أو
اعتبار انتهى .

ولأجل هذه الحالة في تنزل الوحي ، كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنون ، ويقولون
« رثي » ، أو تابع من الجن .

وإنما لبس عليهم بما شاهدوه من مظاهر تلك الأحوال :
« ومن يضل الله فإله من هاد » .

ومن علاماتهم أيضاً : أنه يوجد لهم — قبل الوحي — خلق الخير والزكاة ، ومجانبة
المذمومات والرجس أجمع .

هذا هو معنى العصمة ، وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها . وكأنها
حقيقة جبلته .

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول : قد أطلق عليه السلام النظر في الحديث « فيحمل على ما يليق بمقام الأنبياء ولا يجوز حمله على ما يليق بمقام غيرهم فلما رأينا الحق تعالى اخذ الأولياء برفع البصر مع خضعة حملنا خطيئة داود عليه الصلاة والسلام على ذلك .

ولذلك ورد في الحديث أنه لم يرفع طرفه إلى السماء بعد أن هوتب على ذلك حتى مات حياء من الله تعالى أن يرفع بصره إلى قبلة الدوا إلا ، فهو عليه الصلاة والسلام يعلم أن الحق تعالى لا يتعيز لـكن خض الطرف مطلوب من العبيد بين يدي ربهم عز وجل ، وقد تبع الشرع العرف في كثير من الأحكام .

قال : ولم يبلغنا في حديث صحيح ولا ضعيف إن المراد بخطيئته النظر المذكورة في الحديث نظره إلى امرأة أوريا حين سافر إلى بعض الغزوات ، لأن الأنبياء معصومون عن النظر إلى ما لا يحل وإنما جاء ذلك في بعض نسخ الزبور التي حرقها اليهود لعنهم الله تعالى ، قصدوا بذلك استحلال اعراض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وكانوا قد مادوا داود عليه الصلاة والسلام لما تلى عليهم صفة محمد صلى الله عليه وسلم التي أنزلها الله في الزبور وأن كتاب محمد ينزل ناسخا للكتب التي قبله .

وكان الشيخ محي الدين العربي رضي الله عنه يقول : لا يجوز لو اعظ أن يتكلم على

وفي الصحيح : أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة ، فجعلها في إمزارة فأنكشف فسقط مغشياً عليه حتى استقر بإزاره . ودعى إلى مجتمع ولية فيها عرس ولعب فأصابه غشي النوم إلى أن طلعت الشمس ، ولم يحضر شيئاً من شأنهم ، بل نزهه الله عن ذلك كله حتى إنه — بجبلته — يتنزه عن المطعومات المستكرهة . فقد كان صلى الله عليه وسلم لا يقرب البصل والثوم ، فقبل له في ذلك ، فقال : « إني أناجي من لاتناجون » . وانظر لما أخبره النبي صلى الله عليه وسلم خديجة رضي الله عنها بحال الوحي أول ما جاء وأراد اختباره .

فقلت : اجعلني بينك وبين نوبك ؟

رهوس الاشهاد ، بما حرفة اليهود على داود عليه الصلاة والسلام ، فإن ذلك يفتح باب الاستهانة بالأنبياء وتجريء العامة على الوقوع في النظر إلى ما لا يحل لهم ويقولون : إذا كان داود وهو نبي ، فأين نحن حتى نقدر على منع نفوسنا من النظر .

قال : ولم يأت لنا تفسير الخطيئة بالنظر إلى ما لا يحل في كتاب ولا سنة ولا عن أحد من علماء الصحابة والتابعين ، وإنما ذلك من تحريف اليهود كما مر انتهى .

فكان بكاؤه عليه الصلاة والسلام حتى نبت العشب من دموعه إنما هو لكونه رفع بصره إلى السما قبل تحرير نية صالحة وباليات شرى أى فائدة فيمن يخوض في عرض الأنبياء بغير حق ، ويثبت في حقهم النقص - آيش^(١) يضره إذا سد عنهم باب المخالفات جملة أما يخاف مثل هذا أن يغضب الله تعالى عليه ، ويمسخ صورته بقلة أدبه مع أكابر حضرته ، واسكن أهل الأدب مع الله ، ومع أهل حضرته قليل فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ومما أجيب به عن أيوب عليه الصلاة والسلام في قوله : « عسى الضر وأنت أرحم الراحمين »^(٢) ، ولم لا كان دام على صبره فإنه أعلى كما قيل بل وقع من بعض الأولياء أنه قال : اللهم إن كان في هذا رضاك فزدني منه ، فإذا كان هذا يقع من بعض الأولياء فالأنبياء أولى بذلك .

فلما فعل ذلك ذهب عنه .

فقلت : إنه ملك ، وليس بشيطان .

ومعناه : أنه لا يقرب النساء :

وكذلك سأله عن أحب الثياب إليه أن يأتيه فيها .

فقال : البياض والخضرة .

فقلت : إنه الملك .

(١) يقصد أى شيء .

(٢) وتتمام الآية : وأيوب إذ نادى ربه انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ، و

سورة الأنبياء آية : ٨٣

والجواب اللائق بأيوب عليه الصلاة والسلام أن قوله رب إني مسني الضر أهلى من دوامه على التجلد والصبر ، لأن العبد كلما ترقى في مراتب السكّال والقرب ضعفت نفسه حتى ربما صار يتألم من قرصة البرغوت ، ويعجز عن حمل قميصه فكان من جملة اعتناء الحق تعالى بنبيه أيوب عليه الصلاة والسلام أنه حبسه في مقام التجلد والصبر ، حتى ينيله أجر الصابرين .

ثم أنه نقله منه إلى مقام الرضى ، حتى صار يتلذذ بالبلاء لينال بذلك أجر الراضين . ثم رده بعد ذلك إلى التألم بالمرض لكن مع الصبر من خير مقاومة القهر الآلى كما كان في بداية أمره قبل رقة حجابة اللائق به ، فإنهم قالوا : شاة الصبر على البلايا إنما هو من قوة النفس وكبرها واطمارها القوة ، ومقاومتها للقهر الآلى . ثم إذا صفت ورق حجابها مالت إلى الضعف وألقت السلاح . وقد سئل محمد بن على الحكيم الترمذى ^(١) رضى الله عنه عن حقيقة هؤلاء الخلق؟ فقال : ظاهر ودعوى هريضة انتهى .

يعنى : أن البياض والخضرة من ألوان الخير والملائكة . والسواد من ألوان الشر والشیاطین ، وأمثال ذلك ومن علاماتهم أيضاً : دعاؤهم إلى الدين والعبادة من الصلاة والصدقة والعفاف .

وقد استدلت خديجة رضى الله عنها على صدقه صلی الله علیه وسلم بذلك ، وكذلك أبو بكر ، ولم يحتاجا في أمره إلى دليل خارج عن حاله وخلقه .
(١) هو أبو عبدالله محمد بن على الترمذى : نسبة إلى ترمذ . قال الحافظ ابن النجار في تاريخه : كان إماماً من أئمة المسلمين ، له التصانيف الكثيرة في التصوف وأصول الدين ومعاني الحديث .

وقال الكللاباذى في (التعرف) هو من أئمة الصوفية ، وقال ابن عطاء الله : كان الشاذلى والمرسى يعظمانه ويقولان : هو أحد الأوتاد الأربعة .

ومن حكمه : إذا سكنت الأرواح بالسر ، نطقت الجوارح بالبر . وقال : ما صفت حرفاً عن تدير ، ولا لينسب إلى شيء منه ولكن كان إذا أشد على وفق أتلى به .

فعلم أن صبر العبد على البلاء كمال بالنسبة لمقام العامة ، الذين لا صبر عندهم ، نقص بالنسبة لما فوقه من المقام الآخر الذي هو أساسه الأصلي كما أن التسالم بالبلاء أعلى من التلذذ به ، لأنه إذا تلذذ به خرج عن كونه بلاء ، وصار من قسم النعم فالواجب على العبد فيه الشكر لا الصبر والله أعلم .

ومما أجيب به عنه أيضاً عليه الصلاة والسلام حين أمطرت السماء الذهب فصار يحثو في ثوبه منه .

وقال : له الحق تعالى يا أيوب ألم أكن أخينك عن مثل هذا ؟

فقل ؟ بلى يارب ولكن لا غنى بي عن بركتك .

أعلم يا أخي أن كمال العبد إنما هو : بإظهار الحاجة والفاقة لربه عز وجل فأراد أيوب عليه الصلاة والسلام بمحسوه الذهب في ثوبه اظهار كثرة الفاقة إلى فضل ربه عز وجل . وذلك أكل ممن قنع ورضى باليسير من الدنيا ، لاظهاره قلة الحاجة إلى ربه ، ومارد من رد الدنيا من الأكابر إلا خوفاً على قومه أن يقتدوا به في ذلك فيهلكوا ولا يعرفون كيف يتخلصون كما رد نبينا ﷺ جبال الذهب والفضة لما عرضها عليه جبريل بإذن الله فاحتاط لأمنه ﷺ شفقة عليهم ، وإلا فاعتقادنا أنه ﷺ لا يشغله عن الله شيء من السكونين ، ويصح أن يحمل حثه الذهب في ثوبه لما نزل من السماء على تبركه به لكونه قريب عهد بتكوين ربه ، كما قالوا في المطر إذا نزل أول السنة أو خيره .

وفي الصحيح أن هرقل — حين جاءه كتاب النبي ﷺ يدعو إلى الإسلام — أحضر من وجد يبلده من قريش ، وفيهم أبو سفيان ، ليسألهم عن حاله . فكان — فيما سأل أن قال :

بم يأمركم ؟ فقال أبو سفيان : بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف ، إلى آخر ما سأل . فأجابه فقال :

إن يكن ما تقول حقاً فهو نبي ، وسيملك ما تحت قدمي هاتين .
والعفاف الذي أشار إليه أبو سفيان هو العصمة . فانظر كيف أخذ من العصمة والدعاء

ولا يجوز حمله عليه الصلاة والسلام على أنه إنما حثى الذهب في ثوبه محبة في الدنيا ، فإن ذلك لا يجوز في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لأنه إذا كان المريد في طريق القوم لا يصح له قدم في طريق أهل الله تعالى حتى لا يصير له ميل إلى شيء من الدنيا وشهواتها ، ويتساوى عنده الذهب والتراب .

فكيف بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقد قررنا غير ما مره أن لا لعبد ثلاثة أحوال : الأول : أن يحبها بحكم الطبع ويحب جمعها وعدم إنفاقها في مرضات الله وهذا مذموم شرعاً .

الثاني : أن يخرج حبها من قلبه فلا يصير عنده ميل إليها ويتساوى عنده الذهب والتراب على حد سواء وهذا أكمل بالنسبة للحال الذي قبله .

الثالث : أن يحب الدنيا بتعقيب الله تعالى من مال وولد وجاه وزوجة لا بحكم الطبع فيجمعها وينفقها في سبيل الله ، ويعف بها نفسه عما في أيدي الخلائق ، ويتخلق بالأدب مع الله تعالى الذي عظم الذهب في قلوب عباده مثلاً على غيره ، فيعظمه على التراب لئلا يخطئ الحكمة الإلهية ، ويفرز أيضاً بلذة خطاب الله عز وجل له ، بقوله : « اقرضوا الله قرضاً حسناً^(١) » ، لأنه تعالى لم يخاطب بذلك إلا أهل الجدة وأصحاب الأموال ، دون العباد والزهاد المجريدين عن الدنيا ، ففاتهم لذة مجالسة الحق تعالى حال خطابه لهم ،

إلى الدين والعبادة دليلاً على صحة نبوته ، ولم يحتج إلى معجزة ، فدل على أن ذلك من علامات النبوة !!

ومن علاماتهم أيضاً : أن يكونوا ذوي حسب في قومهم .
وفي الصحيح : « ما بعث الله نبياً ، إلا في منعة من قومه » .
وفي رواية أخرى : « في ثروة من قومه » .
استدركه الحاكم على الصحيحين .

(١) وتنام الآية « إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم »
سورة الحديد آية : ١٨

وما ذمت الأمور بالأصالة إلا أن كانت تحجب عن الله تعالى .

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام مقامهم منزّه عن تعاطي شيء يحجبهم عن الله تعالى كما سيأتي في الجواب عن سليمان عليه الصلاة والسلام .

ونظير ما وقع لأيوب عليه الصلاة والسلام ما ورد في السير أن رسول الله ﷺ قسم مرة ذهباً .

وقال أعمه العباس : يا هم خذلك ماشئت من هذا الذهب فحى في برده شيئاً لا يستطيع أن يحمله فصار يعالج نفسه في حمله فلا يستطيع .

وصار النبي ﷺ ينظر إليه شزراً فيجب حمل ذلك على أن العباس ، إنما فعل ذلك لإظهاراً لافاقه والحاجة ، لأن مثل العباس لا يجوز حمله على محبة الدنيا على الوجه المذموم .

وأما قوله تعالى : « منكم من يزيد الدنيا أى للآخرة ومنكم من يريد الآخرة ^(١) » أى لله فيحب الدنيا لانفاقها في مرضات الله ، ويحب الآخرة لكونها داراً يشاهد فيها ربه عز وجل إذ لذّة نعيم الأكل والشرب والجماع وغير ذلك إنما هي بحكم التبع المشاهدة لله عز وجل لا بحكم القصد الأول عند الأكابر .

وفي مساءله هرقل لأبي سفيان كما هو في الصحيح قال :

« كيف هو فيكم ؟ »

قال أبو سفيان :

« هو فينا ذو حسب . »

فقال هرقل :

« والرسل تبعث في أحساب قومها . »

ومعناه : أن تكون له عصبية وشوكة تمنعه عن أذى الكفار ، حتى يبلغ رسالة ربه .

ويعم مراد الله من إكمال دينه وملته .

(١) سورة آل عمران آية : ١٥٢

وكان نظر النبي ﷺ للعباس شزراً ليقبح الدنيا في أعين المحجوبين عن مشهده
رضى الله عنه ، وإلا فهو محب لفعل العباس راض عنه لصحة مشهده ولو قدر أنه لم يكن
هناك إلا من تعرف مشهده من الأكبر كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما لم ينظر إلى عمه
شزراً فافهم .

وكذلك يجب استثناء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من قوله تعالى فيما نسخت
تلاوته : لو أن لابن آدم واديين من ذهب لا يبتغي ثالثاً ، ولو أن له ثالثاً لا يبتغي رابعاً ،
ولا يملأ عين بن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب ، فإن الاجماع قد انمقد على
زهد الأنبياء في الدنيا ، فكيف يبتغي أحدهم الزيادة منها وأيضاً فإن الآدم هو ظاهر الجلد
فكأنه تعالى يقول لو أن لبني الدنيا الذين قصرُوا أعينهم على شهودها ولم يخرق بصرم
إلى الآخرة ونعيمها واديان من ذهب لا يبتغوا ثالثاً لحجابهم عن الآخرة .

وقد خرج إبراهيم بن آدم وغيره من الملوك عن الدنيا اختياراً .
فكيف بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكلام الله تعالى في غاية البلاغة والتحقيق ،
وما من عام إلا ويقيده التخصيص ، إلا أن أجمع العلماء على عدم تخصيصه وعدم إخراج
هن عمره فاعلم ذلك فإنه نفيس .

ومما أجيب به عن سائمان عليه الصلاة والسلام في قوله : « هب لي ملكاً لا يبتغي
لأحد من بعدي »^(١) هو أنه اطلع من طريق كشفه أن جميع من يأتي بعده من الأنبياء
كلهم زهاد لا يبتغي لهم هذا الملك الذي سأله لعلو مقامهم فكأنه فهم إنما طلبه من الملك
أمر يفنى فلم يرضه لمن بعده من الأنبياء ، وثم مقام يقتضى سؤال العبد ربه أن يعطيه
الدنيا ، كما أنه ثم مقام يقضى طلب العبد رؤية ربه ، كما وقع لموسى .

وسمعت سيدي علياً الخواص رضي الله عنه يقول مراراً :

(١) وتام الآية « قال : رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا يبتغي لأحد من بعدي إنك
أنت الوهاب » سورة ص آية : ٣٥

سبب سؤال سليمان عليه الصلاة والسلام الملك إنما هو إظهار للفاقة والحاجة ، كأنه عليه الصلاة والسلام يقول : أنا محتاج إليك يا رب بحيث يعم حاجتي ، كلما طلبت ملكاً منك بمعنى استخلافى فيه ، وكلما عظمت حاجة العبد وفاقة إلى سيده كلما علا مقامه وازداد به تقريباً من ربه عز وجل .

فما ازداد سؤاله الملك إلا فقراً ، وذلك مطلوب الأكابر ، وإلا فحال أن يسأل نبي ما يحجبه عن ربه وينقص به مقامه ^(١) فإن ذلك منه يجب تنزيه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عنه .

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول : إنما طلب السيد سليمان الملك ، ليعترف لله تعالى بنعمته الكثيرة ويزداد شكراً ، وكأنه يقول لك النخل يا رب على بعد ذرات الوجود كلها لأنى محتاج إليها كلها انتهى .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : كلام السيد سليمان فى غاية الأدب والصدق لأنه نكر قوله ملكاً فلم يخص شيئاً فى طلبه وقال لا ينبغي لأحد من بعدى أى لأن ما يعطيه الله للعبد من الملك ما هو عين ما يعطيه العبد آخر لا بد فيه من زيادة ونقص فى كبر المنة وصفرها وطول عمر ذلك وقصره ، حتى لو سقطت ورقة من شجرة أو شجرة من رأس ملك له ، خرج عن كونه مثله لأن المنية فى الوجود منقولة غير معقولة ، إذ لو كانت معقولة ما يميز شئ فى الوجود عن شئ ، والكان عين زيد هى عين عمرو فافهم ^(٢) .

(١) فإن الأنبياء فى رفعة دائمة .

(٢) يقول القاضى ناصر الدين البيضاوى فى تفسير آية « قال رب أغفر لى وهب لى ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدى » :

لا يتسهل له ولا يكون ، ليكون معجزة لى مناسبة لحالى ، أو لا ينبغي لأحد أن يسلب بعد منى هذه السلبية ، أو لا يصح لأحد من بعدى لعظمته ، كقولك : لفلان ماليس لأحد من الفضل والمال على إرادة وصف الملك بالعظم ، لا أن لا يعطى أحد مثله ،

وكان سيدي على الخواص رحمه الله يقول: ما قال سليمان عليه الصلاة والسلام: «ذهب لي ملكا» حتى كشف له أن تسخير الريح والشياطين لا يقع لأحد بعده من الأنبياء فما سأل إلا عن أمر محقق يكون له من باب الفضل والمنة، وإلا فهو يعلم أن أحداً لا يملك مع الله شيئاً في الدارين انتهى.

وفي القرآن العظيم «كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى»^(١) فما ذم الحق تعالى الغنا، إلا لمن كان يحجب به عن الله عز وجل ويطغى به عن مقام عبوديته.

وأما من يشهد فقره وحاجته كلما كثرت الدنيا عليه فذلك محمود، بل كلما ازداد الولي مالا كلما ازداد فقراً وحاجة في مشهده، فاعلم ذلك.

ومما أجيب به عنه أيضاً في قوله «إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ردوها على فطقق مسحاً بالسرق والاعتناق»^(٢) أن مراده عليه الصلاة والسلام أنه أحب الخيل حين عرضت عليه بالعشى لكن ليس ذلك الحب لذاتها وإنما هو لكونها هدية من ربه إليه وقريبة عهد بإرسالها إليه.

كما ورد عنه عليه السلام في للطر حين اغتسل منه وقال: إنه حديث عهد بربه وكانت الخيل مذكرة لسليمان بربه لأنها نعمة منه إليه ولذلك أحب مشاهدتها ولما توارت عنه بالحجاب، وكان نسي أنه يتبرك بها هلى عادة الملوك مع سيدهم تعظيماً واجلالاً له ولنعمة

فيكون منافسة تقديم الاستغفار على الإستهباب لمزيد اهتمامه بأمر الدين ووجوب تقديم ما يجعل الدعاء بصد الإجابة.

(١) سورة العلق آية: ٦

(٢) ونعام الآيات:

ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب، إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد، فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب، ردوها على فطقق مسحاً بالسوق والأعتاق. سورة ص الآيات: ٣٠، ٣١، ١٢، ٣٣

فلذلك قال : ردوها على لأشاهدها ثانياً فلما ردوها عليه طفق يمسح أعناقها وبسوقها بيده تبركا بخير ربه ، وليس للراد أن الخيل أشغلته عن صلاة العصر ، حتى توارت عنه الشمس بالحجاب ، وأن الشمس ردت عليه بعد فروبها هكذا ذكره بعض العارفين ، وقال : ليس الضمير في ردوها على الشمس ولا ثم ما يدل عليه ، وقال : **إِنَّهَا قَلْنَاهُ أُولَى** مما قاله غيرنا من أنه قطع أعناق الخيل وسوقها بالسيف فإن ذلك سفه ، وإتلاف مال لا يليق بالأنبياء ، أو يحتاج إلى تأويل أنه لما تعارض عنده مصلحة دينه ومصلحة دنياه قدم مصلحة دينه ، وذلك مقام دنى بالنسبة لمقام الأنبياء فإنه إذا كان بعض الأولياء لا يشغله عن الله شيء في الكونين فكيف أشغلت الخيل نبياً رسولاً عن عبادة ربه هذا بعد من العبد ^(١) .

ومما أجيب به عن نبينا محمد ﷺ في قوله تعالى : « لينفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » ^(٢) مصدرين ذلك بما أجاب به غيرنا ليستفاد فقد أجاب العلماء عن ذلك بأجوبة .

أحدها ما قاله بن عباس وغيره : إن الله تعالى غفر لمحمد ﷺ ما تقدم من ذنبه قبل النبوة وما تأخر بعدها .

ثانيها إن معنى الآية : ما وقع ، وما لم يقع على طريق الوعد بأنه مغفور له .

ثالثها قول سفيان الثوري : ما تأخر هو ما لم يعلمه .

رابعها : فهو أنه المتقدم والمتأخر معاً ما كان قبل النبوة .

(١) لعله يقصد بعد من البعد .

وهناك بعض المفسرين الذين يفسرون هذه الآيات بأنه قطع أعناق الخيل ولكن الصحيح والمعتمد عند الجمهور أنه أخذ يمسح على أعناقها تكريماً لها وبراً بها ولعل حديث (الخيل في ركابها الخير إلى يوم القيامة) يؤيد ذلك .

(٢) وتام الآية « لينفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك

صراطاً مستقيماً » سورة الفتح آية : ٢

خامسها : هو تأكيده المبالغة كما تقول أحسن لمن عرفك ولمن لم يعرفك .

سادسها : ما تقدم من ذنبك يعني ذنب أبيك آدم عليه الصلاة والسلام وما تأخر من ذنوب أمتك .

سابعها : إن للعنى لو كان لك ذنب قديم أو حديث اغفرته لك هذا ما باغنى عن العلماء من الأجوبة^(١) .

وأما جوابي أنا بحسب فهمي وإرثي منه عليه السلام . فهو أن المراد بذنبه عليه السلام ما لازم من إرساله من تعذيب من خالفه من الكفار والمسلمين ، فأضيف ذلك إليه من حيث تشريعه عليه السلام له ، إذ لولا تشريعه الحرام وبيانه للأمة ما عذب الله تعالى منهم أحداً عليه قال الله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا^(٢) » ولما كان من مرتبة الأكرام أنهم يؤخذون نفوسهم بما كانوا سبباً فيه وإن لم يقصدوه طعن الله قلب نبيه عليه السلام وأخبره بأنه تعالى لا يؤاخذه من حيث كونه كان سبباً في شقاوة من خالفه يلزم رسالته ، فهو مظهر لما سبق في علم الله من شقاوة من شقى ، وإلا فليس بيد عبده أن يشقى غيره بإجماع لما تأمل عليه السلام فيما لزم من رسالته من تعذيب من حق عليه الشقاء

يقول الإمام الألوسي : (ليخفر لك الله) مذهب الأشاعرة القائلين بأن أفعاله تعالى لا تعلل بالأغراض أن مثل هذه اللام للعاقبة أو لتشبيه مدخولها بالعلة الغائبة في ترتبه على متعلقها وترتب المغفرة على الفتح من حيث أن فيه سعياً منه عليه السلام في إعلاء كلمة الله تعالى بمكابدة مشاق الحروب واقتحام موارد الخطوب ، والسلف كما قال ابن القيم وغيره يقولون بتعليل أفعاله عز وجل وفي شرح المقاصد للعلامة النفثازاني أن من بعض أدلتهم - أى الأشاعرة ومن وافقهم على هذا المطلب يفهم أنهم أرادوا عموم السلب ومن بعضها أنهم أرادوا سلب العموم . ثم قال : الحق أن بعض أفعاله تعالى معلل بالحكم والمصالح وذلك ظاهر النصوص شاهدة به وأما تعميم ذلك بأنه لا يخلو فعل من أفعاله سبحانه من غرض فمحل بحث وذكر الأصفهاني في شرح الطوالع في هذه المسألة خلافاً للمعتزلة وأكثر الفقهاء .

(١) سورة الإسراء آية : ١٥

من أمته خاف من المؤاخذة بذلك فأخبره الحق جل وعلا بأنه غفر له ذلك ولا يؤاخذه به .

وقد سمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول مراراً : من مرتبة الأكابر الاستغفار مما لعله يقع في المستقبل ، فإذا توهم أحدهم ذلك استغفر منه قبل وقوعه ، وقد فسر العلماء الغفر بأحد شيئين : إما للسامحة بالذنوب بعد وقوعه ، وإما الحيلولة بين العبد وبين الذنب فلا يقع ، واللايق بالأنبياء الثاني دون الأول لعصمتهم ، وإيضاح ما قلناه من أن للراد من الذنب المغفور ما لزم من رسالته هو أن تعلم يا أخى أن كل داع إلى الله تعالى مأجور بالأصالة سواء أطاعه قومه أو خالفه وليس قصد أحد من الدعاة إشقاء أحد من قومه ، فهو وإن لزم من رسالته إشقاء من خالفه فهو غير مؤاخذ بذلك ، وأيضاً فإن لازم المذهب ليس بمذهب عند الجمهور ، ولا يؤاخذ العبد إلا بما قصده كما هو مقرر في الفتى ، فالداهى وإن خالفه قومه فهو مأجور بسبب مخالفتهم ، كأجر من أصيب في ولده وأصحابه فمعنى الآية :

ليغفر لك الله ما تقدم من مؤاخذة قومك بسبب رسالتك في حال حياتك ، وبعد وفاتك فطمئن قلبك فإنك غير مؤاخذ بما وقع فيه أمتك من مخالفة شرعك ، ولك من حيث نيتك أجر كل من أطاعك ، وكل من عصاك لأنك نود الخير للناس كلهم وليس عليك من أوزارهم شيء ، فعلم أن الداهى إلى الله لا يثاب من حيث من عصى

وأنا أقول: بما ذهب إليه السلف لوجود التعليل فيما يزيد على عشرة آلاف آية وحديث والتزام تأويل جميعها خروج عن الإنصاف وما يذكره الحاضرون من الأدلة يدفع بأذى تأمل كما لا يخفى على من طالع كتب السلفيين عليهم الرحمة .

وفي الكشف لم يجهل الفتح علة المغفرة لكن لإجتاع ما عدد من الأمور الأربعة . وهي المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز كأنه قيل :

يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوك لنجمع لك بين أعز الدارين وأغراض الحاجل والآجل وحاصله كما قال العلامة أن الفتح لم يجعل علة لكل المتعاطفات بعد اللام

أمره إلا من حيث النية فقط لامتناع وقوع الطاعة من أهل هذا القسم هذا ما ظهر لي في الجواب عن سيد الخلائق أجمعين ، الذي لولاه ما خلق الله تعالى لا علوا ولا سفلا ولا جنة ولا ناراً ، ومقصودنا بالأجوبة عن الأنبياء إزالة ما يتوهمه أصحاب القلوب المحجوبة عن حضرة الله ، ومن أهلها وإلا فطينة الأنبياء لا تقبل أن يصدر عنها شيء يكرهه الله تعالى أبداً ، وإذا تعارض عند المؤمن أمران أحدهما فيه ريبة فمن الواجب عليه أن يذهب إلى ما لا ريبة فيه نظير ما قررناه في صفات الحق جل وعلا التي توهم التشبه فإن ذلك لا يصح ، وقد أجمعوا على أنه لم يأت لنا في كتاب ولا سنة شيء يكرن نصاً في التشبيه أبداً ، إنما يحتمل ذلك عدة معان فيضاف إلى كل ذات بما يليق بها ، وحمل ذلك في جانب الحق تعالى كما هو في جانب الخلق جور على اللفظ فإذا سمعنا حديث : « قلب المؤمنين بين إصبعين من أصابع الرحمن » حملناه على النعمة ، ونسبته إلى إصبع إشارة لنعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، فلا شيء يحمل الإصبع في جانب الحق كما هو في جانب الخلق ، حتى يحتاج إلى التأويل ولم لا حملوه ببادي الرأي على ما يليق بالحق جل وعلا ، فعلم أن الذب عن أكبر حضرة الله تعالى طلباً لرضى الله عز وجل واجب وهذا الذي جنحنا إليه من أن المراد بذنبه ﷺ ما حدث من رسالته بحكم اللازم وجه مضي لا اشكال فيه ، وهو نظير ما قاله أبو القاسم الجنيدي في معنى حديث : إنه ليغان على قلبي فاستغفر الله تعالى في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة ، وهو أن المعنى أنه ليغان على قلبي بسبب ما يقع فيه أمتي من بعدى من الفتن والحروب ،

أعني المغفرة وإتمام النعمة والهداية والنصر بل لإجتماعها ويكفي في ذلك أن يكون له دخل في حصول البعض كإتمام النعمة والنصر العزيز وتحقيقه كما قال : إن العطف على المجرور باللام جار ومجرور على جار ومجرور وقد يكون للإشتراك في معنى اللام كجئتك لتستقر في مقامك وتفيض على من إنعامك أي لإجتماع الأمرين ويكون من قبيل جاءني غلام زيد وعمر و أي الغلام الذي لهما .

واستظهر دفعا لتوهم أنه إذا كان المقصود البعض ، فذكر الباقي لغو أن يقال : لا يخلو كل منهما أن يكون مقصودا بالذات وهو ظاهر أو المقصود البعض ، وحينئذ فذكر غيره

وختالفة شريعتي فاستغفر الله تعالى لهم أكثر من سبعين مرة بحسب ما يخطر على قلبي ذكركم :

وليس في الحديث ما يستدل به على أن الغين الذي يقع لقلبه الشريف من ذنب يقع هو فيه فتأمل والزم الأدب ولا تخض في حق الأنبياء إلا بخير ، وإذا كان الله تعالى يمتن من وقع في حق أحد من الأولياء ، فكيف بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وفي الحديث : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وولده والناس أجمعين » فيشترط في كمال الإيمان أن يزيد في محبته على محبة الوالدة لولدها وما رأينا والدة تكاد تنسب إلى ولدها ذنباً ، وإنما تقول : خزاك الله يا إبليس اوقع ولدي في شئء الفلاني .

فإذا كان هذا قول الوالدة في حق ولدها مع أن حبها لولدها بحكم الطبع لا بحكم الإيمان فكيف بمن صحبه إيمان ، وكيف يدعى مؤمن محبة رسوله ﷺ ، وهو يتوهم فيه العيب وإذا كان من يشرب قلبه حب إنسان من آحاد الخلق لا يصير يرى فيه عيباً ، بل يراه كله محاسن صرفاً فكيف لسيد الأولين والآخرين ، الذي فرض الله تعالى محبته على الخلق أجمعين وأحوجهم كلهم إلى شفاعته .

أما لتوقفه عليه أو لشده ارتباطه أو ترتبه عليه فيذكر للإشعار بأنهما كشيء واحد كقوله تعالى : (أن تضل إحداها فتذكر إحداها الأخرى) وقولك : أعددت الخشب ليميل الحائط فادعه ، ولازمت غريمي لأستوفي حقي وأخليه . وظاهر كلام الزمخشري أن المقصود فيما نحن فيه تحليل الهيئة الاجتماعية فحسب ، فتأمل لتعرف أنه من أي الأقسام هو .

واعلم أن المشهور كون العلة مادخلته اللام لاماً تعلق به كما هو ظاهر عبارة الكشف ؛ لكن حقق أنها إذا دخلت على الغاية صح أن يقال : أن ما بعدها علة ويراد بحسب التعقل وأن يقال : ما تعلق به علة ويراد بحسب الوجود فلا تغفل .

وقال الصدر : لا يبعد أن يقال : أن التعبير عنه تعالى في مقام المغفرة بالإسم الجليل المشعر بصفات الجمال والجلال يشعر بسبق مغفرته تعالى على عذابه .

وقد سألت وأنا صغير شيخنا الشيخ محمد الشناوى رحمه الله عن لاراد بماعى الأنبياء فقال : يا ولدى تلك أمور يؤاخذ الله تعالى بها أحبابه لا تتعقلمها عقولنا بل ربما تقربنا نحن بها إلى الله تعالى ورأينا لأنفسنا المقام العالى عند الله بها فلا يجوز لأمثالنا الخوض فيها بحسب ما تتعقله عقولنا أبداً ثم أشدنى كلام سيدى على وفا :

عبادك محفوظون حفظ الحبايب

من الذر لم يظهر بصفى ذواتهم سوى نورك الماحى ليج الغيايب
مياه صفت ذائاً ومجرى ومنبعاً وصينت عن الاكدار من كل جانب انتهى
فاعلم ذلك واهفظ لسانك فى حق الاكابر والحمد لله رب العالمين .

ومما أجبته به عن الصحابة رضى الله عنهم فى قوله تعالى فى حقهم انبياء عليهم السلام : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ^(١) » هو كفرض الحال مثل قوله تعالى : « لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى مما يخلق ما يشاء ^(٢) » مع أنه تعالى قال : « ما يتخذ الله من ولد ^(٣) » وقال : « وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ^(٤) » .

وفى البحر لما كان الغفران وما بعده مشترك فى إطلاقه للرسول عليه الصلاة والسلام وغيره لقوله تعالى : (ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وقوله سبحانه : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى وقوله تعالى : (يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) وقوله عز وجل : (يهدى من يشاء) وقوله تبارك وتعالى : (إنهم لهم المنصورون) وكان الفتح مختصاً بالرسول صلوات الله وسلامه عليه أسنده الله تعالى إلى نون العظمة تفخيماً لشأنه وأسند تلك الأشياء إلى الإسم الظاهر وضميره وهو كما ترى وإن قاله الإمام أيضاً .

وأقول : يمكن أن يكون فى إسناد المغفرة إليه تعالى بالاسم الأعظم بعد إسناد الفتح إليه تعالى بنون العظمة إيماء إلى أن المغفرة مما يتولاه سبحانه بذاته وأن الفتح مما يتولاه جل شأنه بالوسائط .

(١) سورة آل عمران آية : ١٥٩ .

(٢) سورة الزمر آية : ٤ .

(٣) سورة المؤمنون آية : ٩١ .

(٤) سورة الإسراء آية : ١١١ .

وكما فرض الله تعالى المحال في قوله : « لو أراد الله أن يتخذ ولداً ^(١) » ، كذلك القول في وصف نبيه ﷺ بالفظاظة وغلظ القلب علي المؤمنين ووصفه أصحابه بأنهم لا يحبون مجالسته إلا إن كان حسن الكلام لهم رقيق القلب ، هو على سبيل الفرض والتقدير أيضاً ، إذ لا يصح وصفه ﷺ بالفظاظة وغلظ القلب حقيقة ، لأن ذلك ضد ما يثبت من صفته ﷺ .

وكذلك لا ينبغي وصفه لأصحابه بأنهم ينفضوا عنه ، إذا لم يرق قلبه لهم فإنه أحب إليهم من أهلهم وولدهم والناس أجمعين .

وقد قالوا في المثل السائر (المحب لا يصرفه صارف ولا ترده السيوف والمنايف) ، هذا في حق المريدين مع أشياخهم وكيف بمحبة الصحابة لنبيهم ﷺ .

وقد كان أحدهم ينظر إليهم سائراً نحو رسول الله ﷺ فيلتقاه عنه بصدرة ، ويفديه ﷺ بنفسه فعلم أن قوله : « لا نفضوا من حولك » إنما هو بحكم الفرض والتقدير تشريعاً لنبيه ﷺ ليشرعه لأمته والحمد لله رب العالمين .

والمراد بالذنوب ما فرط من خلاف الأولى بالنسبة إلى مقامه عليه الصلاة والسلام فهو من قبيل حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وقد يقال : المراد ما هو ذنب في نظره العالی ﷺ وإن لم يكن ذنباً ولا خلاف الأولى عنده تعالى كما يرمز إلى ذلك الإضافة .

وقال الصدر : يمكن أن يكون قوله تعالى : (ليغفر) إلخ كناية عن عدم المؤاخذه أو من باب الاستعارة التمثيلية من غير تحقيق معاني المفردات . وأخرج بن المنذر عن عامر وأبي جعفر أنهما قالاً : ماتقدم في الجاهلية وما تأخر في الإسلام ، وقيل ماتقدم من حديث مارية وما تأخر من امرأة زيد وليس بشيء مع أن العكس أولى لأن حديث امرأة زيد متقدم .

وقد صح أنه ﷺ لما نزلت صام وصلى حتى انتفخت قدماه وتعبد حتى صار كالشن البالي فقيل له : اتفعل هذا بنفسك وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : أفلا أكون عبد شكوراً .

(١) سورة الزمر آية : ٤ .

ومما أجبته به عن الصحابة أيضاً في قوله تعالى : « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ^(١) » .

اعلم أنه إذا كان المريد في بداية أمره يخرج عن حب الدنيا أصلاً ورأساً ويرى مآله منها في بحر الإيأس حتى يصح له قدم في طريق القوم فكيف بالصحابة رضي الله عنهم الذين هم فوق مقام سائر أشياخ الطريق بيقين .

وإذا كان الزاهد منا في الدنيا لا يريد بها فكيف يريد بها أصحاب رسول الله ﷺ وقول الله تعالى حق وصدق ولكن فيه تقدير واضار تقديره « منكم من يريد الدنيا والآخرة » أي ليفعل بها خيراً يثاب عليه في الآخرة « ومنكم من يريد الآخرة » أي يشاهد فيها ربه — فما أحبوا الدنيا لذاتها ولا أحبوا الآخرة لذاتها ، فثم مقام رفيع ومقام أرفع من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين .

ففي الآية مدح للصحابة كلهم كل على قدر مقامه ونصيبه لاذم لهم كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان ، فإنه ما منهم أحد إلا وهو زاهد في الدنيا .

وأما قول سفيان الثوري : أن معاوية بن أبي سفيان كان رجلاً عالمًا واسعاً غلب عليه حب الدنيا ، فلما راد به أنه زاحم على الخلافة ليقوم فيها بالعدل على حسب اجتهاده فهو مأجور وإن أخطأ لبذله وسعه في نصرته الشريعة .

وفي حفظ نظام العالم عن الانحراف فسمى سفيان الخلافة بهذا الحكم ديني بالنظر لمن يريد الله عز وجل فما أحب معاوية الدنيا إلا للآخرة ، ولا يجوز حمل حاله على حال غيره من الملوك الذين قاتلوا على الدنيا فإنه أعلى مقاماً بيتين من إبراهيم بن آدم ، وغيره من الأولياء الذين أجمع الناس على عدم محبتهم للدنيا ، فأعلم ذلك واحفظ لسانك في حق أصحاب رسول الله ﷺ وإذا كانت الواقعة في آحاد الأولياء سم قاتل فكيف بالواقعة في الصحابة والحمد لله رب العالمين .

(١) سورة آل عمران آية : ١٥٢ .

وما أجبت به عن الإمام علي رضي الله عنه ، في قوله (سلوني عن طرق السما فإني أعرف بها من طرق الأرض) أن مراده بطرق السماء المقامات والأحوال كالتوبة والزهد والخشية وغير ذلك ، فإن السالك لهذه الطريق يصير قلبه سماوياً ، فهي طرق السموات في الأرض ، وليس مراده أنه صعد بجسده إلى السماء ، لأنه ليس لغير نبي قدم محسوس في السما والله أعلم .

وما أجبت به عن الإمام أبي حنيفة : رضي الله عنه في نسبته إلى القول بالرأى في دين الله وغير ذلك وأنه يقدم القياس على النص .

أعلم يا أخي أنه ما نم أهرز من الورع في المنطق في كل زمان لاسيما كلام الأسافل في حق الأكابر وقد أدرك الإمام أبو حنيفة الصحابة ، وأخذ عن خيار التابعين كعطاء ، ومجاهد ، والأسود ، وعلقمة ، ونحو من ثلاثمائة عالم ، ولو لم يكن من مناقبه إلا قول الإمام مالك . لما سئل عنه ؟

ماذا أقول في رجل لو ناظرني في أن نصف هذه الاسطوانة ذهباً ونصفها فضة لقام بحجته .

وقول الإمام الشافعي رضي الله عنه : الناس كلهم عيال على أبي حنيفة في الفقه ، لكان في ذلك كفاية في غزارة علمه ودينه .

وقد قال عبد الله بن المبارك : لما دخلت العراق سألت من أعلم الناس عنكم ؟ فقالوا أبو حنيفة فقلت : لهم : فمن أروع الناس عنكم وأزهدهم في الدنيا ؟ قالوا : أبو حنيفة فقلت لهم : فمن أعبد الناس عنكم ؟ وقالوا : أبو حنيفة فما سألتهم عن فضيلة إلا وأضافوها لأبي حنيفة .

ومن ورعه أن الخليفة لما منعه الفتيا سألتها ابنته عن الدم الخارج من الأمناز هل ينقض الوضوء ؟

قال لها : سلى عمك حماداً عن ذلك فإن إمامي منعتي الفتيا ولم أكن أخنه بالغيب .

ومن ورعه أيضاً أنه كان لا يجلس في ظل جدار غريمه ويقول : كل قرض جر نفعا فهو رباً .

وأما قولهم أنه يقدم القياس على النص فكلام صدر من متعصب عليه بغير حق وقد اجتمع به ، جعفر الصادق وسفيان الثوري ، وجماعة من العلماء في جامع الكوفة ، فناظروه فقطعهم بالحجج .

فقالوا له : فما دليلك في تقديمك القياس على النص ؟

فقال : معاذ الله أن يقع مني ذلك إنما أنظر الحكم في القرآن ، فإن لم أجده نظرت في السنة ، فإن لم أجده فيها ، نظرت في أقضية الصحابة ، فإن لم أجده فيها قست حينئذ مسكوناً عنه على منطوق به بجامع العلة فقام سفيان وقبل رأسه ، فلم يقع منه قياس إلا بعد أن لم يجد ذلك الأمر في كتاب ، ولا سنة ، ولا في أقضية الصحابة ، وهذا أمر لا يختص به بل سائر العلماء يقيسون كذلك .

وأما ما نقله أبو مطيع البليخي عن الإمام مالك بتقدير صحته أنه سأله من عالم بلادكم اليوم ؟ فقال أبو حنيفة فقال : فإذا لا يحل لعالم سكنها فلما راد مدح الإمام أبي حنيفة بالعالم والزهد والورع ، وأنه يكفي أهل بلاده علماء وعملاء ولا يحتاجون معه إلى عالم آخر يسكن بلادهم يساعده في نشر العلم فيها ، بل كل عالم سكن في بلده فقد عطل علمه لعدم حاجة الناس إليه مع وجود الإمام أبي حنيفة ، وقد ضعف المحدثون رواية أبي مطيع هذا وأما ما نقل عن سفيان الثوري من قوله : إن أبا حنيفة قد حل عرى الإسلام عروة عروة ، وقول الإمام أحمد لما سئل عن أبي حنيفة ؟ فقال : لا رأى ولا حديث فلم يصح عنهما وحاشا أن يطعنا في إمام أجمع الناس على جلالاته ثم بتقدير أن قياسه خالف النص في بعض المسائل فهو معذور لعدم وجود جميع الأدلة في عصره لأنها كانت متفرقة في اللدائن والقرى ، والثغور مع الصحابة والنابعين ، فكان معذوراً في قياسه بخلافه في زمن الإمام الشافعي وأحمد ، فإن الناس كانوا سافروا في طلب الحديث ، وجمعوا

الأدلة فجاءت الشريعة بعضها بعضاً ، هذا هو الحق ولا يقول عاقل قط أن الإمام يجد نصاً في المسألة ويتركه ثم يأخذ بالقياس أبداً واعلم ذلك .

ومما أجبت به عن تجريح الحفاظ للحديث بعض الرواة ، إن ذلك إنما وقع منهم نصرة للشريعة المطهرة ، فكان لهم من الثواب في ذلك التجريح مثل ثواب من يسبح الله تعالى ويحمده ولا يجوز حمل أحد ممن جرح غيره منهم على حفظ النفس حاشاهم من ذلك ، وقد كان الإمام البخاري رضى الله عنه يقول : أرجوا من فضل الله تعالى أنه لا يطالبني بغيبة أحد من المسلمين يوم القيامة فقليل له : فماذا تصنع في تجريحك لبعض الرواة ، فقال : ذاك من الدين نثاب عليه ثواب الواجب وما حرمت الغيبة إلا لغير غرض شرعى ، كالتمشى من الأعداء والحسدة .

وكان سيدى علي الخواص رحمه الله يقول : في ضمن تضعيف الحفاظ لبعض رواة الحديث رحمة الله منطوية للمسلمين لأنهم لو صححوا جميع الأحاديث ، التي قيل بضعفها لشق على الأمة العمل بها ، ولم يكن لهم عذر في تركها بخلاف ما ضعف فإن للناس فيه فسحة لكون العمل به راجع إلى اختيارهم .

ومممت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول أيضاً : قد قيس الله تعالى بعض الناس فعمل بما ضعفه المحدثون حتى لا يفوت الأمة العمل بشيء من السنة فكان ذلك من جهالة ما حفظت به للشريعة عن النقص انتهى .

فأعلم ذلك واعمل به والحمد لله رب العالمين .

ومما أجبت به عن عموم الناس أنه لا يجوز حمل أحد منهم على المحامل السيئة ، وكل من رأيناه حمل أحداً على محمل قبيح ، فإنما ذلك صورة نفسه هو فكأنه يقول أنا من أهل ذلك القبيح ، وقد أجمعوا على أنه لا يخرج أحد عن المحامل السيئة في الناس إلا أن طهر الله باطنه من سائر الرذائل ومقى بقيت فيه رذيلة واحدة فمن لازمه غالباً سوء ظنه بالناس وأنهم لا يسمون من مثلها قياساً على نفسه هو ، فمن تطهر باطنه من سائر الرذائل

فهو الذى يصح منه حسن الظن بالمسلمين كلهم ، وأما حديث على وعائشة مرفوعا متصلا « من ألجزم سوء الظن » وفي رواية أخرى عن أنس مرفوعا « احترسوا من الناس بسوء الظن » فالمراد به كما قاله شيخنا : أن يعامل العبد الناس وهو محترز منهم ، ومن شرهم كعاملته من يسوء الظن بهم من غير أن يسوء الظن بهم .

وذكر الإمام النووى فى مقدمات شرح المذهب : أنه ينبغي للإنسان أن يحمل أفعال شيخه التى ظاهرها الفساد على نحو من سبعين محلا حسنا ، ثم إن لم يقبل قلبه تلك الأجوبة كلها رجع على نفسه باللوم ، وقال : يحتمل فعل أخيك سبعين محلا حسنا ولا تقبل ذلك ، فأنت إذن أسوأ حالا منه ، قال : ولا يعجز عن هذه الأجوبة إلا قليل التوفيق انتهى .

إذا علمت ذلك يا أخى فإياك أن تحمل أحوال الناس على أحوالك السيئة ، مادمت لم تنتظف من الرذائل ، بل يجب عليك أن تنتحل لم الأجوبة الحسنة ما أمكن فإذا رأيت يا أخى نقصاً فى أحد فارجع إلى نفسك وجاهدها بالرياضة ، حتى لاتصير ترى فى أحد نقصاً إلا تبعاً للشرع ، وكلامنا كله إنما هو فى الاخلاق التى تخفى أما الظاهرة كالمكس واخذ الرشا والزنا مثلاً ، فلا يجوز لنا حملها فيها على المحامل الحسنة ، فإن ذلك مكابرة فى المحسوسات يخلاف ما يحتمل ويحتمل ، ومن هنا قل انكار طائفة الصوفية على الناس ، وذلك لعدم رؤيتهم منكراً محققاً وربما كان الناس يظنون بهم قلة الدين ، وأنهم يقرون على المنكر ولا يغيرونه .

وقد باغنا عن سيدى أحمد الزاهد انه أخرج فقيراً من زاويته ، لما رأى جرة مع هلام تشبه جرار الخمر فضربها بحجر فكسرها فقالوا للشيخ فى ذلك : فقال : إنما أخرجته لكونه ظن بصاحب الجرة سوءاً ، ولأى شئ ما كان يظن انها خل انتهى .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : من علامة من صحت رياضة نفسه أن يصير يبادر لحسن الظن بالناس عكس من لم يكن عنده رياضة ، فإذا رأى شخصاً يكلم امرأة فى طريق مثلاً ويغمزها بيده ويضحك معها ، قال : هذه أخته أو محرمة .

وإذا رأى عالماً أو صالحاً يحضر مواضع المعاصي أو يصنع شيئاً من الملامح ، حملناه على أنه حضر العصاة ليحوطهم بأسماء الله خوفاً ، أن يقع بهم العذاب ، أو على أنه خلطهم ليعظمهم ويخوفهم ونحو ذلك ، وإذا رأى امرأة جميلة تشبه بنات الخطاء داخله بيت أحد من الأكابر حملها على أنها داخله لعماله لحاجة دينية أو دنيوية لئلا يكسر الرجل ليفعل بها ما لا يحل .

وإن كان صاحب ذلك البيت عالماً أو صالحاً حمله على أنه أرسل وراها ليتوبها عن الفواحش مثلاً .

وإذا رأى أحداً من الطوائف يبيع حال صلاة الجمعة حمله على أن له هدراً شرعياً في عدم حضور الجمعة ، كأن ضيق عليه صاحب الدين أو حلف أن لم يوفه حقه في هذا اليوم حبسه .

وإذا رأى أحداً من العلماء يمنع من الفتوى على ما يتعلق بأعران الساطان حمله على عذر شرعي يرخص في مثل ذلك .

وإذا رأى أحداً من العلماء والصالحين يحج في محفة حمل على أن له عذراً في ذلك ، وإن المحارة مثلاً لا يكتفيه في مدرجه ولا يجوز حمله ، على أنه فعل ذلك نزفها كسيأتي إيضاحه عقب هذا المبحث إن شاء الله تعالى .

وإذا رأى شخصاً يقرأ القرآن ، وهو في السرقة في حانوته أو ماراً راكباً أو ماشياً ، فيجب حمله على الإخلاص أو على أنه جهر بالقرآن لينذركم الناس برهبهم في مواطن الغفلة .

وإذا رأينا شخصاً يصلي في آخر صف مثلاً ويترك الصفوف أمامه ناقصة حمله على أنه إنما فعل ذلك حياة من الله عز وجل . ولا يجوز حمله على أنه إنما فعل ذلك تهاوناً بالسنة والثواب . وهذا الذي ذكرناه لا ينافي حديث : (خير صفوف الرجال أولها ^(١))

(١) أخرجه مسلم والأربعة عن أبي هريرة والطبراني عن أبي أمامة وعن ابن عباس .
وبقية الحديث : (وشرها آخرها وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها) .

لأن المراد بالرجال هنا السكل في مراتب الإيمان فمن علم من نفسه ذلك فليتقدم .

وقد كان سيدي أحمد الزاهد وسيدي محمد المغربي وسيدي مدين وسيدي أبو العباس الغمري يصلون دائماً في آخر صف في مساجدهم ، ويقولون لا يقف بين يدي الملك عادة إلا أكا برحضرتة كما أشار إليه قوله ﷺ : (ليليني منكم أولوا الأحلام والنهي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ^(١)) ومعلوم أن النهي هي العقول وفي حديث الترمذي مرفوعاً : (الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له يجمعها من لا عقل له ^(٢)) فجعل من يجمع الدنيا لا عقل له ، وكل إنسان يعرف حال نفسه هل هو يحب جمع الدنيا أو يكرهه ، فهو أمر راجع إلى قلبه ونيتة .

وفي الحديث أيضاً : صفوا كما تصف الملائكة عند ربها ^(٣) (أى في التقدم والتأخر ، فكما لا يتقدم آحاد الملائكة التسخير من لا على أكابرهم كجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائل وإسماعيل ، وكذلك لا ينبغي لمن يعلم من نفسه رقة الدين أن يتقدم على أحد من المسلمين ، وكل أحد يجب عليه أن يرى غيره أفضل منه ليخرج عن الكبر كما درج عليه السلف من الصحابة والتابعين .

وسمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله يقول : إياكم أن تبادروا إلى الإنكار على من رأيتموه لا يصلي في الصف الأول فربما كان ذلك الشخص ممن يعلم من نفسه أنه يجمع الدنيا ، ويحكم على نفسه بقلّة العقل أو يحمله على أنه ، ربما فعل ذلك خجلاً واستحياءً من رسول الله ﷺ خوفاً أن يخالف قوله (ليليني منكم أولوا الأحلام والنهي) أى وكذلك كل من صلى اماماً يقوم لا ينبغي أن يليه إلا الزهاد في الدنيا .

وقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : لو أوصى رجل بمال لأهقل الناس صرفته إلى

(١) أخرجه مسلم والأربعة عن ابن مسعود .

(٢) أخرجه الإمام أحمد والبيهقي عن عائشة .

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط عن ابن عمر .

وبقية الحديث (يقيمون الصفوف ويجمعون منا كبهم) .

الزهاد في الدنيا . فلم منه أن من لم يكن زاهداً في الدنيا فلا حرج عليه في الوقوف آخر الصفوف .

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول أيضاً : حكم كل العارفين إذا وقف أحدهم بين يدي ربه في الصلاة حكم من كان فسق في حريم الوالي ثم أتوا به إليه فهو يخاف من القرب من حضرته حتى يحصل رضى الوالي عنه أو العفو والمساحة .

قال : وكثيراً ما يذنب العبد الذنب العظيم فيظن بتقادم عهده أن الله تعالى غفره له والخال أنه لم يزل ساخطاً عليه إلى ذلك الوقت ، فيصير مثل هذا يزاحم على الوقوف في الصف الأول لظنه أن الله تعالى قد غفر له ذنوبه حتى لا يسكاد يستحضر ذنبه أصلاً . وما هكذا درج السلف الصالح رضى الله عنهم ، فإن أحدهم إذا وقع في ذنب لا يزال خجلاً من الله تعالى خائفاً من عقابه حتى يلقاه .

قال : وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه عليهم الصلاة والسلام : مالى أراك لا تبسكى على ذنبك بكاء الشكلى على ولدها ، أتظن أنى قد غفرت لك حين تقادم عهدك بالذنب ، ولم أعاقبك عليه ؟ ومن ابن لك أنى قد غفرت لك ؟ وأى ملك أخبرك بذلك عنى ؟ وعزتي وجلالى لأوقفن العصاة يوم القيامة موتف تذرب فيه أجسامهم وتنقطع فيه مفاصلهم اتى .

وكان أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : اياكم أن تسيثوا الظن بمن رأيتموه من الأمراء وللباشرين والتجار يتغالى في ثمن للماليك والعبيد وتقرلوا لولا أنه ممن يقع في الفاحشة فيهم ما غالى في ثمنهم فان ذلك لا يجوز بإجماع إلا إن خفت بذلك القرائن ، وليس كل من يتغالى في ثمن العبيد يفعل ذلك للفاحشة ، وإنما الأكابر إذا وسع الله عليهم الدنيا يصير أحدهم يحب الجمال في ثيابه ومراكبه وداره وخدمته ومشاكله لحاله ، فلا يسكاد أحدهم يحب عجزاً شهواً ولا عبداً وجم ، غير صبيح عادة ، ولا يحب أن يستخدم من العبيد والماليك إلا صباح الوجوه ويحصل عنده غم برؤية غيرهم .

وقد بلغنا أن من أدب جماعة السلطان معه أن لا يوقفوا بين يديه أجندم ولا أبرص .
وان وقع أن أحداً من الوزراء حصل له شيء من ذلك هزلوه أو استنابوا عنه رجلاً سالماً
من مثل ذلك هيرة على السلطان ، أن يقع بصره على ناقص فالأكابر غائبون عما يظن
الفسقة فيهم من السوء قياساً على نفوسهم الغوية .

وقد بلغنا أن القاضي اسماعيل بن اسحاق المالكي الذي أفتى بقتل الخلاج رحمه الله
دخل يوماً على أمير المؤمنين المعتضد فرأى على رأسه جماعة من المماليك الصباح
الوجوه ، فوقع في نفس القاضي شيء ، فلما أراد القيام قال له : للمعتضد : والله يا قاضي
ما خلعت سراويلي قط على فاحشة من منذ وعيت على نفسي من الصغر ، فحجل القاضي
واستغفر من سوء ظنه .

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول : عليك يا أخي بحسن الظن بالمسلمين
ما استطعت فإن الله تعالى لا يسألك في الآخرة :

لم حسنت ظنك بعبادي وإنما يسألك عن سوء ظنك بهم .

فإذا انقطع أخوك عن زيارتك مثلاً أو عيادتك ، فلا ينبغي لك أن تتكدر منه . بل
الواجب عليك حمله على أنه لم يجده نية صالحة مثلاً يزورك أو يعودك بها ، ولا يجوز لك
حمله على أنه فعل ذلك استهانة بحقوقك . وإذا دعاك إلى وليمة وأجلسك عند النعال وقدم
إليك فضلة الغلمان والخدام ، فمن الواجب عليك حمله على أنه ظن فيك الخير والتواضع ،
وزوال الكبر والرهونات النفسية ولولا أنه ظن بك ذلك لأخذ حذره منك وصدرك
في المجلس خوفاً منك وأكرمك كل الإكرام في الطعام .

وقد وقع لسيدي عبد الله النعماني شيخ الشيخ خليل صاحب المختصر أنه دعى إلى
وليمة ، فأجلسوه هو وأصحابه عند النعال وقالوا له ولأصحابه اصبروا من الأكل حتى
يفرغ الناس ، فقالوا : سمعاً وطاعة . فلما قدموا لهم فضلة العبيد والأطفال صار سيدي
عبد الله يلحس الأواني ويقول : اغتسموا بركة جميع من أكل ، ثم يقول لأصحابه : تعلموا

حسن الظن بالناس ، فإن هؤلاء لولا أحسنوا بنا الظن وجعلونا من الصالحين الذين ماتت نفوسهم ما أجلسونا خلف النعال ولا أطعمونا الفضلة .

ووقع ان امرأة سيدى مجاهد النبراوى دعت زوجة سيدى عبد العزيز إلى ظهور أولادها ففرشت لها البيت بالبسط والمقاعد لظنها انها من أهل الدنيا ، فلما دخلت عليها ورأت عليها ثياباً خفيفة طوت البسط وأرسلتها إلى المطبخ ، فلما جاء سيدى عبد العزيز ليأخذها شككت إليه شدة ازدراءهم لها فقال لها : سيدى عبد العزيز مبادراً : هذا تعظيم ما فعلوه مع أحد غيري ، أجلسوك عند الطبخ وكما طبخوا شيئاً أطعموك منه بغير تعب . انتهى .

وكان سيدى محمد الشناوى رحمه الله يقول : إذا زارتك أحدىكم شخصاً من أقرانكم فلم يمشي في وجهه مريدكم ، ولم يقدم له طعاماً ، فلا يجوز لكم حمله على أنه يكرهكم . وإنما يجب عليكم حمله على أنه إنما فعل ذلك مع تلميذكم وفاء بحقكم ، وصلاحه لمريدكم فخاف إذا أكرمه أن يعيل بالحجة فيعدم النفع بكم حين يصير مذبذباً في أى الشيخين أعلى من الآخر

وكان سيدى على المرصفى رحمه الله يقول : إذا رأيتم أحداً من العلماء والصالحين يمدح نفسه أو يمجيب عنها فاحملوه على المحامل الحسنة ، فربما رأى من طلبته عدم الاعتناء . بما يقوله لهم من العلوم المحررة ، أو خاف تزلزلهم عنه إذا رماه الناس بالعظائم ، ولم يجب عن نفسه ، فيعدم الناس النفع به . ولو أنه علم من طلبته أنهم يعرفون نفاضة ذلك الكلام ، أولاً يتزلزل اعتقادهم فيه إذا لم يجب عن نفسه لكان سكت ولم يمدح نفسه ولا علمه .

وكذلك سمعت سيدى أفضل الدين رحمه الله يقول مراراً : إياكم ان تسيئوا الظن بمن رأيتموه يمجيب عن نفسه من العلماء والصالحين ويقولوا : لو ان هذا كان صالحاً لا كنتى بعلم الله تعالى فيه أولم يلتفت إلى الناس فإن للعلماء والصالحين مشاهد في ذلك

صحيحة ، فمنهم من يكون مشهده أن أفعاله وأقواله التي نقصها الناس لأجلها خلق الله تعالى فيغار الله أن ينتقص أحد خلقه وحكمه وتقديره ، ومنهم من يكون مشهده أن نفسه خلق الله تعالى فيتكدر لمن يقول له يأعور مثلاً من حيث أنه يعيب خلق الله تعالى ومنهم من يكون مشهده أن بنته أمة الله تعالى ، وأنها وديعة عنده قد أئمنه عليها وأمره بكف الأذى عنها ودفع كلما يحصل لها به تكدير وتشويش .

ومنهم من يكون مشهده الشفقة على أعدائه فيخاف أن سكت عما يقولونه فيه ، أن ينقص دينهم فيرد عن نفسه حتى يكذبهم الناس ، فيخف الاثم عنهم .

ومنهم من يكون مشهده أنه عبد الله تعالى ليس له من نفسه شيء وإنه يجب على كل أحد احترام عبد الله تعالى فيغار لنفسه من حيث كونه عبد الله لا يظ نفسه ، بل ربما لم يخطر ذلك على باله .

ومنهم من يكون مشهده محبة الخير والنفع لإخوانه هل يديه أو يدي غيره ، فيخاف أن سكت على تنقيص الأعداء والحاسدين له أن يجعل له استماتة في نفوس تلامذته فلا يصبرون ينتفعون به .

وهكذا في جميع الأمور التي تسبق إلى الذهن فيها بسوء الظن يجب على العبد أن ينظر فيما يترتب عليها من جراب أو سكوت فلا يقال الجواب أولى مطلقاً ولا السكوت أولى مطلقاً ، إنما ذلك دائر بحسب ما يترتب عليه من المصالح ، وقد كان أخى أفضل الدين ، إذ باغى أن أحداً نقصه في مجلس يذهب إليه ويقبل رجله ويقول : يا أخى ما بجازيك عنى إلا الله فيما باغى عنك ، فإنك نهيتنى على نقائصى لأتوب منها أو آخذ حذرى منها فى المستقبل ، وحينئذى من الوقوع فى المعجب بأحوالى ، وربما أن ذلك الشخص المنقص له لم يخطر فى باله قط ما حمله سببى أفضل الدين عليه إنما قصد محض تنقيصه بين الناس بغضاً فيه وحسداً له وعدواناً

وسمعت سيدي عبد القادر الدشوطى رحمه الله يقول : لا يسلم من سوء الظن بالناس

إلا من طهر الله باطنه من سائر المخالفات ، بحيث يصير لا تخطر الفحشاء على باله ، فإنه حينئذ يصير يعتقد في الناس كلهم الخير قياساً على نفسه هو .

قال : وتأمل من خلق عنيماً ولم يذق لذة الجماع قط ، لو أنه رأى شاباً يكلم أجنبية كيف لا يخطر بباله أنه يريد الفاحشة بها أبداً ، لأنه لم يذق ذلك في نفسه ، بخلاف الشاب الفاسق إذا رأى شيخاً يكلم أجنبية فضلاً عن الشاب لا يكاد يسلم من سوء الظن به قياساً على نفسه هو ، فقلت له : فما حكم الشيخ ، إذا اطاع على شيء من نقائص المرادين ، هل ذلك قياساً على ما عنده أم لا ؟ فقال رضى الله عنه : للشيخ طريق أخرى يطلع بها على نقائص المرید وهي الإلهام له من الله تعالى . انتهى ..

وسمعت سيدى على الخواص رضى الله عنه يقول : إذا بلغكم عن امرأة قد مات أحد من أهلها ، أو جيرانها ، إن زوجها قوب منها ليلاً موت ذلك الميت ، فاحملوها على إظهار الرضى عن الله بذلك ، لا على غلبة الشهوة الطبيعية ، فإن ذلك من سوء الظن بها . انتهى .

وهذا الخلق العظيم لم أر من تمخلق به من أقرانى إلا القليل .

وقد سمع أخى أفضل الدين شخصاً يحكى أن أشعب الطامع ، كان يفت الخبز على دخان جاره فقال : شيء لله من مدده ، فإنه لو لا حسن ظنه بجاره ما فت خبزه على دخانه ورضى الله تعالى عنه ، فاعلم ذلك وتأمل فيه فإنه نافع جداً .

والحمد لله رب العالمين

الباب الثاني

الباب الثاني

في جملة أخرى من الأخلاق

فمن أخلاقهم غيرتهم لله تعالى إذا انتهكت محارمه

ولا يخافون في الله لومة لائم ولو كان ولدهم البكرى ، فإن الله تعالى بالمرصاد
هلي قلوبهم ^(١) .

وفي الحديث أن شخصاً يؤتى به يوم القيامة ومعه أعمال كأمثال الجبال فيؤمر به
إلى النار ، فتقول لللائكة : يا ربنا إنه كان من أعماله كذا وكذا ، فيقول الله تعالى :
بلى ولا كنهه كان لا يفضب إذا انتهكت حرمانى ولا يفضب لغضبي . انتهى .

وذكر وهب بن منبه : أن شخصاً من علماء بنى إسرائيل كان يعظ الرجال والنساء
حينما المجلس غاض بأهله ، والناس يسكرون ويبتغبون ، إذ غمز ولده امرأة
من الأجانب .

فقال له : لا يا وادى لا تفعل ^(٢) .

(١) وفي الحديث : عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ
يقول : من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه
وذلك أضعف الإيمان . رواه مسلم .

(٢) عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن أول ما دخل للنقص
على بنى إسرائيل ، أنه كان الرجل يلقي الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه
لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يغيره ذلك أن يسكون أكيلاه وشريبه وقميده ،
فما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم قال : « لمن الذين كفروا من بنى إسرائيل
على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن
مكرهم فملوه لبئس ما كانوا يفعلون ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما كانوا

فأرسل الله إليه ملكاً فقلب به الكروى فوقه على وجهه ، فانفلقت رأسه ،
وتقطعت أعضاؤه .

وأوحى الله تعالى إلى نبي فلك الزمان : أما كان من غضب فلان لمخارمى وانتصاره
لشرعى إلا أن قال : لا ياولدى . أى فإنها كلمة لا تشعر بتعظيم محارم الله ،
ولا بإيثار جناب شرعه على حكم الطبع النفسانى . فاعلم ذلك واعمل به والحمد لله
رب العالمين .

يفعلون ترى كثيراً منهم يقولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم . إلى قوله :
فاسقون ، ثم قال : كلا والله لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد
الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصرا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم
على بعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم . رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن .

ومن أخلاقهم تخفيفهم الصلاة إذا كانوا أئمة للناس

عملاً بقوله ﷺ : (من أم بالناس فليخفف فإن فيهم الضعيف والكبير
وذا الحاجة)^(١) انتهى .

فلا يقدر على طول الوقوف بين يدي الله عز وجل إلا رسول الله ﷺ وكمل
ورثته . ولذلك كان يقول :

« أرحنا بها يا بلال » فافهم .

ثم إن المصلي لا يخلو إما أن يكون قلبه حاضراً مع الله أو غافلاً عنه ، فإن كان حاضراً
فقد شق عليه بالتطويل ، لأنه ليس كل الناس يقدر على طول الوقوف بين يدي
الملك ، بل يصير أحدهم يردد من هيئته ، وربما أحس أحدهم أن مفاصله تنقطع من
شدة الهيبة .

وإن كان ذلك المصلي غافلاً بقلبه عن ربه فهذا لا ثمرة له وهو إلى العقوبة أقرب .
وربما زهقت نفس المصلي من تلك الحضرة ، فخرجت إلى أهويتها وشهواتها ، ولم يبق
واقفاً مع الإمام سوى الجسم من غير روح .

وقد شمل ما قلناه قوله ﷺ : « فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة » فذكر
الضعف وسكت عن سببه ، فشمّل الضعف العادي من المرض ، وشمّل الضعف الذي
يطرأ على العبد من هيبة الله تعالى .

فعلم أن التخفيف مطلوب للإمام بكل حال بخلاف ما إذا صلى لنفسه فإنه يطول
ما شاء كما صرح به الحديث .

(١) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ولفظه عند مسلم : إذا أم أحدكم
الناس فليخفف ، فإن فيهم الصغير والكبير والضعيف والمريض ، فإذا صلى وحده فليصل
كيف شاء .

فإن أقدره الله تعالى على طول الوقوف بين يديه وقف وطول وإلا اقتصر .

وقد صليت مرة خلف الشيخ أحمد المنشاوي عندنا بالزاوية فطول فصرت أحس بأن شخصاً يطعنني بحربة في قلبي وأحشائي فلولا إني طارقتة لهلكت ، وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاقه .

فأعرضه وما قبله علي نفسك وأقرائك تعرف حالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم سفرهم إلى الحجاز في محفة إلا لضرورة شرعية

وإن قوى عليهم الشوق العظيم إلى زيارة بيت الله الحرام وإلى زيارة قبر رسول الله ﷺ مع كبر سنهم وضعف أبدانهم ، ووجدوا أجرة ذلك من وجه حلال ، وخلصت النية في ذلك .

ولا ينبغي لأحد من الفقراء والعلماء أن يحج في محفة ترفها وتفاخراً . فإن المحرم أئتمت أخيراً . وكل فقير سافر في محفة علي وجه الترفه والخيلاء فهو خارج عن الطريق ^(١) .

وقد حج رسول الله ﷺ على رحل رث يساوي ثلاثة دراهم . ثم قال : (اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة ^(٢)) . وإنما فعل ذلك ليقضى الناس به .

وكذلك حج الأنبياء على الحر والجمال ، بلا مرقد ، ولا هودج ، وخطم دوابهم الليف .

وأحرموا في العباء الخشنة الغليظة وهم خائفون من عظمة الله عز وجل .

وكل من حق له قدم الولاية فمن لازمه أن يرى نفسه ، كالعبد الأبق ، الذي استحق الخسف به ، ويرى حجه إنما هو كالمصاحبة لسيدته ليرضى عنه أو يعفو ويصفح . ويقبح

(١) يقصد الإمام الشعراني بذلك عدم الترف في الحج وجعله وقتاً للمتعة بل إن الواجب في نظره التخلص من الشهوات الدنيا والتوجه بـ ~~ب~~كنه ! المهمة إلى الله تعالى في موسم الحج لعله يتوب على القادمين عليه ولعله يرضى عنهم ويقصد أيضاً تنزيه الأماكن المقدسة عن أى مطمع دنيوى .

(٢) حديث : (حج رسول الله ﷺ على رحل رث) أخرجه الترمذى في الشمائل عن أنس رضى الله عنه .

ولفظه : « حج رسول الله ﷺ على رحل رث ، وعليه قطيفة لا تساوي أربعة دراهم ، فقال : اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة » .

على العبد المحرم أن يذهب إلى مصالحة سيده في محفة ، وعليه ثياب رفيعة مبخرة وهو جالس في المحفة كالمرأة المخدرة .

فاعلم ذلك والزم الأدب مع ربك إن كنت عبداً له .

وقد حج سفيان الثوري رضي الله عنه من البصرة ماشياً فلما سلم عليه الفضيل ابن عياض بمكة قال له : هل لاصحبت معك ظهراً تركبه ؟ فقال له سفيان : أما يرضى العبد الآبق أن يأتي إلى مصالحة سيده إلا راكباً ؟ والله إني لفي غاية الخجل مع مشي . فكيف حالي لو أتيت راكباً ؟ . انتهى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم شتمهم لروائح المعاصي

من أنفسهم ومن غيرهم في بدنهم وثيابهم ومكانهم مدة طويلة من يوم وجمعة وشهر وأكثر ، بحسب قبح تلك المعصية وخفتها ، فلا كبيرة عندهم رائحة ، وللصغيرة رائحة ، وللسكره رائحة ، وخلاف الأولى عندهم رائحة ، وكلما قبحت المخالفة كان ريحها أشد نتنًا .

وكذلك يشمون رائحة الطاعات على اختلاف درجاتها فأذا كان رائحة الواجبات إذا جفها الإخلاص ، ثم المندوبات ، ثم ما كان أولى من سائر الآداب الشرعية ، مع تفاوت المراتب في الكل بحسب الأدلة ^(١) ، وكلما عظمت الشهوة في المعصية كلما زاد نتنها وكلما عظم الإخلاص في الطاعات كلما زاد طيب ريحها ، وهذا الخلق قل من يتخلق به من الإخوان وقد تحقنا به والله الحمد ،

ليكني سألت الله تعالى أن يحجب عني رائحة المعاصي من غيري لأن الله تعالى لم يتعبدنا بمثل ذلك .

وأيضاً فإن الشارع قد ذم كشف العورات ومن هنا أوجب القوم التوبة من كل كشف اطلع صاحبه على عورات الناس ، وسماه بالكشف الشيطاني ^(٢) .

وقد بلغنا أن هذا الخلق كان للسيد عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ثم سأل الله تعالى أن يحجبه عنه فحجبه .

(١) يقصد الإمام الشعراني بذلك ما يكشفه الله سبحانه وتعالى لأوليائه من المعارف التي بها يستطيعون معرفة الطارق لهم ، فيقدروا له وزنه من حيث درجة تقواه فيصحونه بالنسبة للمعروف ، وينهونه بالنسبة للمنكر ويتولونه بالرأية التي تجعله يتخلى عن ذنوبه ليزيد في تحليه بالفضائل .

(٢) لأنه ربما يؤدي إلى استمرار المكاشف لهذا الوضع فيترك كثير من أمور التصوف ومتفرغ لهذا الكشف ، مما يؤدي به بالتالي إلى تتبع عورات المسلمين .

ومما وقع له قبل الحجاب أن شخصاً دخل عليه وقد نظر إلى ما لا يحل .
فقال له عثمان رضى الله عنه : يدخل أحدكم علينا وروائح الزنا عليه ؟ فاستغفر الرجل
من ذلك وتاب . انتهى .

وقد كان بعض العارفين يقول لأصحابه : — من باب الاتهام لنفسه — لو أنكم
تشمون للمعاصي رائحة ما استطاع أحدكم أن يجلس إلي من تن ريحي . انتهى .
وصاحب هذا المقام لا يقدر على مجالسته إلا من كان تائباً من سائر الذنوب ، وقبل
الله تعالى توبته .

وأما المتلطيخ بالمعاصي فربما حصل له المفت في الوقت والعياذ بالله ، لأن الولي يغضب
لغضب الله .

فربما نظر إلى ذلك العاصي نظرة غضب من حيث انتهاكه محارم الله فحسر الدنيا
والآخرة .

بل بلغنا عن سيدى محمد الشويخ^(١) المدفون تجاه قبر سيدى مدين المدفون بخط
المقسم رضى الله عنه أنه كان يشم رائحة الروائح التي تنشأ من الخواطر .

وكان يؤدب صاحب الخاطر بالعصى فلا يستطيع أحد أن يرده عنه .
ودخل مرة أمير على سيدى مدين وسيدى محمد هذا جالس في المحراب وسيدى مدين
في آخر الزاوية ، فخطر في نفس الأمير أنه يمسك جارية زوجته فقام ، له سيدى محمد من
المحراب وصار يضربه بالعصى والأمير يصدق ويقول : استغفروا^(٢) الله العظيم .

(١) كان من أصحاب الشيخ مدين بن أحمد الأشنونى رضى الله عنه ، وكان من أرباب
الأحوال ، وكان يجلس بعيداً عن سيدى مدين رضى الله عنه ، فكل من مر على خاطره
شيء قبيح يسحب العصا ويضربه ، غنياً أو فقيراً ، كبيراً أو صغيراً أو أميراً فكان أرباب
المعاصي لا يقربون مجلس سيدى مدين خوفاً منه .

وكان رضى الله عنه يقول لأصحابه : عليكم بذكر الله تعالى تقضى لكم جميع حوائجكم .
(٢) ربما يقصد استغفر الله العظيم .

فإذا كان هذا في رائحة الخواطر فكيف بالأعمال الظاهرة ؟

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول : جميع ما هو عند الناس غيب أو يروونه في الذرم فهو عند العارفين شهادة ويقظة ^(١) .

ووقع لخالد الربيعى رضى الله عنه ، أن ناماً اختابوا شخصاً في المسجد وهو جالس لم يجب عنه ، فقدم إليه تلك اللبابة قطعة من لحم خنزير وقيل له : كلفها بما اختبت ^(٢) عندهك ولم تجب عن أخيك : قال : فأبيت أن آكلها من شدة نفثها ، فادخلوها في فمى كرهاً ، فاستيقظت ورائحتها فائحة في غاية النتن ، فصرت أشمها أنا والناس مدة أربعين يوماً ^(٣) . انتهى .

فعلم أن شم الإنسان رائحة المعصية من ثيابه وبدنه ومكانه من جملة نعم الله تعالى ، ليتذكر بتلك الرائحة تلك المعصية ، فيزيد في الندم . والاستغفار ، ويقع لى أنا أنى إذا ارتكبت مكروهاً أو خلاف الأولى أنى أشم رائحة ثيابى هفنة ، فلا أزال أستغفر حتى تزول رائحتها .

وحينئذ أرجوا أن يكون الحق تعالى قد سألنى بذلك ، وأقول فى نفسى : لولا أنه سألنى بذلك لدام ريحه على فى أوقات تمكث الرائحة يوماً أو ثلاثة أيام أو أكثر ، وقد

(١) لأن الحق سبحانه وتعالى يكشفه لهم فلا مجال للشك فيه عندهم إلا إذا كان يتعارض مع الشريعة الإسلامية .

(٢) أى بما وقع من الغيبة فى مجلسك .

(٣) وإذا كان هذا حال من حضر مجلس الغيبة دون الإشتراك فيها فكيف حال من يقتاب نفسه . قال الله تعالى : « ولا يغتب بعضكم بعضاً أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم » .

يقول الإمام النووى : أعلم أنه ينبغى لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام ، إلا كلاماً ظهرت فيه المصلحة ، ومضى استوى الكلام وتركه فى المصلحة ، فالسنة الإمساك عنه لأنه قد ينجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه ، وذلك كثير فى العادة والسلامة لا يعد لها شئ .

اغتبت مرة شخصاً فصرت أشم رائحة النتن من ثيابي نحو سبعة أيام ، مع أني ما كنت استنبت^(١) إلا بعد أن اغتاتني . فإياك يا أخي ثم إياك .

ثم لما حجب الله تعالى عني رائحة المعاصي من غيري أبداني مكان ذلك شئى لرائحة من علميه فربضة لم يصلها أول وقتها ، فأقول له : يا فلان أصليت صلاة كذا ؟ فيقول : لا . فأقول له : قم فصل .

وأهل الله يعرفون من وقف في حضرة الله وقت الصلاة برائحته الطيبة ومن لم يقف بعدمها . وهذا أمر غريب قل من يتخلق به من الفقراء .

وكان أخى أفضل الدين رحمه الله يعرف قوام الليل برؤية وجوههم .

ويعرف من قام أول الموكب الآمى ومن قام في أثنائه على تفاوت الناس في الزيادة والنقص ، وربما قال لمن نام عن قيام الليل : ما رأيناك الليلة هناك .

فيعترف له بالنوم إلى الفجر رضى الله عنه . فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

(١) يقصد اغتبت .

ومن أخلاقهم عدم الإكثار من حضور الولائم التي لا خلاص فيها لصاحبها شرعاً

كأن يكون فيها طعام فيه شبهة كوالد المشايخ التي يعملها المعتقدون فيهم من الظلمة^(١) أو يدخلها التفاخر ويكثر فيها ألوان الطعام .

وما نفع أنفع للفقير ولا للفقير من ملازمة بيته في هذه الأيام ، إما لمراقبة الله أو تحرير مسائل العلم التي ينتفع بها الناس .

وأما حضور الموالد فإنما ذلك للمزمنين والمداحين والبطالين من الاشتغال بالله أو بالعلم . ومن هنا قالوا : كل من رأيتوه من المريدين يحب سماع القصائد والنفقات ، فاعلموا أنه بطل لا يجيئ منه شيء في الطريق .

وربما استدرج إبليس بعض الفقهاء وقال له : ما عبد الله بشيء أفضل من جبر الخواطر ، فترك مطالعة العلم أو اقراء الناس ويذهب إلى تلك الوليمة أو المشي في الزفة ، ويعكس حرس الطلبة ، ولا يشك أن الفقيه إذا ارتقى إلى مرتبة الفتوى والتدريس يصير وقته أحرز من الكبريت الأحمر ، فلا يكون شيء أنفع له من العلم والعمل على وجه الإخلاص لتعدي نفع ذلك إلى الخلق في أبدانهم ، فينقذهم بذلك من النار ، بخلاف جبر خاطرهم بحضور أكل طعامهم المخلوط بالحرام والشبهات^(٢) .

(١) فإن كثيراً من الظلمة يحاول للتقرب إلى المشايخ والأولياء لخدمة أغراض ظلمهم بإظهار التقوى في هذا الأمر فيسكتون من دعوتهم والظاهر إلى جانبهم سترًا للظلم وإظهاراً للدين ، فإذا تابعهم الأولياء في ذلك فقد أعانوا ظالماً على ظلمه .

(٢) يقصد الإمام الشعراني بذلك عدم الإغراق والإسراف في هذه الأمور وخاصة بحسب العلماء والمريدين الذين في أول الطريق بالنسبة للعالم فإن إقامته لدروس العلم ومراجعته للدروس وتبسيطه لأموال الفقه على الناس هو أهم للمجتمع من حضوره الاحتفالات وكذلك بالنسبة للمريد فإن إنصرافه عن الذكر والأوراد إلى الإحتفالات

وقد فتشنا في الفقراء وطلبة العلم فما رأينا أحداً منهم أكثر من الأصحاب والمعارف . وإجابتهم إلى جميع أغراضهم إلا انقطع عن الخير وقانه الترقى في طريق الظاهر والباطن . قال تعالى : (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ^(١)) .

فكل من أكثر من الأصحاب والمعارف فهو كالفتية الذي كثرت وظائفه من حضورات ومبائثرات وقراءة أطفال ، فإنه يتعطل عن الترقى في العلم إلى مقام الأكابر ضرورة بخلاف من قلت أصحابه ووظائفه فإنه ربما ترقى إلى الافتقار والتدريس ، وشرح كتب العلم كما هو مشاهد في بعض طلبة العلم الآن .

ومن هنا فاق شيخنا الشيخ شهاب الدين الرملي ^(٢) أفرانه لكونه أقبل على العلم ، ولم يشتغل بالتردد إلى أحد من الأكابر رضي الله عنه فامات حتى انتهت إليه الرياسة في مذهب الإمام الشافعي ، وغالب طلبة العلم في مصر الآن إما طلبته أو طلبته ، طلبته . فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

يليه عن الوصول إلى الله فإن الإغراء الدنيوى له وهو ما زال في أول الطريق ربما أخذه في طريقه فلا يعود لعلم ينتفع به ولا ذكر يقربه من الله .

(١) سورة المائدة آية : ١١٦

(٢) هو العالم الكبير الشيخ شهاب الدين الرملي الشافعي الأنصاري رضي الله عنه . يقول عنه الإمام الشعراني : كان رضي الله عنه ورعاً زاهداً عالماً صالحاً حسن الاعتقاد للخلق ، لاسيما طائفة الصوفية ، يجيب عن أقوالهم بأحسن الأجوبة ، انتهت إليه الرياسة في العلوم الشرعية ، وعاش حتى صار علماء الشافعية بمصر كلهم تلامذته ، فلا يوجد الآن عالم شافعي إلا وهو من طلبته أو من طلبة طلبته ، وأرسلت إليه الأسئلة من الأقطار ، ووقف الناس عند قوله أكثر ممن أدركناهم من أشياخه ، وكان يخدم نفسه ، وكان جميع علماء مصر يعظمونه ويحجلونه .

مات رضي الله عنه في مستهل جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين وتسعمائة .

ومن أخلاقهم حرصهم في جميع مشاهدهم في أعمالهم وأحوالهم
على أن يكون دائرة مع الحق لا مع حظ النفس

فلا يتحركون ولا يسكنون إلا فيما يعلمون ويشهدون رضى الحق تعالى فيه . فصورتهم
صورة من يسعى في حظ نفسه ولكن القصد مختلف .

مثال ذلك : أن يظهروا التشويش ، ممن أخل بواجب حقهم من زيارة أو عيادة أو
خدمة أو منعهم مما طلبوه منه ، ونحو ذلك ، فيتشوشون عليه من حيث تفويته على نفسه
ذلك الخير مع قطع نظرهم عن هود مصلحة ذلك الأمر عليهم .

ثم إذا بلغ أحدهم مقام الكمال فله إظهار التشويش لحظ نفسه أيضاً من حيث كونه
أميناً عليها ، ويجب عليه الذب عنها وعن ما يضرها ، فهو يرى نفسه كالأجنبية عنه
وهو عنها بمنزل من باب التجريد المذكور في المعاني والبيان .

ثم إن أصل شهود العبد الإخلال بواجب حقه كونه يعامل الخلق ولو أنه كان عامل
الحق جل وعلا في إحسانه إلى خلقه لم يطلب منهم مكافئاً ، ولم ير أحد منهم أخل بواجب
حقه أبداً .

ثم إذا ارتقى الكامل إلى مقام الكمال الحقيقي ، صار يرى الفضل لله تعالى عليه في
كل عبادة عملها ، لا يطلب منه جزاء عليها في الدارين فضلاً عن أن يطلبه من الخلق ،
فهو ولو أعطاه الحق تعالى الثواب يرى ذلك الثواب ملكاً لله تعالى لم يخرج عن ملكه
يعطائه لعبده .

ومن هنا خلاص الفقراء من رق طلب الأجور على شيء من عباداتهم ، لشهودهم أنه
لا يخرج شيء عن ملك الحق تعالى في الدارين ، فهم يأكلون ويلبسون ويسكنون في
دار سيدهم في الدنيا والآخرة ، ويرون ذلك كله عارية عندهم .

ولولا أن الله تعالى أوجب عليهم الشكر بنسبة المعطى لهم — اسم مفعول — ما تعقلوا
٢٢ — الأخلاق المشبرية

أن ينتقل^(١) أن الله تعالى أعطاهم قط شيئاً لأن حقيقة العطا أن ينتقل من ملك المعطي اسم فاعل - إلى ملك المعطى - اسم مفعول - وهذا محال أن يصح لعبده ، فهم يشكرون الله تعالى على نسبة المعطي لهم لا على ، أنهم يملكون ما أعطاه لهم^(٢) كما سيأتى بسطه في مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

فاعرض يا أخى ما ذكرته لك في هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

(١) يقصد بذلك ما تعقلوا أن الله تعالى أعطاهم شيئاً أى لا ينظرون لما على أنها ملك لهم بل هى عارية أو دين مستحق .

(٢) أى نسبة للشيء المعطى لهم إليهم مع أنهم لا يملكون المعطى لهم فهم مستخلفين فيه فقط ، وهذا من القمم فى الزهد عند الصوفية .

ومن أخلاقهم كثرة توبتهم من علومهم وأعمالهم التي دخلها
الرياء والنفاق

ويرونها من جهة المعاصي لا الطاعات ، إذ لا يسمى طاعة إلا ما كان صاحبه مخلصاً
خيه ، ولذلك وردت الأحاديث بعقوبة من لم يخلص في علمه وعمله .

وقد كان رسول الله ﷺ يستغفر الله تعالى ثلاثاً كلما سلم من صلاته تشريعاً لأمته ،
وتنبهاً لهم على شهود النقص فيها ، وأنها أن لم يحصل فيها اخلاص وخشوع فهي إلى
الآثم أقرب ^(١) .

وقد أرمى الإمام مالك كتاب الموطأ في الماء لما اتهم نفسه في الاخلاص ، وقال : أن
أبتل فلا حاجة لنا به فلم يبله الماء فأبقاه .

وكذلك وقع للحكيم النرمذى رضى الله عنه أنه أرمى عدة كتب له في الماء فلم
تبتل فأبقاها .

وأوصى الإمام النووى ^(٢) بغسل كتاب الروضة وقال : إن في قلبي منها شيء
فلم يبقها .

وهذا أمر لا يقدر على التخلق به إلا من خرق يبصره إلى الدار الآخرة وعرف
ما يصح قبوله من الأعمال وما لا يصح .

(١) عن ثوبان رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر
ثلاثاً ثلاثاً ثم قال : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام ، رواه
مسلم والإمام أحمد وأصحاب السنن الأربعة .

(٢) هو الإمام محي الدين بن شرف النووى : عالم الحديث المشهور وله تأليف كثيرة
في الفقه والحديث والتصوف ومن أشهر كتبه : شرح صحيح مسلم - رياض الصالحين -
الأذكار - بستان العارفين .

وقد سألت شيخنا شيخ الإسلام فكريا عن المراد بقول النووي : في قلبي منها شيء ما هو الشيء ؟ فقال : لعله انفراده فيها بكثرة الترجيحات والاختيارات^(٣) فأحب أن لا ينفرد بحكم عن العلماء فيكون الممول عليه في الآخرة ، أو قال ذلك : اتهاماً لنفسه في الإخلاص ، وإلا فاعتقادنا أن مثله لا يخرج عن الإخلاص في شيء من أعماله . انتهى . فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

(١) أي يرجح قول على قول أو سند على سند ويختار بعضها مما يقوى في نظره على البعض الآخر فأحب ألا ينفرد بأحد هذه الترجيحات والاختيارات دون أخذ من العلماء فيتبعه المسلمون في ذلك فيكون مسئولا عنه أمام الله .

ومن أخلاقهم كثرة زهدهم في المطاعم والملابس والمناكح والمراكب والمساكن
ونحو ذلك مع ملابتهم لها

فيأكلون ويلبسون وينكحون فيركبون الخيول المسومة ويسكنون القاعات المربعة ،
وهم مع ذلك زاهدون فيما حولهم الله فيه من النعم .

فليس الزهد بخلو اليد كما يفهمه بعضهم ، وإنما الزهد بالقلب فافهم ، إذ لو كان المراد
بإلزام زهد خلو اليد من الدنيا لنهى الشارع عن النجارة ، وعن عمل الحرف ، ولم يكل بأمر
أحداً بها ولا قائل بذلك ، وإنما درج جمهور الصحابة والتابعين على خلو اليد من الدنيا
ليقتدى بهم المحجوبون عن مشاهدة الأكابر .

فلذلك أظهروا لهم الزهد في الدنيا بخلو اليد ونهوا عن التبسط في الدنيا خوفاً عليهم
أن يدخلوا في محبتها ، فلا يهتدوا بعد ذلك للخروج عن حبها والمزاحمة عليها ، فإن
الكمل لا يشغلهم عن الله تعالى شيء في الكونين ، بخلاف القاصرين الذين هم
أكثر الناس ^(١) .

ومن أدركناه على قديم الزهد في الدنيا بالقلب دون اليد شيخنا شيخ الإسلام زكريا

(١) والإمام أبو الحسن الشاذلي يقول : « اللهم اجعلها في أيدينا ولا تجعلها في قلوبنا »
يقصد الدنيا .

وكان يلبس الملابس للغالية فقال له فقير عليه لباس من شعر : ياسيدي ما عبد الله بمثل
هذا اللباس الذي عليك .

فأمسك الشيخ ملبسه فوجد فيه خشونة فقال :

ولا عبد الله بمثل هذا اللباس الذي عليك ، لباسي يقول : أناغى عنكم فلا تعطوني ،
ولباسك يقول : أنا فقير إليكم فاعادوا .

وشيخ الإسلام برهان الدين بن أبي شريف^(١) ، وشيخ الإسلام نور الدين الطرابلسي^(٢) ،
والشيخ كمال الدين الطويل ، والشيخ نور الدين المحلي^(٣) ، والشيخ برهان الدين
القلقشندي^(٤) ، والشيخ أبو الشعر بن سيدي مدين ، وسيدي علي المرصفي ، والشيخ

(١) هو شيخ الإسلام برهان الدين بن أبي شريف الشافعي : كان شيخا عالما ورعا
زاهدا متمكنا في علوم الظاهر والباطن .

يقول عنه الإمام الشعراي : كان من المقبلين على الله عز وجل ليلا ونهارا ، لا تسكاه
تسمع منه كلمة واحدة يكتبها عليه كاتب الشمال ، وكان لا يتردد إلى أحد من الولاة أبدا .
وكان الإنسان إذا عرض عليه بعض محفوظاته يتلجلج من شدة هيئته ، فيبسط الصغير
حق يهدأ روعه .

وكانت له صيانة في القدس يعمل فيها الصابون ، ويتقوت منها ، ، وكان لا يأكل من
معالم مشيخة الإسلام شيئا ، وكان قوالا للحق أمارا بالمعروف ، لا يخاف في الله لومة لائم .
توفي سنة نيف وعشرين وتسعمائة رضى الله عنه .

(٢) يقول عنه الإمام الشعراي : ومنهم شيخ الإسلام المجمع على صلاحه وعلمه وزهده
وصيامه وضبط لسانه الشيخ نور الدين الطرابلسي .

وكان رضى الله عنه متواضعا حسن الظن بالمسلمين ، وكان يؤذن في شباك زاويته عند
كل وقت من الخمس بصوت حسن وخشوع وتدبر أيام ولايته إلى أن مات . وكان لا يأكل
قط من معلوم محبته شيئا مع أنه ولي كرها ، وكان كثير الصدقة سرا وجهرا .
ولما عزله بعض قضاء العساكر لم يزل ملازما بيته على النسك والعبادة والإفتاء ،
والتدريس إلى أن مات .

(٣) يقول عنه الإمام الشعراي : ومنهم الشيخ العالم العلامة محقق الديار المصرية الشيخ
نور الدين المحلي الشافعي رضى الله تعالى عنه ، كان كالجبل الراسي في كمال العقل والهيبة
والوقار ، غزير الدمعة إذا ذكرت أحوال السلف ، وكان مشهورا في مصر بحل مشكلات
العبادات في الأصول والفقه والمعاني والبيان وغير ذلك ، وتفقه عليه خلائق لا يحصون

(٤) يقول الإمام الشعراي : ومنهم شيخنا شيخ الإسلام برهان الدين القلقشندي رضى
الله تعالى عنه ، كان عالما صالحا زاهدا ورعا ، قليل اللهو والمزاح ، مقبلا على أعمال
الآخرة ، حتى أنه ربما يمكث اليومين والثلاثة لا يأكل . انتهت الرئاسة إليه في علوم السنة
والكتب الستة والمسانيد والأجزاء .

أبو الحسن البكري^(١) ، والشيخ أبو الفضل شيخ بنت^(٢) بنى الوفا رضى الله عنهم .
ومن أدر كناه متجرداً عن الدنيا ظاهراً وباطناً ، في مأكله وملبسه ومنكحه ومسكنه
الشيخ عبد القادر الدشوطي ، والشيخ محمد المنير ، والشيخ محمد العدل ، والشيخ
محمد بن داود ، والشيخ أبو بكر الحيدى ، والشيخ محمد السروى ، والشيخ عبد الحليم
أمين مصلح ، والشيخ على النبتى الضرير ، والشيخ على البهيري ، والشيخ محمد بن
هنان ، والشيخ أبو العباس الغمرى ، والشيخ يوسف الحريثي^(٣) ، والشيخ أبو الحسن
الغمرى^(٤) ، والشيخ أمين الدين الإمام بجامعه ، وجماعة ذكرناهم في كتاب الطبقات ،
قتهم جمالى ، ومنهم جلالى .

وقد ينبغ من الولي شخصان أحدهما مخالف لحال شيخه كسيدى أحمد الزاهد ، فإنه
خلف بعده سيدى مدين وسيدى محمد الغمرى فجاء الغمرى متجرداً من ملابس الدنيا
ومطاعها ومساكنها كشيخه الزاهد ، وجاء سيدى مدين على صورة الشيخ عبد القادر الجليلي

(١) يقول عنه الإمام الشعرانى : ومنهم للشيخ الصوفى المحدث ، نادرة الزمان الشيخ
أبو الحسن البكري رضى الله عنه ، أخذ العلوم عن جماعة من مشايخ الإسلام ، والتصوف
عن الشيخ رضى الدين القزى ، وتبحر فى علوم الشريعة من تفسير وحديث وغير ذلك .
وكان رضى الله تعالى عنه إذا تكلم فى علم منها كأنه بحر زاخر ، لا يكاد السامع
يحصّل من كلامه على شيء ينقله عنه إلا إن كتبه فى قرطاس ، وأخبرنى بلفظه ونحن
بالطاف أنه بلغ درجة الإجهاد المطلق ، وقال : أنا أكتّم ذلك عن الأقران خوفاً من
الفتنة ، وسبب ذلك ما وقع للجلال السهوطى رحمه الله تعالى ، هذا لفظه .
مات رضى الله عنه سنة نيف وخمسين وتسعمائة .

(٢) قد تكون شيخ بنت بنى الوفا رضى الله عنهم .

(٣) هو الشيخ يوسف الحريثى رضى الله عنه : كان مجداً فى اتباع السنة وقيام الليل
وتلاوة القرآن وكان يخفى هذه العبادات جهده .

توفى رضى الله عنه سنة أربع وعشرين وتسعمائة .

(٤) هو الشيخ أبو الحسن الغمرى رضى الله عنه كان على جانب عظيم من الصفاء
والصلاح توفى سنة تسع وثلاثين وتسعمائة .

ونحوه ، كالسادات من بنى الوفا ، والشيخ شمس الدين الحنفى الشاذلى (٣) ، فسلم يا أخى
لكل من تراه متجملاً بالثياب مثلاً من الفقراء ، إلا إن خفت على أتباعه أن يتبعوه مع
الجهل بشهده ، وحينئذ فلك أن تنهأ عن ذلك خوفاً على تلامذته ، أو تأمره أن يقول
لهم : لا تقتدوا بى فى حسن الملابس والمناكب والمراكب ، فانكم لا تبلغون حالى ،
هذا أن وجد ذلك من مال حلال وإلا فالانكار على ذلك الشيخ واجب .

فاعرض يا أخى ما قررتك على نفسك وأقرايك تعرف حالك وحالهم ، والحمد لله
رب العالمين (٢) .

(١) هو الإمام الكبير شمس الدين الحنفى ، يقول عنه الإمام الشعرانى : كان رضى الله
عنه من أجلاء مشايخ مصر ، وسادات العارفين صاحب الكرامات الظاهرة والأفعال
الفاخرة ، والأحوال الخارقة وللقامات السنية والمهم العلية صاحب الفتح المؤنق والكشف
المخرق والتصدر فى مواطن القدس ، والرقى فى معارج المعارف ، والتعالى فى مراقى
الحقائق ، كان له الباع الطويل فى التصريف النافذ ، واليد البيضاء فى أحكام الولاية والقدم
الراسخ فى درجات النهاية والطود السامى فى الثبات والتمكين .

وهو أحد من ملك أسرارهم وقهر أحواله وغلب على أمره .
وهو أحد أركان هذه الطريق وصدور أوتادها وأكابر أئمتها وأعيان علمائها وعلماء ومعلميها
وحالاً وقالاً وزهداً وتحقيقاً ومهابة ، وهو أحد من أظهر الله تعالى إلى الوجود وصرفه
فى الكون وممكنه فى الأحوال وأنطقه بالمغيبات ، وخرق له العوائد وقلب له الأعيان
وأظهر على يديه العجائب ، وأجرى على لسانه الفوائد ، ونصبه قدوة للطلاب حتى تلمذ
له جماعة من أهل الطريق وانتمى إليه خلق من الصالحاء والأولياء واعترفوا بفضله وأقروا
بمكانته وقصدوا بالزيارات من سائر الأقطار .
توفى سنة سبع وأربعين وثمانمائة .

(٢) ويوضح حديث الإمام الشعرانى أكثر ما يرويه بن عطاء الله السكندرى فى لطائف
المنن يقول : وفى يوم من الأيام دخل أبو العباس المرسى على الشيخ أبى الحسن ، وفى نفسه
أن يا كل الحشن ، وأن يلبس الحشن ، فقال له الشيخ : يا أبا العباس : اعرف الله وكن
كيف شئت .

== ويقول ابن عطاء الله : « وأما اللباس اللين ، وأكل الطعام الشهى ، وشرب الماء البارد : فليس المقصد إليه بالذي يوجب العتب من الله ، إذا كان معه الشكر لله » .

ويقول أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : « يا بني برد الماء ، فإنك إذا شربت الماء سخن فقلت : الحمد لله ، تقولها بكزازة : وإذا شربت الماء البارد ، فقلت الحمد لله استجاب كل عضو منك بالحمد لله » .

ويقول الأستاذ علي سالم عمار : « كان الشاذلي يلبس الفاخر من الثياب ، ويركب قناره من الدواب ، ويتخذ الخيل الجياد » .

ومن أخلاقهم : كثرة دعائهم للسلطان ونوابه

من وزير وقاضى وباشاه وكاشف وشيخ عرب ونحوهم ، وعدم سبهم إلا بطريق شرعى .

إذ الدعاء للسلطان ونوابه إنما هو دعاء فى الحقيقة لعامة المسلمين .

وقد كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول : لو أن لى دعوة مجابة لما جعلتها إلا للإمام العادل ، لأنى لو جعلتها لنفسى لكان نفعها لا يتجاوزنى إلى غيرى ، بخلاف السلطان الذى به صلاح العباد والبلاد .

وكان يقول : انظر إلى وجه العالم أو الإمام العادل عبادة .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لولا السلطان ما صلح الناس .

وكان سيدى إبراهيم المنبولى رضى الله عنه يقول : من أدبنا مع السلطان إذا رأينا ظلماً وقع من جنده مثلاً ، أن نحمله على عدم علمه بذلك ولا يكلف الله تعالى عبداً بشئ لم يعلمه .

هذا ما علينا من حقه ، وإن كان يجب عليه هو أن يبحث عن أحوال رعيته ليلاً ونهاراً .

وكان يقول أيضاً : أدبنا مع السلطان إنما هو فى الحقيقة أدب مع الله الذى ولاه .

وروى البخارى مرفوعاً : « السلطان ظل الله ورحمه فى الأرض يأوى إليه الضعيف وبه ينتصر المظلوم ^(١) » انتهى .

وكان سيدى على الخواصر رحمه الله يقول : إياكم أن تسبوا السلطان وتنسوا أحوالكم فى الأعمال ، والأقوال ، من زناً ، ولواطاً ، وشرب خمر ، وتعاون فى الناس عند الظلمة .

(١) حديث السلطان ظل الله . . الخ ، له شواهد عند البيهقى وابن ماجه والبخارى والحكيم الترمذى والطبرانى .

وعينكم للعلماء والصالحين وعامة المسلمين فإن ذلك لا يزيدكم إلا ظملاً وجوراً عقوبة لكم
فاستقيموا في أعمالكم يستقم لكم عمالكم ، ويرفع الله عنكم هذا الذي يسمونه ظملاً .
قال : ولا يحصل لكم الاستقامة إلا إذا تبتم من سائر الأعمال ، التي تغضب الله
تعالى ، وتبرز من جوارحكم الظاهرة والباطنة ، وما دام لكم سريرة قبيحة تفتضحون
بها لو ظهرت للناس فأنتم مستحقون لجور الحكام عليكم انتهى .

وكان يقول : جوارحكم رعينكم وقد ظلمتموها بالمعاصي فلم لاتدعون على أنفسكم
وتسبونها ، كما تسبون الظلمة ، وكل حديث ورد في ذم الظلم والجور فالعبد داخل فيه إذا
وقع في ذنب واحد طول عمره ، وفي الحديث الصحيح : (كلكم راع ومسئول عن
وعيته ^(١)) فمن هش جارحة من جوارحه بوقوعها في معصية لم يرح رائحة الجنة كما
لا يجدها من غش رعيته من اللوك .

فاعرض يا أخي ماقررتك على نفسك وأقرانك تعرف حالك رحاهم والحمد لله
رب العالمين .

(١) حديث : « كلكم راع ومسئول عن رعيته » أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله
بن عمر رضي الله عنه وتناوله : « الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله
ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها والخادم راع في ماله
وصيغه ومسئول عن رعيته » .

ومن أخلاقهم : العمل على تحصيل للمقامات الشريفة

بحيث يصير أحدهم يشرف البقاع التي يدخلها ولا يتشرف هو بالبقاع ، فإن الإنسان الكامل أفضل من بقعة الكعبة فضلاً عن غيرها ، ماعدا البقعة التي ضمت جسمه ﷺ فلا يدخل الولى بقعة من مسجد أو بستان مباح أو دار إلا وتناديه بقاع ذلك المكان كلها : بالله عليك صل في ركعتين أو اجلس في ساعة . وتناديه الاشجار : بالله عليك أكرمنا بالأكل منا ، وهذا أمر مطروق بين الفقراء الصادقين وقد ورد ما يؤيد ذلك في الأحاديث وهـ إن البقاع تتفاخر على بعضها بعضاً وتقول : هل مر بك اليوم ذا كر لله عز وجل كما مربى الحديث .

وكان سيدى إبراهيم المتبولى رحمه الله يقول : مادخلت قط بستاناً مباحاً للفقراء ، إلا وتنادينى أشجاره ، وما فيه من الحشيش وتخبرنى ، بما أودع الله تعالى فيها من المنافع والمضار .

وسمعت سيدى على الخواصر رحمه الله يقول : ليس الرجل من يتشرف بطوافه بالكعبة وتقبيلها ، وإنما الرجل من تتشرف به الكعبة .
فقلت له : كيف ذلك ؟

فقال : لأن الله تعالى ما أمر عباده بالطواف بها وتقبيل أبحارها إلا امتحاناً لهم لينظر كيف يفعلون هل يقفون مع كمالهم الذى خلقهم الله تعالى عليه من الصورة الآدمية فلا يجيبون الحق تعالى إلى مادعاهم إليه كما وقع لابلـس فى قصة سجوده لآدم أم يمثلون أمره تعالى ؟ ولذلك قال السيد عمر بن الخطاب لما قبل الحجر الاسود : أما انى اعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك . ونظير ذلك أمر الحق جل وتعالى الملائكة بالسجود لآدم عليه الصلاة والسلام ، واعنه من لم يسجد وقال : أنا خير منه فإن ذلك إنما كان جبراً لما أحدث الدهوى من كمال الملائكة حين ذكرت نفسها وجرححت صفوة الله من الخلق .

ومن هنا قال الشيخ أبو مدين رضى الله عنه : كان الأمر بسجود الملائكة لآدم عن اغضاب خفي لا يشعر به كل أحد فكان كالكفارة لما وقعوا فيه من تزكية نفوسهم وتجريحهم لآدم .

وقد سمعت سيدي عليا الخواصر رحمه الله يقول : لو ان الملائكة زكت أنفسها فقط ولم تنعرض لتجريح آدم لما عوقبت بالسجود اغير الله بارادة الله انتهى .
ومن هذا الباب أيضاً أمر الحق لنا بالطواف بالكعبة ولم يخص بذلك أحداً دون أحد بل أمر تعالى بذلك نبيه تشريعاً لأمته وأنشدوا في ذلك :

أقد طاف خير الخلق بالكعبة التي يقول دلائل العقل فيها بنقصان
وقبل أحجاراً لها وهو طائف وأين مقام البيت من قدر انسان
فما قصد ﷺ بالطواف بالكعبة ، إلا طاعة ربه وفتح باب هضم النفس للمتكبرين
من أمته فإذا أمرهم السيد أن يقبلوا نعل أحد من خدامهم بادروا إلى امتثال امره
بإشراح صدر .

وعلم مما قررناه : انه لا ينبغي المبادرة إلى الإنكار على فقير رأيناه يصلى في النصف
الآخر دون الأول ، أو يأكل من شجرة أخرى دون التي قال له صاحب البستان كل من
ههنا ، فربما كانت تلك البقعة أو الشجرة المباحة أقسمت على ذلك الفقير بأن يصلى
فيها أو يجلس أو يأكل منها فلا يسهه إلا أن يبر قسمها ^(١) .

(١) ويؤيد ذلك ما ورد في كتب السيرة من الروايات عن حنين الجذع الذي كان
يحلب عليه سيدنا رسول الله ﷺ وأيضاً تسليم الحجر والشجر عليه حق بالنسبة للنبي
عن إتيان أمر معين ، أخرج ابن سعد وأبو نعيم وابن عساکر من طريق عكرمة عن
ابن عباس قال : حدثني أم أيمن قالت :

كان بوانة صنما تحضره قريش يوماً في السنة ، وكان أبو طالب يحضره مع قومه ، وكان
يكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد مع قومه فيأبى . حتى رأيت أبا طالب غضب
عليه ، ورأيت عماته عضبن عليه يومئذ أشد الغضب ، وجعان يقلن : إنا نخاف عليك مما
تصنع من إجتنب آلهتنا وجملن يقلن : يا محمد ما تريد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر

وقد دخلت مرة مدرسة المزهريّة بسويقة اللبن بمصر المحروسة لأصلي بها الظهر فنادتني بقاها في سرى ، كما ينادى الكريم ضيفه ليأكل من طعامه ، وما رأيت أكرم نفساً ، وما أطيب قلباً من البقعة التي على عين الداخل من الباب الكبير منها وهي السدة الصغيرة المطلة على الشارع ، فما قدرت أتخلص منها للصف الأول ، ولكن بحمد الله جاء الإمام إليها فصلي بنا فيها ، وترك الحراب لمكان صدق تلك البقعة في العزومة ، فصرت أنا في الصف الأول ولم يفتني الوقوف فيه ، وهذه الأمور لا يدركها إلا من كشف الله تعالى حجابيه ، ووأي حياة جميع الموجودات وهو مقام يصله السالك أوائل دخوله في الطريق ، فيصير يعامل الجاد معاملة ذى الروح ، ويسمع انين الأبريق مثلاً إذا صدم الحائط .

وذكر الشيخ محي الدين بن العربي رضى الله عنه : أن شخصاً عزم على بعض الفقراء في وليه . بمصر العتيق ، فأقام في إناء من زجاج ثم بعد مدة احتاج إلى البول فيه فناداه الإناة بلسان فصيح : بالله عليك لا تنجسني بالبول بعد أن أكرمني الله تعالى بشرب الفقراء مني لما دعوتهم في وليمتك . قال : فاستحي الرجل وترك البول فيه انتهى .

وكذلك بلغنا عن الشيخ أبي العباس الحرار المدفون بقراة مصر رضى الله عنه أنه كان في تربة فأخذ حجراً يريد ألا تنجاء به فناداه : بالله عليك لا تنجسني ثم أخذ حجراً آخر فقال له : كذلك ، ثم أخذ الثالث فقال له كذلك ، فتحير فقبل له : استأذن الشارع واستعمله وقدم امر ربك على غرض الحجر ، ففعل . فاعمل يا أخى على رقة الحجاب حتى تصل إلى هذا المقام .

وأعرض على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

لهم جمعاً ؟ ولم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع إلينا مرعوباً فزعا فقلن عما ته ما دهاك ؟

قال : إني أخشى أن يكون بي ألم ؟

فقلن : ما كان الله يبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك ؟ فما الذى رأيت ؟

قال : إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لى رجل أبيض طويل يصيح بي : وراءك يا محمد لا تمسه ، قالت : فما عاد إلى عيد لهم حتى نبىء .

ومن أخلاقهم : مراعاة خاطر شيخهم

وإتباع مراعاته على أعز أصحابهم ، وذلك ليترقى أحدهم في اللقائمات على يد شيخه ، حتى يتأهل لمعاملة ربه عز وجل بلا واسطة ، فإن الشيخ سلم للرقى فن لم يصح له قدم في الأدب مع شيخه فلا يصح له ترقى إلى الأدب مع الله عز وجل ^(١) .

وهذا الخلق ربما يدعيه بعض المريدين وهو كاذب فيه ، من حيث لا يشعر ، فليمتحن نفسه بما لو منعه شيخه وظيفة أو خلوة أو مسكنًا كان بلاشواق إلى وصوله إليه ، وأعطاه لشخص من اعداء ذلك المريد ، فإن انشرح لذلك ورضى به من غير حزازة في نفسه ، فهو صادق وإلا فهو كاذب ، إذ لو كان صادقاً لقدم مرضاة شيخه ، وترقى من ذلك إلى تقديم مرضاة ربه علي مرضاة خلقه .

وكذلك يمتحن نفسه بفضب شيخه على شخص من قرابته هو ، أو من أصدقائه ممن ينصره وبخاصة مع الاعداء ، ويجب عنه إذا تكلم أحد في عرضه من ورائه ، فإن رأى نفسه صارت تكره ذلك القريب أو ذلك الصديق ظاهراً وباطناً ، لأجل عرض شيخه فهو صادق ، وإلا فهو كاذب وسيأتى أنه ورد في الحديث : أن شخصاً يؤتى به يوم القيامة ومعه أعمال كالجبال فيؤمر به إلى النار ، فتقول الملائكة : يا ربنا قد كان من عمله كذا وكذا من صلاة وصيام وحج وصدقة ، وغير ذلك فيقول الله تعالى قد كان من عمله ذلك ، ولكنك لا يوالى من والانى ، ولا يعادى من عادانى انتهى .

وكذلك سيأتى أن شخصاً من علماء بنى إسرائيل كان يهظ الناس فبينما المجاس غاص يأمله ، إذ غمز ولده امرأة أجنبية فالتفت الواعظ إليه ، وقال : مهلاً يا ولدى ما هكذا بالأدب ، فأرسل الله تعالى ملكاً فحمل الكراشى بالواعظ وقلبه ، فقطع وجه الواعظ ،

(١) إقتداءً في ذلك بفعل الصحابة مع رسول الله ﷺ وفعل التابعين مع آل البيت وضوان الله عليهم ، وعلى كل فليس للمريد سبب إلى الطريق الصوفى إلا بواسطة شيخه .

وأوحى إلى نبي ذلك الزمان : أما كان من خيرة فلان لى أن يقول : مهلا يا ولدى من خير
إظهار غضب عليه انتهى .

أى فلو أن الواعظ كان عنده خيرة للحق لضرب وجه ولده بالفعل حتى قطعه كما فعل
الملك حين اللقاء بالكرسى .

فاعلم ذلك واعمل به ان أردت الترقى فى المقامات إلى حضرة الله والحمد لله
رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة محبتهم للأعمال الصالحة ومحبتهم
لأن يضاف إلى غيرهم عكس المرائيين

فإذا ألف أحدهم كتاباً وفتح الله تعالى عليه فيه بعلوم ومعارف أضائها لغيره ، من هو
أهل لذلك ^(١) .

وإذا أخذ أحد منهم صدقة ليفرقها على الفقراء والمساكين خلط عليها من ماله ما وجد
يحيث لا يشعر به أحد ^(٢) .

وإذا عمر ضريح شخص من الصالحين بعده ونوره ، ومدحه الناس على ذلك ، حتى
وصل الأمر إلى الباشاه مثلاً ، يود أنه لو كان نسب إلى غيره من أقرانه .

وإذا سمع الناس يقولون عنه : أنه ما عمر هذا الضريح إلا ليقال عنه : أنه من
الصالحين ، وأنه من الخرقه ولم يعمره الله تعالى يفرح بذلك .

وقد جاء فقير يعمر سيدي خضر الكردي شيخ الملك الظاهر أبا الفتوحات بعدد
نوره نحو ثلاثين سنة ، فاشتهر في مصر أن فلاناً عمر ضريح فلان ، فجاء فقير آخر ليساعد
ذلك الفقير في العمارة ، فباغ الباشاه أن ما عمر ضريح الشيخ الهلاني إلا ذلك الفقير الثاني
فقصده الباشاه زيارة ضريح ذلك الشيخ ، وشكر الفقير الثاني دون الأول ، فلا تسأل

(١) وكذلك كان يفعل الإمام أبي العباس المرسى مع شيعته أبي الحسن الشاذلي وكذلك
الإمام ابن عطاء الله الكندي مع أستاذه أبي العباس المرسى وعلى ذلك درج أغلب الأولياء
وعلماء الصوفية .

(٢) كانت السيدة عائشة رضوان الله عليها تطيب الدراهم التي تصدق بها ثم تبعثها مع
خدامها إلى الفقراء ، وعندما يعود الخادم تسأله ماذا قال لك ، فيقول الخادم مثلاً إنه دعا
بدعوات ، فكانت تدعو هي للفقير حتى لا تكون هذه الدعوات في مقابل الصدقة ، فإنها
ما أرسلت هذه الصدقة إلا لله تعالى دون انتظار مكافأة عليها من الفقير ، وكذلك كان
يصل غيرها من الصحابة وقارن بين ذلك وبين موقف من يتصدق ليرأى .

يا أخى ما وقع من الفقير الأول فى حق الثانى . فليحذر الفقير من مثل ذلك ويحذر نيته الصالحة فى كل عمل يمدح عليه وينتشر عنه فى البلد .

وسمعت سيدى علياً الخواص رحمه الله يقول : ما دثر^(١) ضريح ولى قط وخرب وبطل مولده إلا باختياره للخفا على الظهور ، فليتنبه الفقير الذى يعمره لمثل ذلك ، وينظر من طريق كشفه فإن رأى خاطره يحب الظهور عمره ، وإلا تركه دائراً لا يزوره أحد تقديماً لمرضاة ذلك الشيخ على مرضاته هو .

وربما كانت العارة من مال حرام ، أو شبهة ، أو من أهوية النفس ، فيؤذى نفسه من وجهين : وجه مخالفة غرض ذلك الولى ووجه مشيه هو فى هوى نفسه .

وقد كان شيخى الشيخ أحمد البهلول^(٢) يحب الخفا حتى أنه أوصى بأنه لا يجعل على قبره علامة وقال : ادفنوني خارج باب القرافة فى الفسحة التى على يسار الخارج من الرملة لباب القرافة فى حارة هرب اليسار .

فقلت له : أن النبى ﷺ أمر بجعل العلامة على رأس القبر وقال : اتعلم بها قبر أخى (يعنى عثمان بن مظعون) وادفن إليه من مات من أهلى .

فقال : إني ما كرهت الظهور إلا من جهة دق الناس تابوت ذلك الفقير الذى يرون عليه سترًا وتحمله حملاتهم .

ولم يكن هذا المعنى فى عصر رسول الله ﷺ ، ولا عصر الصحابة لقوة الإيمان فى

(١) يقصد ما اندثر ضريح .

(٢) كان رضى الله عنه يقول : لاندفنوني إلا خارج باب القرافة فى الشارع ولا تجعلوا لقبرى شاهداً ودعوا البهائم والبغال تمنى على واحذروا أن تجعلوا على قبرى تابوتاً أو سترًا يبقى كل من مر على يدق تابوتى بمنعنى أن أسترخ فى القبر ، فقالوا له : قد عملنا لك قبراً فى جامع بطيخة ، فقال : إن قدرتم أن تحملوني ففعلوا فعجزوا أن يحركوا النعش إلى ناحية الجامع فلما حملوه جهة القرافة خف عليهم رضى الله عنه .
مات سنة ثمان وعشرين وتسعمائة رضى الله عنه .

ذلك الزمان ، وأما الآن فقد أفلس غالبهم من كمال الإيمان ، وكثرت معاصيهم ، فآلقوا حملاتهم^(١) على كل من ظنوا فيه الإصلاح ، فربما دقوا تابوت أحد في قضاء حاجة فتضيت موافقة قدر أو دقوه على هزل ظالم ، فعزل أو مات .

فصار الناس يقولون : الشيخ الغلاني سره ظاهره ، فيكثروا من دق تابوته ، فلا يتركونه يتهدى في قبره فاهل ذلك .

وأعرض هذا الخلق وما قبله على نفسك واقرا نك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

(١) يقصد بذلك ذهاب الناس إلى الأضرحة وتوسلهم إلى الله بالولي الذي فيه .

ومن أخلاقهم عدم الثقة بأصدقائهم في كل زمان

فكيف بمن يصحبهم على نفاق وملك فلا يظهرون سرهم لأحد إلا إن علموا من طريق كشفهم أن ذلك الصديق يكتّم ما أودعوه عنده من السر بطريقه الشرعي شفقة عليه أن ينقص دينه بإفشاءه .

وقد كان سفيان الثوري رضي الله عنه يقول : والله ما آمن على نفسي في هذا الزمان إذا خالفت غرض أعز أصدقائي فكيف آمن غير الصديق ؟

وفي رواية أخرى : ما آمن صديقي على نفسي إذا خالفت أغراضه أن يسمى في سفك دمي عند سلطان جائر فكيف آمن عدوي ؟ انتهى .

وهذا باب أغفله كثير من الناس فأفشوا أسرارهم إلى من ظنوا فيه الصداقة وفي لمح البصر صار عدواً وأذاً كل الأذى . فيحتاج الفقير في هذا الزمان إلى صبر شديد على كتمان أسرار الله تعالى في العالم كما أشار إليه الإمام زين العابدين بقوله :

يارب جوهر علم لو ابوح به لقليل لي أنت ممن يعبد الوثنا

ولا ستحل رجال مسلمون دمي يرون أقبح ما يأتونه حسنا (انتهى)

وقد طلب الشيخ شمس الدين الأبوصيري أحد أصحاب سيدي أبو السعود الجارحي رحمه الله أن يطلعه الشيخ على شيء من أسرار الطريق فقال له الشيخ أبو السعود والله ما آمنك على إخراج ريح بمفركك فكيف أطلعك على الأسرار الآلمية^(١) انتهى .

وكذلك بلغنا أن جماعة طلبوا من سيدي الشيخ أبي عبد الله القرشي أن يطلعهم على

(١) ولعل كثير من الإنكار الذي يجيء على الصوفية من جهة الفقهاء وغيرهم جاءهم من وضع أسرارهم في أيدي الجاهلين بقيمتها فيبلغونها ويذيعونها إلى الناس محرقة ويدون أي تفسير لظروفها وزمانها ومكانها .

شيء من الأسرار فقال لهم : كم أصحابي اليوم ، فقالوا ستاية رجل فقال : اختاروا منهم مائة فاختاروا .

ثم قال : اختاروا من المائة عشرين فاختاروا .

ثم قال : اختاروا من العشرين أربعة فاختاروا .

فقال : لو تكلمت لكم بشيء من الأسرار لكان أول من يفنى يضرب عنقي هؤلاء الأربعة أى غيرة لظاهر الشريعة فاعلم ذلك يا أخى واعمل به والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم كثرة إمتحانهم لأصحابهم إلا لفرض شرعى خوفاً أن يفضحهم وقد قيل لاسكندر رحمه الله : لم لا تمتحن أصحابك فقال : إذن نخرج كلنا نحاساً انتهى .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : إياكم وكثرة الامتحان لأصحابكم فإن الله تعالى لم يمتحن من عباده إلا النادر خوفاً أن يفضحهم بين يديه بإظهار ما كان كامناً عندهم .

قال : ومن تأمل نفسه بعين الانصاف وجد نفسه كلها عيوب ضم بعضها إلى بعض فصارت صورة تشبه صورة الأدمى ، فالعبد وإن كان خياراً من جهة ، فهو شر من جهات عديدة^(١) .

وكان رضى الله عنه يقول لنا كثيراً : إن كان ولا بد لكم من امتحان أصحابكم فامتنحوا نفوسكم فى دعاويها الكاذبة ، فإن لكم فيه لشغلا وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام : يا داود إذا اطلمت على عيب أحد من بنى إسرائيل ، فاستح من اطلائك ، فإنى أستحى من عبدى أن يشهدنى فى حال عصيانه لئلا ينجس منى ، فلذلك ضربت الحجاب بينى وبينه حال المصيبة ، حتى يفرغ منها انتهى والحمد لله رب العالمين .

(١) يقصد بذلك عدم الإسراف فى امتحان المريدين وتضييع الأمور عليهم سواء من ناحية الطريق الصوفى أو من ناحية التكاليف الشرعية أو خدمتهم للإخوان وأيضاً الصبر عليهم وخاصة فى أول طريقهم إلى الله تعالى .

ومن أخلاقهم عدم ظنهم في أحد من المسلمين بسوء الحق^(١)

من قول أحدهم : إنما انتفعت من التقدم لصلاة الجنازة مراعاة لخاطر فلان خوفاً أن يتكدر في نفسه فإنه جملة ممن يحب الرياسة فليمتنع أحدهم من التقدم أدباً مع أخيه لا لظنه فيه أنه يحب الرياسة .

وقد وقع لي أنني حضرت جنازة الشيخ محب الدين بن الدهان الخنفي في جامع الأزهر ، فكان هناك شخص من العلماء ، فوقف عند النعش لظنه أنهم لا يقدمون أحداً عليه .

فقال أولاد الشيخ : إنه أوصى بأنه لا يصلى عليه إلا عبد الوهاب^(٢) ، فكان ذلك العالم أن يتميز من النيط حتى أدرك ذلك منه الحاضرون ، فكذبته صيانة للخرقة عن أن يكون أحدها ، فإياك يا أخى وسوء الظن ، ثم إياك ، وكذب ظنك للسوء في الناس ما استطعت والحمد لله رب العالمين .

(١) ربما يقصد بسوء ما حق .

(٢) يقصد المؤلف نفسه ، أى عبد الوهاب الشعراني .

ومن أخلاقهم عدم تكبيرهم أحداً أن يقوم لهم أو يقبل يدهم فضلاً عن رجلهم
وكراهتهم لذلك لأن عيوبهم مشهودة لهم مع تجدد الساعات ، فإذا قبل أحد يدهم
يسكادون يندوبون من شدة الحياء من الله عز وجل .

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يزجر من يريد تقبيل يده أشد الزجر ويقول :
إنما يليق ذلك لأرباب المناصب أما الفقير ، فاللائق به الذل حتى يجاوز الصراط ،
ويدخل الجنة هذا ما عليه جمهور العارفين ، وقد خالف قوم منهم أبو يزيد وكان لا يمنع
أحداً منهم من تقبيل يده ولا من التمسح بمرقعته ، ويقول : إنما يعظم هؤلاء خلعة ربي
التي خلعها علي لأنا انتهى .

وكان سيدي علي بن فخره الله يقول : من صار في رتبة الحجر الأسود في كتمان
أمرار العباد ، والصبر على تقبيله ومسحه بغبر صدق مع علمه بذلك منهم ، ثم يكتمه
عليهم فله أن يمكن الناس من تقبيل يده ^(١) ، والافتنهم من ذلك واجب لعدم أهليته
لذلك والحمد لله رب العالمين .

(١) ولا يكون ذلك داخلاً في دائرة الكبر المنهى عنه فإن يكون الرجل بهذه الصفة
فإنه يستحق ذلك ولعل الإمام الشعراني يقصد الشخص للناس لهذه الصفات ويقصد أيضاً
تعليم المريدين شدة الحياء في هذا الأمر وأن يتواضعوا لله عز وجل .

ومن أخلافهم كثرة تنفيرهم للاخوان عن أن يرسلوا إليهم طعاماً

أو هدية إلا بعد استئذانهم في ذلك

فإنه ما كل طعام يصلح للإنفرا أكله ، لاسيما أواخر أعمارهم ولا يقبل ان ارسال الناس الطعام من حيث لا يحسب الإنسان اكله أولى لأن ذلك محله ما إذا كان صاحبه متورعاً عن الحرام والشبهات بقربنة قواعد الشريعة فافهم ، اياك والمبادرة إلى الاعتراض على من يرد ما جاءه من غير سؤال .

وتد من الله تعالى على بالعمل بهذا الخلق ، حتى اننى أتشوش ممن يرسل إلى هدية جفیر اذنى ، ولولم نستشرف نفسى لذلك ، وأهملت الاخوان أن فى أكلى من طعامهم عدة مفسد منها خراب قلبى إذا أكلت طعامهم ، فلا يصح لى بعد ذلك توجه إلى الله تعالى فى قضاء حوائجهم إذا الغالب على كسبهم الغش والخوف والبيع على الظلمة من المكاسين وأكلة الربا^(١) ونحو ذلك ، وإذا أكلت من طعامهم صرت فى ضعف التوجه إلى الله تعالى كأحدهم ، فطلبت لى أنا الآخر أحداً يتوجه إلى الله فى قضاء حاجتى ، إذ صدق للتوجه إلى الله تعالى راجع إلى قوة الحال فى اللقمة والخلقة .

ومنها ان قبولى إحساناً من هداياهم يحدث عند أحدهم إدلالاً على بعد ذلك ، فلا يصير يخاف من مخالفتى فيما أنصح به لأجله ، فيقل نفع الصحبة بينى وبينه^(٢) وغير ذلك مما ذكرناه فى اللين الكبرى والحمد لله رب العالمين .

(١) يقصد أنهم فى تجارتهم أو تعاملهم ، يتعاملون مع أناس كسبهم حرام فى بعض الأحيان وهم لا يدرون فالإمام الشعرانى يتورع عن الأكل من هداياهم أو أخذها إتياءاً شهية وإلا فإنهم لا يزيدون عن كونهم كأغلب تجار اليوم لا يستطيعون معرفة الأشخاص الذين يتعاملون معهم ولا من أى طريق يكسبون .

(٢) ولعل ذلك هو السبب الأساسى لرفض الإمام الشعرانى لقبول الهدايا .

ومن أخلاقهم : كثرة مساعدتهم بمقوقهم إذا أخل بها الناس

وعدم مساعدتهم لأصحابهم ، إذا أخلوا بمقوق الناس الأجانب ، واسكن لا يبالغون في معانبتهم لأن كثرة للعاتبة تورث إسقاط حرمة العاتب ونزع وده من القلب ، وإنما كانوا يساحون الاخوان وغيرهم بالاخلاق بمقوقهم لأنهم لا يرون لأنفسهم مقاماً يخافون من نقص بين الناس فلو ذمهم الناس إلى الطرف الأقصى ، فذلك عندهم دون ما يعلونه من نفوسهم .

وقد كان هطاء السلى يقول إذا خالفه عبده : ما أشبه حالك معى بحالى مع ربى عز وجل ، فعلم ان كل فقير تكدر من كلام قيل فيه ، فهو صاحب دهوته ليس له في مقام الصادقين نصيب إلا أن يكون ذلك لغرض صحيح كما مر والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم اختارهم بالمرأى الحسنة التي يراها الناس لهم

لأنها تؤخذ بضعف إيمان من وؤيت له ولو أنه كان قوى الإيمان عادة لما احتاج إلى شيء يقويه ، ولذلك كان للمريدون يرون لأنفسهم المرأى الحسنة بخلاف العارفين فربما وأى العارف مرأى مهولة تقشعر منها بدنه ، وذلك حتى لا يستحسن من أحواله شيئاً فإن كل ما استحسنه العبد من أعماله ، فهو هباء منثور فلا بد من مناقشة فيه يوم القيامة ، لأن استحسن العبد لشيء من أعماله يعميه عن تلك النقائص الكامنة فيها ويمنعه من المزيد ، فلم ان اعتناء الحق تعالى بالعارفين أكل من اعتنائه بالمريدين .

فأعرض هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالتهم والحمد لله

وب المالمين .

ومن أخلاقهم عدم اجابتهن لمن دعاهن إلى وليمة بقصد النفاخر

بحضور الناس لاسيما المتمشيعين بأنفسهم فربما عمل أحدهم مولداً ودعاً كابر الأشياخ إليه ليقول الناس : لولا ان هذا شيخ عظيم ما أجابه أشياخ الطريق ، ولكل شيء قرأين قدل عليه ، ومن قرأين الرياء في تلك الدهوة ان صاحبها يصير يمزق عرض كل من تخلف ولم يحضر أو يعتب عليه ، فأما الحضور ان كان فيه خير فذلك الممتع هو الذي فوت نفسه الخير ، وان لم يكن في الحضور خير فقد استراح منه ولا ينبغي العتب عليه انتهى .

ومن أخلاقهم شهودهم أن القائمين في الكسب بالبيع

والشراء وعمل الحرفة أفضل منهم

ولو كانت أعمالهم كالجبال لأن من لا حرفة له من البقراء ربما أكل بدينه ويرجع ثواب تلك الأعمال التي تقوى عليها بطعامهم في صحايفهم فيخرج من الدنيا صفر اليدين من الأعمال الصالحة :

وكان سيدى إبراهيم المتبولى رحمه الله يقول قد أكرم الله تعالى المحترفة بأمر فضلوا بها على المتعبدين من غير حرفة^(١) :

الأول : أن أعمال أحدهم له لكونه يأكل من كسبه لا من صدقات الناس وأوقافهم .

الثانى : عدم دهموا العلم وتكبره به على الجاهلين فيشهد حقارة نفسه وتعظيم غيره .

الثالث : سلامته من الشبه العقلية في الله تعالى وفي رسله وأحكامه .

الرابع : أنه إذا وقع في معصية يصير يشهد قبحها لا يرى أنه عمل شيئاً يكفرها حتى يلقى الله تعالى وغير ذلك مما ذكرناه في كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

(١) ولعل من الأمور التي كثيراً ما تنتقد على الصوفية عدم عمل بعضهم والامام الشعراني حائنه للريدين ذلك فقد كان الأنبياء يعملون ويأكلون من كسب يدهم ، وكان الصحابة يعملون ويأكلون من كسب يدهم ، وكذلك للتابعين ومن تابعهم بإحسان إلى يوم الدين . وفي الحديث : عن النبي ﷺ قال : « اليد العليا خير من اليد السفلى ، وأبدأ بمن تحول ، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ومن يستغف بعفه الله » ، رواه البخارى . وقال ﷺ : « كفى بالمرء إثماً أن يحبس عن يملك قوت » ، رواه مسلم .

ومن أخلاقهم هدم مقابلة المسمى بالإساءة

لأنهم في مقام الاحسان يرون انهم في حضرة الله تعالى ، ويرون انه الخالق لأفعال عبادهم ، فكلاما سبهم انسان مثلاً يشهدون الخالق لذلك لامن برز ذلك السب على لسانه ، ثم لما ينقض ذلك الشهود فلا بد لهم من التنزل لشهود نسبة الأفعال إلى الخلق فينكرون عليهم سبهم بغير حق نصحابهم لالعلمة أخرى لأن من تعدى حدود الله يجب الانكار عليه ، سواء أكان ذلك التعمدي في حق المنكر أو في حق غيره ، فعلم أنه لولا أن أهل الله تعالى في حضرة الاحسان لما استطاعوا تحمل السب من غيرهم لأنهم ان شهدوا خالق السب وجب عليهم الرضى أو الصبر جزماً ، لمعجزهم عن شهود من يرسلون خضبهم عليه وان نزلوا عن ذلك المشهد رأوا الخلق عبيد الله تعالى ، فأكرمهم لأجله ، وان نزلوا عن ذلك رؤاهم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم شفيعهم عند الله تعالى ، فأكرمهم لأجله ، وان نزلوا عن ذلك رؤاهم اخوانهم في الدين فأكرمهم لأجل الاخوة رضى الله عنهم تعالى أجمعين ^(١) .

فاعرض ياخى هذا الخلق وماقبله على نفسك وأقرانك تعرف الحال والحمد لله رب العالمين .

(١) يقول الله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .

وقال تعالى : « فاصفح الصفح الجميل » .

وقال تعالى « وليعفووا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم » .

وقال تعالى : « والماعفين عن الناس والله يحب المحسنين » .

وعن السيدة عائشة رضوان الله عليها ، أنها قالت للنبي ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟

قال : لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيته منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يحبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى وإذا أنا بسحابة قد أظلتنى فنظرت فإذا فيها

.

جبريل عليه السلام ، فناداني فقال : إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال ، لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملك الجبال فسلم علي ، ثم قال : يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال ، وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك ، فما شئت إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً . متفق عليه .

ومن أخلاقهم إقامة العذر لآخوانهم إذا لم بقدرُوا على
الصبر عن مقابلة من آذاهم

لعدم قدرتهم على المكث في حضرة الاحسان فإن الأحوال قد فسدت ومراسم الأمور قد
تغيرت ، وتبدلت ، واكتفى الناس بالأقوال عن الأفعال ، وعم البلاء خواصنا وعوامنا ،
وظهر من الناس اخلاق الذباب تارة وأخلاق النعالب تارة وأخلاق السباع تارة ، وأخلاق
البهائم تارة ، وأخلاق الجن ، والشياطين تارة حتى لا يكاد الإنسان يرى في أحدهم أخلاق
أحد من كل المؤمنين إلا في النادر .

فالعاقل من عذر الناس بما يعذر به نفسه ، ولا ينبغي له أن يخرج عليهم في أحوالهم ،
ويلبس نفسه ، والكن ينبغي لأكابر العلماء والصالحين أن يكون لأحدهم ، سفيه يسافه
عنه في بعض الأوقات ، التي يحجب فيها عن ربه ، لأن الحياء الطبيعي ، وإن كان محموداً من
أصله ، فقد يحتاج العبد إلى تركه في بعض الأوقات ، كما هو مشاهد في مقابلة قليل الحياء
بنظير فعله ، لئلا يتسع الخرق في قلة الحياء بالكلية ، وخرج بالحياء الطبيعي الحياء
الشرعي ، فذاك مطلوب لا يحمل تركه وهو حياء العبد من ربه أن يراه تاركاً لأمره ،
أو غير مجتنب لنهيه ، وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب المنن والحمد لله
رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم بذورهم علومهم ومعارفهم في غير محل قابل^(١)

لأن ذلك كالزرع في أرض السباح .

وسمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله يقول : إذا تكرم الحق تعالى عليكم بمدد من علم أو حال ، فتكرموا به على من رأيتموه صادقاً في همته كامل الخلق في نشأته ، فإنه أذكى لزرعكم وإياكم أن تتكرموا به على من كان بالضد من ذلك فتكونوا بمن يبذر بذره في أرض سبخة ، فلا تثمر لكم زرعاً بل لا يطاع أصلاً ، قال : ومن علامة طيب أرض قلب المرید أن يكون ذليل النفس منكس الرأس يفرح إذا حقره الناس وآذوه ، ومع ذلك فيؤثرهم على نفسه ولا يطلب منهم جزاء في الدارين ، فمثل هذا ينبغي للشيخ أن لا يدخر عنه شيئاً من المدد لشدة إخلاصه انتهى والحمد لله رب العالمين .

(١) وكما قلنا من قبل أن سبب إنكار بعض الناس على بعض الصوفية هو إطلاع جهلاء الناس على بعض العلوم والمعارف عندهم فيحرفونها فتصل إلى الناس كأن فيها محرمات وما شابه ذلك .

ومن أخلاقهم : أن أحدهم يزداد قلبه بالسلب تمكيننا و يقينا

وذلك لأنهم مع الله تعالى ، بما أحب لا مع نفوسهم بما تحب .

وكلما سلبهم الحق تعالى للمقامات ، والأحوال كلما تمسكنوا في مقام العبودية ، الذي هو محل تقريبات الحق تعالى ، وكلما أضاف إليهم الأمور ، وللمقامات كلما بعدوا من حضرة الله تعالى برؤيتهم الشراكة لهم مع الله تعالى بنسبة الأمور إليهم ، فلا يكاد يتبرأ من نسبة الأمور إليه دون الله تعالى ببادي الرأي إلا السكل من الرجال فالعبد الصادق من لا يرى له ملكاً مع الله تعالى في الدارين ، إنما هو يأكل من مال سيده ويلبس منه ويسكن داره من غير شهود ملك شيء من ذلك له ، فلا على صاحب هذا المقام من كون الحق تعالى أعطاه شيئاً في الكونين ، أو لم يعطه لأنه تعالى ولو أعطاه شيئاً يجب عليه الخروج منه فوراً إلى الله تعالى فلا يدعه يقيم تحت تصرفه إلا بقدر ما يتحقق بنسبة الإعطائه فقط ، ليشكر الله تعالى على إذنه له في التصريف فيه لا غير ثم بعد ذلك يستغفر الله تعالى ويقول في نفسه : لولا أن الحق تعالى علم منى محبة للمشاركة له بدهوى للملك لما أضاف إلي شيئاً من الوجود ، وهذا للشهد قد صار غريباً في هذا الزمان .

فأعرض يا خي هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلانهم : عدم العمل برأى النساء في هذا الزمان

الذى صار رأى غالب الرجال فيه ناقصاً فكيف برأى النساء .

وإعما كره القوم العمل برأى النساء لعلمهم بأن محبة الرجل للمرأة تكون في الغالب بحكم الطبع والشهوة ، وما تم أميل من النساء للرجال وعكسه لافتقار كل منهما للآخر شهوة وطبعاً وحالاً ، وقد شرع الحق تعالى الاستخارة للعباد ، فأغنتهم عن مشاورة غيرهم إلا إذا استخار أحدهم ولم يظهر له الخيرة في ذلك الأمر ، فله حينئذ أن يشاور إخوانه فالذين جربوا الأمور ، وخالطوا أهل الدنيا دون العباد والزهاد المقبلين على العبادة ، خيأنهم في الغالب لا معرفة لهم بأمور الدنيا فتدبيرهم ناقص والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كراهم لتعلمهم علوم الفلاسفة الأول

كعلم الرمل وعلم الحرف وغيرها لأنها تطلب في الغالب للتأثير في العالم ، ولتحصيل أمور دنيوية قد لا تكون مقسومة لأحدهم وأهل الله تعالى يهربون من مثل ذلك ،

ثم إن وقع لأحد من الفقراء أنه تعلمها وعمل بها التأثيرات في العالم من تولية الحكم أو عزلهم أو قتالهم مثلا ، فليس ذلك من كرامته على الله تعالى ، إنما ذلك من باب الخاصية كالدواء المسهل فإنه يسهل متناوله بالخاصية لا بالمسكانة عند الله تعالى ،

وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله عنه يقول : وعزة ربي إن عباد الأوثان أهلاهم ممن يطلب علم الحرف لأغراض دنيوية لأن عباد الأوثان قالوا : ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زافى ، وهؤلاء طلبوا علم الحرف^(١) ليقربهم إلى الدنيا ، وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب المن الوسطى .

فاعرض يا أخي هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حاك وحالهم .
والحمد لله رب العالمين .

(١) وأغلب الطرق التي نراها الآن تنهى مريديها عن تعلم هذا العلم أو غيره من علوم البزرجة فإن هذه العلوم كثيرا ما تنخدع المريد فيتكل عليها ويترك طريق التصوف المبين على الحقيقة الآتية من لدن الله سبحانه وتعالى ويتجه إلى تلك العلوم ظاناً منه أن ذلك أقصر طريق للوصول إلى الله وربما انحرفت نحو الإتجار بها والمراعاة عند الناس بحال تظهر على يديه من الخوارق التي لم يعتادها الناس .

ومن أخلاقهم : كثرة نصيحهم لإخوانهم بحكم العادة

لكن لا يخرجون إلى حد المكاشفة بعيوب الناس وتقايصهم ، التي يفعلونها في ميوتهم ، وهذا الأمر يقع فيه كثير ممن لم يسلك على يد شيخ ويرون أنهم صاروا علي قسهم عظيم والحال أنهم إخوان الشياطين ، لأن كل كشف اطلع صاحبه على عيوب الناس فهو كشف شيطاني يجب عليه التوبة منه فوراً ، بخلاف الكشف الذي يطلع به العبد على كالات الناس ومحاسن أعمالهم ، وقد وقع لي ذلك مرة فسألت الله تعالى الحجاب فحجبني عنه فله الفضل على كل حال والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : شهودهم أن جميع ما معهم من العلوم والمعارف
وغيرها كله عارية من الله تعالى لهم

ولذلك لو نسبهم أحد إلى الجهل لا يتأثرون منه لأن لسان حال من نسبهم إلى الجهل
يقول لهم : هذه العلوم التي معكم ليست لكم فهو صادق في قوله عندهم فكيف
يتأثرون منه .

وفي القرآن العظيم (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها^(١)) وهي وإن
كانت واردة في شأن مفتاح الكعبة ، فالمعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب غالبا .
وقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول :

من أراد أن يعلم جهله ونقص مرتبته في العلم فليرد كل قول علمه أو فهمه في سائر
الأحكام إلى قائله وينظر بعد ذلك في نفسه فما بقي معه فهو علمه قال :
واظنه لا يبقى معه إلا القليل الذي لا يسمى به عالما^(٢) والحمد لله رب العالمين .

(١) النساء آية : ٥٨ .

(٢) قال الفضيل بن عياض : من رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب .
وسئل الفضيل عن التواضع ، فقال : تنحضع للحق ، وتنقاد له وتقبله بمن قاله .
وقال الفضيل : أوحى الله إلى الجبال ، أني مكلم على واحد منكم نبيا .. فتناولت
الجبال ، وتواضع « طور سينا » فكلم الله سبحانه ، عليه موسى عليه السلام لتواضعه .
وسئل الجنيد عن التواضع ؛ فقال :
خفض الجناح للخلق ، ولين الجانب لهم .
وقيل لأبي يزيد : متى يكون الرجل متواضعا ؟ فقال : إذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا
ولا يرى أن في الخلق من هو شر منه .

ومن أخلاقهم : أن لا يجيبوا من طلب منهم مسألة من العلم

مثلاً وقلبه غافل

بل يرشده إلى تعلم آداب العلم ، ثم يجيبوه بعد ذلك لأن من طلب زيادة العلم ، فقد طلب زيادة النكليف ، فاللايق به البكاء وحضور القلب لا الغفلة والضحك ، وقد قال إبراهيم بن أدهم :

مررت على حجر مكتوب عليه اقلبنى تعتبر .

قال : فقلبتة فإذا فيه منقوش : أنت بما تعلم لاتعمل ، فكيف تطلب علم مالا تعلم ، انتهى .

وقد تقدم بسط ذلك أوائل هذا الكتاب .

وسأل شخص الشعبي رحمه الله تعالى عن مسألة وهو يضحك ، فمجره ثلاثة أشهر ، حتى ساق عليه العلماء ، واستغفر ققبل الشعبي توبته ثم قال له :

ياولدى إنما يطلب العلم للعمل ، والأدب مع الله تعالى ، فلا ينبغي لغافل أن يأخذه وهو يضحك وإنما اللايق به أن يأخذه وهو يبكي خوفاً أن لا يوفى بالعمل به فيدخل النار ، انتهى .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

إذا توقف أحدكم في فهم آية ، أو حديث أو غيرهما ، فليعلم أن قلبه مظلم من أكل الحرام ، والشبهات وكثرة اللغو والهذيان ، فليعمل على جلاء مرآة قلبه من الصدأ والغبار ، فيفهم كل كلام سمعه من كلام العرب ، كأنه باغته ولسانه ، ثم ينبغي للشيخ أن يرشد إلى ذلك جميع طلبته فإن لم يرشدهم إلى جلاء مرآة قلوبهم ، فجميع مايتعلمونه منه لا يقيم عندهم ، حتى يعملوا به أو يعلموه للناس بل يذهب بذهاب أحدهم من الدرس ، وقد أغفل هذا الأمر جماعة من علماء زماننا فبنروا عليهم لمن لا يصلح لحله ، واتعبوا أنفسهم في تقريرهم ، ولا يمكن مع أحدهم شيء مما يسمعه ، حتى أنه يقال لبعضهم : ماذا استغنت اليوم من درس الشيخ ؟

يقول : كان درساً عظيماً ، وأبدا الشيخ فيه العجايب والغرائب فيقال له : فقل لنا منه مسألة ، فيقول : لا أقدر أن أكلم به ، انتهى .

وسمعتة مرة أخرى يقول :

إعملوا على جلاء مرآة قلوبكم لتفهموا العلم ، فإن لم تعملوا على الجلاء فلا تطلبوا زيادة العلم ، ويكفيكم العمل بما ثبت عندكم من العلم ، وفهمتموه ببادي الرأي ، فإن كل شيء توقفت في فهمه دل على أنكم لستم من أهله ، ولو أرادكم تعالى للعمل به لفهمه لكم ، وكان شيخنا الشيخ أمين الدين رحمه الله يقول :

والله ما كنا نظن أننا نعيش إلى زمان صار العالم يقول لطلبته إذا جاؤ اذهبوا إلى خد ، فإني ما طالعت لكم شيئاً ، فإن ذلك يدل على أن العلم قد صار في لسانه دون قلبه فيلقيه على أثر مطالعته ثم ينساه عن قرب ، انتهى .

وكان رحمه الله تعالى لا يعلم العلم إلا لمن يراه عازماً على العمل به معظماً له خائفاً من هدم العمل به ، فإن لم يره كذلك سكنت عنه ولم يجبه إلى مسألة ويقول :

هؤلاء يستهزئون بالعلم وقد درج السلف الصالح كلهم على ذلك .

فاعرض يا أخي هذا الخلق وما قبله علي نفسك وأقرانك تعرف حالك وخالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : تعظيمهم لكل من حمل العلم والقرآن العظيم^(١)

وإن لم يكن عاملاً بذلك إلا كراً ، لما حمل من الوحي والعلم ، ومن توقف في تعظيم العلماء علي تظاهروهم بالعمل بكل ما علموه فاته تعظيمهم ، فلم يزل العلماء في كل عصر يزيد علمهم على عملهم ، وذلك لأن العلم مقدمة العمل فهو دائماً سابق زائد ، وقد يكون ذلك العالم ممن يخفي أعماله الصالحة لاسيما إن رأى في بلده من يظهر عمله ، ويقتدى الناس به ، فإن الخفاء بعد ذلك يسكون غيره أولى لأن هذا الذي أظهر العمل قد قام بشعار الدين وصار إماماً يقتدى به ولا ينبغي أن يكون للمؤمنين في مكان واحد إلا إمام واحد .

وأنا أدلك يا أخي على شيء تعرف به العالم العامل ، وتستغنى به عن رؤية تظاهره بالعمل ، وهوان تراه خاشعاً لله تعالى خائفاً منه قليل الجدال في العلم إلا بطريقة الشرعي يرى نفسه من أقل الناس لا يسكاد يعرف أنه من أهل العلم إلا من خالطه يتوقف عن المبادرة إلى ترجيح شيء من الأقوال برأى أو قياس ، فكل من رأيناه كذلك فهو قليل واضح على عمله بعلمه باطنياً ، والحمد لله رب العالمين .

(١) عن سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (خيركم من علم القرآن وعلمه) رواه البخاري .

وعن السيدة عائشة رضوان الله عليها قالت : قال رسول الله ﷺ : (الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتمتع فيه وهو عليه شاق له أجران) متفق عليه .

وعن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين) رواه مسلم .

وعن النبي ﷺ قال : لا حسد إلا في اثنين رجل أتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل أتاه الله ما لا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار) متفق عليه .

ومن أخلاقهم عدم شكواهم من
أذاهم إلى الله تعالى

وعدم دعاهم عليه ، بل عدم شكواهم إلى نفوسهم ، فضلا عن غيرهم من الخلق
اكتفاء بعلم الله عز وجل ، فإنهم في حضرته على الدوام ويعلمون أن الحق تعالى ناظر
إلى جميع ما يفعله عباده مع بعضهم بعضاً ، وهو المؤاخذ والمعاقب لهم حقيقة ومن شكى
منهم إلى الله تعالى في تلك الحاضرة ، فقد أساء الأدب لإتهامه للحق تعالى في أنه لا يأخذ
له حقه ، فعلم أنهم لو كانوا لا يهتمونه في ذلك ما أجابوا عن أنفسهم في حضرته ولا شكوا
من أذاهم إليه ، ولا إلى خلقه ، بل كانوا يكرمونه لله تعالى أو لرسوله كما مر تقريره مراراً
وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول :

لا ينبغي للفقير أن يبادر إلى الشكوى من الناس إذا آذوه ، فربما كان ذلك الأذى
هقوبة له على ذنوبه السالفة .

وسمعت سيدي محمد الشناوي رحمه الله يقول :

الفقير إن انتصر لنفسه تعب ، وإن سلم أمره لمولاه واكتفى بعلمه فيه نصره من غير
أهل ولا مال ولا عشيرة انتهى .

وقبيح على الفقير أن يسافه من سافهه أو يشتم من شتمه لاسيما من كان شيخاً في زاوية
فإن ذلك من أقبح القبيح ، وربما اقتدى به في ذلك فقراء الزاوية وصار لهم ذلك في
هنة ، لأنهم كلهم ناظرون إلى أفعاله إليه في أفعاله ، ثم ينحل الأمر بعد ذلك إلى عدم
نصرة الحق تعالى لذلك الشيخ الذي شتم من شتمه وبهذه بين الناس ، وهم احترامهم
له ومن هنا يقول أهل مكة لمن شتم أحداً « حشم نفسك » يعنى إنك إن شتمت
شتمناك ولو من وراءك^(١) انتهى .

(١) سئل الجنيد عن الصبر ، فقال : هو تجرع المرارة من غير تعيس .

وقال ذو النون : الصبر : التباعد عن المحالقات والسكون عند تجرع غصص البلية ،
وإظهار الفن مع حلول الفقر بساحات المعيشة .

فأرض يا أخى بالشم من حيث تقدير ذلك هليك وإن لم ترض فاصبر لا نزل من ذلك .
فاعرض يا أخى هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعلم حالك وحالهم والحمد لله
رب العالمين .

وقال ابن عطاء : الصبر الوقوف مع البلاء بحسن الأدب .
وقال الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه : والصبر مطية لا تكبو .
وقال أبو عبد الله بن خفيف : الصبر على ثلاثة أقسام : متصبر ، وصابر ، وصبار .

ومن أخلاقهم : عملهم على تحصيل كمال مقام إيمانهم قبل كل مقام حتى يصير يوم القيامة ، وأهواله ، وما فيه كآته رأى عين عندهم ، فإن كمال مقام العبد في الإيمان هو أن يصير الغيب عنده كالشهادة في عدم دخول الشك فيه حتى يسرى منه الأمان إلى جميع العالم ، فيأمنه الناس على أنفسهم وأموالهم وحريمهم من غير أن يتخللهم تهمة في ذلك وسمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله يقول :

الاساس الذي يبنى عليه المؤمن جميع أعماله هو الإيمان فإذا لم من النقص فذلك هو السعيد ، وكان يقول .

لأن يأتي العبد بقراب الأرض خطايا وإيمانه كامل وظنه في الله تعالى حسن خيره من أن يأتي بالطاعات وفي إيمانه ثلثة وظنه في الله تعالى سيء ومن هنا استنبط القوم أن للمريد لو وقع في حقهم كل الوقوع وهو معتقد فيهم الصلاح لسامحوه عملا بحديث .

« يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم جئتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة » ^(١) أو كما قال .

(١) وتمام الحديث : عن أنس رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى : (يا ابن آدم إنك مادعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي . يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك . يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة) . رواه القزويني وقال : حديث حسن .

ويقول الإمام النووي في ذلك : أعلم أن المختار للعبد في حال صحته أن يكون خائفا راجيا ويكون خوفه ورجاؤه سواء وفي حال المرض يمحض الرجاء وقواعد الشرع من نصوص الكتاب والسنة وغير ذلك متظاهرة على ذلك .

قال الله تعالى : (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) .

وقال تعالى : (إنه لا يأسى من روح الله إلا القوم الكافرون) .

وقال تعالى (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) .

فلا يضر المريد إلا شركه غير شيخه كشيخه في المحبة لا يضره ترك خدمة ولا ترك
بر ولا إحسان فعلم أن لهم هجر المريد إذا أشرك بهم أحداً في المحبة المعروفة عندهم وهم
المساحة له في ذلك ، لأن القوم على الاخلاق الآمية وقد قال الله تعالى : « إن الله لا يغفر
أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ^(١) » فافهم .

وإياك والمبادرة إلى الانكار على من تغير على مریده لما اعتقد غيره وحمله على الغيرة ،
فإن ذلك سوء ظن بالقوم ، فإنهم إنما هم في ذلك على هدى وحق خوفاً على المريد أن
يتزلزل اعتقاده في أي الشيخين اكل فلا يحصل له نفع من أحد منهما ، فهو مثل من يشك
في أن الله تعالى واحد وإثمان لا يصح توحيده والحمد لله رب العالمين .

وقال تعالى : (إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم) .

وقال تعالى : (إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم) .

وقال تعالى : فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه
فأما هاهنا .

والآيات في هذا المعنى كثيرة فيجتمع الخوف والرجاء في آيتين مقترتين أو آيات
قو آية .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لو يعلم المؤمن ما عند الله
من العقوبة ما طمع بجنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد)
رواه مسلم .

(١) سورة النساء آية : ٤٨ .

ومن أخلاقهم قصدهم ابتغاء مرضات الله تعالى في كل قول أو فعل

دون قصد ما لنفسهم في ذلك من الراحة والثواب ، فيزهدون في الدنيا مثلاً من حيث ما بلغهم أنها مبعوضة لله تعالى ، وأنه تعالى من منذ خلقها لم ينظر إليها ، فلذلك لم يحبوها خوفاً أن يحشروا معها يوم القيامة ، لأن المرء مع من أحب ^(١) ، فلذلك كانوا لا يحبون شيئاً أخبر الحق تعالى أنه يبغضه ، وكرهوا أن يحشروا مع مبعوض لم ينظر الله تعالى إليه منذ خلقه أى — نظر رضى عنه ورحمة لا نظر تدبير قافهم .

فعل ان القوم لم يسكروا الدنيا ولم يزهدوا فيها لراحة البدن بالأصالة ، فإن ذلك حاصل لهم بحكم التبعية ، لزهدهم فيها ابتغاء رضوان الله تعالى .

وقد قررنا مراراً أن الزاهدين مازهدوا حقيقة إلا فيما لم يقسم لهم وأما ما قسم لهم فلا يصح لأحد الزهد فيه بأن يتركه ، وإنما الزهد فيه يكون بترك الميل إليه عادة بحيث يبخل به عن مستحقه ويشغل به عن ربه ، وإلا فن كل الولي إمساكه الدنيا ، ثم يتصرف فيها تصرف حكيم عليم ، فينفق منها على نفسه ، وهيباله ، وإخوانه ، وغيرهم ممن ندبه الشرع إلى الإحسان إليه ، ولو كان الزهد فيها هدم إمساكها لفسد نظام العالم ، ولم يجز لأحد إمساك شيء من المال فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

(١) عبارة من حديث هو : عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : كيف تقول في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم ، فقال رسول الله ﷺ : (المرء مع من أحب) متفق عليه .

وفي الحديث : عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل (رواه أبو داود والترمذى بإسناد صحيح وقال الترمذى : حديث حسن :)

ومن أخلاقهم أنهم لا يتجردون عن لباس الثياب الفاخرة مثلا

ولا يلبسون الخرقه التي تستر عورتهم فقط إلا إن كان باطنهم متجردا عن حب الدنيا كذلك ، خوفا أن يسكتبوا في جريدة المنافقين ومادام باطنهم لم يتجرد عن محبة الدنيا فهم يلبسون الثياب الفاخرة من الجوخ والأصواف والمضربات ، خوفا أن يخالف ظاهرهم باطنهم ، فإن مبنى امرهم كله على الصدق ^(١) .

يقول الهجویری فی كشف المحجوب : أعلم أن ليس المرقعة شعار المتصوف . ولبس المرقعات سنة ، ومن قال الرسول عليه السلام : « عليكم بلباس الصوف تجدون حلاوة الإيمان في قلوبكم » رواه الحاكم في المستدرک عن أبي أمامة .
ويقول أيضا واحد من الصحابة رضى الله عنهم : كان النبي ﷺ يلبس الصوف ويركب الحمار .

وقال الرسول ﷺ أيضا لعائشة رضى الله عنها : « لاتضعي الثوب حتى ترفعيه » وقال : عليكم بلباس الصوف لتدركوا حلاوة الإيمان .
وروى عن عمر رضى الله عنه أنه كانت له مرقعة عليها ثلاثون رقعة ويرد عنه أنه قال أيضا : خير الثياب أقلها مؤنة . ويرد عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه أنه كان له قميص لا يصل كاه إلى أصابعه ، وكان إذا وجد لديه قميص أطول من هذا يقص طرف كبه .
وأمر الله عز وجل الرسول ﷺ بتقصير الثياب في قوله تعالى : « وثيابك فطهر » .
أى : فقصر .

ويقول الحسن البصرى رحمه الله : رأيت سبعين بدريا يلبسون جميعا ثيابا من الصوف . والصدیق الأكبر رضى الله عنه لبس ثوب للصوف في حال التجريد .
ويقول الحسن البصرى رحمه الله : رأيت سلمان وقد لبس كاجاذا رقع كثيرة .

ويروى أن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب رضوان الله عليهما ، وهرم بن حبان رضى الله عنه رأوا أويسا القرنى وكان يلبس ثوبا من الصوف عليه رقع كثيرة .
وكان الحسن البصرى ومالك بن دينار وسفيان الثورى « رحمة الله عليهم ، أصحاب مرقعات صوفية . ويروى عن الإمام الأعظم أبى حنيفة وهذا مكتوب في كتاب تاريخ

المشايخ الذى ألفه محمد بن على الترمذى — أنه كان أولا يلبس الصوف ويقصد العزلة إلى أن رأى الرسول عليه السلام فى النوم يقول له : ينبغى لك أن تكون بين الخلق لأنك سبب إحياء سننى . وعندئذ كف عن العزلة . ولم يكن يلبس أبدا ثوبا غالبا ، وأمر داود الطائى رحمه الله بلبس الصوف ، وكان من الصوفية المحققين .

وجاء إبراهيم بن أدهم أبا حنيفة رحمه الله وعليه مرقعة من الصوف فنظر إليه أصحابه — أبى حنيفة — بين الإحتقار .

فقال أبو حنيفة : جاء سيدنا إبراهيم بن أدهم ؟ فقال له : أصحابه : لايجزى الهزل على لسان إمام المسلمين ، فهم وجد هذه السيادة ؟ قال : بالمدامومة على الخدمة ، فقد انشغل بخدمة الله ، وانشغلنا بخدمة أنفسنا حتى صار سيدنا .

وإذا كان مراد بعض أهل هذا الزمان من لبس المرقعات والخرق طلب الجاه وإجمال بين الخلق ، أو أنهم بقلوبهم غير موافقين لطواهرهم ، فمن الجائز أن يكون فى الجيش مبارز واحد ، والمحققون فى كل الطوائف قليل ، ولكن الجميع ينسبون إليهم حينما يشبهونهم فى شىء من الأحكام ، لقوله عليه السلام : « من تشبه بقوم فهو منهم » أى : كل من يتولى قوما يفعل ذلك بعمل أو باعتقاد ، ولكن فريقا نظر إلى رسم الصوفية وظاهر معاملاتهم ، ونظر فريق إلى سرهم وصفاء باطنهم . وفى الجملة ، كل من يقصد حجة المتصوفة لا يخرج عن أربعة معان :

فريق يطلعه صفاء باطنه وجلاء ظاهره ولطف طبعه واعتدال مزاجه على صحة أسرارهم فيرون قرب المحققين — من الصوفية — ورفعة كبرائهم ، وتتمكن منهم الرغبة فى هذه الدرجة ، فيتعلقون بهم عن بصيرة . وتكون بداية حال هؤلاء — على كشف الأحوال والتجرد عن الهوى ، والإعراض عن النفس .

وفريق — ثان — يطلعه صلاح جسده وعفة قلبه وسكون وسلامة صدره على أظهارهم فيرون ممارستهم للشرعية وحفظهم لأداب الإسلام وحسن معاملاتهم فيقصدون صحبتهم ، ويختارون ممارسة الصلاح . وتكون بداية حال هؤلاء على المجاهدة وحسن المعاملة .

وفريق — ثالث — تهديه مروءة إنسانيته وظرف مجالسته وحسن سيرته ، فيروى حيانهم للظاهرة مزدانه بالظرف والمروءة : من الحرمة مع الكبار ، والفتوة مع الصغار ، وحسن المعاشرة مع الأقران ، فيقصدون صحبتهم مستريحين من طلب الزيادة ، وراضين

بالقناعة ، ويسهلون على أنفسهم طريق الجهد والمشقة في طلب الدنيا ، ويجعلون أنفسهم بالفراغ من المشاغل من جملة الأخيار .

وفريق - رابع - يقوده إلى أفعالهم كسل طبعه ورعوته نفسه وطلبه الريا بلا آلة ، وإرادته التصدر بلا فضل ، وبخنه عن التخصيص بلا علم ، ويظن أنه ليس هنالك من أمورهم غير هذا الأمر الظاهر ، فيقصد صحبتهم . وهم يلاينونه بالخلق والكرم ويعيشون معه بحكم المسامحة ، لأنه ليس في قلوبهم شيء من حديث الحق ، ولا على أجسادهم شيء من المجاهدة في طلب الطريقة ، ويريدون أن يرعى الخلق حرمتهم كالمحققين ، ويجلوهم كما يجلون خواص الله عز وجل ، ويبغون من صحبتهم لهم والتعلق بهم أن يخفوا آفاتهم في صلاحهم ، ويلبسون ثيابهم وهي بدون المعاملة تصرخ بكذبهم ، كقوله تعالى : « كمثل الخمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله » .

وهذا الفريق هم الأغلب في هذه الأيام . فليكن لزاما عليك إذن أن لا تقصد ما ليس بك ، لأنك لو قلت ألف سنة بقبول الطريقة لا يكون ذلك كأن تقبلك الطريقة لحظة واحدة ، لأن هذا الأمر لا يكون بالحرقة ، بل باكرقة وحين يكون الرجل حارفا بالطريقة يستوى لديه القباء والعباء ، وحين يكون غريبا عنها تكون مرقعته رقعته الأدبار ومنشور الشقاء يوم النشور كما قيل لذلك الشيخ الكبير : « لم لا تلبس مرقعة ؟ فقال : من النفاق أن تلبس لباس الفتيان ولا تدخل في حمل أنقال الفتوة » .

فإذا كنت تلبس هذا اللباس ليعرف الله أنك من خواصه فهو يعرفك بغير لباس ، وإذا كنت تلبسه لتظهر للخلق أنك لله ، فإن تكن كذلك فهو رياء ، وإن لم تكن فهو نفاق . وهذا طريق صعب مليء بالخطر ، وأهل الحق أجل من أن يعرفوا بالثياب ، « فالصفاء من الله إنعام وإكرام ، والصوف من لباس الأنعام » فالحلية حيلة ، وفريق يجعلون الحيلة قرينة ، فهم يعملون ما عليهم ويجلون ظاهرهم وأملهم أن يكونوا منهم .

وقد أمر مشايخ هذه الطريقة المريدين بأن يتحلوا بالمرقعات ويتزينوا بها ، وفعلواهم أيضا ذلك ، لتكون لهم علامة بين الخلق ، ويكون الخلق رقباء عليهم ، فإذا خطوا خطوة على خلاف ، يطلقون فيهم لسان الملامة وإذا أرادوا إتيان المعصية في تلك الثياب ، فإنهم لا يستطيعون خجلا من الخلق .

وكذلك من أخلاقهم أنهم لا يلبسون النقى البياض من الثياب إلا ان علموا نقاء باطنهم من كل شيء يسكره الله تعالى ، ومادام في باطنهم شهوة يسكرها الله تعالى فهم لا يلبسون نقى البياض إلا بأمر شرعى كلبس البياض يوم الجمعة ، فلما بعد أن يلبس البياض فيه بل يستحب ، ولو كان باطنه غير نقى من الأدناس ، وهو من قاعدة ان الميسر لا يسقط بالمعسور .

وفى الجملة : المرقعة زينة لأولياء الله عز وجل ، يعز بها العوام ويذل بها الخواص ، وعز العوام هو أنهم حين يرتدونها يحترمهم الخلق ، وذل الخواص هو أنهم حين يرتدونها ينظر إليهم الخلق بعين العلوم ويلومونهم بذلك ، فهى « لباس النعم للعوام ، وجوش البلاء للخواص » لأن أكثر العوام يكونون فيها مضطرين حين تقصر أيديهم عن عمل آخر ، ولا تكون لهم آلة أخرى لطلب الجاه ، فيطلبون بها الرياسة ، ويجعلونها سبباً لجمع النعم . ثم إن الخواص يقولون بترك الرياسة ويؤثرون الذل على العز ، فتكون لهؤلاء بلاء ، ولأولئك نعماء : « المرقعة قبض الوفاء لأهل الصفاء ، وسربال السرور لأهل الغرور » ، ليتجرد أهل الصفاء بلبسها من الكونيين ، وينقطعوا بها عن المألوفات ، ويحجب بها أهل الغرور عن الحق ، وينقطعوا بها عن الصلاح .

وجلة القول : المرقعة سمة الصلاح وسبب الفلاح للجميع . والمراد من كل هذا هو أنها تكون الصلاح لواحد والعطاء لآخر ، والغطاء لواحد والوظائف لآخر ، وأرجوا أن يفلحوا جميعاً بحسن صحبتهم ومحبتهم لبعضهم البعض ، فقد قال الرسول ﷺ : « من أحب قوماً فهو معهم » ولكن ينبغي أن تطلب لباطنك التحقيق ، وأن تعرض عن الرسوم ، لأن كل من يكتفى بظواهر الأشياء لا يصل إلى التحقيق أبداً .

واعلم أن وجود الآدمية حجاب الربوبية ، ولا يفي الحجاب إلا بدور الأحوال والقرينة فى المقامات . والصفاء اسم ذلك الفناء ، واختيار اللباس لفانى الصفة محال ، وتزيين النفس بالتكلف غير ممكن ، وإذا ظهر فناء الصفة وزالت آفة للطبيعة من الوجود ، فسواء لديه أنسمى بالصوفى أو باسم آخر . (كشف المحجوب للهجویری ، دراسة وترجمة وتعليق : دكتورة إسعاد عبد الهادى قنديل) .

فعلم ان اللائق بأمثالنا الثياب السود والزرق على الدوام لأنه لم يصح لنا لقاء الباطن
من كل دنس ، وأما غيرنا ، فإذا رأيناه يلبس الثياب النقية وجب علينا حسن الظن به ،
واقه ما لبس ذلك إلا بعد لقاء باطنه ، ولا يجوز لنا قياس حاله على حالنا ظاهراً .

واعرض هذا الخلق وما قبله على نفسك واقرانك تعرف مقامك ومقامهم والحمد لله
رب العالمين .

ومن أخلاقهم شهود الضعف في نفوسهم دائماً

حتى أن بعضهم يهجز عن حمل ثوبه ، فلا يستطيع أنه يلبس ثوباً مطلقاً ، ولولا أن
ستر العورة واجب على أحدهم لما لبس الأزار ، وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاته ، فأيام
والمبادرة إلى الإنكار على من رأته هرياناً أصلاً إلا بطريق شرعى وقد مرّح سيدي
إبراهيم الدسوقي وسيدي علي بن وفا بذلك في رسائلهما ، وقال سيدي علي :

بلغت من شهود الضعف في نفسي حال صحتي إلى أنى لو أردت حمل ثيوني لما قدرت ،
وهذا الأمر يحصل لهم في أوقات لا مطلقاً حتى لا يستطيع أحدهم القيام ، فيصلى قاعداً
فيظن من لا معرفة له بأحوال القوم أنهم يصلون النوافل جلوساً ، مع القدرة عملاً برخصة
الشريعة ، لسكونهم لم يتقدم لهم مرض بل عهدهم بهم في عافية ، ولا علم لهم بالوارد الذي
ورد على أحدهم فقد أركانه فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم التساهل بأخذهم أموال الناس بالباطل

أو يأخذونها بحق ويتساهلون في وفائها ، حتى ان بعضهم رجع من سفر فرأى في أمتعته قلماً استعاره من البلد الذي خرج منه ، فسافر مسيرة شهر في رده ، وبعضهم سافر مسيرة عشرة أيام في ردابة فقيل له : أرسل له أضفاف ثمنها فقال : قد لا يرضيه ذلك يوم القيامة ويطلب عين أيرته .

ووقع للشبلي رضى الله تعالى عنه أنه أخذ درهماً من بايع الباقلاء أيام ولايته ، فلما دخل طريق القوم تصدق عن صاحبه بالوف بعد أن فنش عليه ، فلم يجد فـكان يقول بعد ذلك :

قد تصدقت عن صاحبه بالوف وما على قلبي أثقل منه انتهى .

فلم أن من ادعى انه من أهل الطريق وتساهل في حقوق الناس وأحوج صاحب الحق للوقوف على حاكم فهو كاذب لم يشم من طريق القوم رايحة كما هو شأن أولاد المشايخ الغانمين الحرد وشأن من ادعى الطريق بغير شيخ ، فيقول : وهل لأحد مع الله تعالى ملك ويزعم أنه صار موحداً لله تعالى ، فيقال له : يا هذا ان الذى قلت انه هو المالك الحقيقى هو الذى نهاك عن أخذ ما فى يد عباده بغير طريق شرعى وهناك تندحض حجته ، وقد أجمع القوم على أن نور المعرفة لا يطفىء نور الورع وبالجملـة فلا يقع فى مثل ذلك إلا من لا يؤمن بيوم الحساب والحمد لله رب العالمين ^(١) .

(١) يقول إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه : الورع ترك كل شبهة ؛ وترك ما لا يعينك : هو ترك الفضلات .

وقال سفيان الثوري : ما رأيت أسهل من الورع : ما حاك فى نفسك تركته .

وقال يونس بن عبيد : الورع : الخروج عن كل شبهة ، ومحاسبة النفس فى كل طرفة .

وقيل : جاءت أخت بشر الحافى إلى أحمد بن حنبل وقالت : إنا نغزل على سطوحنا ،

نخمر بنا مشاعل الظاهرية ، ويقع السماع علينا ، أفيجوز لنا للغزل فى شعاعها ؟

فقال أحمد : من أنت ؟ عافاك الله تعالى .

فقلت : أخت بشر الحافي .

فبكى أحد وقال : من يتسكّم يخرج الورع الصادق ، لا تنزلى في شعاعها .

وقال سهل : الحلال للصافي : الذي لا ينسى الله تعالى فيه .

ودخل الحسن البصري مكة ، فرأى غلاماً من أولاد علي بن أبي طالب ، رضى الله عنه

قد أسند ظهره إلى الكعبة يعظ للناس ، فوثب عليه الحسن وقال له : ما ملاك الدين ؟

فقال : الورع . فقال له : فما آفة الدين ؟ فقال : الطمع !! فتعجب الحسن منه .

وقال الحسن : مثقال ذرة من الورع السالم (أى الخالص من الرياء والكبر) خير من

ألف منقال من الصوم والصلاة وقال سهل بن عبد الله : من لم يصحبه الورع أكل رأس

الفيل ولم يشبع .

وقال أبو هريرة : جلساء الله تعالى غداً : أهل الورع والزهد .

ومن أخلافهم : كراهمم لوقوع يدهم على فرجهم من خير حاجة

أكراماً للقرآن وكتب العلم والسبحة التي يسبحون عليها ، ويدكرون اسم الله عليها ، بل وقع لبعضهم أن رجله صدمت مسبحته فغشى عليه ، ومن هنا أدمن الفقراء الصادقون ليس السر أو يل ، حتى لا تقع يدهم على فرجهم .

وقد بلغنا أن مريداً من جماعة الشيخ نجم الدين الكبرى ^(١) وقعت يده على فرجه في الخلوة فتوقف عليه الفتح مدة طويلة ، وهو يستحي أن يذكر ذلك للشيخ ، فلما خرج من الخلوة بعد الفتح قال له : الشيخ قد علمت بوقوع يديك على فرجك ولكن لما علمت شدة خجلك من ذلك لم أعلمك باطلاعي على ذلك .

وكل شيخ لم يعط الحق تعالى الاطلاع على حركات مريده وسكناته ، فليس له أن يخلي أحداً لأنه محجوب ، ثم قال : كيف يجلس العبد بين يدي الله تعالى ويضع يده على فرجه ، أما علمت أن من كان في الخلوة ، فهو في حضرة الله تعالى ، ولذلك يعملون له طعاماً ، لما يخرج من الخلوة إكراماً له لكونه ، ورد من حضرة الله تعالى عليهم انتهى والحمد لله رب العالمين :

(١) أحد أئمة الصوفية وأكابر الأولياء .

يقول عنه الإمام الشعراني في الأجوبة المرضية : جاء الشيخ فخر الدين الرازي يطلب الطريق على يد الشيخ نجم الدين الكبرى في ألف طالب يمشون وراءه من بلاد الري فبلغ ذلك الشيخ نجم الدين فقال : أنه لا يطبق الطريق ، فلما وصل إلى رباط الشيخ بطلت وسلم عليه قال : يا أخي ما أقدمك إلى بلادنا ؟ فقال جئت أطلب الطريق إلى الله تعالى فقال له الشيخ لا تطبق ذلك ، فقال : بلى أطبق إن شاء الله تعالى ، فراجعته مرات والشيخ فخر الدين يابى إلا أن يتنازل له ، ثم أدخله الشيخ نجم الدين الخلوة وسلبه جميع ما كان معه من العلوم فلما شعر بذلك صاح : لا أطيق ، لا أطيق فاخرجه الشيخ وقال له : يا فخر الدين أعجبني صفتك وقال له : يا فخر الدين كيف تطلب الطريق إلى الله مع حبك للرياسة على الأقران وتكبرك عليهم ؟ وماذا عليك أن تكون عند الله عز وجل لا تكون لك إلى غيره ، ولا دعوى عندك للملك شيء في الوجود ، فسكى الشيخ فخر الدين وقال خسرتنا وفاز غيرنا ، فقال الشيخ : قد صرت من معارفنا وكنا نود أن تكون من أصحابنا فلم يقدر ذلك ، فحسب لي بلادك بسلام .

ومن أخلافهم محبة المصافحة عقب مجلس الذكر

لجميع إخوانهم رجاء المغفرة لهم دون تمكينهم من تقبيل اليد ، ثم مسحون باليد التي صاغت إخوانهم على وجوههم رجاء البركة .

فعلم ان أحداً من القوم لا يصح له أن يرى نفسه على أحد من مريديه ، فهو يسلكهم ، ويربهم ، ويعلمهم الآداب حال شهوده أنهم أحسن منه حالا عند الله تعالى .

فلا تظن يا أخى ان أحداً من القوم يرى نفسه على أحد من مريديه أبداً ولذلك يكاد أحدهم يذرب إذا قبل أحد يده ، فالناس يقبلون يدهم إكراماً لهم وهم يكرهون ذلك منهم نظير القيام لهم على حد سوا والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم إيتارهم جناب الحق تعالى على جنابهم

حتى أنهم يكرهون للمريد أن يشركهم في المحبة مع الحق تعالى في المحبة إيتاراً لجناب الحق تعالى ، ولولا أن لمحبة الشيخ اثرآ في تقريب الفتح على المريد ، لما مكنوه من محبته لهم أصلاً ، فعلى المريد أن يحبهم وعليهم الكراهة لذلك .

وقد بلغنا عن الشيخ القطب أبي مدين التلمساني رضي الله تعالى عنه أنه رأى الفتح بعيداً على مريد مع شدة اجتهاده في المحبة للعبادة فنظر في سبب ذلك ، فإذا هو محبة الشيخ فقال له الشيخ :

اترك محبتى يفتح عليك ففعل ففتح عليه تلك الليلة ، فرضى الله تعالى عن الصادقين .

فاعرض هذا الخلق وما قبله على نفسك واقرا نك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم تقريرهم فقراء الأحمديّة والبرهانية والرفاعية

على اكتفائهم بمشايخهم الذين ماتوا

فأنهم صاروا في البرزخ لا التفات لهم إلى إرشاد أحد من الخلق وإن وقع أنهم أرشدوا
أحدًا وهم في قبورهم ، فذلك من باب الكرامة كما وقع لسيدى أحمد البدوى ، وسيدى
إبراهيم الدسوقي فإنهما ربيا خلقا كثيرا في قبرهما .

وقد درج القوم كلهم على اتخاذهم الأشياخ بعد موت أشياخهم ، ولم يكتفوا بتوجيههم
إليهم في قبورهم ، ولما مات سيدى الشيخ محمد السروى ^(١) شيخ شيخنا الشيخ محمد
الشناوى اجتمع سيدى محمد الشناوى بسيدى على المرصفى رضى الله عنهم وأخذ عنه
الطريق وقال :

كرهت أن أمكث ساعة بلا أستاذ .

مع أنه كان ماذونًا له في تربية المريدين من أستاذه ولقن المريدين ورباهم سنين في حياة
شيخه وهذا الأمر لا يقع إلا من الصادقين أما أصحاب الرعونات فلا يقدرّون على نفوسهم
تتكبس للأخذ عن أحد بعد الإذن من أستاذهم فالحمد لله رب العالمين .

(١) هو الشيخ محمد السروى رضى الله عنه : من أجلاء مشايخ مصر : كان يقول :
ما رأينا قط أحدًا وصل إلى الله بمجرد قراءة الأحزاب والأوراد .
وكان يقول : نحن ما نعرف إلا لا إله إلا الله بعزم وهمة .
مات رحمه الله سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة .

ومن أخلاقهم عدم مبادرتهم إلى الإنكار على من
أمر أحدا من تلامذته بحلق لحيته مثلاً

فربما كان ذلك منهم امتحاناً له لينظروا اذعاناً وامتناناً لما يأمرونه به لا وقوع ذلك
الفعل حقيقة ، كما أمر الله تعالى أبانا السيد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام بذبح ولده
وكان المراد منه امتثال الأمر لا الذبح إذ لو أراد الله تعالى ذبحه لم يفده بالكبش
فيجب على الشخص أن يترصد في إنكاره ولا ينكر إلا بعد علم محقق ، ولكن قل
من يصبر من المنتصرين على ذلك .

وقد كنا مرة في دعوة وفيها الشيخ بهاء الدين المجنوب ^(١) فرمانا بقله قبيها ماء ،
فصعدت إلى السقف ، ثم هبطت ، فقال فقيه كسر الفلة ، فقال له الشيخ تكذب يا فقيه
فوقعت على الأرض جالسة صحيحه لم ينقص من مائها شيء .

ونقل الشيخ عبد الغفار القوصي أن بعض الأولياء كان جالسا يعظ الناس ،
فنزل من الكرسي وضرب شخصاً على رأسه من السامعين ، ثم رجع إلى الكرسي
فقيه ^(٢) : هذا حرام عليك ايش عمل هذا حتى تضربه ؟ فقال المضروب : أنا أستحق
ذلك لأنني اغتبت في نفسي ولياً من الأولياء المدفونين فضررتني تعزيراً ، فحجل ذلك
الفقيه من الشيخ ، ثم انه نزل وضرب شخصاً آخر فسأله عن ذلك ، فقال : إنه خطر في
نفسه انه أفضل من العلماء الحاضرين ، وقال له : كيف تفضل نفسك أما علمت أن ذلك
ذنوب إبليس الذي أخرج به من الجنة ، فقال الشخص : استغفر الله تعالى وتاب
من ذلك .

(١) هو الشيخ بهاء الدين المجنوب : كان رضى الله عنه من أكابر العارفين وكان
كشفه لا يحطى وكان رضى الله عنه خطيباً في جامع الميدان ، وكان أحد شهود القاضى .
مات رحمه الله سنة نيف وعشرين وتسعمائة .

(٢) ربما يقصد (فقال فقيه) .

وكذلك لا ينبغي لأحد أن يبادر إلى الإنكار علي من أمره شيخه بحلق لحيته
وحلقها فرما كان ذلك من شيخه ليدفع به عنه الكبر والفخر ، فقصده به هضم نفسه
من باب ارتكاب اخف المفسدتين ، فإن الكبر من الكبائر وغاية حلق اللحية انه
صغير عند بعضهم ، فاعلم ذلك واهرضه وماقبله على نفسك وإخوانك تعرف مقامك
ومقامهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : الزاور لبعضهم بعضا كما اشتاقوا لبعضهم
ووجدوا نية سالحة ، وان وقع أن أحدهم لم يزور أخاه وبخ نفسه على ذلك .
وسمعت سيدي على الخواص رحمه الله تعالى يقول :
الزيارة الإخوان تزيد في دين الإنسان وتركها ينقص دينه ، لأنها كتمليح النخل^(١)
انتهى .

وقد كان الإمام الشافعي يزور الإمام أحمد رضي الله تعالى عنهما كثيرا يزوره
الآخر كذلك وأشد الإمام الشافعي في ذلك :

قالوا يزورك أحمد فتزوره قلت الفضائل لا تفارق منزله
ان زارني فبفضله أوزوته فبفضله فالفضل في الحالين له
فأبه الإمام أحمد رضي الله عنه :

ان زرتنا فبفضل منك تمنحنا أونحن زرنا فبفضل الذي فيكما
فلا عدمننا كلا الحالين منك ولا نال الذي يتمنى فيك شانيكما
ثم لم مات الإمام الشافعي رثاه الإمام أحمد بقوله :

يا جوهر الجوهر المكنون من مضر ومن قریش ومن ساداتها الغرر
لما توليت ولي العلم مكنتيها وضر موتك أهل البدو والحضر
وهذا الخلق قد صار غريبا في هذا الزمان فلا تسكاد ترى فقيرا يزور أخاه إلا قليلا
فكثرت الضغائن بينهم وما هكنا أدركنا المشايخ رضي الله عنهم ، فخر ياخي نيتك
وزر اخواك وإن لم يزورك واسقط عنهم المكافأة والحمد لله رب العالمين .

(١) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (من طاد مريضاً أو زار أخاه في
الله ناداه مناد بأن طبت وطاب ممشاك وتبوات من الجنة منزلاً) .
رواه الترمذي وقال حديث حسن .

ومن أخلاقهم : تعليم أصحابهم العفة عن مال الوقف

الذين يتكلمون عليه والتقليل من الاكل إذا دعاهم أحد إلى طعامه ما أمكن ، وهذا باب قد أغفله غالب الناس اليوم ، وقد ظفرت طول عمرى بسبعة أنفس من الأمناء أحدهم الشيخ إبراهيم السند بصطى رحمه الله الذى كانت عمارة زاويةنا وجميع مساكنها على يديه ، فنماطى جباية مال وقف الزاوية نحو اثنتى عشر سنة ، فلم أعلم انه اختلس من مالها درهما واحدا مدة جبايته وعمارته وأصل ذلك اتحاده بى وسماحه لشارتى ، وكان إذا أتى بهدية للفقراء لا يلحس منها الحصة من ورأهم ، ولما حضرته الوفاة أوصى ولده بوصايا منها ان جميع ثيابى لعبد الوهاب ، وان كفتنى فذلك من فضله ، ثم وليت بعده شخصاً آخر فتشرب قلبه حب الدنيا ، وخالفنى وأظهر لى العفة والزهد فلما مات وجدوا بعده فى مدة يسيرة نحو خمماية دينار ذهباً ، ومات وهو يقول : يامالى يامالى ، فاسأل الله أن يتجاوز عنه بفضله آمين والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن لا يستجلبوا أحدا من أبناء الدنيا لصحبته

وكالدفتردار وشيخ العرب والكاشف وأعوانهم ، إلا إن هلموا من طريق كشفهم
أن له نصيبا عندهم من التربية وتعليم الادب ، وقبول الشفاعة ، ونحو ذلك وإذا لم يكشف
لهم ، فمن الأدب عدم استجلابه ولكن ان جاءهم هو من ذات نفسه قبلوه ، وسارقه
في تعليم الأدب ، وتخفيف المظالم ما أمكن .

وقد برز في هذا الزمان جماعة يستجلبون صحبة مشايخ العرب والكشاف غير هرض
صحيح ظاهر ، فأساء الولاة ظنهم بأمثالهم من الصادقين ، وهدلوا الطريق ، فالله تعالى
يلطف بنا وبهم .

وقد رأيت شخصا من تلامذة شيخ بدعي القطبية في حياة شيخه ، ثم بعد ذلك يسأل
الولاة أن يعطوه الارز ، والبسلة ، والعسل ، والقمح ، والعدس ، وما هكذا درج الأشياء
الذين أدر كناها .

فاياك ياخي أن تستجلب أحدا من الولاة لصحبتك إلا بطريق شرعي .

فاعرض هذا الخلق وما قبله علي نفسك ، وعلى أقرانك تعرف حالك وحالهم
والحمد لله رب العالمين ^(١) .

(١) يقول الإمام القشيري : ومن شأن اللريد : التباعد عن أبناء الدنيا ، فإن صحبتهم
سم مجرب ١١ لأنهم ينتقصون به وهو ينتقص بهم ، قال الله تعالى : « ولا تطع من أغفلنا
قلبه عن ذكرنا » .

وأن الزهاد يخرجون المال عن الكيس تقربا إلى الله تعالى ، وأهل الصفاء يخرجون
خلق المعارف من القلب تحققا بالله تعالى .

ومن أخلافهم كثرة سؤالهم الله تعالى أن يسلب
عنهم الحال الذي يؤذى من أذاهم

فإن ذلك خروج عن طريق العارفين فلوان الوجود كله قام عليهم بالاذى ماتغير
منهم شعرة ، ثم أنهم لا يرون ذلك مقاماً عظيماً ، لأنه مقام إبليس ، فإنه اجتمع بسهل بن
عبد الله التستري وقال له :

يا سهل أنا أهلى مقاماً فى الرضى بعلم الله تعالى منكم .

فقال : كيف ؟

فقال : لأن الواحد منكم إذا قام عليه أهل بلدة بالتنقيص يتغير منه كل شعرة ،
ولا يقنع بعلم الله تعالى فيه ، والوجود كله يلغنى ، فلم تتغير منى شعرة اكتفاءً بعلم
الله تعالى في .

وقد كان سيدى أحمد بن الرفاعى رحمه الله يقول :

بلغنى ان النار الكبرى يوم القيامة تنزوى من المؤمن صاحب الحال وتقول جز
يامؤمن فقد أطفئ نورك لى وعر عليها الولى الكبير فتصيب جوانبه النار انتهى .

وايضاح ذلك ان العارف قد سلم أمره لمولاه ، وصار كالميت بين يدى خاسله ورأى
جسمه ملكاً للحق تعالى لالنفسه ، فسقطت مدافعتا عنه اللهم إلا ان يكون مشبه
ان الله تعالى أمنه على جسمه ونهاه عن أن يلقي بنفسه إلى التهلكة ، فهذا لا يضره دفع
النار عن جسمه يوم القيامة كما هو حاله فى الحياة الدنيا ، وقد مر قوامه ستر سيدى أحمد
الزاهد ، فلم يعرف سارقه فقال بعض الناس : لو كان لهذا الشيخ سر لقيده السارق حتى
مسكوه ، فقلت لهم : حكم السر حكم القميص ، ولو أن السارق سرق قميص الشيخ في
حال حياته ماتأثر منه بل كان يرى ذمته فى الدنيا والآخرة ، فإن حاله فى البرزخ لا يخالف
حاله فى حياته انتهى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم تربيتهم لأصحابهم بالنظر

فيقوم نظريهم إليهم مقام اللفظ لكن ذلك خاص بمن رق حجابهم منهم ، أما صاحب الحجاب الكثيف ، فقد يربونه بالقول والفعل والهجر والزجر وهيماته أن يفلح .
وكان على هذا القدم سيدي الشيخ أبو الحسن الشاذلي ، وسيدي علي الخواص ، فكان سيدي أبو الحسن يقول :

إذا كانت السلحفاة تربي أولادها بالنظر ، فكيف بالفنير منا .

وكان سيدي علي الخواص يربي بالنظر تارة ، ويأمره المرید أن يشرب من ابريقه تارة ، فيقوم ذلك مقام التلقين ، وأخذ الهدى في حصول المدد ، وقد من الله على بذلك فربيت جماعة من أصحابي بالنظر نحو ثلاثين نفساً كما أوضحت ذلك في كتاب المنين والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم تقريب الطريق على للمريد ما أمكن

وذلك باشغاله لهم بالتوحيد ، فلا يزال يشغل به حتى ينكشف حجاب به ، فإذا انكشف حجاب به عرف الأمور على ما هي عليه ، واستغنى عن مطالعة رسائل القوم وصار ينكلم كما تسلموا .

وان ذكر عن أحد منهم كلاما فإعما ذلك استشهادا لموافقة كلامه للقوم لا غير .

وقد كان سيدي الشيخ أبو العباس للرسى رضى الله عنه يقول .

إعما ننظر في كلام القوم لننظر ما أنعم الله به علينا دونهم لالاستفيد منه ما لم يكن هندا انتهى .

ثم لا بد للمريد مع اشتغاله بالتوحيد من الجوع ، والعزلة ، وقلة النوم ، وقلة اللغو والا فكل شيء حصل له من نور التوحيد يطفيه بظلمة الأكل واللغو كما هو مقرر في أركان الطريق .

وقد عجز الأشياخ أن يوصلوا مريدا إلى شيء من مقامات الطريق مع إخلاله بالاركان ، فلم يقدرُوا فعمل ان غير التوحيد من صلاة النافلة ، وقراءة القرآن ، وان كان طاعة فالوصول به بعيد جدا لأن ذلك إعما هو من أورد السكل بعد أن عرفوا الله تعالى وزال عنهم حجابهم

وأما المريد فليس المطلوب منه إلا العمل على جلاء قلبه بما يأمره به شيخه الصادق في الطريق والحمد لله رب العالمين ^(١) .

(١) وإذا أحكم للمريد بينه وبين الله عقده ، فيجب أن يحصل من علم الشريعة ، إما بالتحقيق ، وإما بالسؤال عن الأئمة ما يؤدي به فرضه ، وإن اختلف عليه فتاوى الفقهاء يأخذ بالأحوط ، ويقصد الخروج من الخلاف ، فإن الرخص في الشريعة للمستضعفين وأصحاب الحوائج والأشغال .

وهؤلاء الطائفة ليس لهم شغل سوى القيام بحقه سبحانه ، ولهذا قيل : إذا انحط الفقير

عن درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة فقد فسخ عقده مع الله ، ونقض عهده فيما بينه وبين الله تعالى :

ثم يجب على المرید أن يتأدب بشيخ ، فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبداً .
هذا أبو يزيد يقول : من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان .

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غرس فإنها تورق ولكن لا تثمر ؛

كذلك المرید إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نفساً ، نفساً فهو طريد هواه ، لا يجد نفاذاً .

ثم إذا أراد السلوك فبعد هذه الجملة يجب أن يتوب إلى الله سبحانه وتعالى من كل زلة خيدع جميع الزلات : سرها وجهرها ، صغيرها وكبيرها ، ويجتهد في إرضاء الخصوم أولاً ومن لم يرض خصومه لا يفتح له من هذه الطريقة شيء .

وعلى هذا النحو جروا ، ثم بعد هذا يعمل في حذف العلائق والشواغل ، فإن بناء هذا الطريق على فراغ القلب .

وكان الشبلي يقول للحصري في ابتداء أمره : إن خطر يالك من الجمعة إلى الجمعة الثانية **لني** تأتيني فيها غير الله تعالى فحرام عليك أن تحضرني .

وإذا أراد الخروج عن العلائق فأولها : الخروج عن المال ؟ فإن ذلك الذي يميل به عن الحق ، ولم يوجد مرید دخل في هذا الأمر ومعه علاقة من الدنيا إلا جرت به تلك العلاقة عن قريب إلى مآمنه خرج ، فإذا خرج عن المال ، فالواجب عليه الخروج عن الجاه ، فإن ملاحظة حب الجاه مقطعة عظيمة .

وما لم يستو عند المرید قبول الخلق وردهم لا يجيء منه شيء ، بل أضر الأشياء له ملاحظة الناس إياه بعين الإثبات والتبرك به لإفلاس الناس عن هذا الحديث ، وهو بعد لم يصح الإرادة ، فكيف يصح أن يتبرك به ؟

خروجهم من الجاه واجب عليهم ، لأن ذلك اسم قاتل لهم ، فإذا خرج عن ماله وجاهه فيجب أن يصحح عقده بينه وبين الله تعالى ، وأن لا يخالف شيخه في كل ما يشير عليه ، لأن الخلاف للمرید في ابتداء أمره عظيم الضرر ؟ لأن ابتداء حاله دليل على جميع عمره .

ومن شرطه : أن لا يكون له بقلبه اعتراض على شيخه ، فإذا خطر ببال المرید أن له في الدنيا والآخرة قدراً أو قيمة ، أو على بساط الأرض أحد دونه لم يصح له في الإرادة قدم لأنه يجب أن يجتهد ليعرف ربه لا ليحصل لنفسه قدراً .

و الفرق بين من يريد الله تعالى وبين من يريد جاه نفسه ، إما في حاجه وإما في آجله ، ثم يجب عليه حفظ سره حتى عن زره إلا عن شيخه ، ولو كنتم نفساً من أنفاسه عن شيخه فقد خانه في حق صحبته ، ولو وقعت له مخالفة فيما أشار عليه شيخه فيجب أن يقر بذلك بين يديه في الوقت ، ثم يستسلم لما يحكم به عليه شيخه عقوبة له على جنائنه ومخالفته إما بسفر يكلفه أو أمر يراه .

ولا يصح للشيخ التجاوز عن زلات المریدين ، لأن ذلك تضييع لحقوق الله تعالى ، وما لم يتجرد للمرید عن كل علاقة لا يجوز لشيخه أن يلقنه شيئاً من الأذكار ، بل يجب أن يقدم التجربة له ، فإذا شهد قلبه للمرید بصحة العزم فحينئذ يشترط عليه أن يرضى بما يستقبله في هذه الطريقة من فنون تصاريف القضاء فيأخذ عليه العهد بأن لا ينصرف عن هذه الطريقة بما يستقبله من الضرر والذل ، والفقر والأسقام والآلام ، وأن لا ينجح بقلبه إلى السهولة ولا يترخص عند هجوم الفاقات وحصول الضرورات ولا يؤثر الدعة ، ولا يستشعر السكل فإن وقفة المرید شر من فترته .

والفرق بين الفترة والوقفة أن الفترة رجوع عن الإرادة وخروج منها والوقفة سكون عن السير باستحلاء حالات السكل .

وكل مرید وقف في ابتداء إرادته لا يجيء منه شيء . فإذا جربه شيخه فيجب عليه أن يلقنه ذكرأ من الأذكار على ما يراه شيخه فيأمره أن يذكر ذلك الاسم باسمه ، ثم يأمره أن يستوى قلبه مع لسانه فيقول له : أثبت على استدامة هذا الذكر كأنك مع ربك أبداً بقلبك ولا يجرى على لسانك غير هذا الاسم ما أمسكتك ثم يأمره أن يكون أبداً في الظاهر على الطهارة ، وأن لا يكون نومه إلا غلبة ، وأن يقلل من غذائه بالتدرج شيئاً بعد شيء حتى يقوى على ذلك ، ولا يأمره أن يترك عادته بمسرة فإن في الخبر : (إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى) ثم يأمره بإتقان الخلوة والعزلة ، ويجعل اجتهاده في هذه الحالة لا محالة حتى تنفي الخواطر الدنية والمواجيس الشاغلة للقلب .

وأعلم أن في هذه الحالة قلما يخلو المريد في أوان خلوته في ابتداء إرادته من الوسوس في الاعتقاد ، لاسيما إذا كان في المريد كياسة قلب ، وقل مريد لاستقبله هذه الحالة في ابتداء إرادته .

وهذه من الامتحانات التي تستقبل المريدين ، فالواجب على شيخه إن رأى فيه كياسة أن يحيله على الحجج العقلية فان بالعلم يتخلص لا محالة المتعرف مما يعتره من الوسوس . وإن تفرس شيخه فيه القوة والثبات في الطريقة أمره بالصبر واستدامة الذكر حتى تسطع في قلبه أنوار القبول ، وتطلع في سره شمس الوصول وعن قريب يكون ذلك . ولكن لا يكون هذا إلا لأفراد المريدين . فأما الغالب فأن تكون معالجتهم بالرد إلى النظر وتأمل الآيات بنسب تحصيل علم الأصول على قدر الحاجة الداعية للمريد .

وأعلم أنه يكون للمريدين على الخصوص بلايا من هذا الباب وذلك أنهم إذا خلوا في مواضع ذكرهم ، أو كانوا في مجالس سماع أو غيره ذلك فيهمجس في نفسه ويخطر ببالهم أشياء منكورة يتحققون أن الله سبحانه منزه عن ذلك ، وليس تعريضهم شبهة في أن ذلك باطل ولكن يدوم ذلك فيشتد تأديبهم به حتى يبلغ ذلك حداً يكون أصعب شتم وأقبح قول وأشنع خاطر بحيث لا يمكن للمريد إجراء ذلك على اللسان وإبداءه لأحد وهذا أشد شيء يقع لهم .

فالواجب عند هذا ترك مبالاتهم بتلك الخواطر واستدامة الذكر والابتغال إلى الله باستدفاع ذلك .

وتلك الخواطر ليست من وسوس الشيطان وإنما هي من هواجس النفس فإذا قابلها للمريد بترك المبالاة بها ينقطع ذلك عنه .

ومن آداب المريد بل من فرائض حاله أن يلزم موضع إرادته وأن لا يسافر قبل أن يهبله الطريق وقبل الوصول بالقلب إلى الرب ، فان السفر للمريد في غير وقته سم قاتل ، ولا يصل أحد منهم إلى ما كان يرجى له إذا سافر في غير وقته .

وإذا أراد الله بمريد خيراً ثبتته في أول إرادته ، وإذا أراد الله بمريد شراً رده إلى ما خرج عنه من حرفه أو حالته ، وإذا أراد الله بمريد محنة شرده في مطارح عربته ، انتهى .

الرسالة القشيرية للإمام أبي القاسم القشيري

ومن أخلاقهم : أن لا يرجعوا في ما خرجوا عنه في في سرهم لأحد

ولو عمامتهم أوجوختهم أو مضرتهم ، وربما طرقتهم ذلك الخاطر ، وهم في بيت
الخلاء فينزعون فيه لمن خرجوا له عنه ، وقد قررنا مراراً أن الخاطر الأول لا يدخله حلة
بل هو من الله تعالى ، بخلاف الخاطر الثاني ، وما بعده .

فعلم أن من خرج عن شيء في سره ، ورجع فيه استحق التأديب عندهم ، وربما عاقبه
الله تعالى بسرقه ذلك الشيء منه أو حرقه ، كما وقع لسيدى حسن الاخدنى ، وذلك أنه
رأى شخصاً برداناً ، فخطر في باله أنه يعطيه المضربة التي عليه ، ثم نام ، ولم يعطه شيئاً ،
فاستيقظ ، فلم يجد المضربة عليه ، فسأل عنها فأكشفت البردان ، وقال :

إنك لما رجعت عنها في سرك ونمت أهدمها الله تعالى لالى ولالك ، فأياك والرجوع
عن شيء تخرج عنه في سرك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا طال مكث الضيف عندهم أشهراً

وهم يطبخون له ، ويقومون بواجبه ، ثم وقع له نزغة شيطانية ، فأنكر فضلهم وصار يحط فيهم أن لا يمتنوا عليه ، ولا يقولوا : هذا جزاء الخير الذي عملناه مع فلان ، فمن قال مثل ذلك ، فهو دليل على أنه أضاع لغير وجه الله عز وجل ، فإن من أطعم لوجه الله عز وجل لا يريد من الضيف جزاء ، ولا شكورا ، فليطعم المقتير ضيفه لله تعالى ، ويفرح كلما كفر الضيف نعمته لأن بذلك يتوفر له الأجر إن كان من عبيد الأجر أو يصير له المقام العظيم عند الله تعالى إن كان أطعمه الله تعالى .

فيحتاج من يتصدر للقاء الضيوف أن يكون صاحب بصيرة ، حتى لا يرى له فضلا على أحد من خلق الله تعالى ، إنما هو وكيل يطعم عباد الله من مال الله تبارك وتعالى ، وهناك يتخلص من ورطه الرياء ويصير يشكر الله تعالى الذي استعمله في خدمة عباده . فأعرض يا خي هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة أدبهم مع كل من تزيأ بزى الفقرا

وإن لم يطلب منهم هو ذلك اكراما للخرقة ؛ وقد حكى لى شيخنا الشيخ محمد الشناوى رحمه الله تعالى .

ان كلباً مر على سيدى عبد الرحيم القنائى بصعيد مصر الأعلا فقام الشيخ له فقبل له :

انقوم الكلب فقال :

انظروا لما فى عنقه إنما قت لأثر الفقراء الذى فى عنقه .

وكان سيدى إبراهيم الدسوقى رضى الله عنه يقول :

إذا ضحك الفقير فى وجه أحدكم ، فاحذروه ولا تخالطوه إلا بالأدب ، فإن الفقراء ربما مزحوا كما يمزح الناس ، وهم فى ذات مع الله تعالى لامع الناس وربما فعلوا شيئاً تخريبياً لظاهرهم ، وتستبر الحالمهم ، حتى لا يعتقد أحد فيهم فيشغلهم عن ربهم عز وجل من باب دفع الأشد بالأخف .

وقد مر انسان طائر فى الهوى على رأس سيدى عبد الله البلتاجى ، ولم يتواطأ له ، فسلب حاله فى الوقت ونزل إلى الأرض فما كان الا تقطع لإسائه الأدب مع سيدى عبد الله ، ثم صار بعد ذلك شرطياً عند كاشف المحلة إلى أن مات .

فألزم حتماً بأخى الأدب تأمن العطب ، وربما كان الولى يتعاطى الحكايات المضحكات ، ويصفعه الناس فى الأسواق ، وهو فى ذلك حاضر بقلبه مع الله تعالى ، وأنت فى حال صلاتك ربما تكون غافلاً عن الله تعالى .

وقد حكى لى السيد الشريف العالم الصالح بزاوية الخطاب بمصر :

أن شخصاً كان يدخل سوق الوراقين كل يوم اثنين وخميس ، فيقف على الإنسان يطلب جديداً ، فإذا أخذه لا يفارق صاحب الخانوت إلا ان صكه عشر صكات ، فوقف

يوماً على شيخ الوراقين ، فأعطاه عادته .

فقال : صكني .

فقال له : يا أختي ما أنا منشرح لمثل ذلك .

فقال : لا بد من ذلك .

فاجتمع عليه الناس وضيقوا على المارين لأنه سوق ضيق ، وقالوا له : صكك فقام
وصكك عشر صكات بنين فطأطأ له وقال له في اذنه : حاجتك مقضية وإن كان إيت التربة
التي بجوار جامع محمود الليلة بعد الفجر ، وصحبتك أربعون رغيفاً في كل رغيف نصف
رطل من الجبن المقل ، وأبريق كبير فيه ماء حلو ، ففعل فلما جاء التربة بعد الفجر ، وقف
على الباب ، ونظر من خلل الباب ، فإذا جماعة بيض الثياب جالسون عند المحراب
وعليهم قنديل يضيء ، وإذا ذلك الرجل الذي صفعه في السوق هو شيخ الجماعة .

فقال لواحد : قم خذ الذي مع هنا الواقف على الباب ، واقض حاجته ، ففعل ثم رفع
ذيل شيخ السوق ومسح بريقه على بطنه ووركه ، وكان به برص فزال البرص
في الحال .

وكان أصل تكديره ذلك اليوم الذي صك ذلك الشيخ فيه أن ابنة عمه نظرت إلى
البرص الذي طلع في بطنه ، فنفرت نفسها منه وخافت أن تعتدي منه ، فخرجت إلى بيت
والدها فساق عليها الناس ، فلم ترض وطلبت الطلاق ، فلما فضيت حاجته من زوال البرص
رجع فوجد ابنة عمه في داره وأخبروه بأنها قالت لأهلها : إن لم تخلوني أذهب إلى
زوجي قتلت نفسي . وما عرفوا سبب ذلك .

فلما كان يوم الخميس دخل الشيخ على عادته يأخذ جديداً ، ويصفعه الناس إلى أن
وقف على شيخ الوراقين . فقال له : خذ هذه الفة كلها ، فأبى إلا أن يأخذ الجديد فقط .
فلما أعطاه الجديد قال له : كل عادتني بالصك فتشفع عنده بالنبي ﷺ فترك صكه .

وقال : بشرط أن تسكتم ذاك على حتى أموت . فلما جاء يوم الاثنين دخل السوق وهو يعرض لذلك الرجل ويقول :

ما يضر الإنسان إلا لسانه . فكل من سكت نجى وكل من تكلم رجم كل شئ إلى ما كان ، ثم وقف على شيخ الوراقين ، فأخذ منه الجديد .

وقال له : صكنى واحدة صغيرة فتشفع عنده بالأولياء ، فقبل شفاعته هذه حكاية السيد لى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كراحتهم وقوع الخوارق علي يديهم في هذه الدار
لأن محل ذلك إنما هو الدار الآخرة حين يعطى أهل الجنة أن أحدهم يقول للشيء
كن فيكون .

فمن اختار وقوع الخوارق علي يديه ، فقد اختار العرض الفاني علي الجوهر الباقي .
علي أنه ماتم خرق عادة إنمائي كرائن يخلقها الله تعالى ، لا يشهدون لهم فيها فعلا ،
وغاية أمرهم أنهم محل لبروزها فقط ، والفعل فيها لله تعالى وحده .
فلا فرق عندهم بين الكرامة وبين سائر الأفعال الواقعة في الوجود وقد بسطنا الكلام
علي ذلك في كتاب المنن السكبرى فراجعوه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : شدة محبتهم لآل سيدهم ومولاهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم وأصحابه

ولا يفاضلون بينهم إلا بنص أو إجماع ، ويهربون من التعصب لأولاده صلى الله عليه
وسلم على أصحابه وعكسه .

وسمعت سيدى عليا الخواص رضى الله عنه يقول :

لا يكفى فى محبة الشرفاء وأولاد الصحابة المحبة العادية ، وإنما يكفى العبد المحبة
الحقيقية ، وهو أن يتحمل التعذيب بالنار ، والضرب ، وأخذ المال والإخراج من
الأوطان . ولا يرجع عن إظهار محبتهم . ونشر محاسنهم ؛ كما وقع لبلال وعمار وصهيب
ولم يرجعوا عن دين الاسلام .

فإن محبة أولاده ﷺ والصحابة من الدين بيقين .

ونظير ذلك ما وقع للإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه فى مسألة القول بخلق القرآن ،
فاحتمل الضرب الشديد والحبس ، ولم يوافقهم على القول بخلق القرآن ، ولو بقصد
التأويل .

فحق يا أخى المحبة فى أولاد رسول الله ﷺ وأصحابه ، فربما تكون محبتك عادية .

وإياك والتفاضل بينهم بالهوى فإن ذلك من قسم الغيبة للمفضول .

وقد قال سفيان الثورى فى طبيبين دخلا عليه :

لولا أخشى أن تكون غيبة لقلت :

أن أحدهما أعرف بالطب من الآخر ، انتهى .

فلا ينبغي لأحد أن يقول : فلان أهدم من فلان إلا بطريق شرعى .

فاعرض يا أخى هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالكما ، والحمد لله

رب العالمين .

ومن أخلاقهم : تفتيشهم لأعضائهم الظاهرة والباطنة

صباحاً ومساءً هل حفظت حدود الله تعالى التي حدها ، أو تعدت حدوده ؟ وهل قامت بما أمرت به من غض البصر وحفظ اللسان والأذن والقلب وغير ذلك على وجه الاخلاص أو لم تقم ؟

وذلك ليحمدوا الله تعالى إن رأوا جوارحهم محفوظة ، ويستغفروا الله تعالى إذا رأوها وقعت في محذور أو مكروه .

وكان هذا من خلق سيدي إبراهيم للتبولى رضى الله عنه ، ولم أر له فاعلاً بعد سيدي على الخواص وأخي الشيخ أفضل الدين إلى وقتي هذا .

وبه يعرف العبد مقدار ما أنعم الله تعالى به عليه عادة من استعماله في الحسنات ، وحفظه من الوقوع في الزلات .

فإن رأى جارحة من جوارحه أطاعت شكر الله تعالى ولم ير نفسه أهلاً لها وإن رآها تلطخت بمعصية من معاصي الله تعالى ، يستغفر الله تعالى منها ، ويشكره إذا لم يقدر عليه أكثر من تلك للمعصية .

وكان سيدي إبراهيم للتبولى إذا دخل مصر بدأ بالبيمارستان ، فيطوف على المرضى واحداً ، واحداً . فلا يخرج من عند المرضى إلا وهو يرى نعم الله تعالى قد غمرت ، فيشكر الله تعالى الذي لم يبتل جوارحه التي عصت بالأمراض والجراحات ، والدمامل والقروح ، فإن كل عضو عدى استحق نزول سائر البليات به^(١) .

وكان سيدي على الخواص إذا وجد في قلبه قساوة يدخل على المرضى بالبيمارستان ، ثم يدخل بيت الوالي فيجلس فيه وينظر ما يقع فيه من العقوبات على أصحاب الجرائم

(١) عن أبي يعلى بن شداد رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال :
(الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني) رواه الترمذي .

والتهم ، ثم يخرج إلى حبس الديلم والمقشرة فينظر إلى المفيدين فيه والموهودين بالقتل وغيره . فلا يخرج إلا وهو رقيق القلب ييـسـى ، ويشكر الله تعالى الذى لم يؤاخذ به ما وقع فيه .

فإن العبد ربما يستحق أن يفعل به جميع ما رآه فى البيمارستان ، وبیت الوالى ، وحبس المجرمين .

فكم عسى العبد بفرجه ولسانه وسمعه وبصره ويده ورجله وفمه وقلبه ، فاستحق العسى وطلوع القروح فى هينيه ، وتربية الدود فى قبة أجفانه من داخل ، حتى يصير لا يتنها بأكل ولا نوم ، واستحق طلوع القروح والخراريج فى باطن أذنه حتى أنه يحس بأن خازوقاً من حديد تدق فى أذنه ليلاً ونهاراً ، ومنهم من تدود أذنه ويصير فيها دود كاذناب المغازل . ومنهم من يطلع فى لسانه الذى اغتاب به الناس طلوعات نذاب لسانه وشفته وتقرح فمه وتتن . حتى صار طاقة وأسنانه بارزة وأنفه أكل حتى صارت زوجته لا تقدر على القرب منه من القيح والنتان . ومنهم من طلع فى محاشمه الأكلة حتى رمت ذكره وأنتيبه وصار موضعه كالطاق والدود يغلى فيه كالقدر . ومنهم من طلع فى دبره أكلة فأكلت المحيط به وصار روثه دائماً نازلاً ولم يشده بخرقه ومشاق . ومنهم من طلع به بواسير بنواصير داخلية وخارجية وشقاق فصار يحس بأن دبره بشرح بسكين كالة ليلاً ونهاراً لا يتنها بنوم ، ومنهم من ضربه البرص والجذام حتى تقطعت أعضاؤه وقدرته زوجته التى يحبها وأصحابه .

ومنهم من طلع عليه الحب الفرنجى وصار عظمه يضرب عليه ليلاً ونهاراً يتمنى الموت فلا يجاب وبنام الجن والانس وهو لا ينام ، ومنهم من ابتلى بأمر البرل والحصا وجرده الكلا حتى صارت كلاه تقع قطعاً قطعاً من دبره .

ومنهم من تورم قلبه كما بسطنا الكلام عليه فى كتاب العهود المحمدية .

فاعمل يا خى بهذا الخلق صباحاً ومساءً ليحميك الله تعالى من هذه الأمراض إن شاء الله تعالى وأكثر من الشكر والإستغفار ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة الاستغفار ليلاً ونهاراً

سواء تذكروا ذنباً معيناً أم لم يتذكروا لاسيما أول النهار وآخره ، وأول الليل وآخره
فإنهم أحدهم على الاستغفار ويصبح على الاستغفار . وبذلك يأمن العبد من نزول البلاء
عليه قال الله تعالى :

« وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ^(١) » .

والحمد لله رب العالمين ^(٢) .

(١) سورة الأنفال آية : ٣٣ .

(٢) سئل الجنيد عن التوبة فقال : أن تنس ذنبك .

وقال سهل بن عبد الله : التوبة : ترك التسويف .

وقال الجنيد : التوبة على ثلاث معان : أولها الندم ، والثاني العزم على ترك المعاودة
إلى ما نهى الله عنه .

والثالث السعي في أداء المظالم .

وقال ذو النون : الإستغفار من غير إقلاع توبة للكاذبين .

ومن أخلاقهم : خدمة زوجتهم وأمتهم إذا مرضت

ولا بأنفون من شيل القنر من تحتها ، فإنه لو مرض لعلت معه ذلك ، إذا عجز عن الذهاب إلى بيت الخلاء ، وإذا طال مرض زوجة أحدهم السنه ، وأكثر صبر على العزوبة وفاء بحقها .

ولا يتزوج ولا يتسرى إلا لغرض شرعى ظاهر .

وإن احتاج إلى الجماع تعاطى أسباب تخميد الشهوة بقلة الأكل والاشتغال بالعبادة ونحو ذلك .

فعلم أن من لم يخدم زوجته أو جاريتها أو غلامه إذا مرض ، فهو لم يشم من أخلاق الصالحين رائحة ، فإن من أخلاقهم الخدمة لمن ليس له خدمة ، ولا فضل عليهم ولا يرون بعد ذلك لهم عليه فضلا ، فكيف بمن خدمهم الدهر ؟ وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين ^(١) .

(١) عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ .
أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائهم « رواه الترمذى .
وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :
« الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة » .

ومن أخلاقهم شدة كراهتهم للخلوة بالأجنبية

ولو غلب على ظنهم السلامة من الوقوع في فاحشة احتياطا لأنفسهم .

وإذا كان النظر حراماً إلى الأجانب فكيف بالخلوة بهن ؟

فإن الخلوة أقرب إلى الفتنة من النظر ، وفي الحديث :

ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما^(١) .

ومن كان الشيطان حاضراً عنده فلا يأمن من وقوعه في كل فاحشه .

فقد عمل الشيطان على أعظم منا من العباد والزهاد .

ثم أقل ما يحصل من الخلوة بالأجنبية خراب سر العبد وحرمانه لذة العبادة كما جربه .

وأقبح من ذلك التعرض للفتنة .

واستبعاد العبد أن مثله لا يخاف من مثل ذلك ، فإنه غرور من إبليس وحبل

يستدرجه به .

وقد سئل الشيخ أبو القاسم النصر ابادي^(٢) شيخ خراسان في عصره عن شخص يقول :

ما على لوم في مجالستي للنساء لعدم ميلى إليهن .

(١) رواه الطبراني عن أبي أمامة بنحوه ولفظه :

« إياك والخلوة بالنساء ، والذي نفسى بيده ما خلا رجل بامرأة إلا دخل الشيطان بينهما .

(٢) هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصر ابادي : شيخ خراسان في وقته .

والنصر ابادي نسبة إلى نصر اباد محلة من محال نيسابور ومن كلامه : أنت بين نسبتين :

تسبه إلى الحق ، ونسبة إلى آدم ، فإذا انتسبت إلى الحق دخلت في مقامات الكشف والبراهين

والعظمة ، وهى نسبة تحقق العبودية قال الله تعالى : (وعباد الرحمن الذين يمشون على

الأرض هونا) وقال : (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) .

وإذا انتسبت إلى آدم دخلت في مقامات الظلم والجهل ، قال الله تعالى : (وحملها الإنسان

إنه كان ظلوما جهولا) ومن كلامه أيضا (الأشياء ادلة منه ؛ ولا دليل عليه سواه) .

فقال الشيخ : : مادامت الأشباح باقية فإن الأمر والنهي باق في حق كل مكلف ، ولا يجترى على الشبهات إلا من هو معرض المخالفات ، انتهى •
وقد خالف قوم ، فاغتروا بدينهم فوقعوا في المخالفات ، كما هو مشهور عن بنى اسرائيل وفي هذه الأمة •

وإذا كان الحق تعالى يقول لخيار الناس من الصحابة في حق خيار الناس من زوجات النبي ﷺ :

(وإذا سألتهم من متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن)^(١) •
فكيف يدعى أحق وحق أن مثلهم لا يخاف على نفسه ؟ فالصادق من نفرت نفسه من خلطة الأجانب وقامت كل شعرة منه عند رؤيتها ، والحمد لله رب العالمين •

ومن أخلاقهم : مطالبة نفوسهم بحقوق الناس

وعدم مطالبتهم الناس بحقوقهم

فإذا عملوا عرساً أو مات لهم ميت ولم يحضر أحد من إخوانهم حملوه على أحسن الحمل ، ولم يعاتبوه .

وإذا عمل أحد من إخوانهم ممها ولم يحضروا ولم يساعده يوبخون نفوسهم على ذلك .

وبراعون إزالة ضرورات الناس ويرون تقديمها على ضروراتهم .

ثم إن وقع أن أحداً أعلم إخوانه بالصلاة على ميتة مثلاً فلا يعلمهم إلا بعد إنتهاء تجهيز الميت ليخفف عليهم الأمر ، فإن من دعا إخوانه من بكرة النهار مثلاً والجنائز لا تخرج إلا بعد الظهر عادة فقد غير نيتهم من كثرة تقلقهم ، فلا يصير لهم كمال توجه إلى الدعاء لذلك الميت بالقلب ، فبريد أحدهم أن يدعوا للميت بتوجه تام فلا يصح له ذلك لتشتت قلبه في أودية حرائجه لاسيما إن كان أحدهم معيلاً ، وذلك اليوم يوم سوق أو طالب علم محزون بدرسه ، ونحو ذلك فإنه يصير حاضراً بجسمه وقلبه غائب ، فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين^(١) .

(١) وفي الحديث : « أحسن الناس أعذرهم للناس » وعن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : إن ناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ وإن الوحي قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم ، فمن أظهر لنا خيراً أمناء وقرناء وليس لنا من سريرته شيء الله يحاسبه في سريرته ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه ولم تصدقه وإن قال : إن سريرته حسنة . رواه البخاري .

ومن أخلاقهم مساعدة إخوانهم الذين تصدروا الحملات
الناس سترة لإخوانهم بين الناس

فلا ينام أحدهم ، ولا يجامع ، ولا يلبس ثوبا نظيفا ، ولا يبني داراً ، ولا يضعك ،
ولا يضع جنبه الأرض ، ولا يتفرج في بستان ، ولا غير ذلك ، حتى تنقضى تلك الحملة ،
لا سيما حملات الولاة وأعوانهم من الظلمة ، إذا عزل أحدهم من ولايته ، أو وظيفته ،
ولم تأخذ العتوبة حدها فيهم ، فإن الفقير يسكاد أن يهلك .

وهذا الخلق قل من يفعله الآن في حق أخيه .

بل ربما شمت أحدهم بأخيه إذا انتكب صاحبه من الأمراء والأكابر ، وصار يضعك ،
ويود بنحس أخيه ، وفضيحتة عند ذلك الأمير الذي حمله الحملة . كما وقع لي ذلك معهم ،
هذا في حق أمير لا يحسن إليهم ولا يعرفهم ، وإنما هو من أصحاب صاحبهم ، فكيف
بهم لو كان لذلك الأمير فضل وإحسان إليهم ؟

وكل هذا من تعظيمهم الخرقه فيحبون أن لا يخذل أحد ممن انتسب إلى أهلها .
فعلم أن من لم يساعد أخاه في حملته فهو مدع كذاب في الطريق ، وإن كان له
شعرة ، وعذبة وعمامة ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : هدم قبولهم هدية ممن حملوا عنه حمة

كان دفعها عنه معلقا على توجه الفقراء إلى الله تعالى ، وإلا فالأموال المبرمة لا يصح لأحد ردها عن نفسه فضلا عن أن يردها عن غيره .

ثم إن ذلك لا ينافي التسليم كما توهمه بعضهم ، فالعبد يحمل هم إخوانه من حيث كتبهم للذنوب التي استحقوا بها ذلك البلاء النازل عليهم ، ويسلم لله تعالى من حيث التقدير الإلهي الذي سبق به العلم ، إذ لا يمكن رد ذلك ، فانهم .

فإنه قد غلط في ذلك جماعة من أهل عصرنا فلا يحملون هم أحد من المسلمين زاعمين أنهم مسلمون لله تعالى ، ويخرجون على من يروونه يحمل هموم إخوانه ، ويقولون : حال فلان ومعارضة الأقدار ، ويتوهمون أن ما هم عليه أكل وهو جهل .

فقد كان عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وسفيان الثوري وغيرهم إذا نزل بالمسلمين بلاء لا يتنهأ أحدهم بنوم ولا بأكل ولا بشرب حتى يرتفع ذلك البلاء فهل كان أولئك الذين ذكرناهم ناقصين وأنت يامدعي كامل ^(١) ؟ .

(١) قال الله تعالى : (وافعلوا الخير لعلكم تفلحون)

وعن ابن عمر رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال : (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج على مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة وما ليجمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكروهم الله فيمن عنده ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه » رواء مسلم

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال كان النبي ﷺ إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال : (إسفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان نبيه ما أحب) متفق عليه .

وقد دخلت مرة في حملة رزق الفقراء والمساجد لما وقع فيها التفطيش في سنا ثمناقه
وخمسين وتسع مائة ، فما كنت إلا هلكة ، ولم يساعدني فيها أحد من الفقراء
الظاهرين في مصر إلا ثلاثة فقراء ، فجزاهم الله عن المسلمين خيراً .

وقد تقدم في هذه الأخلاق أن مقام تحمل عموم المسلمين ليس هو لكل أحد ، إنما
هو لأفراد من الفقراء وغالبهم يقول إذا شكى أحد له بلاء نزل به : لا حول ولا قوة إلا
بالله العلي العظيم ، ثم يغفل عنه ويأكل وينام ويجمع كما هو مشاهد ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم محبتهم للرحمة أو آخر أعمارهم
وكرهاتهم لتردد الناس إليهم لضيق عمرهم عن إعطاء الواردين حقوقهم من أبناء
الدنيا وغيرهم .

فإن غالب المترددين لا يكادون أمر آخرتهم ، وإنما حديثهم في أمور الدنيا ، والفقير
الصادق قد انتهى عن مثل ذلك بالتأهب للقاء الله تعالى ، وتمهيد فراشه في تهره ، وما
يقاسيه بعده من الأهوال إلى أن يجاوز الصراط .

وقد من الله تعالى على بذلك من سنين ، فكل يوم لا يزورني فيه أحد من أبناء
الدنيا أشكر الله تعالى عليه ، ولما بلغ الإمام الشافعي رضي الله عنه أربعين سنة صار
كأنه غريب بين الناس وأنشد :

صديق ليس ينفع يوم بأس	قريب من عدو في القياس
وما يُبغى الصديق بكل عصر	ولا الإخوان إلا للتأسي
خبرت الدهر ملتصبا بجهدى	أخا ثقة فاكواه التماسى
تسكرت البلاد علىّ حتى	كان أناسها ليسوا بنامى

ولما طلع الشيب في لحيته أدمن إمساك العصا فليل له في ذلك فقال : لأذكر أنى مسافر
من هذه الدار ، ثم أنشد قوله :

خبث نار نفسى باشتعال مفارقى	وأظلم ليلى إذا أضاء شهابها
أيا بومة قد عشتت فوق هامتى	على الرغم منى حين طار غرابها
رأيت خراب العمر منى فوزدتى	وأواك من كل الديار خرابها
أأنعم عيشاً بعد ما حلّ عارضى	طلائع شيب ليس يُغنى خضابها
وعزة هم المرء قبل مشيبه	وقد فنيت نفسٌ تولى شبابها
إذا اصفرّ لون المرء وابيض شعره	تنقص من أيامه مستطابها
فدع عنك سوءات الأمور فإنها	حرام على نفس التقي ارتكابها

ولا تمشين في منكب الأرض فاخرا فعما قليل يحتويك ترابها
ومن يذوق الدنيا فإنى طعمتها وسبق إليها^(١) عذابها وعذابها
فلم أرها إلا غرورا وباطلا كما لاح في ظهر الغلاة سرايبها
وما هي إلا جيفة مستحيلة عليها كلاب همهن اجتذابها
فإن تجتنبها عشت ملما لأهلها وإن تجتنبها نازعتك كلابها
فطوبى لنفس أوطنت قعر دارها مغلقة الأبواب مرخي حجابها
فعلم أن كل فقير تأثر من إديار الناس عنه أو آخره ، فهو مدع كذاب لمخالفته أخلاق
العارفين أو آخر أعمارهم .

وقد بلغنا أن سيدي أحمد بن الرافعي رضي الله عنه لما حضرته الوفاة قال ليعقوب
الخدام :

يا ولدي والله ما كان لي خيرة إلا في الوحدة ، فياليت حميدا لم يعرف أحداً ولم يعرفه
أحد . فقال له يعقوب في ذلك فقال :

يا ولدي أن فضيحة الآخرة عظيمة ، فإذا كان من يعرف الفقير في الآخرة قليلا كان
ذلك أستر له . ثم صار يبكي ويقول :

وافضيحتاه مما فرطت في جنب الله .

ولما حضرت الوفاة الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه قالوا له :

استخلف ولدك عبد الله فقال :

يكفي واحد من آل الخطاب يأتي يوم القيامة ويداه مغلولتان إلى عنقه .

وكان رضي الله عنه يقول :

لو أني خيرت قبل أن أدخل الدنيا بين أن أخلق وأقاسى أهوال يوم القيامة ، وبين
أن لا أخلق لاخترت أن لا أخلق .

(١) لعله يقصد وسبق إلى عذابها وعذابها .

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول :
لقد وددت أنى بتنة ملقاة تحت النعال .
وكان إذا تنفس يشم من جوفه رائحة الكبد المشوى .
وكان سيد المرسلين ﷺ يسمع من صدره أزيز كأزيز الرحي^(١) وغليان كغليان
القدر على النار من شدة الخوف من سطوات الحق جل وعلا .
وهكذا كل من كان من أتباعه ﷺ . والحمد لله رب العالمين .

(١) حديث : كان يسمع من صدره أزيز إله رواه الترمذى فى الشمائل والحافظ ابن
حبان الأصبهاني فى أخلاق النبي ﷺ عن عبد الله بن الشعير .
ولفظه : أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء .
- وفى رواية للأصبهاني : صليت خلف رسول الله ﷺ فسمعت لصدره أزيز كأزيز المرجل .
ورواه أبو داود بلفظ : رأيت رسول الله ﷺ يصلى ولصدره أزيز كأزيز الرحي فى البكاء
ورواه بنحوه النسائي وابن خزيمة .

ومن أخلاقهم شهودهم قبيلهم زلاتهم

وخوفهم أن الله تعالى يخسف بهم الأرض ، أو يمسح صورهم صورة كلب أو خنزير
على الدوام .

ولو أنه تعالى خسف بهم الأرض لرأوا ذلك من بعض ما يستحقونه ^(١) .
ومن أدركته على هذا القدم سيدي على الخواص ، وأخي الشيخ أفضل الدين ،
وسيدي على النبتى الضري ، وسيدي على البحيرى ، وسيدي محمد المنير ، وسيدي محمد

(١) قال الله تعالى : « يدعون ربهم خوفا وطمعا » .
وعن أنس قال رسول الله ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا »
يقول الإمام القشيري : قلت : الخوف : معنى متعلقه فى المستقبل ؛ لأنه إنما يخاف أن
يحل به مكروه ، أو يفوته محبوب : ولا يكون هذا إلا لشيء يحصل فى المستقبل .
فأما ما يكون فى الحال موجودا ، فالخوف لا يتعلق به .
والخوف من الله تعالى ، هو أن يخاف أن يعاقبه الله تعالى إما فى الدنيا ، وإما فى الآخرة .
وقد فرض الله ، سبحانه ، على العباد أن يخافوه ، فقال تعالى : « وخافون إن
كنتم مؤمنين » .

وقال : « فإياي فارهبون » ومدح المؤمنين بالخوف ، فقال : « يخافون ربهم
من فوقهم » .

ويقول الأستاذ أبو على الدقاق : الخوف على مراتب : الخوف ، والخشية ، والهيبة .
فالخوف من شرط الإيمان وقضيته ، قال الله تعالى : « وخافون إن كنتم مؤمنين » .
والخشية من شرط العلم ، قال الله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

والهيبة من شرط المعرفة ؛ قال الله تعالى : « ويحذركم الله نفسه » .
وقال يحيى بن معاذ : مسكين بن آدم ، لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لدخل الجنة .
وقال شاه الكرماني : علامة الخوف : الحزن الدائم .

وقال أبو القاسم الحكيم : من خاف من شيء هرب منه ، ومن خاف من الله عز وجل
هرب إليه .

وقال بشر الحافى : الخوف من الله ملك لا يسكن إلا فى قلب متق .

الشناوى ، والشيخ عبد الحليم بن مصلح ، والشيخ محمد بن داود والشيخ محمد بن هنان ،
وشيخ الإسلام زكريا ، والشيخ شمس الدين السمانودى ، والشيخ نور الدين الطرابلسى
الحنفى ، وجماعة ذكرناهم فى كتاب الطبقات . وسيأتى بسط ذلك آخر الكتاب إن شاء
الله تعالى .

فاعرض هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله الذى
من علينا بذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم محبة إخوانهم المسلمين محبة أخوة وإسلام وإيمان
لا محبة طبع وإحسان

وقد قال الله تعالى : (إنما المؤمنون إخوة ^(١)) فأخى بين المؤمنين ، فلمؤمن الكامل
لا يحتاج في محبة أخيه إلى إحسان بعد أن آخى الله تعالى بينه وبينه ^(٢) .
ومن احتاج في محبة أخيه إلى إحسان أو موافقة أهراض ، فما أحبه إمتثالاً لأمر الله
عز وجل .

وهذا الخلق غريب في هذا الزمان ولم أر له فاعلاً إلى وقتي هذا كما بسطت الكلام
على ذلك في المتن الكبير والحمد لله رب العالمين .

(١) سورة الحجرات آية : ١٠ .

(٢) يقول الإمام القشيري : والصحبة على ثلاثة أقسام : صحبة مع من فوقك : وهى فى
الحقيقة خدمة ، وصحبة مع من دونك : وهى تقضى على المتبوع بالشفقة والرحمة ، وعلى
التابع بالوفاق والحرمة .

وصحبة الأكفاء والنظراء : وهى مبنية على الإيتار والفتوة ، فمن صحب شيخافوقه فى
الرتبة ، فأدبه ترك الإعتراض ، وحمل ما يبدو منه على وجه جميل ، وتلقى أحواله
بالإيمان به .

وكان إبراهيم بن أدهم إذا صحبه أحد شارطه على ثلاثة أشياء :
أن تكون للخدمة والأذان له ، وأن تكون يده ما يفتح الله عليهم من الدنيا كيدهم .
فقال له يوما رجل من أصحابه : أنا لا أقدر على هذا ؟ .
فقال أعجبني صدك .

وقال يوسف بن الحسين : قلت لذى النون : مع من أصحب ؟
فقال : مع من لا تسكتهم شيئاً يعلمه الله تعالى منك .
وقال سهل بن عبد الله لرجل : إن كنت ممن يخاف السباع فلا تصحبنى .
وقال ذو النون : لا تصحب مع الله إلا بالموافقة ، ولا مع الخلق إلا بالمناسبة ، ولا مع
النفوس إلا بالمخالفة ، ولا مع الشيطان إلا بالعداوة .
وقال رجل لذى النون : مع من أصحب ؟ فقال : مع من إذا مرضت عادك ، وإذا
أذنبت تاب عليك .

ومن أخلاقهم أن يفيدوا كل من جلس إليهم من الفقهاء
والفقراء والعوام شيئاً من الفوائد

فلا يفارقهم جلسهم إلا بفائدة .

ومن أدركته على هذا القدم سيدى أفضل الدين تلميذ سيدى على الخواص .
ويحتاج من يعمل به إلى علم وافر ، ونفوذ بصر إلى قلوب الجالسين عنده ، فيفيد
كل إنسان ما يراه عارياً عن علمه ومعرفة ، وما يراه يعلمه لا يتعب نفسه في تعليمه إياه .
ومن لم يكن كذلك فهو يبدر الكلام سواء احتاج جلسيه إليه أم لم يحتاج .
وقد كان أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى له علم بسائر الحرف ، فكان إن
جلس إليه خياط استفاد منه ، أو فيخراى استفاد منه ، أو مسلك استفاد منه ، أو طبّاخ
استفاد منه ، أو فقيه استفاد منه ، وهكذا في سائر الحرف . رضى الله عنهم .
فاعلم ذلك واعمل على تحصيله ثم اعمل به . والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم التعشق إلى معرفة الأمور المستقبلية

فلا يطلبون شيئاً من ذلك بخلاف أرباب الأحوال .
ولذلك كان السكّال يعطون أرباب الأحوال كلما يسألونهم فيه .
إذا اكملون لا كشف لهم رحمة من الله بهم ، لاسيما اطلاعهم على زلات الناس .
وقد كان الشيخ محي الدين بن العربي رحمه الله يقول :
من الأولياء من يكشف له عن ملكوت السموات والأرض على التفصيل ، ومع ذلك لا يدري مافي جيبه ، لأنه مع الله تعالى بحسب ما يطلعه عليه ، لا تعشق له إلى حال ولا مقام . انتهى

وربما ظن بعض الناس أن صاحب الكشف من أرباب الأحوال أعلى مقاماً من ذلك العارف الذي لا كشف له ، وليس كذلك ، لأن علو المقام إنما هو بحفظ الأنفاس مع الله تعالى ، والاستقامة على الشريعة المطهرة .

وأما الكشف والطيران في الهواء والمشي على الماء ، فليس في ذلك أجر ، فإنه لم يرد لنا قط حديث : أن من كشف له عن كذا كتبت له حسنة .

وقد حكى لي الشيخ أمين الدين الإمام بجماع الغمري :
أن مجذوبا طلب من سيدي أبي العباس الغمري طعاماً جديداً فأعطاه له فقال :
هات آخر فأعطاه له فقال له :
هات آخر .

فقال له : أنت طامع ولم يعطه النطع الثالث فبعد مدة جاء الخبر أن مراكب الخواجا ابن علييه الثلاثة ببسر الهند غرقت ، ولكن جاءهم طائر كبير ، ومعه طعامان ، فسلك مراكب بنطع ، فسلمتا وغرقت الثالثة .

وكان قد حمل سيدي أبو العباس الغمري حملة المراكب لكونه من أصحابه . فنعم سيدي أبو العباس الذي لم يكن أعطاه النطع الثالث . فانظروا أخي اطلاع ذلك المجنوب

هون سيدى أبى العباس وأعط أرباب الأحوال كلما طلبوه منك ، ولو كنت شيخا من مشايخ الطريق فرجما رأوا بلاءاً نازلاً عليك ، فطلبوا دفعه عنك بالتصدق بما يأخذونه منك ، فإن من عادتهم إيهام الأمور على الإنسان ، ولو أنهم قالوا له : أعطنا كذا اندفع منك كذا لكان يعطيهم من غير توقف ، ولكنهم يغلب عليهم الامتحان للناس .

وأخبرنى الشيخ جمال الدين ولد شيخنا شيخ الإسلام زكريا :
أن الشيخ فرج المجذوب طلب منه ، وهو خارج إلى الحمام نصفاً فأهطاه له ، ثم آخر بعد آخر ، حتى بلغ تسعة وثلاثين نصفاً فقال :

أهطنى نصفاً آخر . فقال :

يا شيخ فرج هذا على اسم الحمام . وأبى أن يعطيه له . فقال :

خذلك من شمزال اليهودى على تسعة وثلاثين دينارا .

فلما خرج من الحمام وجلس فى خلوة والده بالمدرسة السابقة ، دق عليه داق الباب ،
فقال هو يهودى .

فقال له ما حاجتك ؟

فقال : كنت اقترضت من والدك أربعين ديناراً ، وليس بينى وبينه شاهد إلا الله تعالى ، وقد عجزت عن دينار منها وأعطاه التسعة وثلاثين دينارا . فقدم سيدى جمال الدين الذى لم يكن أعطاه النصف الذى مسكه على اسم الحمام انتهى .
فاعلم ذلك واعمل به . والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم إطعام الفقير ما يطلبه منهم بالشرط
فقد يكون ذلك امتحانا من الله تعالى لهم وربما دخل عليهم فقير بعد العشاء الآخرة ،
وبعد أن تعبوا في عشاء ضيوفهم .

وقال : أنا ما آكل إلا خبزاً سخناً وطعاماً جديداً ، ورد عليهم الخبز اليابس البارد
والطعام الذى فضل من الضيوف امتحاناً لهم ، فيكون ذلك سبب زوال النعمة عنهم ،
كما وقع فى بنى اسرائيل فى قصة الأقرع والأبرص والأعمى المشهورة^(١) .

فليحذر من صار مورداً للناس فى هذا الزمان من التقاط من الفقير إذا تشرط عليه
وعدم إجابته إلى ما سأل . فربما تحوات النعمة عنه ، فلا ترجع ، وصار يسأل على
الأبواب ، كما وقع لابن الزرازيرى وغيره كما بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن .
فاهرص يا أخى هذه الأخلاق على نفسك وأقربائك تعرف حالك وحالهم . والحمد لله
رب العالمين .

(١) حديث قصة الأقرع والأبرص والأعمى حديث طويل رواه البخارى ومسلم وغيره
عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

ومن أخلاقهم كثرة الدعاء لسيدنا ومولانا أبي العباس الخضر
فما واظب أحد على الدعاء له إلا واجتمع به قبل موته وأفاده فوائد لم تكن عنده .
فإنه عليه الصلاة والسلام لا يجتمع بأحد إلا ويعلمه من العلم ما لم يكن عنده ، وهو غنى
عن علم العلماء بما علمه الله تعالى له .
وما من ولي حقه قدم الولاية إلا ويحصل له به اجتماع . لسكن يأتي للعارفين في اليقظة
وللمريدين في المنام ، لأنهم لا يطيقون صحبته في اليقظة .
ويحتاج من يريد لقائه مع كثرة الدعاء له إلى ثلاثة أمور إن لم تكن فيه لا يصح
إجتماعه به يقظة ولو كان على عبادة الثقيلين :
الأول : أن يكون الإنسان على سنة لا يندين برأى .
الثاني : أن لا يكون له حرص على الدنيا حتى أنه لو خبأ درهما إلى غد لا يجتمع به .
الثالث : أن يكون سليم الصدر لأهل الإسلام ، فلا يكون عنده شحناء ولا بغض
لأحد من المسلمين إلا بطريق شرعى خال من حظ النفس . فهذه شروط رؤيته في اليقظة
والاجتماع به .
وقد كان سيدي محمد القرشي يطبخ شوربة القمح كثيراً ، فقبل له في ذلك فقال :
إن الخضر عليه الصلاة والسلام بات عندي ليلة ، فاشتوى على شوربة قمح ، فلم أزل
أحبها لمحبة السيد الخضر لها .
وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي يقول : اجتمعت بالخضر عليه الصلاة والسلام وأفادني
عدة مسائل فلو جاداني ألف فقيه الآن على أنه مات لم ألتفت إليهم .
وكان الشيخ أبو العباس المرمي رحمه الله تعالى يقول : خصلنا أكرههما من الفقيه :
قوله ، موت السيد الخضر عليه الصلاة والسلام . وقوله بكفر الحلاج^(١) . انتهى . والحمد
لله رب العالمين .

(١) أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج : يقول عنه المجويزي : كان من سكارى هذه

الطريقة ومستافيتها وذا حال قوى وهمة عالية .

أما رأيت أن الشبلي قال : « أنا والحلاج شيء واحد غلفني جنوني وأهلكه عقله » ؟
فلو كان مطمونا في دينه لما قال للشبلي أنا والحلاج شيء واحد ، وقال محمد بن خفيف :
« هو عالم رباني » ومثل هذا .

وله تصانيف زاهرة ورموز كلام مذهب في الأصول والفروع . وأنا على بن عثمان الجلابي
رأيت له خمسين تصنيفا في بغداد ونواحيها ، وبعضها في خوزستان وفارس وخراسان ،
ووجدتها جميعا — كما هو الحال في بداية أمر المريدين — أقوالا : بعضها أقوى وبعضها
أضعف ، وبعضها أسهل ، وبعضها أشنع وحين يكون لإنسان دليل وبرهان من الحق وتواتيه
العبارة بقوة الحال ، ويعينه الفضل ، يصير الكلام معلقا ، خاصة وأن المعبر يغرب في عبارته ،
وعندئذ تزداد نفرة الأوهام من سماعه ، وتعجز للعقول عن إدراكه ، ومن ثم يقولون أن
هذا الكلام عال ، فينكره فريق عن جهل ، ويقره فريق بالجهل ، ويكون إنكارهم
كإقرارهم .

ولكن حين يراه المحققون وأهل البصيرة لا يتعلقون بالعبارة ، ولا ينشغلون بالغرابة .
ويفرغون من ذمه ومدحه ، ويستريحون من إنكاره وإقراره .
كشف المحجوب للهجويري . دراسة وترجمة وتعليق دكتورة إسعاد عبد الهادي قنديل .

الباب الثالث

في جملة أخرى من الأخلاق

فمن أخلاقهم : عدم إنكارهم على أرباب الأحوال في أكلهم

من أطعمة الظلمة لأنهم من أقسام المجاذيب في عدم التكليف

وربما يكون الحق تعالى يستخلص لهم الحلال من الحرام ، كما يستخلص لنا الدين

من بين فرث ودم .

وقد أدركت من أرباب الأحوال جماعة كانوا على هذا القدم ، منهم الشيخ أفضل

الدين ، فصنعت له يوماً فطيرة وقدمتها بين يديه ، فصار يفتت منها ، ويرمي للكلاب

والقطط يميناً وشمالاً ، ويضع بين يديه شيئاً حتى اجتمع منها نحو الربع في حجره ، فأكل

منه فقلت له في ذلك ، فقال :

كان فيها قمح مخلوط من حرام وحلال ، فسألت الله تعالى فيز لي الحلال من

الحرام ، فقلت :

وهو دقيق ؟ فقال :

وهو دقيق ، إن الله على كل شيء قدير ، انتهى .

فانظري يا خي هذا الأمر العجيب ، ومثل هؤلاء الأولى بنا التسليم لهم لأن الإنكسار

لا يبدأ كد إلا على من يتبع على أفعاله والمتمسرع لا يتبع هؤلاء في مثل ذلك أبداً ، فالحمد لله

رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم إنكارهم على من يقول اجتمعت
بملك الموت في اليقظة

وقال لي : كذا ، وقلت له كذا ، أو على من يقول : اجتمعت بالسيد المسيح عليه
الصلاة والسلام في اليقظة ، فإن ذلك ممكن على وجه الكرامة .
وقد كان الشيخ محمد الشرييني^(١) رحمه الله يجتمع بملك الموت كثيراً ، ويسأله عن
أعمار الناس وما بقي منها فيخبره كما أخبرني بذلك أصحابه .

وفي بعض الأوقات يقول لملك الموت إذا جاء يقبض روح أحد من أهله : ارجع إلى
ملك فإن الأمر الذي أنزلت به نسخ ، وبقي من أجله كذا ، وكذا يوم أو جمعة أو شهر
أو سنة .

وأخبرني ولده سيدى أحمد أنه مرض حتى أشرف على الموت ، فنزل ملك الموت
وجلس عند رأسه ، قال : فجاء والدى وقال له وأنا أراه :
بقي من أجل ولدى ثلاثون سنة ، فرجع عزرائيل وطبت من ذلك المرض ، ولى بعد
ذلك عشرون سنة ، وبقي عشرة ، فكان الأمر كما قال .

وكذلك كان أخى الشيخ أفضل الدين يرى ملك الموت ويحادثه كثيراً ، وكذلك
أخبرني أنه اجتمع بالمسيح عليه الصلاة والسلام في سوق الوراقين بمصر المحروسة يقظة
سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة . وسأل الشيخ أفضل الدين عن بعض علامات الساعة التي
وقعت فسر بذلك ، ولم يزل الناس ينجبسون عشوى في مثل ذلك من غير دليل ، فبعضهم
يجوز ذلك ، وبعضهم يمنعه .

وقد ذكر ابن سيد الناس في سيرته في قصة سلمان الفارسي من رواية الطبري وغيره :

(١) هو الشيخ محمد الشرييني رضى الله عنه : شيخ طائفة الفقراء بالشرقية كان من أرباب
الأحوال والمكاشفات :
وكان رضى الله عنه يتسكلم على سائر الأقطار الأرض كأنه تربى فيها .

أن المسيح عليه السلام نزل بعد ما رفع ، فوجد أمه وأمرأة أخرى عند الجذع الذي فيه المصلوب يسكيان عليه ، فكلهما وأخبرهما أنه لم يقتل ، وإنما الله تعالى رفعه إلى السماء ثم أرسل الحواريين ووجههم إلى البلاد .

قال الطبري والسهيلي : وإذا جاز أن ينزل بعد الرفع مرة ، جاز أن ينزل مراراً ، ولكن لا يعلم المحجوبون أنه هو حتى ينزل النزول الظاهر الموعود به ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير كما جاء في الأحاديث الصحيحة ، قال الطبري :

ويروى أنه إذا نزل يتزوج امرأة من جذام ، ويدفن إذا مات في روضة سيد الخلق صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

وكذلك ذكر الشيخ محي الدين بن العربي إنه اجتمع بالمسيح عليه الصلاة والسلام يقظة ، وقاب على يديه وأمره بالسياحة والزهد في الدنيا ، قال : فهو أول أشيأخي عليه الصلاة والسلام . انتهى .

ونقل الشيخ عبد الغفار القوصي في كتابه المسمى بالوحيد : أن الشيخ تاج الدين بن شعبان كان إذا سأله إنسان في حاجة يقول له : أصبر حتى يجيء جبريل .

قال الشيخ عبد الغفار القوصي : ولا ينبغي الانكار على مثل ذلك ، لأنه ليس بمستنحل ، لأن قلوب الأولياء جواراة بالملكوت ، ولها مخاطبات لملائكته ، ومحادثة جبريل ليست بنبوة ولا وحي ولا إرسال . انتهى .

وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب المنن الكبرى في الباب الثالث عشر فراجعه وسلم للأولياء ما يخبرون به من جميع الممكنات . والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : تعظيمهم للفقير ببادي الرأي بمجرد
رؤيتهم لموقعته مثلاً

ولا يتوقفون على معرفة مقامه في الطريق .
كما أن أبناء الدنيا يعظمون من رأوه لباساً ملبس جند السلطان بمجرد رؤيته ولا
يتوقفون على معرفة وظيفته هل هي كبيرة أو صغيرة .
فعظم يا أخى الفقراء ولا تتوقف على معرفة مقامهم ، فإنهم كالسم القاتل .
وربما كان أحدهم ممن يغضب الحق تعالى لغضبه ويرضى لرضاه .

وربما وقع منك ياخى إزدراء له فدعا عليك فاستجاب الله دعاه ولو مزحاً ، كما
وقع لبعضهم أنه أراد القرب من زوجته فصاح واحد من أولاده وكانوا سبعة فقال :
أسكت أمانكم الله تعالى ، فمات السبعة لوقتهم فباغ ذلك سيدى إبراهيم المتبولى ،
فأرسل وراء الفقير ، وقال له : أمانك الله تعالى فمات الفقير لوقته ، فقال سيدى إبراهيم
لو بقى لأمات خلقاً كثيراً^(١) ، إنتهى .

(١) وفي الحديث : عن حارثة بن وهب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ
يقول : (ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ : كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره .
ألا أخبركم بأهل النار ؟ :

« كل عتل جواظ مستكبر » متفق عليه .

وعن أبى العباس بن سهل ابن سعد الساعدى رضى الله عنه قال : مر رجل على للنبي
ﷺ فقال لرجل عنده جالس . ما رأيك فى هذا ؟
فقال رجل من أشرف الناس :

هذا والله حرى إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع . فسكت رسول الله ﷺ ، ثم
مر رجل فقال له رسول الله ﷺ : ما رأيك فى هذا ؟

فقال : يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين هذا حرى إن خطب أن لا ينكح وإن
شفع أن لا يشفع وإن قال أن لا يسمع لقوله .

وفي الحديث : « إن الله تعالى أخفى أوليائه في عبادته » ، فقد يكون ذلك الجندي أو
القاضي أو التاجر أو المحترف مثلاً من أولياء الله تعالى الذين أخبر أنه تعالى يحارب من
حاربهم ، والحمد لله رب العالمين .

فقال رسول الله ﷺ :
هذا خير من ملأ الأرض مثل هذا) . متفق عليه .
وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسوله الله ﷺ قال :
(إنه ليأتي الرجل السمين العظيم يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة) متفق عليه .

ومن أخلاقهم : نداؤهم لأصحابهم بالقلب

فيأتون أو يمتنعون من المجيء إليهم ، إما حقوبة لهم على ذنوبهم أو إراحة لهم من تعب المجيء مثلاً ، فليحذر الإنسان من وقوعه من عدم التردد إليهم فربما عاقبوه بذلك على ذنوب سلفت منه أو لعدم انتفاعه بهم كما هو الغالب في المترددين للفقراء في هذا الزمان .

وأعرف جماعة لا يقدر أحد منهم بمحض معنا الورد يوماً واحداً . وربما يتوقف أحدهم عن المجيء إلى حتى يغلب على ظنه أن الورد فرغ . ومثل هؤلاء لا فائدة في تردهم لعدم شربهم من مسقاتنا بل الذي ينبغي لنا أن نسأل الله تعالى أن يعوقهم هنا مادماً في قيد الحياة . كما أوضحنا ذلك في كتاب المنن الكبرى .

فاهرض يا أخى هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن يجددوا معالم الطريق كلما خلقت

كما فعلت أنا في هذا الكتاب^(١) فأنى بحمد الله تعالى جددت به غالب ما خلق
واندرس من اخلاق الصالحين الذين أدركناهم في أول النصف الأول من القرن للعاشر ،
وما بقي إلا العمل بها .

وأظن أن غالب فقراء هذا الزمان كان لا يعرف شيئاً من هذه الأخلاق قبل ذكرى
لها كما يعرف ذلك كل منصف خال عن العصبية والدعوى .

وكذلك القول في علماء الشريعة لم يزلوا يجددون الشريعة وأقوال علماءها كما اندرست
إما بالتأليف وإما بالتدريس وإما بترجيح ما خفي دليله على المتقدمين ونحو ذلك .

ومن علمته يجدد الشريعة في هذا الزمان بأفعاله وأقواله سيدي محمد البكري^(٢)

(١) وكما فعل الإمام القشيري في الرسالة القشيرية والمجويري في كشف المحجوب
والسهروردي في عوارف المعارف والمحاسبي في الرماية لحقوق الله والطوسي في الجمع والواقع
أن الإمام الشعراني له هذا الفضل الذي يذكره عن نفسه وزيادة فإن كتب الإمام الشعراني
ومدرسته هم السبب في إحياء الطريق الصوفي في مصر .

(٢) يقول عنه الإمام الشعراني : ومنهم الشيخ الإمام العالم الراسخ في العلوم الدينية ،
والمنح المحمدية الكامل ابن الكامل سيدي محمد البكري .
اجتمعت به مرات فما رأيت أوسع منه خلقاً ، ولا أكرم نفساً ، ولا أجمل معاشرة .

درس وأفق في علم الظاهر والباطن ، وأجمع أهل الأمصار على جلالته ، ونشأ رضي الله
عنه كنشأة والده على التقوى والورع والزهد وعزة النفس حق أتته الدنيا وهي راغمة ،
فالناس أجمعوا على أنه ليس على وجه الأرض أكثر علماً منه ولا في غير مصر مثله ، وقد
أعطاه الله تعالى التكلم على أحوال السموات والأرض نقلاً وكشفاً ويقيناً لا ظناً ونعميناً .

وسيدى محمد الرملى^(١) والشيخ شمس الدين الخطيب^(٢) والشيخ نور الدين الطندتاوى^(٣)

(١) يقول عنه الإمام الشعراى : ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة المحقق صاحب العلوم المحررة والأخلاق الحسنة ، والأعمال المرضية ، سيدى محمد ، ولد شيخنا الشيخ شهاب الدين الرملى .

أخذ رضى الله عنه العلم عن والده فأغناه عن كثرة التردد والتطفل على غيره وبث فيه ما كان عنده من الفقه والحديث والتفسير والأصول والنحو والمعانى والبيان وغير ذلك . وهو الآن مرجع أهل مصر فى تحرير الفتاوى . وأجمعوا على دينه وصلاحه وورعه وحسن خلقه وكرم نفسه ولم يزل بمحمد الله فى زيادة من ذلك .
توفى فى الثالث عشر من جمادى الأولى سنة أربعة بعد الألف .

(٢) يقول عنه الإمام الشعراى : ومنهم الأخ الصالح العامل المقبل على عبادة ربه ليلاً ونهاراً الشيخ شمس الدين الخطيب . أخذ الشيخ شمس الدين العلم عن جماعة من علماء مصر ، كالشيخ ناصر الدين اللقانى ، والشيخ جمال الدين العسافى والشيخ ناصر الدين الطبلاوى ، والشيخ شهاب الدين الرملى وتبحر فى العلوم على أيديهم ، وأجازوه بالإفتاء والتدريس ، فدرس وأفقى فى حياة أسياخه وانتفع به خلائق لا يحصون . أجمع أهل مصر على دينه وصلاحه ووصفه بالعلم والعمل والزهد ، وكثرة النسك والعبادة . وشرح كتاب منهاج الفقه ، وكتاب التنبيه شرحين عظيمين ، جمع فيها تحريرات أسياخه بعد الشيخ زكريا ، وأقبل الخلائق على كتابتهما وقراءتهما عليه ، ومارأته قط يسعى على شيء من أمور الدنيا ، ولا على شيء فيه رئاسة ، ولا يزاحم أحداً على صحبة أحد من الولاة والقضاة ، بل ربما لا يعرف أحداً منهم .

(٣) يقول عنه الإمام الشعراى : ومنهم الأخ الصالح العالم الزاهد الكامل الراسخ المحقق الشيخ نور الدين الطندتاوى رضى الله عنه ، عاش على التقوى والصلاح والورع واشتغاف بالعلم والعمل ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لا يدهن أحد .

وأخذ الطريق عن سيدى على المرصنى ، والشيخ محمد الشناوى وأخذ العلم عن جماعة من مشايخ الإسلام ، كالشيخ ناصر الدين اللقانى ، والشيخ شهاب الدين الرملى ، حتى تبحر فى علوم الشريعة ، وأجازوه بالإفتاء والتدريس ، فدرس وأفقى فى جامع الأزهر فى حياة أسياخه وكانوا يرسلون إليه الأسئلة فيجيب عنها بأحسن جواب .

والشيخ شمس الدين البرهمتوشي^(١) والشيخ سراج الدين الحانوتي^(٢) والشيخ بدر الدين الشهاوى^(٣) ، ونحورهم ممن ذكرناه فى كتاب الطبقات ، فكل واحد منهم لو انفرد فى أمة من الأمم لهدام بإذن الله إلى الصراط المستقيم . فأسأل الله تعالى أن يفسح فى أجلهم وأجل تلامذتهم ليحيوا الذين بعدهم آمين . والحمد لله رب العالمين .

وكان الشيخ شهاب الدين الرملى يقول : تحقيق المسائل الواقعة فى الدرس للشيخ نور الدين الطندتاوى ، وجميع أشات المسائل للشيخ شمس الدين الخطيب الشربى .
(١) يقول الإمام الشعرانى : هو الشيخ الإمام العلامة المقبل على عبادة ربه ليلاً ونهاراً ، المعتزل عن الناس فى بيته عملاً بالسنة المحمديّة للشيخ شمس الدين البرهمتوشي . أخذ العلم عن جماعة ، منهم شيخ الإسلام الشيخ نور الدين الطرابلسى ، والشيخ العلامة المحقق العالم العامل المجمع على جلالته الشيخ محمد نعوش المغربى المالكي حين قدم إلى مصر من الروم ، وقرأ عليه أجلاء علماء مصر ، وانتفعوا به ، ولم يزل رضى الله عنه يقرأ على العلماء والأشياخ حتى تبحر فى علوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول ومعان وبيان وغير ذلك . وأجاز له أشياخه بالإفتاء والتدريس ، فدرس العلم وأفتى مرة ، ثم امتنع عن الفتيا تورعاً منه رضى الله عنه . مات سنة اثنتين وسبعين وتسعمائة .

(٢) يقول عنه الإمام الشعرانى : ومنهم الشيخ المجمع على جلالته وعلمه وورعه وحفظه جوارحه للشيخ سراج الدين الحانوتي رضى الله تعالى عنه .

وكان مجلسه مجلس علم وأدب وخشية وخوف من الله عز وجل ، فقد طبعه الله على الأخلاق الحميدة ، والشيم المرضية ، والأحوال السنية ، لا يكاد يطلع عليها إلا الله عز وجل من تهجد وقراءة أوراد ومراقبة . مات سنة سبعين وتسعمائة رضى الله تعالى عنه .

(٣) يقول عنه الإمام الشعرانى : ومنهم الشيخ الأخ الصالح العالم العلامة الورع الزاهد الشيخ بدر الدين الشهاوى رضى الله تعالى عنه ، صحبته نحو ثلاثين سنة فما زاغ عن الشريعة فى شيء من أفعاله وأقواله وعقائده . أخذ العلم عن جماعة من مشايخ الإسلام ، كالشيخ نور الدين الطرابلسى شيخ الإسلام ، والشيخ شهاب الدين الحلبي ، فلم يزل يقرأ عليه حتى تبحر فى علوم الشريعة والإفتاء ، فأجبه جاب شديداً وزوجه ابنته ، وأجاز له فى الإفتاء والتدريس ، فدرس وأفتى فى حياة أشياخه بإذنهم .

وأخذ طريق التصوف عن سيدى أبى السعود الجارحى رضى الله تعالى عنه فكل بمذلك حاله ، لأن الفقيه إذا لم يكن له علم بطريق القوم فهو ناقص فى المقام .

ومن أخلاقهم : كثرة الجهد والاجتهاد في العبادة ، ليجددوا الطريق

بعد موت أسيادهم الذين كانوا يجددون آداب الطريق

فإنه لا بد من حصول الفترة بين كل جماعة وجماعة من الأولياء ، كما كان يقع بين الرسل ، فإنهم على أقدامهم ، والاجتهاد وإن كان في زمن أسياد الإنسان فرض كفاية فهو في حقه بعد موت أسياده فرض عين .

وقد كان للطريق حرمة وهيبة في زمن الأسياد الذين أدركناهم في مصر وقراها . كسيدى على المرصفى والشيخ أبى السعود الجارحى والشيخ تاج الدين الداكر والشيخ محمد الشناوى والشيخ محمد ابن داود والشيخ محمد العدل والشيخ أبى بكر الحيدى ، والشيخ عبد الحليم والشيخ محمد المنير والشيخ عبد القادر الدشوطى وسيدى على الخواص ، ونحوهم رضى الله عنهم أجمعين ، فلما درج هؤلاء إلى رحمة الله تعالى خلت الديار المصرية وقراها من يحيى الطريق عدة سنين حتى أظهر الله تعالى بعدهم الجماعة الموجدون في مصر الآن ، فأسأل الله تعالى أن يفسح في أجالهم وأجل تلامذتهم .

فإن الدين لا يقوم إلا بدولة العلماء والصوفية فيهم يكمل الدين في دولة الظاهر والباطن وتكون عبادة الانسان سالمة من النفاق فإن خشع ظاهراً طوالب بالخشوع في طريق الحقيقة باطناً أيضاً ، فتكمل عبادته بذلك في طريق الحقيقة باطناً أيضاً فتكمل عبادته بذلك في طريق الحقيقة والشرعية ، وكذا القول في سائر مقامات الطريق فلو أن الفقيه راعى الباطن كما راعى الظاهر وطابق بينهما كان هو الصوفى حقاً ، ولمكنه ترخص ولم يناقش نفسه في الباطن ، ففرق الناس بينهما وصاروا يقولون :

هذا حقيقة وهذا شريعة فهو العالم العامل الصوفى حقاً ، والحمد لله رب العالمين^(١) .

(١) هل للتصوف صلة بالدين ؟

الواقع : أنه لا يوجد صوفى لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلك لأن التصوف لا يخلو من الغاية ، وغايته دائماً روحية : رضا المثل الأعلى ، حب الله ، الإتصال به ، الغناء فيه ليصبح عارفاً به سبحانه ، تلك هى الأغراض التى يسعى إليها ، أو إلى بعضها الصوفى .

لذلك لا يتأتى لشخص مؤمن أن لا يسعى إليها ، ذلك أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بكماله ، والسعى وراء هذا الكمال .

وإذن : مجاهدة ضد النفس والأهواء والشهوات حتى يصل الإنسان إلى الغايات التي وضعناها سابقا ، وهذه الغايات تقوده نحو الكمال ، أو نحو للثل العليا . ولكن للتخلق بأخلاق الله لا يتأتى إلا عن طريق الوحي للمعصوم فلا بد إذن من اتباع تعاليم الرسول اتباعا سليما .

وبالتالى فإنه لا يتأتى أن يوجد تصوف قط ما لم يكن اتباع كامل لشريعة صادقة ، وإن التصوف الإسلامى لم يوجد إلا باقتداء بالصوفية إقتداء تاما برسول الله ﷺ ، لقد أحبوه واتبعوه وحققوا بذلك قول الله تعالى :

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » .

لقد تناقش الناس كثيرا فى كون سيدنا محمد ﷺ هو القدوة لصوفية الإسلام ، بل سخر بعضهم حينما كانوا يسمعون أن محمدا ﷺ ، أول صورة حملت الصوفية على اقتفاء آثارها .

والواقع : أن التصوف لا يعدو أن يكون جهادا عنيفا ضد الرغبات ، ليصل الإنسان إلى السمو ، أو إلى الكمال الروحى : ليكون عارفا بالله .

وليس من عناصره فكرة الاتحاد أو الوحدة ، أو الحلول ، بل إن فكرة الاتحاد والوحدة والحلول يتبرأ منها الصوفية ، وهم بعيدون عنا كل البعد ، على الرغم مما يقذف به لعدائهم ، وما اتهامات أعدائهم إلا اتهامات أعداء .

من المنقذ من الضلال للدكتور

عبد الحليم محمود

ومن أخلاقهم : شدة الخط والزجر والتوبيخ والهجر

لمن يقول : ماثم إلا الله تعالى

فإن إطلاق هذا اللفظ يبني عليه هدم الشريعة كلها .

وقد كان الشيخ أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه يقول :

لو كنت سلطاناً لضربت عنق كل من يقول : ماثم إلا الله ، أو ماثم فاعل إلا الله ، لأن صاحب هذا القول إن اعتقد صحة إطلاقه ، ولم ينسب إلى الخلق وجوداً ولا فعلاً ، فقد رد النكاليف الشرعية كلها ، وبتقدير وقوعه في المعاصي فلا يصح له توبة منها ويقول : كيف أتوب من فعل ليس هو لى ؟ فيهلك مع الهالكين ، انتهى .

وسمعت سيدى علياً الخواص رحمه الله يقول :

لما كانت الأصنام تعبد بين فترات الرسل فكذلك لابد أن يعبد الهوى بين فترات الأولياء ، بل ربما وقعت بين فترات الأولياء أمور هي أقبح من كل قبيح ، وهو نفي الاله جملة أو نفي المألوه جملة كما وقع فيه بعض الطوائف ، فقالوا : ماثم إلا فروج تدفع وأرض تبلع . وقال بعضهم ماثم موجود إلا الله تعالى ، وما ترونه عالماً فهو الله حتى الأشياء التي لا تقال . فهؤلاء أبخس الطوائف . كما بسطنا الكلام على ذلك في الباب الثالث عشر من كتاب المنن الكبرى .

فاعرض يا أخى هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم ، والحمد لله رب العالمين^(١) .

(١) نفهم من حديث الإمام الشعراني النهى عن التحدث في القدر ويؤيد ذلك الحديث عن رسول الله ﷺ : (إذا ذكر القدر فامسكوا) .

ومن أخلاقهم : عدم الجزم بترجيح أحد من العلماء أو الفقهاء علي غيره
أدبا مع الله تعالى ، فإنه يحو ما يشاء ويثبت .

وقد قالوا : من شأن الفقير أن لا يرجح ولا يجرح ؛ أي لكثره إقباله علي الله تعالى
فلا يصير له كثير معرفة بأحوال الناس . وإن وقع أنه رأى في أحد عيباً يقول :
إنما ذلك العيب لي .

لأن المسلم مرآة المسلم ، ولا يرى الانسان في المرآة إلا صورة نفسه هو ولو جهد كل
الجهد أنه يرى جرم المرآة من تحت صورته التي ارتسمت فيها لا يقدر . فلذلك كان
لا يجرح أحد .

وإن وقع أنه زكى أحداً فإنما ذلك صورة نفسه كذلك . فلا يحصل بها الفرض عند
الحكام لأنه لم ير فيه إلا صورة نفسه ؛ وهو عدل ثقة ليس ارتكباً كبيرة ولا معصراً
علي صغيرة .

فعلم أنه لا يليق بفقير أن يتصدى لتزكية ولا تجريح . وأن اضطر إلى تزكية فليزك
بطريقه الشرعي كما قدمنا ذلك مبسوطاً في هذا الكتاب بالنظر لتزكية الحكام في
المحاضر^(١) . والحمد لله رب العالمين .

(١) سبق للإمام الشعراني أن تحدث في هذا الموضوع بالنسبة لتولية القضاة وأصحاب
المهام الكبرى في الدولة .

ومن أخلاقهم : الستر على من يدعى الطريق بغير حق إلا
إن ترتب على الستر محذور

ثم وجوب النصيح له فيما بينهم وبينه .

ولهم في قلوبهم علامات يعرفون بها الحق والمبطل . فلا يكاد يخفى عليهم الصادق
من غيره ، فإن بواطن الخلق مكشوفة لهم حتى أنهم يعرفون الخواطر التي تخطر للناس
في قعور بيوتهم ، ولكن يكتُمون ذلك تخلفاً بأخلاق الله تعالى فإنه يرى العيب ويستتره
والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة شفقتهم

على الأيتام والمساكين والعميان وأصحاب العاهات كالمجذومين ومن بهم برص ؛
فياً كلون مع الأجندم ويقولون له رأسه ولحيته وثيابه ، وياً كلون معه المائعات ويشربون
فضلته ثقة بالله تعالى وتوكلاً عليه ، ويحبون المجاورة لهؤلاء عندهم في زوايتهم ، ويعدون
اليوم الذي يأتيهم فيه أعمى أو مبتلى يجاور عندهم كأنه يوم عيد .

وقد من الله تعالى على بذلك ، فأود أن لو كان المجاورون عندي كلهم عميان وعرجان
ومجذومين ، ولا استثقل منهم إذا كثروا عندي في الزاوية . ولو صاروا ألف نفس بل
أنكدر كلما ينقصون بموت أو سفر أعمى بأن الرحمة لا تفارقهم من كثرة قراءتهم
وذكرهم وكسر خراطهم . وإنما كنت لا أستثقل بهم كغيري أعمى بأن رزقهم على الله
تعالى لا على^(١) . فالحمد لله رب العالمين .

(١) ولعل هذا الخلق يدخل في مقام التوكل عند الصوفية .

يقول الإمام القشيري — من أئمة الصوفية — يقول :

واعلم أن التوكل محله القلب ، والحركة بالظاهر لا تنافي التوكل بالقلب بعد ما تحقق العبد
أنه التقدير من قبل الله تعالى ، فإن تفسر شيء فتقديره ، وإن اتفق شيء فتفسيره .
ويقول الإمام سهل بن عبد الله : التوكل حال النبي ﷺ ، والكسب سنته ، فمن بقى
على حاله فلا يترك سنته . ويقول :

من طمن في الحركة فقد طمن في السنة ، ومن طمن في التوكل فقد طمن في الإيمان . ما
كيف عرف سهل نفسه التوكل ؟ فإنه قال : التوكل : الإسترسال مع الله تعالى على ما يريد .

ومن أخلاقهم كثرة تعظيمهم للعلماء

فلا يمرون عليهم وهم راكبون إلا اعذر ، بل ينزلون ويسلمون عليهم ويقبلون أيديهم ، بخلاف ما عليه جماعة من فقهاء هذا الزمان ، فربما رأى بعضهم نفسه على العلماء . وقال : هؤلاء محجوبون عن الله عز وجل .

وذلك سوء أدب وهو نوع من الكبر الذى هو حرام بإجماع المسلمين . وغاب عنهم أنه ما ثم أحد إلا وهو محجوب عن الله تعالى بحسب مقامه ^(١) .

فعظم يا أخى حمة العلم والقرآن فإن عليهم مدار الدين ، ولا يستخف بهم إلا كل جاهل ، وربما كان طلبة العلم أعلم منهم بالشريعة ، بل ذلك وافع . فلو قلت لأحدهم : مقصودى أقرأ عليك مختصراً فى الفقه لا بقدر على تفهيمه لذلك القارىء .

فاهل ذلك واعرض هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم . والحمد لله رب العالمين .

(١) يقول الله تعالى : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب) .

وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن من إجلال الله تعالى إكرام ذى الشبهة المسلم وحامل القرآن غير الغالى فيه والجافى عنه وإكرام ذى السلطان ^{الملك}) حديث - سنن رواه أبو داود .

ومن أخلاقهم : كراهتهم للقرب من الملوك والأمراء إلا إن
أعطاهم الله تعالى الكشف الصحيح

فإنه لا يطيب لهم عيش مع الأمراء إلا إن كانوا يكشفونهم بالأمور المستقبلية ما
يفرحهم أو يحزنهم . وإذا لم يكن لهم كشف فحالهم معهم ناقص . وربما كانوا يحسنون
إلى أحدهم بالفلوس والطعام فيسألونه عن شيء يقع لهم في المستقبل فلا يدري ، فيقطعون
إحسانهم عنه ويردون شفاعاته التي هي المقصود الأعظم من صحبتهم .

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يكره القرب من الأمراء من حيث عدم قيامه
بواجب حقهم في الأدب معهم ، ويقول : أنا لا أعرف ما يستحقه آحاد الناس من
الأدب فكيف أعرف آداب الملوك والأمراء وأكابر الناس ؟

وكان يقول : من إجلال الأمير عدم الأكل معه على سفرة واحدة ، أو كثرة مجالسته
بلا ضرورة^(١) .

وقد وقع أن الشيخ أبا العباس للرسى لما اجتمع بسلطان تلمسان ذكر بعض الناس
من العامة لسلطان كراماته فقال :

لا بد من امتحانه ، فذبح له دجاجا ودرس فيه واحدة مخنوقة ، فلما قدمت للشيخ
أبي العباس قال :

أطعموا هذه للكلاب وميزها من بين الدجاج ، فاعتقده السلطان اعتقادا تاما .
فلولا هذا الكشف لما كان اعتقده ولا عظمه .

فاعلم ذلك يا أخي ولا تصحب أحدا من الأمراء إلا إن كنت صاحب كشف تام إذا
أخبرتهم بشيء وقع لا محالة . والحمد لله رب العالمين .

(١) ويختلف الصوفية في هذا الخلق : فبعضهم يرى جوازه بالشروط التي ذكرها
الإمام الشعراني .

والبعض الآخر لا يرى جواز مجالسة الأمراء والسلاطين إلا للنصيحة لهم .
والبعض الآخر يرى تجنب ذلك على الإطلاق .

ومن أخلاقهم عدم طلبهم كثرة الأتباع

إظهارا للعجز عن القيام بحقوقهم من أكل وشرب وكسوة ونصح وتأديب .

وكان لسان القدرة الإلهية يقول : من طلب كثرة الأتباع ، فليستعد للبلاء .

وربما كثرت أتباع الفقير وهظموه فكانبوا السلطان فيه بأنه يخاف على المملكة منه ، فأرسل بقتله أو نفيه من بلده ، كما وقع ذلك للشيخ علي الكازواني وللشيخ أويس بالشام .

فعلم أن من عقل الفقير إذا رأى أتباعه تكثر . وخاف من جهتهم علي نفسه أن ينفروهم بالقلب والقالب ، ويمنعهم من الاجتماع به رحمة بهم .

وربما رمى الشيخ بعمل الزغل مثلا فسكوا جماعته فغطوا أيديهم كما وقع للشيخ صنطباي ، ثم نفوه إلى القدس حتى مات .

وبالجملة فمن لم يكن له حال يحميه من تصرف الولاة فيه ، فليس له التظاهر بالمشيخة في هذا الزمان ، ولا إخبار الناس بمن يعزل أو يتولى من الولاة .

ووالله إنى لأكتم كثيرا مما اطلعت عليه في المستقبل ، وأسأل عنه ، فلا أجيب ، ومع ذلك فقد كاتب الحسدة من مصر في إلى باب السلطان وذكروا أن أتباعي في مصر نحو ثلاثين ألفا ، وأنى ادعيت الاجتهاد المطلق ، وأنه يخاف على المملكة مني .

فلولا أن ولد شيخى الشيخ أبو اللطف كان هناك وكذب المنهى في ذلك لحصل لي غاية التكدر ، وبينما يجيء الدرياق من العراق مات الملسوع^(١) .

فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

(١) وبالفعل كان للإمام الشمراني بعض التجارب مع السلاطين في هذا الموضوع ويبدو أن مسألة رعيه بالاجتهاد المطلق كان لها تأثير كبير حيث جعلته موضع اتهام من عدد من العلماء في عصره .

ومن أخلاقهم عدم مباحرتهم للانكار على من رأوه يأخذ

مال الولاة من كمل العارنين إلا بطريق شرعى

بل يتربصون فى ذلك فر بما كان يفرق ذلك على محاويع المسلمين ممن يحمل له مثل ذلك ، كالذى ارتكبه الديون وهو ذو عيال وطامع عليه مع ذلك الحب الفرنجى ، وكالعميان والأيتام الذين لا مال لهم ، ونحو ذلك .

وإذا رأيناه يأكل مما يأخذ من الظلمة حملناه على الضرورة الشرعية ، وإن كانت القرائن تعطى غير ذلك ، طالبا للسلامة من حصول الإثم بسوء الظن فتحقق يا أخى المنكر ثم انكر .

وقد بلغنا أن الشيخ أبا عبد الله القرشى رضى الله عنه ، وكان من أصحاب الخضر عليه الصلاة والسلام ، وكان ينام عنده كثيرا ، أنه مر بأصحابه على صبي يقرط الفريك فقال : خطية عليك يا ولدى تقرط من قمح الناس . فقال له : بل خطية عليك يا هم فى إساءتك للظن بى . إنه والله زرعنا من غير شريك ، وقد أرسلنى والذى أقرط منه شيئا نعمله فطيراً لضيف فكلم الشيخ وتأدب من المبادرة إلى الانكار من ذلك اليوم .

وتقدم تقريرنا : أن الشخص لا يسلم من المبادرة إلى الانكار ، ويصير يحمل الناس على الحامل الحسنة إلا بعد أن يظهر باطنه من سائر المخالفات ، وإلا فن لازمه غالباً الإنكار ، حملاً للناس على الحامل السيئة ، قياساً على ما عنده هو ^(١) .

فاعرض يا أخى هذه الاخلاق على نفسك وعلى اخوانك . تعرف حالك وحالهم . والحمد لله رب العالمين .

(١) يقول الله تعالى : (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) . وقال تعالى : (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً) .

ومن أخلاقهم : حسن سياستهم لصاحبهم

إذا صاحب أحداً من الظلمة وصار يأكل من طعامه خوفاً أن يهجر أصحابه إذا عارضوه في صحبة ذلك الظالم ، حتى تشربت محبته قلبه .

وكذلك من أخلاقهم حسن سياستهم لذلك الظالم فيكتبون لصاحبهم : قد بلغنا يا أخى أنك صرت تأكل من مال الظلمة والمسؤول من فضل الأخ إن لا يأكل إلا من الطعام الذى يأكل منه الأمير ، فقد بلغنا أنه يتورع فى مأكله ولا يجعل فيه شيئاً من البلبص والجرايم ، وذلك هو الظن به فإنه رجل عاقل ، والعاقل لا يأكل حراماً ، ويعرض نفسه ، لدخول النار ونحو ذلك من الألفاظ ، فيستفيد صاحبنا ، ومن هو فى خدمته من هذا الكلام النصيح من خير أن يجزم فى حقه بأنه يأكل حراماً ، فإنه ربما تنفر نفسه من ذلك الكلام ويقول ما يأكل حراماً إلا هذا النصاب الشيطان ، ونحو ذلك ، ويصير يعارضنا فى شفاعتنا عنده فى المظلومين ، فالحمد لله رب العالمين^(١) .

(١) يقصد الإمام الشعرانى هنا أن ينبه على ضرورة الموعظة الحسنة لأن إيتاء بعض الناس بالقول الشديد يدفعهم إلى المعاندة والتطرف فى هذا العند .
يقول الله تعالى : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) .

ومن أخلاقهم : عدم معاداتهم لأحد ممن يحضر للمواكب الإلهية

كال مؤذن والمتهجد في الاسحار والذباكر لله تعالى ، فربما حفت هؤلاء العناية الربانية ، فغفر الله تعالى لهم جميع ذنوبهم وصاروا محبوبين لله عز وجل من جملة أوليائه ، وقد قال الله تعالى :

من آذى لي ولياً فقد أذنته بالمحاربة^(١) ، ومن حاربه الله تعالى هلك مع الهالكين في الدنيا والآخرة ، ولم يأخذ بيده في شدة فقد ثبتت عداوته لله ورسوله ، فكيف يعادى العبد من يحبه الله تعالى ورسوله ﷺ .

وأيضاً فقد قال الله تعالى : « أنا جليس من ذكرني »^(٢) .

فكيف يعادى الانسان جليس ربه تعالى ؟ أو لم يسكره لأجله .

وربما جعل الحق تعالى دعاء ذلك المؤذن مثلاً لا يرد في حق كل من أذاه وربما كان ذلك الذي أذاه نائماً في الاسحار على جنابة والمؤذن يعبد الله تعالى وينبئ عليه ، وهو على طهارة ، فليحذر الفقير من مثل ذلك وهذا الخلق لم أجده فاعلاني اقراني غيري فالحمد لله رب العالمين .

وكان سيدي على الخواص رحمه الله يقول : لا ينبغي لعامل أن يعادى أحداً من خدام

(١) والحديث بطوله : (عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، وإن سألني أعطيته ولئن استعاذني لأعيننه) رواه البخاري .

(٢) الحاكم بمعناه ، بسند صحيح وروى أحمد وابن ماجه بسند صحيح (أنا مع عبدي ما ذكرني .. الخ) .

المساجد وعمارها لحظ نفس من أمام وخطيب ووقاد وفراش وبواب ، وغيرهم إكراماً
لصاحب البيت جل وعلا ، وأقل ما يكون من إكرامهم أن يكرمهم كما يكرم بواب
السلطان وفراشه وإمامه وخطيبه ، والله المثل الأعلى .

فعلم أن كل من ادعى أنه من أهل الطريق وأذى أحداً من خدام المساجد ؛ ولو بسوء
الظن فهو كذاب لم يشم للطريق رايمحة والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : المبالغة في الأدب مع ولائهم

فلا يطعنون عليهم إذا ولوا أحداً أمور المسلمين إلا بطريق شرعي لأن الولاية آتم نظراً من أحد الناس ؛ وقد وعظ الأصمعي هارون الرشيد بمسلاً من الناس ؛ فقال له هارون :

يا با عبد الله إن كنت أهلك منا فنحن أهلك منك ؛ وأتم نظراً فلا تنصحننا في ملاء ولا تغشنا في خلاء .

وهذا الأدب من محاسن أخلاقهم ؛ فإن من طعن على إمامه . فقد خاناه بالغيث وذلك مذموم ؛ بل يسكون مع إمامه بالتمعظيم والتبجيل على حد سوا في الغيبة والحضور .

وقد باغنا أن الخليفة لما منع الإمام أبا حنيفة من الفتوى سأله ابنته في الليل عن الدم الخارج من بين الأسنان هل ينقض الطهارة ؟

فقال لها : سلى عن ذلك علك حمداً فإن الخليفة قد منعني أن أفتى ولم أكن ممن يخون إمامه بالغيث . انتهى .

وهذا الخلق خلق غريب لم أجده فاعلام من أقراني إلا النادر . وأكثر الناس يطعن على السلطان في ولايته قضاة العساكر وعلى الباشا في توليته أرباب المناصب ويخوضون في ذلك بغير علم ، وذلك لا ثمرة فيه أو الباشا مثلاً تحت طاعة ذلك الطاعن فالعاقل من عرف زمانه^(١) . والحمد لله رب العالمين .

(١) وفي الحديث : عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وأنه لا نبي بعدى وسيكون بعدى خلفاء فيكثرون . قالوا : يا رسول الله فما تأمرنا ؟ قال : أوفوا ببيعة الأول فالأول ثم أعطوهم حقهم واسألوا الله الفدى لكم فإن الله سائلهم عما استرعاهم متفق عليه .

ومن أخلاقهم : أدبهم مع طلبة شيخ إمامهم

كما كان إمامهم يتأدب مع شيخه .

فيتأدب من قلد الإمام الشافعي مع طلبة مذهب الإمام مالك ؛ ويتأدب الحنابلة مع طلبة مذهب الإمام الشافعي ، وهكذا إلى مشايخنا الذين قرأنا عليهم العلم من أهل عصرنا لأن حرمة الوالد وإن علام مطلوبة شرعاً ، ولذلك قال الله تعالى : « يا بني آدم » فنسبهم إلى جدهم الأصلي لينبهم على كثرة الصلاة والدعاء له كلما قرأوا ودعوا قِياماً بواجب بره صلى الله عليه وسلم .

ولم أجد لهذا الخلق فاعلاً غيري إلا القليل .

فأعرض هذه الأخلاق على نفسك وأقرائك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : حمايتهم من الأكل من طعام
المتهورين في مكاسبهم

كما تقدم بسطه مراراً كالذى يبيع على الظلمة أو يقبل هداياهم .
ومن أكبر علامة للمتهودين أن يطبخ أحدهم اللوتين والثلاثة في بيته ، فإنما لو تورع
لم يجد لونا واحداً إلا بعسر ، ومتى دعى الفقير في هذا الزمان إلى طعام ، ورأى هناك
أكثر من لون ، فمن الأدب عدم الأكل ، وكل فقير ترخص في ذلك فهو نصاب هالك
وربما قال أن الإمام أبا حنيفة يقل : الحرام لا يتعدى ذمتين وأنا أكل على مذهب هذا
الإمام الأعظم .

فنقول له : قد سألنا المحققين من أهل مذهبه فقالوا لنا : هذا نقل باطل عن إمامنا أو
هو محمول عن من لم يعلم بذلك وإنما شك فيه فقط أما من رأى الظالم يأخذ من أحد طعاماً
فخصباً ، ثم قدمه لنا ، فلا يجوز لنا أكله بالإجماع .

وقد بلغنا أن الحسن البصري زار الإمام عمر بن عبد العزيز فقدم له عمر كسرة يابسة
ونصف خبازة ، وقال : كل يا حسن فإن هذا زمان لا يحتمل فيه الحلال السرف ، انتهى .
فعلم أن هؤلاء الذين يأكلون في بيوت الظلمة كاذبون في دعواهم إنهم من أهل الطريق
لا ينبغي لهم التصدر في مقام المشيخة ولا أن يأخذوا العهد حتى يتوبوا توبة نصوحاً والحمد
لله رب العالمين^(١) .

(١) وهذا من أحسن تنبيهات الإمام الشعرائي : فإن الذي تكون مهمته الدعوة إلى
الله ثم يزور الظلمة ويأكل عندهم مع معرفته أن هذا الأكل نتيجة الظلم يصدق عليه قول
الله تعالى : (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) .
وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا
ما لا تفعلون) .

ومن أخلاقهم : عدم أكلهم من طعام من يعتقد فيهم الصلاح

فإنه لولا اعتقاده الصلاح فيهم ما كان أطعمهم شيئاً فلا يأكلون إلا من طعام المحب لهم فقط ، والفرق أن المحب تكون محبته كمحبة الوالدة لا يتوقف محبتها لولدها على كونه صالحاً بل تحبه على أى حال كان ، وإن رأت منه أفعالا ناقصة قالت : خزاك الله يا إبليس ولا تكاد تضيف إلى ولدها شيئاً من النقايس ، ثم إن الفقير لا يخلو حاله من أمرين لأنه إن كان صالحاً في نفس الأمر كما يظنه المعتقد ، فقد أكل بصلاحه طعاماً ، وإن كان غير صالح فقد أكل حراماً بنص الشريعة ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : مسالة الظلمة وعدم الركون إليهم

إذا قالوا للفقير نحن والله محبون فانهم كاذبون ، وذلك لأن أفعال الظلمة بالصد من أفعال الفقراء فأين الصدق في المحبة وأين علاقتها .

فإن الفقير الصادق لا يحب الدنيا ، ولو أعطاهم الظالم له ما قبلها منه .

فليكن الفقير الساذج علي حذر من الركون إلى إظهار الظالم المحبة له ، وقد رأيت شخصاً من مشايخ العرب إذا دخل بيته فقير يقول له : نحن أحق بالسعي ، واسكن كما وثقنا بهارة بيتنا الذي دخله سيدي الشيخ وبصير يقبل رجله ، ثم إذا أراد الشيخ الإنصراف يعطيه شيئاً من الذهب ويكتب له وصولات بعسل وسمن وقمح وبسلة ودجاج وأوز ويقول للشيخ : ياسيدي اجبروا بخاطري الله تعالى ، وأقبلوا ذلك من عبدكم فتدخل راس سيدي الشيخ الساذج الجراب وبصير يقول في نفسه وللناس والله :

ما كنت أظن أن هذا يحبنا هذه المحبة العظيمة فيفارقه الشيخ وهو يحب ذلك الظالم أشد المحبة ، ويركن إليه أشد الركون ، وبصير يجيب عنه كل من وصفه بالظلم ، ويقول : إنه مسكين إيش يعمل الأحزان الولاة يطلبون منه شيئاً لا يفرغ ، فلا يكاد يجعل له هذراً في ظلمه أبداً والحال إن ذلك الظالم أول ما يخرج الفقير يقول : أسأل الله تعالى أن لا ينفعني ببركة أحد منكم أين صلاحكم وأين حياؤكم وأنتم لا تشبعون من السؤال بالحال والقال .

ورأيت في مولد سيدي أحمد البدوي نزل له شيخ من مشايخ مصر في حجة حضور المولد يشحت منه فقام له وبجله وأكرمه وكتب له وصولات بعسل وسمن وقمح ودجاج ، فلما خرج من هذه قال : قطعكم الله عن بكرة أبيكم تأتوناً لماذا ما أنا عالم فتأخذون مني هلمى ، ولا أنا صالح فتأخذوا دعائى ، ولا هندي مال حلال فتأكلون منه هذا شئ سمعته بأذنى فأخذت لنفسى منه عبرة .

وسمعت منه مرة أخرى يقول : ليس أحد في هذا الزمان يصلح اعتقادنا فيه ولولا قبولنا

شفاعاتهم ماجعلهم الناس مشايخ ولا اعتقدوهم ، فنحن الأشياخ على الحقيقة ، وهم من تحت أمرنا لأنهم يحتاجون إلينا ونحن لا نحتاج إليهم .

وقد دخلت عليه مرة فأكرمنى وقبل نعلى فلما وليت وخرجت من عنده استحى أن يواجهنى بهدية فعوق النقيب وأعطاه لى شيئاً يساوى أكثر من أربعة آلاف نصف ، فرددتها عليه ، فأرسلها ورأى إلى المولد ، فرددتها .

فقال : ماغلبنى فى الفقراء إلا فلان وقضى للناس على اسمى عدة شفاعات .

فاعرض يا خى هذه الأخلاق على نفسك وأقرباك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم الأكل من طعام من يأكل بدينه من الفقراء

الذين لا كسب لهم وإنما يكرمهم الناس لأجل صلاحهم ودينهم لاسيما أن عمل ذلك
الفقير مولداً أو طهوراً أو عرساً ، فإن ذلك الطعام لا يخلو من الشبهات قطعاً ، اللهم إلا
أن يكون من كل الأولياء أصحاب التصريف ، فهذا لا اعتراض عليه لحفظه بفضل
الله تعالى .

وقد كان الفضيل بن عياض يقول : لأن أكل الدنيا بالطبل والمزمار أحب إلى من
أن أكلها بديني .

ومن شك من هؤلاء الفقراء في أنه يأكل بدينه ، فليقدر نفسه متجردة من جميع
صفات الصالحين متخلقة بصفات الفاسقين ، وينظر فإن أطعمه الناس وهملوا له وليمة من
مالهم فهم محبون قد أطعموه الله تعالى ، وإن تركوا إطعامه فليعلم أنه يأكل بدينه .
وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول :

لا ينبغي لفقير أن يأكل من طعام أحد إلا أن كان بحيث لو أخبره بجميع زلاته السابقة
التي عمها بينه وبين الله تعالى لم يتغير اعتقاده عليه ولا حرم عايه الأكل^(١) ، انتهى ،
فالحمد لله رب العالمين .

(١) يحاول الإمام الشعراني دائماً إبعاد الصوفية عن كل ما يشير حولهم للشبهات نظراً
لأن كثيراً من المشعوذين استخدموا الطريق الصوفي للحصول على ما رُب لهم فهو هنا ينفي
هذا عن رجال التصوف ويربأ بهم عنه .

ومن أخلاقهم هدم أكلهم من طعام التذوور أو الأهراس الواسعة
أو طعام العزا والجمع في المقابر وتمام الشهر ونحو ذلك

لغلبة الكفاة في مثل ذلك ، وقلة الاخلاص فيه عادة لاسيا ان كان طعام النذر عملته
امرأة من غزلها وخياطتها فإن في ذلك دناعة همة لا تليق بالرجال .

وقد نفذت وصايا جميع الأشياخ إلى مريديهم في سائر الأقطار أن لا يأكلوا من طعام
النساء ولا يقبلون لهم رفقا اللهم إلا أن يطاع الله تعالى أحدا من الأشياخ على حل ذلك
الطعام واصلاح نية فاعله ، فلا حرج في أكل ذلك .

وقد كان عليه السلام يذهب هو وأصحابه إلى دار عجوز كل جمعة ، فتضع له طعاما فيأكلون
منه حتى قال أبو هريرة : كئنا نفرح ليوم الجمعة لأجل طعام تلك العجوز انتهى .

وسمعت سيدي على الخواص رحمه الله يقول :

لا ينبغي لفقير ولا فقيه أن يجاس يأكل من طعام العزا وأم لليت وأخوه وابنته
مثلا كأنهم غمسوا في نار من فرقهم إلى قدمهم فإن ذلك في غاية القبح ، بل الذي ينبغي
له تعزية أهل لليت ، ونسليتهم ، ووعدم بالاجر على ذلك ، ويقول لهم كلنا راحلون
هن قريب ، وأقبح من الأكل تخاصم الفقهاء على فلس القراءة وأهل لليت يسمعون كما
بسطنا الكلام على ذلك في كتاب المزن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : هدم الأكل من طعام الصنایعی الذى يعمل بالقوت
لا سيما ان كان قد طعن فى السن إلا ان كافتوه عليه إما باعطائهم منه ، أو بتوجيههم إلى
الله تعالى أن ينزل له البركة فى رزقه ، ويرزقه العافية فى بدنه ، ويستتره بين العباد إلى
آخر دقيقه.

وربما كان ذلك الطعام ممن كلفته زوجته بعمله ، لما ولدت أو شفيت من مرضها ،
ووصلت معه فيه إلى الطلاق ، حتى عمله .
وقد حماني الله تعالى من أكل مثل ذلك إلى وقى هذا ولم أجد له فاعلا من أفرانى
إلا النليل ، فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم هدم أكلم من طعام من علموا ان عليه ديناً
سواء أكان قادراً على وفائه أو عاجزاً لأن في الأكل من ذلك مساعدة له على هدم
أخطائه الحق الذي عليه .

إذ الواجب على المديون صرف كل ما زاد على ضروراته في الدين فن أكل من ذلك
الطعام ، فقد أكل شبهة لكون الحق في ذلك لغيرنا من حيث الأمر بتقديمه علينا ، ولو أن
المديون دعانا إلى ذلك بطيبة نفس ، فلا نجيبه لأنه جاهل بما قررناه ، فهو كالطفل في
في حجر واليه لا يجاب إلى كل ما يطلب .

ولم أجد لهذا الخلق فاعلاً في مصر خيراً إلا قليلاً ، وغالب الناس يأكلون ما قدم لهم ،
ولا يسكادون يشلون هل على صاحبه دين أم لا ، بل لا يهتمون لكون الدين مانعاً للمتورعين
من الأكل أم لا .

فأعرض يا أخى هذه الأخلاق على نفسك وإقرانك تعرف الحال والحمد لله
رب العالمين ^(١) .

(١) يقصد الإمام الشعراني بنهيه عن الأكل من طعام النساء والصناع ومن عليه دين
فن هؤلاء هم عادة الطوائف الفقيرة المحتاجة في أي قطر فتكلفتهم بتجهيز أي نوع من
الطعام أو الأكل عندهم فيه تضيق عليهم في معيشتهم فهو يربأ برجال التصوف أن يكونوا
سعيًا في التضيق على الناس وإتاعهم في أرزاقهم بل يكون الصوفية هم أصحاب اليد العليا
عند هؤلاء الناس .

ومن أخلاقهم عدم المبادرة إلى الانسكار على من يروه
يسعى على وظائف الناس من طلبية العلم

لأن الساعي ربما كان أهلاً لذلك ، وصاحب تلك الوظيفة عامي مات أبوه الفقير
فلم يزل واضعاً يده عليها بحكم الارث له في ذلك لاسيما ان كانت عمامته كعمامة الفقير ،
بل الذي ينبغي للعبد أن يتربص في مثل ذلك ، حتى يظهر له ان من في يده تلك الوظيفة
ليس بأهل لها ، أو هو أهل لها ، ثم بعد ذلك ينكر على المبتطل منهما ، كما أوضحنا
ذلك في كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم مزاحمتهم على شئ من مناصب الدنيا

كـتـدريـس عـلم أو وعظ ، أو تسليك للمريدين ، أو مشيخة حضور ونحو ذلك إلا بطريق شرعى .

فلا يكون له علاقة دنيوية تعرفهم عن دخول حضرة الله تعالى أبدا إلا عدم القسمة لا غير ، وبذلك تميزوا عن غيرهم .

فمن كانت له علاقة من الدنيا تقطعه عن الله عز وجل ، فليس هو من أهل الطريق ، ولو لبس الصوف والمرقعات .

ثم من علامة العلاقة أن يحتاج إلى وقوف عند حاكم لأجل مزاحمة أحده في تلك العلاقة لأن الصادق يعطى كل مدع عليه ما طلبه منه ، ولو بغير حق هروبا مما يشغله عن الله تعالى ، ثم انه يرى ذمة من أخذه منه في الدنيا والآخرة ، ولورزقته أو بيته أو زاويته لأنه يعمل على فضل الله تعالى في أمر رزقه ، وجميع حاجاته لأهل شئ من السكون ، ومقصوده الأعظم أن يرى نفسه بين يدي ربه ليلا ، ونهارا لا غير ، وهذا لامزاحم له عليه .

فليفتش الفقير نفسه هل زاحم أحدا ولو بقلبه على شئ مما ذكرناه وهل هو صادق في قطع العلايق أو كاذب ^(١) والحمد لله رب العالمين .

(١) قال الأستاذ الإمام أبو القاسم رحمه الله : اختلف للناس في الزهد ؛ فمنهم من قال : الزهد فى : فى الحرام ؛ لأن الحلال مباح من قبل الله تعالى ؛ فإذا أنعم الله على عبده بحال من حلال ، وتعبده بالشكر عليه ، فتركه له باختياره : لا يقدم على إمساكه له بحق إذنه .

ومنهم من قال : الزهد فى الحرام واجب وفى الحلال فضيلة ؟ فإن إقلال اللال - والعبد صابر فى حاله ؛ راض بما قسم الله تعالى له ، قانع بما يعطيه - أتم من توسعه وتبسطه فى الدنيا ، فإن الله تعالى زهد الخلق فى الدنيا بقوله : « قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة

خير لمن اتقى ، ، وغير ذلك من الآيات الواردة في ذم الدنيا والتزهيد فيها .
ومنهم من قال : إذا أنفق العبد ماله في الطاعة ، وعلم من حاله الصبر ، وترك التعرض
لما نهى الشرع عنه في حال العسر ، فحينئذ يكون زهده في المال الحلال أتم .
ومنهم من قال : ينبغي للعبد أن لا يختار ترك الحلال بتكلفة ، ولا طلب الفضول بما
لا يحتاج إليه ويراعى القسمة : فإن رزقه الله ، سبحانه وتعالى ، مالا من حلال شكره ،
وإن وقفه الله تعالى ، على حد الكفاف لم يتكلف في طلب ما هو فضول المال ؛ فالصبر
أحسن بصاحب الفقر ، والشكر أليق بصاحب المال الحلال . ١ هـ . الرسالة القشيرية .
للإمام أبي القاسم القشيري .

ومن أخلاقهم : شدة حياتهم من الله تعالى أو من جميع الكون

أن يقعوا في معصية من المعاصي وهو يراهم ، حتى أنهم يستحيون من جوارحهم ، ومن الحائط ، والأرض ، كما يستحيون أن يعصوا ربهم بحضرة جماعة من الصالحين .

وقد روى بن عدي عن أبي أمامة مرفوعا : « استحي من الله تعالى استحيائك من رجلين من صالحى هشيرتك »^(٢) انتهى .

فكل فقير ادعى الحياء من الله تعالى أو من خلقه فمن علامة صدقه عدم وقوعه في المعاصي جملة .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول من علامة كمال الفقير توالى مراقبته لله تعالى وكثرة الحضور بين يديه ليلا ونهارا قال : وقد سمعت سيدى إبراهيم المتبولى يقول كثيرا .

لى ثلاثون سنة وأنا مقيم فى حضرة الله تعالى لم أخرج ، وجميع ما أتكلم به إنما أكلم به الحق سبحانه .

ف قيل له : فمن غرس لكم للنخل الذى فى بركة الحاج ؟

فقال : إن الله تعالى أرسل ملكا على صورتي ، فغرس ذلك حين خطر ذلك بىالى ، وأنا فى حضرتة .

قلت : يمتل انه غرس ذلك وهو حاضر مع الله تعالى ، لأنه أمر مندوب إليه ، والله أعلم .

وبالجملة ، فأقرب شاهد على العبد من الخلق جوارحه فلا يصح له أن يخفى عنها شيئا

(٢) ونص الحديث : (استحي من الله استحياءك من رجلين من صالحى هشيرتك)
رواه ابن عدي فى الكامل .

من معاصيه ومن عمل على تحصيل مقام المراقبة لأعضائه لم يصح منه الوقوع في معصية أبدا والحمد لله رب العالمين ^(١) .

(١) سئل ابن عطاء : ما أفضل للطاعات ؟

فقال : مراقبة الحق على دوام الأوقات .

وقال إبراهيم الخواص : المراقبة تورث المراقبة ، والمراقبة تورث خلوص السر والعلانية لله تعالى .

وقال الواسطي : أفضل للطاعات حفظ الأوقات . وهو : أن لا يطالع العبد غير حده ، ولا يراقب غير ربه ، ولا يقارن غير وقته .

ومن أخلاقهم عدم تسليمهم للنفس ماتدهيه من مقامات الكمال
لأن في طي دعاويها غوائل قل من يسلم منها ، ولذلك طالت الطريق على بعض المتعبدين ،
وأفنوا عمرهم في العبادة ولم يحصلوا على شيء من مقامات الرجال كما أشار إلى ذلك سيدي
عمر بن الفارض رضي الله تعالى عنه ونفعنا به بقوله .

تعرض قوم للغرام فاعرضوا	بجانهم عن صحتي فيه واعتلوا
رضوا بالأماني وابتلوا بحظوظهم	وخاضوا بحار الحب دعوى فما ابتلوا
فهم في السرى لم يبرحوا عن مكانهم	وما ظعنوا في السير عنه وقد كلوا

وأشار إلى ذلك أيضاً سيدي علي بن وفا رضي الله عنه بقوله :

تمشيخوا من قبل أن يوجدوا	فعرهم ضاع ولم يولدوا
رضوا بأن يعتقدوا سادة	وهم لأذنى وهمهم أعبدوا
مشوا مكبين علي وجوههم	عمياً عن العلياء لا يهتدوا
قد حسبوا الأرض سماء لهم	فاستقربوا ما هو مستبعد
وكلموا مالوا باهـ وأهـم	قالوا صعدنا وهم أخلد
فأعجب لمن شاخوا على صغرهم	في أرذل العيش اشوا يجهدوا
فلا تحاول طهرهم إنهم	لكل من خالطهم يفسدوا

إلى آخر ما قال وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب اليهود وغيره .

فاعرض ياخي هذه الأخلاق الشريفة على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم ،
والحمد لله رب العالمين ^(١) .

يقول الإمام القشيري : فإن قيل :

فما معنى الولي ؟

قيل يحتمل أمرين أحدهما أن يكون فيملاء مبالغة من الفاعل ؛ كالعليم ، والقدير وغيره ،
فيكون معناه : من نوات طاعاته من غير تخلل معصية .

ويعجز أن يكون فعلا بمعنى مفعول ، كقتيل بمعنى مقتول ، وجريح بمعنى مجروح ،
وهو الذى يتولى الحق ، سبحانه ، حفظه وحراسته على الإدامة والتوالى ، فلا يخلق له
الخذلان الذى هو قدرة للمصيان ، وإنما يديم توفيقه الذى هو قدرة الطاعة ، قال الله
تعالى : « وهو يتولى الصالحين » .

ومن أخلاقهم : حسن ظنهم بربهم إذا سلط عليهم الخلق بالأذى

وأطلق ألسنتهم فيهم بالذم ، ويقولون : لولا أنه تعالى يريد تقربنا إلى حضرته ما فعل معنا ذلك ، لأنه لا يصطفى عبداً إلا بعد أن ينفر من أبناء الدنيا كلهم ، ويقبل على مولاه ولا يصح له ذلك إلا بعد أن يبالغوا في إيذائه ، فهناك ينكشف له أنه لا نافع ولا ضار إلا الله تعالى وحده ، فيراعيه وحده ويدرم على مراقبته ليلاً ونهاراً فيصطفيه الله تعالى حينئذ وينصره على كل من عاداه^(٢) .

ولو أنه تعالى أطلق ألسنة عباده بالثناء والتعظيم لذلك العبد لركن إلى الخلق ضرورة ففاته الاصطفاء كما سيأتي بسطه في خاتمة الكتاب إن شاء الله تعالى والحمد لله رب العالمين .

(١) ولعل قراءة متأنية لكتب الطبقات وتواريخ الرجال تبين لنا قيمة هذا الخلق فإتانا نجد في تاريخ رجال التصوف ألواناً من الأذى لا قواها خصوصاً في أوائل حياتهم فصبروا عليها فكان لهم النصر من الله ولأعدائهم الخذلان والضياع .

ومن أخلاقهم : محبتهم في كثرة التلامذة ليعلموهم الأدب مع الله تعالى

محبة في الله عز وجل ، فيفيدون الحق تعالى بأنفسهم ويقولون للتلامذة : إنما نحن لكم كرتبة الادماء فنحربكم بها معنا في تصارييف الأمور المخالفة لأهوائكم ونأمركم بالرضى عنها بالصبر علينا لتتروا بذلك إلى صحة معاملتكم مع الله تعالى ، فإن كل من لم يحكم الأدب مع شيخه لا يشم من الأدب مع الله تعالى رابحة ، فثأتم داع إلى الله تعالى من القوم يدعوا إلى حظ نفسه أبداً حاشاهم من ذلك .

وكان سيدى يوسف العجمى يقول لتلامذته :

تعالوا حتى أعلمكم الأدب مع الله تعالى ثم يتنكر عليهم ، ويخالف جميع أهريتهم حتى أنه يطلق امرأة هذا فيعطيا لهذا ويخرج أحدهم من خلوته ويعطيا للآخر ويعزله من الإمامة ويعطيا للآخر ، ويقول : كل من رضى بحكمى فيه ترقى إلى الرضى التام بحكم الله تعالى فيه ، ومن لم يرض بحكمى فيه فمن لازمه السخط على مقدور الله تعالى وعدم الرضى باقداره ، وذلك كفر بالله تعالى ، فإن الحق تعالى تصرفه مطلق ، فيفعل ما يشاء - لكن لا بد للعبد من الاستغفار من كل معصية قدرها الله تعالى عليه من حيث كسبه ليقوم بأداب الشريعة ^(١) والحمد لله رب العالمين .

(١) يقول الإمام القشيرى فى شروط المرید :

ومن شرطه : أن لا يكون له بقلبه اعتراض على شيخه ، فإذا خطر ببال المرید أن له فى الدنيا والآخرة قدراً أو قيمة ، أو على بساط الأرض أحد دونه لم يصح له فى الإرادة قدم ، لأنه يجب أن يجتهد ليعرف ربه ، لا ليحصل لنفسه قدراً .

وفرق بين من يريد الله تعالى وبين من يريد جاه نفسه ، إما فى عاجله وإما فى آجله ، ثم يجب عليه حفظ سره حتى عن زره إلا عن شيخه ، ولو كتم نفساً من أنفاسه عن شيخه فقد خانته فى حق صحبتته ، ولو وقعت له مخالفة فيما أشار عليه شيخه ، فيجب أن يقر بذلك بين يديه فى الوقت ، ثم يستسلم لما يحكم به عليه شيخه عقوبة له على جنايته ومخالفته ، إما بسفر يكلفه ، أو أمر ما يراه .

ومن أخلاقهم : كثرة تفويضهم إلى الله

تعالى في كل امر طلبوه منه ما لم يشرع

فلا يطلبون منه شيئاً إلا مع درهم العلم فيه إلى الله تعالى عملاً بقوله تعالى : « وعسى أن تسكروها شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون »^(١) .

فلذلك كانوا يقولون نحن لا نعرف ما نطلبه ان كان قسم لنا أم لا ، ثم بتقدير قسمته ، فهم يقولون : اللهم اعطنا كذا أو اصرف عنا كذا ان كان لنا فيه خيرة ، فانك ولينا ونحن كالأطفال في حجب تدبيرك ، فإن اعطاهم ما طلبوا كان خيراً ، وإن منعهم ذلك كان خيراً .

وقد خالف قوم هذا الادب فوقعوا في أمور تسكدر هليهم امر ، عاشهم ، وصاروا يسألون الاقالة مما كانوا سألوا الله تعالى في اعطائه لهم فلا يجابوا ولو أنهم كانوا سألوا بالتفويض^(٢) لحفظهم الله تعالى من كل سوء .

وسمعت سيدي على الخواص رحمه الله يقول : من سوء الادب ان يسأل العبد ربه ، ويقسم عليه بانبيائه ورسله ان يعطيه كذا وكذا ، ثم إذا اعطاه له يتبرم منه ويسأل ربه التحويل ، وماهـ كذا يكون أهل الادب مع الله تعالى .
فيلحذر العبد من ذلك والحمد لله رب العالمين .

(١) سورة البقرة آية : ٢١٦ .

قال سهل بن عبد الله : علامة التوكل ثلاث : لا يسأل ، ولا يرد ، ولا يحبس .
وقال : أول مقام في التوكل : أن يكون العبد بين يدي الله عز وجل كاليت بين يدي الغاسل ، يقلبه كيف شاء ، لا يكون له حركة ولا تدبير .
يقول الإمام القشيري : وأعلم أن التوكل محله القلب ، والحركة بالظاهر لا تنافي للتوكل بالقلب ، بعد ما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى ، فإين تفسر شيء فيتقديره ، وإن إتفق فتيسيره .

ومن أخلاقهم : مداومتهم في نهايتهم على الأعمال الصالحة

التي كانوا يعملونها في بدايتهم ولا يتركونها استغناء عنها بما أعطاهم الله تعالى من دوام الشهود القلبي الذي هو أغلب أعمال العارفين ، فان الأعمال الظاهرة إنما هي وسيلة إلى حصول مثل ذلك الشهود ولا سيما إن كان لأحدهم اتباع فإنهم لا يهتمون بالأعمال القلبية حتى يقتدوا به فيها وقد قيل للجنيد رضى الله عنه نراك تدمن امساك السبحة ومثلك لا يحتاج إلى مذكر يذكره بالله تعالى ؟ فقال شي " وصات به إلى حضرة ربي تعالى لا اتركه انتهى .

فأعرض يا أخى هذه الأخلاق على نفسك وقرائك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلافهم أنهم كلما ترقوا في المقامات ازدادوا معرفة بعيوبهم ونقايتهم
فلا يزالون كلما ترقوا إلى مقام ظهرت لهم عيوبهم ، حتى يرى أحدهم أنه قد
استحق الخسف به لو لا هفوا الله تعالى كما سيأتى بسطه آخر الكتاب .
وإذا جلس أحدهم إلى أحدهم المسلمين يرى نفسه كالغاسق الذى جلس عند شيخ الاسلام .
ولذلك كان معروف الكرخي رضى الله عنه يقول : كثيرا انتهى أن أموت ببلد غير
بغداد فتقبل له في ذلك فقال : أخاف أن لا يقبلنى قبرى فأفترض انتهى
وهذا أمر قد أغفله غالب الفقرا في هذا الزمان ، فيصحب أحدهم شيخه نحو الثلاثين
سنة ، ولا يتبعه في خلق من أخلاق الرجال ، وربما يقول أحدهم : الحمد لله الذى جمعنا
على شيخنا فلان ، فانا كنا قبل إجتماعنا عليه من أشتر الناس يعنى ونحن الآن من خيار
الناس ، وإنما الأدب أن يقول أحدهم : قد حصل لنا البركة بإجتماعنا على سيدى الشيخ
فانه عرفنا بعيوبنا ونقايتنا وكنا قبله نظن فى انفسنا أننا من الصالحين^(١) والحمد
لله رب العالمين .

(١) قال ذو النون المصرى : مفناح العبادة : الفكرة ، وعلامة الإصابة : مخالفته
النفس والهوى ، ومخالفتهما ترك شهواتهما .
وقال ابن عطاء : النفس مجبولة على سوء الأدب ، والعبد مأمور بملازمة الأدب ،
فالنفس تجرى بطبعها فى ميدان المخالفة ، والعبد يردّها بمجده عن سوء المطالبة ، فن أطلق
عنانها فهو شريك معها فى فسادها .
وقال أبو بكر الطمستاني : النعمة العظمى : الخروج من النفس ؛ لأن النفس أعظم
حجاب بينك وبين الله عز وجل .

وقال سهل بن عبد الله : ما عبد الله بشيء مثل مخالفته النفس والهوى .
وقال الفضيل بن عياض : من رأى لنفسه قيمة فليس له فى التواضع نصيب .

ومن أخلاقهم : كثرة الرحمة على خلق الله تعالى

وإذا دخلوا سوقا ، ورأوا أهل السوق غافلين عن الله تعالى يذكرون الله تعالى ،
ويجملون ثواب ذلك في صحائف كل غافل في ذلك السوق .

وبعضهم يشفع في جميع أهل ذلك السوق عند الله تعالى ، ولا يخرج حتى يرى أمارات
قبول شفاعته فيهم كما هو معروف عندهم ، وهذا أمر قد أغفله فقراء هذا الزمان ، بل
ربما أن أحدهم يدخل السوق وهو غافل عن ما ذكرناه ، بل عن الله تعالى لم يخطر له
الحق سبحانه على بال .

وقد كان سيدى عبد القادر الجيللى رضى الله عنه كلما دخل السوق تنغرغر عيناه
بالدموع أسفاً على الغافلين ، ثم يدهو لهم وينصرف والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم إذا اطلعوا على عيب جليهم وسريته الخبيثة
أن لا يفضحوه بين الناس

بحكايتهم ذلك للناس ولو تعريضاً فضلاً عن التصريح ، بل يسكتون ذلك ولا
يطلعون عليها إلا صاحب الواقعة فقط ، فيقولون له قد باعنا عنك كيت وكيت وكذبنا
الناقل ، وفي ذلك تذكرة للأخ ليأخذ حذره من الوقوع في ذلك في المستقبل ، ويأخذ في
الالتجاء إلى الله تعالى أن يحميه من ذلك وينتبه لنفسه ضرورة ويتوب وهذا من
أحسن السياسات .

وقد قالوا آفة الكشف التحدث به .

وقالوا من أدب العبد إذا أطلعه الله على أسرار العباد أن يسترها عليهم ، ومن أفشاها
فربما طرد ومقت ، فإن من أخلاق الحق تعالى أن يرى العيب ويستره ، فليحذر الفقير
من مثل ذلك^(١) والحمد لله رب العالمين .

(١) قال الله سبحانه وتعالى : « ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم
أخيه ميتاً ... الآية

قال عوف : دخلت على ابن سيرين ، فتناولت الحجاج ، فقال ابن سيرين : إن الله ،
تعالى ، حكم عدل ، فبكما يأخذ من الحجاج يأخذ للحجاج ، وإنك إذا لقيت الله عز وجل
غداً كان أصغر ذنب أصبته أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج .

ومن أخلاقتهم : طلبهم لسكل حاجة طلبوها من حوايج الدنيا
والآخرة من باب الله تعالى وما ثم إلا بابه

لكن تارة يكون هناك واسطة من الخلق ، وتارة لا يكون ، فيعلق أحدهم أملة بالله
تعالى دون خلقه ، وهو تعالى يسخر له الوسائط فيكون الواسطة كالقناة التي يجري لنا
منها الماء ، فالحقيق بالشكر من أجرى القناة وأنبع الماء لا القناة .

وإنما أمرنا الله تعالى بشكر الوسايط من باب ربط الأسباب بمسبباتها من خير وقوف
معهما تنفيراً وهروباً من ألوهية الأسباب علينا من دون الله تعالى فافهم .

وفي كلام سيدى عبد القادر الجيلي رضى الله عنه : إذا طلبت حاجة فتعالم عن
الجهات كلها حال طلبك من ربك ، ولا تنص على جهة معينة منها ، بغير علم ، فإن
ربك غيور ، فلا يفتح لك باب فضله وأنت محجوب عنه ناظراً إلى جهة أحد من
عبيده ، انتهى .

فسد يا أخى الجهات كلها بتوحيديك فإذا فعلت ذلك فحينئذ يفتح لك بابه الحقيقى ،
فلا يصير عندك وقوف مع شيء من الأسباب ^(١) .
فاعرض يا أخى هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله
رب العالمين .

(١) قال أبو تراب النخشبى حين سئل عن التوكل ؟ :
للتوكل : طرح البدن فى العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، والطمأنينة إلى الكفاية ،
فإن أعطى شكر ، وإن منع صبر راضياً موافقاً للقدر .
وسئل ذو النون عن التوكل ؟ فقال : للتوكل ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة .
وأما توكل أهل الخصوص : كما قال أبو العباس بن عطاء : من توكل على الله لغير الله لم
يتوكل على الله فى توكله حتى يتوكل على الله بالله لله ، ويكون متوكلاً على الله توكله للسبب آخر .
وسئل الجنيد عن التوكل ؟ فقال : إعتقاد القلب على الله تعالى .

ومن أخلاقهم : هدم استبعادهم على أنفسهم وقوعهم في أكبر
الكبائر ولو بلغوا في المقامات ما بلغوا

فإن أحداً لا يتحاشى عن جريان المقادير فيه ولكن يحفظ الله تعالى من يشاء .
وقد قيل لأبي يزيد رضى الله عنه : أيزنى العارف ؟ فقال : وكان أمر الله قدرا مقدورا .
فلم يقل لا يزنى ولا قال يزنى أدبا مع الله تعالى .
وقد حكى عن الشبلى أنه دخل خرابة ، فرأى فيها جارية فصاح بأعلى صوته : يا مسلمين
أدركوني فجاء أهل الحارة كلهم فقالوا له : ما الخبر فقال : خفت على نفسى من هذه
الجارية حين لم يكن عندها محرم ، انتهى .
قلت : وفي هذه الحكاية تأديب لأهل حارته ، واتهام لنفسه رضى الله تعالى عنه .
وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : كل ما وقع فيه الناس فالعبد معرض
لوقوع فيه قال : ومن أراد أن ينكشف له الأمر ، فليجلس في بيت الوالى فكل
محرم أنوا به إليه بتهمة أو امر محقق ، فهو جازى في حق أكبر الأولياء^(١) .
فليكن سيدى الشيخ على حذر من وقوعه فيما يغضب الله تعالى عليه ، فإنه في
النصف الثانى من القرن العاشر أبى العجايب والغرايب وعلامات الساعة على كاهله ،
والحمد لله رب العالمين .

(١) يقول الإمام القشبرى : ولا ينبغي للمريد أن يعتقد في المشايخ العصمة ، بل الواجب
أن يترحم وأحوالهم ، فيحسن بهم الظن ويراعى مع الله تعالى حده فيما يتوجه عليه
حق الأمر .
والعلم كافيه في التفرقة بين ما هو محمود وما هو معلول .

ومن أخلاقهم : العمل على تطهير الباطن من المعاصي والذنوب

وعدم غفلتهم عن ذلك ، فان الفقرا إذا ترقوا في المقامات كان وقوعهم في المعاصي الظاهرة قليلا أو معدوماً ، فيقنع أحدهم بذلك ، ويندب تفتيش باطنه .

وقد أجمع الأشياخ على انه لا يصح لأحد من الأكابر دخول الحضرة الآلهية ، وهو متلذخ بشيء من القاذورات المسكروية فضلا عن الحرام لأن الله تعالى ملائكة على أبواب الحضرة يشمون رائحة القلوب ، فكل قلب رأوه متلذخا بفعل حرام أو شهوة حرام منعه من الدخول ، ثم إنه لو قدر أنه دخل في غفلة الملائكة عنه في غمار الناس أخرجوه ، وإن لم يخرج فهو محجوب عن ربه تعالى بسبعين ألف حجاب ، فليفتش من يدعى الصلاح نفسه حتى لا يكون في سريره شيء يقبح بين الناس ظهوره .

ولما اجتمع الإمام عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بالسيد الخضر عليه الصلاة والسلام في المدينة المشرفة قال له : عمر أوصني فقال : احذريا عمر أن تكون وليا لله تعالى في العلانية وعدواله في السرائر انتهى .

وسمعت سيدي عاليا الخواص رحمه الله يقول : قد جعل الله تعالى إبليس واقفا على باب الحضرة لا يقدر على دخولها ووكله بكل من غفل عن الله تعالى ، وعن شهوده أن يركبه كما يركب أحدنا الحمار ، ويصرفها كيف شاء فمن استشعر العبد أنه بين يدي الله تعالى كأنه يراه أو أنه هو تعالى يراه نزل عنه إبليس من لمح البصر .

فعلم أن المسلم بالذکر يدخل الحضرة وبالفطنة يخرج ، وليس عند أهل الحضرة ذفلة أبداً واعلم أن كل من ادعى الصلاح وركبه إبليس فهو كاذب لقوله تعالى (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) والحمد لله رب العالمين .

(١) سأل جعفر بن نصير عن المراقبة ، فقال : مراعاة السر ، لملاحظة نظار الحق سبحانه مع كل خطوة .

ومن أخلافهم : قلة تناولهم الشهوات وقلة سماعهم للآلات

فكل من ادعى الصلاح وأكل الشهوات ، وليس الثياب المحررات ، وترك الصلاة في الجماعات ، ونام على الفراش الوطيات ، وأكل اللحم الضاني ، والمحمرات ، وركب الخيول للمسومات ، فقد خالف جمهور العلماء والصالحين ، وأهلك من تبعه من المريدين ، وإن كانت دعواه صحيحة في نفس الأمر إذ النية الصالحة في مثل ذلك أعز من الكبريت الأحمر ، وغالب من يأتي هذه الشهوات يأتيها بحكم اللذة والشهوة الطبيعية ، مع الغفلة . وكان الشيخ محي الدين رحمه الله تعالى يقول : حكم الولي إذا تناول شهوة مع الغفلة حكم القمر إذا كيف .

وكان سيدي علي الخراساني رحمه الله يقول : من ادعى أنه يأكل الشهوات ويتلذذ بالطيبات ويشكح النساء المنعمات ، مع حضور قلبه مع الله تعالى من حيث أنه أباحه ، فأغضبوه ، فإن ملك نفسه عند الغضب ، فهو يملك نفسه عند الشهوة .

وقد حدث أناس يدعون الصلاح ويسمعون العود والطنبور والآلات اللغو ، وذلك خروج عن الطريق الأقوم وقل اعتقاد الناس فيهم ، فعدموا النفع بهم^(١) ، فالخذر الخذر من مثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كن ورعاً تكن أعبد الناس وكن قنعاً تكن أشكر الناس ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً ، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً ، وأقل الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب » . ولعل مراجعة متأني لخلق رسول الله ﷺ في حياته الخاصة في أول الكتاب توفى موضوع هذا البحث حقه .

ومن أخلاقهم : كثرة الاستعاذة بالله تعالى من شر الحسدة :

كلما أقبلت الخلائق عليهم بالاعتقاد ، وقبول الشفاعات خوفاً أن يعمل الحسدة لهم المكاييد ، فيؤذونهم ويشغلونهم عن عبادة ربهم بذلك ، ولو لحظة .

ومن تأمل من الفقراء الآن وجد نفسه كالبهلوان الذي يمشي على الحبل بقباب ، وجميع أهل مصر مثلاً واقفون ينتظرون له زلقة من فوق الحبل لاسيما أقرانه الذين أُضِلَّ عليهم ، فانهم يودون هلاكه في طرفة عين ، وهو من أغرب الغريب كيف يدعى أحدهم الصلاح ويحسد المسلمين ، وكان الأولى بالفقراء إذا تورع أحد من إخوانهم أن يزيدوا في محبته وتمظيمه ومدحه ، ويقولون : هذا هو الذي مشى على قواعد الشرع ، وأمانن فقد خرجنا من سياج الفقراء وقواعد الشرع ، فلم ان كل شيخ ظهر لنا الحسد لأحد من أقرانه ، فهو جاهل أو معاند كاذب في دعواه الصلاح لأنه لو كان صالحاً لرأى وجه الحكمة الإلهية في ذلك ، فترك الاعتراض على حكم ربه فإن الحاسد معترض على حكم ربه بلا ذلك وما رأينا ولياً لله تعالى يعترض حكم ربه أبداً .

ثم لآى شئ لا يحسد أخاه على مجالسته لربه في أوراده صباحاً ومساءً مثلاً ، فإن ذلك أولى بالحسد من اقبال أمير أو جندي لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا فضلاً عن غيره .

وبالجملة : فقد خرج غالب المدعين عن الطريق وعدموا النوفيق ^(١) .

فاعرض هذه الاخلاق على نفسك واخوانك تعرف الحال وتنتهي لآوت في هذا الزمان والحمد لله رب العالمين .

(١) قال عمر بن عبدالعزيز ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد ، غم دأبهم ونفس متابع . وقال ابن المبارك : الحمد لله الذي لم يجعل في قلب أميرى ما جعله في قلب حاسدى . وقال الأصمعي : رأيت أعرابياً أتى عليه مائة وعشرون سنة فقلت له : ما أطول عمرك !! فقال : تركت الحسد فبقيت .

ومن أخلاقهم : كثرة تعظيمهم لولاية زمانهم من أمير وقاض

ظاهرًا وباطنًا أدبا مع مولانا السلطان الذي ولاهم ، فإنه أتم نظرا من جميع رعيته ، وقد طعن بعضهم في بعض قضاة المسكر ، فحصل له مالاخير فيه ، وحبسوه في حبس الديلم للمتعلق بأرباب التهم والدم ، وبعضهم نفي إلى الواح ، وبعضهم ضرب ضربا مبرحا .

وقد قال القوم لا ينبغي لأحد أن يعترض على أحد من الولاية إلا إن أخطأ الله تعالى التصريف فيه بالولاية والعزل ، وأما من يشككم ، فهو في حقهم فيصبح في جنزير وحبس ، فما هو من رجالهم انتهى .

ولا يخفى أن أولياء الله تعالى من أصحاب التصريف موجودون لكنهم ما كتون لهم بأن هذه الأمور التي تقع من الولاية وسكتوا عليها قد حق بها التقدير الإلهي المبرم ، ولا يمكنهم أن يسألوا الله تعالى في رد ذلك ، فلا ينكرون إلا ما لم يحق به القضاء المبرم ، كما هو مشهور في الأمور المعلقة على الأسباب .

فايك والمبادرة إلى الإنكار ، وتقول : مابق في البلد أحد ينكر هذا المنكر ، أولا أحد يقوم بفرض الكفاية ، فربما كان ذلك قد حق به القضاء المبرم ، وأنت لا تشعر .

فعلم أن الأدب مع ولاتنا ، وترك المبادرة إلى الإنكار عليهم أولى إلا بطريق شرعي واضح كالشمس مع توطئ نفوسنا على وقوع العقوبة بالضرب أو الحبس في ارتكابنا المعاصي ، وإن قال المنكر : إن هؤلاء الولاية ظالمون قلنا له . وأنت الآخر كذلك ظالم لنفسك ، وكما تقيم العذر لنفسك ، فكذلك ينبغي لك أن تقيم العذر للولاية ، وقد بسطنا الكلام على ذلك في المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا زارهم أمير أن يقوموا له ويقبلوا يده

كما يفعل هو معهم ، وكذلك يستتبعونه إلى باب الدار ، ولا يتركون ذلك ، فيكونوا أعظم كبرا في أنفسهم من الأمير .

ومانهى الشرع عن التواضع للأغنياء إلا بقصد أن ينال المتواضع لهم من دنياهم شيئا أما من لا يقبل منهم شيئا ، ولو أعطوه له من غير سؤال فلا حرج عليه في التواضع لهم لأنه لغرض شرعى .

وقد كان سيدى على الخواص رحمه الله يقوم للأمير ، ويقبل رجله ويمشى معه إلى خارج باب داره إذا زاره ، وإذا أعطاه شيئا من الدنيا لا يقبله منه ، وكان يقول : إنما أفعل ذلك مكافأة له على بعض فضله ، فإنه قد خلع كبرياه وعظمته لأجلى ، ولو أنه وقف مع رؤية نفسه على ما دخل داري ولا زارنى

وكان يقول : ما زار أمير فقيرا إلا بعد أن رأى نفسه دون الفقير ، فالتقى الأمير الفقير إلا وهو فقير حقير قال : وهذه دقيقة تخفى على غالب الفقراء فيأتبهم الباشا أو الدفتر دار أو قاضى العسكرية ، فلا يقومون له ، وذلك فى غاية الجهل وسوء الأدب مع الله تعالى الذى خلع عليهم تلك الولاية .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يتأدب مع الأمرا كثيرا ، ثم يقول : هنا أدبنا مع ولاتنا فى دار الدنيا ، وسوف يعلمنا الله تعالى إذا انتقلنا إلى الدار الآخرة أديا آخر يناسب أهل تلك الدار ^(١) .

(١) عن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال (ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف وتحتضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، وللعصوم من عصم الله) رواه البخارى .
وعن السيدة عائشة رضوان الله عليها قالت : قال رسول الله ﷺ : (إذا أراد الله

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله يقول : من خفة عقل الفقير أن ينسكب على الأمير ، وهو يقبل هديته وبره وإحسانه من قمح وعسل وأرز وبسلة وغير ذلك انتهى فاعلم ذلك واعمل عليه والحمد لله رب العالمين .

بالأمير خيراً جعل له وزير صدق إن نسي ذكره ، وإن ذكر أعانه ، وإذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسي لم يذكره وإن ذكر لم يعنه (رواه أبو داود بإسناد جيد على شرط مسلم) .

ومن أخلاقهم : كراحتهم لتردد أحد من الأكابر إليهم

من شدة هضمهم نفوسهم ، فلا يرون نفوسهم أهلاً لأن يمشى أحد إليهم فهم يتوششون من مشى أحد من الأكابر إلى زيارتهم تعظيماً ، للأكابر لاسيما إن أتاهم أحد من العلماء ماشياً ، فانهم يكادون أن يندوبوا من الحياء والخجل .

ثم إذا كافؤا الأكابر بالزيارة لا يرون أنهم كافؤهم على مرة واحدة .

وسمعت سيدي علياً الخواص رحمه الله يقول :

لولا ظن الأمرا في الفقير الصلاح مازاروه فيا فضيحة غالب الفقرا يوم القيامة ، حين تبدوا فضائحهم انتهى .

وقد زرت مرة سيدي الشيخ علي البحيري فتكدرت وشوش من مشى مثلي إليه وصار يقول لنفسه : يا فضيحتك يا علي يوم القيامة ممن زارك حين تبدوا له فضايحك ، ولم يزل يحكي ذلك للناس ، ويقول : مثلي لا يستحق أن أحدا يمشى إليه انتهى .

وهذا الخلق لم أره فاعلاً إلا قليلاً .

فاعرض ياخي هذه الأخلاق على نفسك وأهل عصرك تعرف حالك وحالهم ^(١) والحمد لله رب العالمين .

(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر) فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونحوه حسنة . قال : (إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس) رواه مسلم . (بطر الحق) دفعه ورده على قائله و (غمط الناس) احتقارهم .

ومن أخلاقهم : أن لا يعبثوا قط على من انقطع عن التردد إليهم

بل كل يوم لا يزورهم فيه أحد يعدونه يوم عيد ، هكذا درج جمهور المشايخ رضي الله عنهم فليحتج الصديق نفسه ، فإن رآها تنشرح إذا تحول المعتقدون فيه إلى أحد من أفرانه ، فهو صادق في دهواه محبة العزلة والانقطاع لمحبة (١) الله عز وجل وإلا فهو كاذب .

وإنما كانوا يكرهون تردد الناس إليهم خوفاً على أنفسهم ، وعلى إخوانهم من الوقوع في التزوين وتزكية النفس منهم أو ممن رأوهم كما هو الغالب ، فإن كان فقيهاً أبدى المسائل الغريبة ، وإن كان فقيراً أبدى المقامات الرفيعة (٢) .

وقد رأيت شخصاً كاف نفسه عدم الخروج من زاويته مدة ، ثم عجز عن انقطاعه عن الناس ، وانقطاع الناس عنه ، فصار يرسل لأهل مصر السلام ، ويقول : والله أنى مشتاق إليكم ولو كان معي اذن لزدتكم فقلت له : كيف تدهى الانقطاع وتستجلب الناس هذا فعل مخالف لدعواك محبة العزلة ، ثم انه صار يخرج في الليل ويدور في أسواق مصر ويحضر مواضع التزهات ، وينزل في مركب أيام النيل ثم يصبح جالساً في زاويته بعذبة واطراق ، وهذا كله خداع ونصب فليحذر الفقير من مثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

(١) ربما يقصد لعبادة الله عز وجل .

(٢) يقول الله تعالى : « ففروا إلى الله إني نذير مبين » .

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الله يحب العبد النقي الخفي) رواه مسلم . والمراد (بالغنى) غنى النفس .

ومن أخلاقهم : إذا عمل أحدكم واعظاً أو مسلماً كان لا يغفل عن تفتيش نفسه

فربما كان ذلك رياءً وسمعة ، فليمتحن الواعظ نفسه بما لو عزله ولى الأمر عن مجلس وعظه مثلاً إلى ذلك الواعظ الجديد ، فإن رأى نفسه منشحة فرحانة لذلك ، فليعلم أنه مخلص في وعظه ، فليشكر الله عز وجل على ذلك ، والا فليعلم أنه مرأى خالص ، وإن وعظه يكون زاده إلى النار ، فالناس يفتنمون بعمامه وهو يشقى به كالشمعة التي تحرق نفسها لتضيء على غيرها .

فعلم أن كل شيخ أو واعظ غفل عن تفتيش نفسه فهو مغرور والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا كشف لأحد من ألواح المحو والاثبات انه يقع في معصية
ان لا يغفل عن سؤال الله تعالى ان يحول ذلك عنه ادبا مع الله تعالى وخوفا من غضبه
تعالى عليه ، فقد يكون تحوبلها عنه معلقا على السؤال .
واما إذا كشف لأحدهم عن وقوعه في معصية من الألواح المحفوظ يعنى عن المحو فمن
الأدب كذلك أن لا يغفل عن سؤال ربه أن يستره فيها بين العباد ، ولا يؤاخذ به في
الدنيا والآخرة ، ويقول :

يارب : أنت تعلم أنى عاجز عن رد اقدارك النافذة في فاسترنى فيها ولا تواخذنى
من حيث كسبى ومجاوزتى حدودك .

فإن الله تعالى إن شاء يفعل له ما طلب .

ثم إذا قرب من وقوع المعصية فمن الأدب الرعدة والخوف من الله تعالى أن يخسف
به الأرض ، فإن من يأتي المعاصى با كيا أخف ممن يأتيها ضاحكا .

ثم إذا وقع بحكم القضا والقدر ، فمن الأدب ان لا يزال حزينا با كيا ولا يرى ان تلك
المعصية محيت بطاعة من الطاعات إلى أن يموت .

وقد ورد في الآثار أن بعض الأكابر يبعث يوم القيمة وخطيته مكتوبة في كفه مع
ما جرى له في دار الدنيا من البسائر والحزن .

ثم ان هذا الكشف المذكور لا يكون إلا للكل ، فيمتحنهم الله تعالى باطلاعهم لهم
على تصاريق الاقدار الجارية فيهم والمخالفة لاغراضهم ، ليرى بهم في نفوسهم هل هم نادبون
معه أم لا . اخطون على اقداره ؟

ولما كشف لسيدى مدين من ألواح المحو عن اسم شيخه سيدى أحمد الزاهد انه من
أهل النار جاء إلى شيخه مرعوبا ، وقال : ياسيدى رأيت اسمكم في أهل النار فقال :
يامدين لى ثلاثون سنة وأنا أرى ذلك وأنا صابر فلما كان بعد مدة قال سيدى أحمد للشيخ

مدين : انظر اسمي ، فنظر ، فإذا هو في السعداء فحمد الله تعالى على ذلك ^(١) فالحمد لله
رب العالمين .

(١) يقول الإمام القشيري : (وأما حقيقة المحو والإثبات فصادران عن القدرة ،
فالمحو : ما ستره الحق ونفاه والإثبات ما أظهره الحق وأبداه .
والمحو والإثبات مقصوران على المشيئة ، قال الله تعالى « يمحوا الله ما يشاء ويثبت » .
قيل : يمحوا عن قلوب العارفين ذكر غير الله تعالى ، ويثبت على السنة المرادين ذكر
الله ، ومحو الحق لكل أحد وإثباته بما يليق بحاله .
ومن محاه الحق سبحانه عن مشاهدته ، أثبتته بحق حقه .
ومن محاه الحق عن إثباته به رده إلى شهود الأغيار ، وأثبتته في أودية التفرق .
والحق فوق المحو ، لأن المحو يبقى أثراً ، والمحق لا يبقى أثراً .
وغاية همه القوم أن يمحقهم الحق عن شاهدهم ، ثم لا يردهم إليهم بعد ما محقهم عنهم .

ومن أخلاقهم : أن يؤدوا ما عليهم من الحقوق لأربابها

ولا يهوجوهم إلى وقوف إلى حاكم ولا إرسال قاصد بمرسوم ولا غيره ، ومتى أحوج أحدهم صاحب الحق إلى شيء من ذلك ، فقد خرج عن الطريق .

ولذلك لم نر أحداً من أولياء الله تعالى قط عند حاكم يدعى عليه بحق زوجة أو جار أو فلاح أبداً^(١) .

فاعرض ياخي هذه الأخلاق على نفسك وعلى إخوانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

(١) عن أبي حبيب عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما قال : لما وقف الزبير يوم الجمل دعاني فقممت إلى جنبه فقال : يا بني إنه لا يقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم وإني لا أراني إلا سأقتل اليوم مظلوماً وإن من أكبر همى لدين أفترى ديننا يتقى من مالنا شيئاً ثم قال : يا بني بع ما لنا واقض ديني رواه البخاري .

ومن أخلاقهم ردهم كل شيء يأنسهم من الولاة الذين لا يتورعون في أموالهم
وهذا ما درج عليه جمهورهم .

وقد كان مالك بن دينار يأكل الكسرة اليابسة بملح أو بقل ، ويقول : من رضى من
الدنيا بمنل هذا لم يحتاج إلى مال الولاة .

ولم أر أحدا من أقراني الآن يرد ما يأنسهم من الولاة إلا نادرا ، وقد رأيت بعضهم يرد
ما يأنسهم من الولاة ، فنفرست فيه أنه غير مخلص في ذلك ، فقلت له : يا أخي اخلص في
ردك ورد خوفا من الله تعالى لا ليشكره الناس على ذلك فقال لي : أنا بحمد الله كذلك ،
ولم يصغ لقولي ، فبلغ ذلك الدفتر دار محمد ، فأرسل له ألف نصف ، فأعطاهما الرسول
له بحضرة جماعة ، فردها فلما أخبره القاصد بذلك قال الدفتر دار الذي عندي : إن هذا
مرأى نصاب ، ثم صر له صرة تراب وشقف وزبل ، وقطعها له ، وقال : ادخل عليه بين
المغرب والعشاء وقل له : قد حصل لملوككم الدفتر دار كسر خاطر بردكم الفيتح
والمقصود أن تجبروا بمخاطره وتأخذوه فمديده إليه وقال : جزاه الله خيرا عن الفقراء
فأنى والله أدهواله في سجودي ، فلما رجع الرسول ، وأخبر بذلك الدفتر دار صا
يضحك هو وأصحابه زمانا طويلا وقال : كيف يرد الذهب بالنهار ويقبل الزبل بالليل ^(١) .
فاياك يا خي من مثل ذلك ثم اياك والحمد لله رب العالمين .

(١) قال محيي بن معاذ : من لم ينظر في الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء .
وقال ابن الجلاء : من لم يصحبه التقى في فقره أكل الحرام النص .
وقال بشر بن الحارث : أشد الأعمال ثلاثة :
الجدود في القلة ، والورع في الخلوة ، وكلمة الحق عند من يخاف منه ويرجى .

ومن أخلاقهم : التواضع مع أولاد أسيانهم
ولا يمكنون أحدا من أولاد أسيانهم ، وان سفلوا من القيام لهم ولا من تقبيل
يدهم ، ولا من الجلوس بين يديهم ، كأحاد التلامذة .
وان كان تحتهم فرش وطى اجلسوا ولد شيخهم عليه وجلسوا تحته .
وان استقضاهم فى حاجة بذلوا فيها مالهم وروحهم ، ثم لا يرون بعد ذلك انهم قاموا
بواجب حقهم ^(١) والحمد لله رب العالمين .

(١) وكل ذلك المقصود منه إحترام المشايخ أنفسهم .

ومن أخلاقهم : تقديم العمل على تحصيل جلاء باطنهم من سائر المعاصي الباطنة وذلك حتى لا يقع منهم سوء ظن بأحد من المسلمين إذ الإنسان لا يسيء بأحد الظن إلا قياساً على حاله هو ، فإذا انجلى باطنه ولم يبق فيه ميثقة واحدة ، فهناك لا يسيء الظن بأحد من المسلمين ، ويؤيد ذلك قوله تعالى « ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » ^(١) فإنه لولا كسبه للخطيئة أو الإثم وذوقه ذلك في نفسه ما صح رمي به للبري .

فإن قيل : هل للشيخ الكامل طريق يعرف منها نقائص المرید من خير أن يكون في الشيخ نظيرها ؟ قلنا : نعم له طريق إلى ذلك من باب الإلهام لا من باب القياس على نفسه هو فيلهم الله تعالى الشيخ بنقائص مریده ليسعى في تخليصه منها والحمد لله رب العالمين .

(١) سورة النساء آية : ١١٢ .

ومن أخلاقهم : هدم وقوعهم في المعاصي لأنهم داعون إلى الله تعالى

والمريدون ناظرون إلى جميع ما يبرز منهم ، فيقتدون بهم فيه كل ذلك بحكم الارث لسيدنا رسول الله ﷺ ، فإنه مشرع لنا في حركانه وسكناته ، فكما لا يجوز في حقه وقوع المعاصي ، فكذلك اتباعه المارفون لا ينبغي في حقهم وقوعهم في المعاصي ، وكما أن رسول الله ﷺ لو صح منه وقوع معصية لصدق عليه تشريع المعاصي ولا قائل بذلك ، فكذلك اتباعه إذا وقعوا في معصية ، فقد فتحوا لاتباعهم باب وقوع المعاصي فافهم .

فإننا مأمورون بالناس بسيدنا رسول الله ﷺ في كل أمر فعله أو قاله إلا أن يكون ذلك خاصا به ، ولم يأذن لنا فيه ^(١)

واعلم يا خي أن الغفر على نوعين ستر العبد عن الوقوع في المعصية حتى لا تعرف المعصية طريقه ولا يعرف طريقها وستر بين العبد ، وبين وقوع العقوبة به إذا وقع ، فالستر الأول : هو اللايق بالانبياء والشأنى : هو اللايق بغيرهم هذا اعتقادنا في انبيائنا ، وبتقدير أن لهم ذنوبا حتمية ، فهي في أمور فوق عقولنا لا تهتدى لكونها ذنبا عندنا ، ولا يجوز لنا حمل ذنوبهم على ذنوبنا ، لأننا في دائرة تبتدىء من بعد انتهاء ديارتنا لا نجتمع معها في جزء منها فافهم فلم انه لا ينبغي لشيخ أن يتصدر في الطريق إلا أن كان محفوظا عن المعاصي .

فأعرض يا خي هذه الاخلاق على نفسك واقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

قال النصر اباذى : التقوى : أن ينقى العبد ما سوى الله عز وجل .

وقال سهل : من أراد أن تصح له التقوى فليترك الذنوب كلها .

وقال ذو النون :

ولا عيش إلا مع رجال قلوبهم
تحن إلى التقوى وترتاح للذكر
سكون إلى روح اليقين وطيبه
كما سكن الطفل الرضيع إلى الحبر

ومن أخلاقهم : عدم خوفهم من الظلمة ولو توهدهم بكل سوء

لأنهم مع الله تعالى الذى هو المقدر لامع عبيده ، فهم يرونه أقرب إليهم من عبيده **﴿** قال فى المختصر ، **﴿** ونحن أقرب إليه منكم ولا يمكن لاتبصرون **﴾** ^(١) .

ومن عقل كل عاقل انه لاتنزل الأمور إلا بالله تعالى ، فهم وإن خافوا من الخلق لا يشهدون ما يخوفهم به الخلق إلا من الحق تعالى ، فهم مع المسبب لامع الأسباب ، ولهذا فضلو على غيرهم .

ثم لا يخفى عليك يا خى أن الله تعالى لا يسلط أحدا من الظلمة على أحد إلا ان كان معه الدنيا ، والفقراء الصادقون قد خرجوا فى بدايتهم عنها ، فمن زهد فى الدنيا خافت منه الملوك ، ومن رغب فيها خاف هو من الملوك .

ثم ان وقع على أحد من الأكابر تسليط ، فليس ذلك من حيث كونهم يحبون الدنيا ، وإنما ذلك اختبارا لهم أو لينأى بهم اتباعهم لسكونهم قدوة لهم ، كما فى قول السيد موسى عليه الصلاة والسلام : **﴿** ففررت منكم لما خفتكم **﴾** ^(٢) ، فان معناه لما خفت ان الله تعالى يسلطكم على ، إذ الأكابر لاتخاف إلا من الله تعالى أما خوف اجلال وتمظيم ، وإما خوف تألم على جسدهم الذى أمنهم الله تعالى عليه من حيث كونه لله تعالى لاهم من باب التجريد فى علم المعانى والبيان وقد بسطنا الكلام على هذا الخلق فى كتاب **الفتح الكبرى** والحمد لله رب العالمين .

(١) سورة الواقعة آية : ٨٥ .

(٢) وتام الآية : (ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما) سورة الشرح

آية : ٢١ .

ومن أخلاقهم : حسن الظن بالعلماء والفقراء الذين يدخلون
على الأمراء والظلمة

ولا ينكرون عليهم وحملهم على أنهم لم يروا حال دخولهم عليهم منكرًا أو رأوه وعجزوا
عن إزالته بالقول أو بالفعل ، ويجوز المبادرة بالانكار على العلماء والفقراء المذكورين ،
وحملهم على أنهم قدروا على إزالة منكرهم ولم يزيلوه إنما اللائق حملهم على المحامل
الحسنة .

وسمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله يقول : ان الله تعالى أولياء يدخلون على
الظلمة فيحولوا قلوبهم حتى لا يظلمون أحدا في ذلك الوقت ، فقد يكون من تنكرون
عليه منهم هذا مآدرج عليه جمهور العلماء المتورعين .

وقد كان سيدي إبراهيم المتبولي رضى الله عنه يقول لأصحابه :

من أدرك منكم النصف الثاني من القرن العاشر ، فلا يشدد في إزالة منكرات الولاة
إلا إن كان له نصير من الخلق يشد عضده ، أو يكون له حال يحمي به نفسه من أصحاب
المنكر ، فإن من لم يكن كذلك يكفيه الانكار بقلبه أو بلطافة وحسن سياسة ، وقد
قتل خلق كثير ونفوا من بلادهم بانكارهم على الولاة بغير سياسة أو حال يحميهم
منهم وندموا على أمرهم لهم بالمعروف ، وصاروا يقولون نحن الظالمون الذين نصحبناهم
فيجعل أحدهم الواجب في معتقده ظلما كل ذلك لقلة سياسته .

فاعلم ذلك واعمل عليه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم خوفهم من العقارب والسباع الضواري
واللصوص إذا سافروا البلاد

وإن وقع انهم خافوا على أنفسهم من ذلك ، فهو بحضور مع الله تعالى لامع الذملة عنه ،
ثم إن أصل الخوف على أنفسهم الواقع من الخلق كون العبد خرج من ضيق العدم إلى قضاء
الوجود ، فكل شيء راه يلحقه بالعدم نفر منه ضرورة بحكم الطبع ، وأصحاب التمكن
يرون أنه لا فعل لجميع المؤذيات إلا بإرادة الله تعالى ، فرجع خوفهم من المؤذيات إلى الخوف
من الله تعالى كما مر في الخلق قبله .

وقد تطور ابليس مرة ، لسيدى عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه في صورة حية سوداء
في غلظ رجل الادمي ، ودخلت من كفه وخرجت من طوقه فلم تتغير منه شرة ، ثم بعد
أيام تراهى له ابليس وقال : فتنت خلقا كثيرا حين تطورت لهم حية ودخلت من
طوقهم انتهى .

فعلم أن كل من ادعى الكمال وخاف من حية أو عقرب أو سمع أو سمع بحكم الطبع
فهو غير صادق في دعوى الكمال بخلاف ما لو خاف من ذلك حفظا لجسمه من الهلاك
من حيث كونه رهيته فإن ذلك لا ينافي الكمال والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة رؤيتهم المنامات الردية دون الحسنة

وذلك ليجتدوا في العبادة ولا يقنعوا بما عندهم فكلموا استحسنوا شيئاً من أحوالهم
أراهم الله تعالى في منامهم ، ما يجب علمه في رؤيا السالكين القدين وصلوا إلى رتبة
الكمال ضد ذلك ^(١) .

بخلاف المريدين الضعفاء ، فإن الله تعالى يريهم المنامات الحسنة ليشد عضدهم بذلك
لأنهم يعملون لله تعالى على طلب الجزاء ولا يكادون يجدون لإخلاص العارفين طعماً ،
فلذلك كان المريد يرى أنه في مكة وأنه في السما ، وأنه في بحر من نور ونحو ذلك .

وأما السكامل ، فيرى نفسه في ظلمة وأرض وعرة وأمور تنفر منها الطباع ، وقد
قال رجل لمالك بن دينار : إني رأيتك البارحة وأنت تدبخر في الجنة فقال له مالك :
أما وجد إبليس أحداً يسخر به غيري وهيرك .

وكان معروف الكرخي رضى الله عنه يقول : أما وجد إبليس لي منذ ثلاثين سنة ،
وأنا أرى أن الحق تعالى ينظر إلى نظر الغضب .

وحج سفيان الثوري ماشياً من البصرة ، فقال له الفضيل بن عياض : أما وجدت لك
دابة تركبها ، فقال له سفيان : أما يرضى المجرم إذا أراد بحالسة سيده أن يأتي إليه
إلا راكباً ، والله لو أتى ماشياً حافياً مكشوف الرأس ، اسكان ذلك قليلاً ، انتهى
والحمد لله رب العالمين .

(١) يقصد بذلك السالكين القدين وصلوا إلى رتبة الكمال .

ومن أخلاقهم إرخاء الطيلسان على هيونهم حياء من الله تعالى ومن الخلق
وكيفاً للبصر عن فضول النظر فلا ينظر أحدهم إلا بقدر مواقع قدمه فقط .

وقد ثبت تقنعه ﷺ بردائه تارة في الصيف ، وتارة في الشتاء ، وما بين لنا علمته ،
فكل مؤمن يفهم ما يليق برتبته ، ومن لم يعرف العلة في ذلك كفاء الناس بصورة
ظاهر الفعل .

فاياك يا أخى أن تظن بأحد عمل له طيلسانا أنه فعل ذلك بقصد التمشيح أو لغير
غرض شرعى ، فتسبىء في حقه الظن وذلك حرام .

فان قلت : كيف يلبس الطيلسان حياء من الله تعالى والله تعالى لا يحببه شيء .
قلنا : إن الشرع تبع العرف في كثير من الأحكام ، وأمرنا أن نستر هورتنا في
صلاتنا في الظلام حياء من الله تعالى ، وهذا من ذلك ولا اعتراض إلا على من
خالف السنة .

وقد صحح الجلال السيوطي أحاديث استحباب الطيلسان ، وقال من أنكر
سليته كفر .

فاعرض يا أخى هذه الأخلاق السابقة على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم
والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : جهرهم بالذكر محبة في الله عز وجل وطلبها لأحد يسمعهم

فبذكر الله تعالى بذكرهم لا سيما إن كانت زاويتهم على الشارع .

فإياك أن تحمل أحدا منهم على الرياء إذا قال لمريده : قم فاذكر الله تعالى في ذلك الشباك الذي على الطريق ليسمعك المارون ، فإن قصده صحيح في ذلك لا سيما في حال نهايتهم ، وبأطول ما كتموا أعمالهم في بدايتهم ، وخافوا على ظهورها حين كانوا يعتمدون عليها ، فلما اهتمدوا على ربهم ، ورأوا أنه خالق لأعمالهم كشفنا ويقينا لم يبق عندهم خوف من إظهار أعمالهم^(١) كما أوضحنا ذلك في كتاب المزن والأخلاق والحمد لله رب العالمين .

(١) وبالجملة : إذا صدقت النية في ذلك فإن الجهر بالذكر يكون مفضلا عند الصوفية تشجيعاً للناس على إتيان مجالس الذكر وخاصة إذا كان له نفعة مستحبة يقال بها

ومن أخلاقهم : محبتهم في التنقل من مجالسة الأمراء والعلماء

خوفاً من الإخلال بواجب حقهم إذا كثروا مجالستهم لا لاملة أخرى نفسانية وذلك لأن كل شيء تسكرت رؤيته هان في العيون ، ولذلك قالوا : من أقل الناس نفعا بالشيخ زوجته ، وولده ، ونقيبته لكثرة مجالستهم له ، ورؤيتهم له بخلاف من يزور الأشياخ الشيخ في بعض الأحيان ، أو يجالس العلماء للتعلم ^(١) .

وقد كان الإمام عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه بقول : إياك والدخول على الأمراء ولو أمرتهم ونهيتهم ، وتأمل ياخي أهل مكة لما كثرت مشاهدتهم ، للكعبة كيف تراهم لا يعظمونها كل التعظيم الذي يقع من الأفاقي ^(٢) عند رؤيتها ، ولا يكون كما يبكي ولعل ذلك أيضا هو السبب الذي جعلوا لأجله خلوة الخطابة ، فيجلس فيها الخطيب مراقبا لله عز وجل ، حتى يخرج للخطبة بخلة الهيبة من الله تعالى ، لأجل المراقبة التي كان فيها ، فيكون وعظه أوقع في القلوب من وعظه إذا جلس بملفو أو بضحك عند المنبر مع الناس ، فإنه إذا طلع المنبر لا يجدون لوعظه تأثيرا لزوال هيئته بالضحك ، واللفو وامتنع صاحب الناس ذلك في حال وعظه لهم فالحمد لله رب العالمين .

(١) وفي الحديث : (زرغباً تزدد حباً) .

(٢) القادم من بلاد بعيدة فلا يتاح له كثرة رؤية الكعبة .

ومن أخلاقهم : كثرة تعظيمهم للشرقاء

وإن طعن بعض الناس في صحة نسبهم .

وكذلك تعظيم أولاد العلماء والصالحين وأكرامهم وإجلالهم ، ولو كانوا على غير قدم الاستقامة بطريقه الشرعي أكراما لسلفهم الطاهر الصالح ثم إن رؤيتهم أن ذلك من بعض ما يستحقونه عليهم ، وهذا الخلق لم أجده فاعلامن أقراني إلا القليل .

وكان سيدي على الخواص رحمه الله يقول : من أقل ما يعامل به الشريف في التعظيم أن يعظم كما يعظم الناس نائب مصر أو قاضي العسكر أو الدفتردار .

وسمعتة يقول أيضا : من أدبنا مع الشريف أن لا نفتتح مجلس الذكر بحضرته ، ولا نجلس على مكان أو فرس أعلامه ، ولا نتزوج له مطلقة ولا بنتا إلا أن حددنا أنفسنا هبيدا لها ، ولا تمنعها شيئا طلبته منا مما لنا قدرة عليه من سائر الشهوات المباحة ، ولا نتزوج عليها ولا نتسرى ، ونقدم لها نعلها ، ونقوم لها إذا وردت علينا وإذا كنا نبيع على النساء لا ننظر إلى وجهها ، ولا لشي من يديها بل ولا ننظر في الأزارخوفا أن يبدوا شيئا من بدنهما ، وإن كان أحدنا كثير الأدب أعطاها ما طلبت شراء منه هبة أو هدية لا ييما حتى لا يحتاج إلى الإشهاد عليها (١) .

وقد بسطنا الكلام على الأدب مع الشرقاء في كتاب العمود وفي كتاب المنن فراجعهما والحمد لله رب العالمين .

(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه موقوفا عليه أنه قال : ارقبوا محمد ﷺ في أهل بيته (رواية البخاري) .
يقول الإمام النووي : معنى ارقبوه راعوه واحترموه وأكرموه .

ومن أخلاقهم : كراهتهم للأكل من صدقات الناس
الخاصة المتقدمة بشروط عزيزه

كأن يكون موقوفا على الصوفية أو المشايخ أو العلماء العاملين ، لأنهم لا يعدون
نفوسهم من الصوفية المنتصرف إليهم الاسم في طريقهم ، ولأن المشايخ .
وهذا بخلاف الصدقات العامة كالموقوف على الفقراء والمساكين ، فلا يسكروهن
الأكل منها إذا كان أصلها حلالا لا استبدال ، ولا تدليس في طريق ، واقفها كما يقع فيه
من لا يتورع من الأمراء وأعوانهم .
وقد سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول ينهى شخصا وقف عليه أبوه شيئا من
الأكل منه وقال له .

كل من كسبك ان كنت رجلا ، وهذا خلق غريب فاعله في هذا الزمان ، بل رأيت
كثيرا من الفقراء يزاحم على الأكل من الصدقات مع كونه عنده ما يكفيه وهذا خروج عن
طريق القوم فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : استيذانهم لربهم تبارك وتعالى
إذا كانوا يقرون كلامه العزيز

وطلبوا أحدا من الناس أو طلبوا منهم حاجة فلا يكلمونه إلا بعد قولهم بقلوبهم
دستوريا الله اكلم عبدك هذا في حاجته .

وكذلك يستأذنون رسول الله ﷺ إذا كانوا يقرون حديثه .

وكذلك يستأذنون الأئمة المجتهدين ومقلديهم إذا كانوا يقرون في كلامهم ويقررونه .

فيقولون : دستور يا رسول الله أو دستور يا امامي يا محمد يا ابن ادريس أن اكلم هذا في
حاجته ، ونحو ذلك ، ولهذا الأدب حلاوة عظيمة يجدها الإنسان في باطنه لا يقدر قدرها .

ولم أجدها لهذا الخلق فاعلا في عصرى الا قليلا ، فاعرض ياخى هذه الأخلاق على
نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كراحتهم لمدرجلهم في ساعة من ليل أو نهار
إلا بعد قولهم : دستور يارب أمد رجلى لأريحها من وجع القرفصة ، ثم يدونها
بعد ذلك .

وكذلك القول نحو المدينة المشرفة أو نحو ولى من أولياء الله تعالى في سائر أقطار
الأرض سواء الأحياء والأموات كل ذلك لشهودهم أنهم بين يدى الله تعالى أو بين يدى
أهل الحضرة على الدوام من نبي وولى ، فإن لم يكن ذلك لهم كشفنا كأن لهم إيماننا .
ولهذا الأدب حلوة عظيمة يجدها العبد في باطنه ، وكلامنا في مد الرجل الحاجة
إما عبثا فهو أشد في قلة الأدب ، وقدم سيدي إبراهيم بن آدم رجله مرة في الليل ، فسمع
قائلا يقول :

ما هكذا ينبغي مجالسة الملوك فلم يمد سيدي إبراهيم رجله حتى مات بعد عشرين سنة
وهذا الأمر وإن كان مباحا في الشرع ففعله أدبا أولى ولكل مقام رجال وقد بسطنا
الكلام على ذلك في كتاب المنن والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كراحتهم للنوم على حدث أصغر فضلا عن الأكبر

سواء أكان الحدث ظاهرا وهو معلوم ، أو باطنا كالحقد والمسكر والخبث والكبر والرياء وتنقيص المسلمين وغيبتهم وكل شئ يضره أو يضر غيره في الدنيا والآخرة بطريقة الشرعي كل ذلك مراعاة للأدب مع الحضرة التي تنتقل إليها في النوم أرواحهم ، فإن الأرواح إذا نام صاحبها ارتفعت إلى العلى فلا يؤذن لها في السجود بين يدي الله تعالى إلا أن فارقت جسمها على طهارة ظاهرة وباطنة ، فإن لم تسكن كذلك وقفت ناحية عن الحضرة لا يصبح منها سجود لمسجدة لكونها محدثة .

وسمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله يقول :

اياك يا ولدي أن تنام على محبة الدنيا فرجا أخذ الله روحك تلك الليلة ، فتحشر مع مبغوض لم ينظر الله إليه منذ خلقه .

قال : ولعلك يا ولدي لاتعد محبة الدنيا خطيئة وتنسى قول السيد عيسى عليه الصلاة والسلام حب الدنيا رأس كل خطية انتهى .

وفي العمل بهذا الخلق ادب مع الملائكة الكرام السكانيين وفتح باب الرحمة بدخولهم بيته ، فإنهم لا يدخلون بيتا فيه جذب فينبغي للفقير إذا جامع ولم تغتسل زوجته أن يخرج من ذلك البيت الذي هي فيه إلى موضع آخر قايما بحق الملائكة وطلبها لحصول الرحمة بمحضورهم ، حتى أنهم لا ينامون في موضع فيه حائض أو نفساء بل ولا يمكنون فيه لحظة ^(١) لإطلاق لفظ الجنب في الحديث والحمد لله رب العالمين .

(١) ويقصد الإمام الشعراي بذلك إيضاح تمام الأدب عند السادة الصوفية وإلا فإن ذلك ليس من المحرمات على الإطلاق فإن (المؤمن لا ينجس) كما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ .

ومن أخلاقهم : كثرة الاجتهاد في العبادة ولا يملون منها ليلا ولا نهارا

ولا يكتفون بدعائهم في قراءة الاحزاب ثم ينامون في الليل ، فإن هذا ضرور .

وقد رأيت سيدى الشيخ أبا الحمايل السروى رحمه الله تعالى أقام جماعة من الفقهاء من قراءة حزب شيخهم حين سمعهم يقولون :

اجعلنا عندك من المقربين واجلسنا بين يديك مع الأنبياء والمرسلين .

وقال : قوموا واشتغلوا بالتوحيد أو بالقيام في الأسباب حتى يبدأكم الحق تعالى بالتقريب ، فإن حكم مثلكم حكم زبال دخل في غمار الناس إلى السلطان وقال : زوجنى ابنتك أو اجعلنى وزيرا لك ، فربما طردوه وقت بمثل ذلك القول وماهكنا درج الصادقون من أهل الله عز وجل ^(١) انتهى فالحمد لله رب العالمين .

(١) يقصد بذلك عدم التواكل بل يجب الاجتهاد في العبادة والتفكير والتدبر والتأمل وإقامة أحكام الشرع في جميع أمور الحياة لا مجرد قراءة بعض كلمات بنعمة رتيبة ثم العودة إلى شهوات الدنيا يشتهل منها .

ومن أخلاقهم : أن لا يصنعوا قط لمن يمدحهم

لأن المادح إن كان صادقا فيما مدحهم به ، فقد تمجّلوا أجراً ، وإن كان كاذباً ، فهو سخرياً بهم .

وقد وقف شخص على دكان في العنبرانيين ، وأشار إلى ، وقال : هذا الرجل الصالح هذا حامى مصر ، فكذبت أن أذوب من الخجل والحياء من الله تعالى ، ثم من أصحاب النبوة الذين هم حماة البلد حقيقة .

وهضم النفس هو ما درج عليه السلف الصالح .

وأما قول بعضهم : أنه ينبغي للعبد إذا مدحه أحد أن يأخذ ذلك على لسان الحق تعالى ، ويشكره على ذلك ، فهو خاص ببعض الأولياء مع أنه لا ينافي كونه من الله تعالى ، فإن الكامل يمكنه أبا العيون ومعلوم أن الاقتداء بما عليه جمهور أهل الطريق أولى ^(١) والحمد لله رب العالمين .

(١) عن أبي موسى رضى الله عنه قال : سمع النبي ﷺ رجلاً يشى على رجل ويطريه في المدح فقال : (أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل) متفق عليه .
وعن أبي بكر رضى الله عنه أن رجلاً ذكر عند النبي ﷺ فأتى عليه رجل خيراً فقال للنبي ﷺ : (ويحك قطعت عنق صاحبك) يقوله مراراً إن كان أحدكم مادحاً لا محالة فليقل أحسب كذا وكذا إن كان يرى أنه كذلك وحسب الله ولا يركى على الله أحداً) متفق عليه .
يقول الإمام النووي : فهذه أحاديث في النهي وجاء في الإباحة أحاديث كثيرة وصحيحة قال العلماء : وطريق الجمع بين الأحاديث أن يقال :

إن كان الممدوح عنده كالإيمان ويقين ورياضة نفس ومعرفة تامة بحيث لا يفتتن ولا يفتقر بذلك ولا تلعب به نفسه فليس بمحرام ولا مكروه وإن خيف عليه شيء من هذه الأمور كره مدحه في وجهه كراهة شديدة وعلى هذا التفصيل تنزل الأحاديث المختلفة في ذلك ومما جاء في الإباحة قوله ﷺ لأبي بكر رضى الله عنه : (أرجو أن تكون منهم) أى من الذين يدعون من جميع أبواب الجنة لدخولها .

وفي الحديث الآخر (لست منهم) أى لست من الذين يسبلون أزهرهم خيلاء وقال ﷺ لعمر رضى الله عنه : (ما رآك الشيطان سالماً فإلا سلك فإ غير فبك) الأحاديث في الإباحة كثيرة .

ومن أخلاقهم كراحتهم للنوم في النصف الثاني من الليل

وكذلك يكرهون النوم ليلة الجمعة ، وإيلاقى العيدين ، وليلة النصف من شعبان ، وليالي القدر .

وان غلب أحداهم النوم نام جالسا ، وذلك أن من بركة المواهب الالهية المغفرة لجميع من حضرها ، والعافية من جمع الأمراض ، والتوبة من جميع الآثام ، ويحتاج استثناء المشرك والمشاحن والمشار وغير ذلك مما ورد لأن كلامنا فيمن حضر الموكب الالهى الذى هو حضرة الله تعالى الخاصة ، ودخولها محرم على من تلمطخ بذنوب ، ولم يتب فافهم .

واعتبر يا أخى من يعكس في حضوره مواكب السلطان وتأمل كيف يقطعون جامكته بخلاف من يواظب على حضورها قبل الناس ، فانهم يزيدوا في جامكته تبصرة ، وذكرى لأولى الألباب .

فعلم ان من واظب على النوم في الأسحار ، فليس له في طريق الصالحين نصيب .
وفي الحديث ان أم السيد داود عليه الصلاة والسلام قالت له : « يا بنى لا تترك قيلم الليل ، فإن ترك قيام الليل يدع الرجل فقيرا يوم القيامة .
وورد أن الله تعالى أوحى إلى السيد داود عليه الصلاة والسلام (يا داود كذب من ادعى محبتي فإذا جنه الليل نام عنى) .

وفي بعض الكتب المنزلة يقول الله عز وجل :

يا عبدى جعلت النهار لمعاشك ، وجعلت الليل للسمر معى وقد اشتغلت في النهار بمعاشك ، ونمت عنى في الليل ، فحسرت عمرك كله ^(١) والحمد لله رب العالمين .

(١) يقول أبو سليمان الداراني : أهل الليل في ليالهم أشد لذة من أهل اللها .
ويقول السهروردي في عوارف المعارف . فالصادق المرید إذ خلا في ليله بمناجاة ربه انتشرت أنوار ليله على جميع أجزاء نهاره ، ويصير نهاره في حاية ليله ، وذلك لامتلاء قلبه بالأنوار ، فنكون حركاته وتصاريفه بالنهار تصدر من منبع الأنوار المجتمعة من الليل ويصير قلبه في قبة من قباب الحق مسددا حركاته ، موفرة سكناته .

ومن أخلاقهم : كثرة مجالستهم للحق جل وعلا طلبا لزوال الغم
والهم الواقع للناس في هذه الدار

فإن الهم والغم فيها إنما هو بقدر الغفلة عن الله تعالى ، فمن أراد دوام السرور ،
قليل دأوم على الحضور ، فليختر العبد لنفسه ماشاء ، فلا يلومن إلا نفسه إذا ترادفت عليه
الغموم والهموم ، فإن ذلك إنما هو جزاء بقدر إعراضه عن ربه تعالى ^(١) ، فاعلم ذلك ،
هاته نفيس والحمد لله رب العالمين .

(١) قال الله تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم
قلب أليم .

وقال تعالى (ويحذركم الله نفسه) .

وقال تعالى (إن بطش ربك لشديد) .

وقال تعالى (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) .

ومن أخلاقهم كثرة رضاهم عن ربهم إذا قتر عليهم الرزق أكثر من رضاهم عنه إذا وسع عليهم الرزق^(١)

الرزق فقد سلك بهم طريق الصالحين ، وإذا وسعه عليهم ، فقد سلك بهم طريق الغافلين عنه .

ثم انهم إذا تمكنوا في هذا المقام ترقوا إلى فناء اختيارهم مع الله تعالى فيرون انه تعالى أعلم بمصالحهم من أنفسهم ، فلا يبقى عندهم ترجيح لشيء .
ثم إذا ازدادوا تمكننا رجعوا إلى صورة المقام الأول ، ولكن القصد مختلف ، فإن كل من تمكن في مقامه يزداد بالسلب تمكننا وبالعطاء حجاباً من حيث إضافة الأمور إليه .

فكلاً ترقوا من مقام إلى مقام فلمهم مشهد خلاف المشهد الماضي .
وقد بسطنا الكلام على ذلك في المنن الكبرى وعلى رضى الله العبد بتقدير الله تعالى عليه من حيث كونه تعالى خالقاً وعدم رضاه من جهة كون العيد كاسباً فراجعوا والحمد لله رب العالمين .

(١) سئلت السيدة رابعة العدوية : متى يكون للعبد راضياً ؟ فقالت : إذا سرته **النية** كما سرته النعمة .
وقال الأستاذ أبا على الدقاق : الإنسان خرف وليس للخرف من الخطر ما **يلوح** فيه حكم الحق تعالى .

ومن أخلاقهم : كثرة استغفارهم لرؤيتهم النقص في عباداتهم
فلا يرون لهم قط عبادة كاملة ، ومن كان هذا مشهده فهو غائب عن طلب الأجر
والثواب على عبادانه .

وقد كان الفضيل بن عياض يقول :
أني لأنصرف من صلاتي وأنا مستحي من الله تعالى أكثر من استحيائي إذا شربت
خمرًا ^(١) انتهى .

وذلك لأن الخمر ينادي على صاحبه بأنه عاص لله تعالى ولرسوله ﷺ بخلاف الذنوب
في الطاعات ، فإنها تخفى على غالب الناس ، وأيضا فإن الغافل في صلاة قد اشتغل بغير
الله تعالى في حضرته وشارب الخمر عصي في حجاب .

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول :
والله إن أحدنا ليستحق الخسف به لولا عفو الله تعالى .
وكان يقول :

من تأمل نفسه بعين البصيرة من حيث كسبه وجد سدها ولحمته ذنوبا وعيوبا ضم
بعضها إلى بعض ، فصار صورة إنسان .

وفي كلام الشيخ شرف الدين بن المقرئ رحمه الله تعالى :
ذنوبك في الطاعات وهي كثيرة إذا عدت تكفيك عن كل صلاة
تصلي بلا قلب صلاة بمثلها يكون القتي مسنوجا للعقوبة
صلاة أقيمت بعلم الله أنها بفعلك هذا طاعة كالخطيئة
إلى آخر ما قال والحمد لله رب العالمين .

(١) عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أن نبي الله ﷺ قال ذات يوم لأصحابه . (استحيوا
من الله حق الحياء) قالوا : إنا نستحي يا نبي الله ، والحمد لله .
قال : ليس ذلك ؛ واسكن من استحيا من الله حق الحياء ، فليحفظ الرأس وما وعى ،
وليحفظ البطن وما حوى ، وليذكر للوت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ،
فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء) حديث صحيح أخرجه أحمد في مسنده والترمذي
في سننه والحاكم في المستدرک والبيهقي في الشعب .

ومن أخلاقهم : حسن سياستهم للمقاريض الذين يقرضون في أعراض الناس فيقدمون لهم الطعام ، ويوشون في وجوههم ويظهرون لهم المحبة ، فإذا مالوا إليهم ، فهناك يعظوم بسياسة ، ويقولون لأحدهم :
قد مال قلبنا إليك كثيرا ومعه صودنا الأخوة على وجه الشرع بأن تمسك على الكلام في أعراض الناس كما تسمعي استغيت أحدا ولا تساعخي في كلمة واحدة ، فيأخذها من ذلك معنى .

ثم أنهم يصيرون يمدحونه في المجالس ، ويقولون قد حصل لنا خير بصحبتنا لفلان كان لساننا منطلقا في أعراض الناس ، فمن حين صحبناه ، ومالك علينا الكلام في الناس قلت غيبتنا لهم ، فهناك يصير يستحي من أن يقع في أعراض الناس خوفا أن يخالف ما وصفوه به من ضبط اللسان .

ولو أنهم قالوا له : ابتداء تب إلى الله تعالى عن الكلام في أعراض الناس وإلا مفتح الله تعالى لربما وقع فيهم ، وازداد غيبة في من نبهه على ذلك ^(١) فالحمد لله رب العالمين .

(١) يقصد الإمام الشعراني بذلك : أن الدعوة إلى الله تكون بالحكمة وللوعظة الحسنة لا بالعنف واتهام الناس بكل منكر كما يفعل ذلك بعض الدعاة للعاصرين بل تكون بالتمسك بالهدى والتروى والأهم من ذلك كله الأسوة الحسنة .

ومن أخلافهم هدم رؤيتهم في نفوسهم أنهم من جملة العلماء
العاملين أو عباد الله الصالحين

فيصرون يعلمون الجاهل ، وهم يرون انه احسن حالا منهم ولو ان السلطان مثلاً رسم
لأهل العلم أو الصلاح بمال جزيل لا تطمح نفوسهم قط لأن يعطوا شيئاً منه كمالاً تطمح
نفس العامى أو الفسقة إلى ذلك .

وهذا الخلق قل من يتنبه له من الأقران بل بعضهم يغضب إذا نقصوه في العطاء من
أحد من أقرانه ، ويصير يقيم الأدلة على أنه أعلم ، وأولى بأن يزداد .

وكان سيدي على الخواص رحمه الله يقول :

من نظر إلى علوم السلف الصالح رأى نفسه جاهلاً .

وقد نقل ابن السبكي في طبقاته أن الحافظ بن شاهين فسر القرآن في ألف مجلدة
ضخمة ، وصنف المسند في ألف وستمئة مجلدة ، وذكروا أنه حاسب الخبر^(١) فبلغ
استجراره الخبر للكتابة ألف رطل وثمانماية رطل .

وصنف الشيخ هبة الغفار القوصي كتاباً في مذهب الشافعي في ألف مجلدة .

وكان محمد بن جرير الطبري يحفظ وقرثمانين بغير آ .

وحرقت خزانة الكتب ببغداد في المدوسة النظامية فحزن لذلك نظام الملك فقالوا له :
لا تحزن فإن ابن الصباغ على من حفظه جميع ما حرق فأملأ جميع ما حرق من كتب التفاسير
والحديث واللغة والأصول وغيرها في مدة ثلاث سنين .

وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب المنن فانظر يا خي نسبة ذلك إلى هؤلاء
تجده لا يجيئ عشر عشر هم أحد وإياك والدهوى والحمد لله رب العالمين .

(١) بائعي الخبر .

ومن أخلاقهم : موافقتهم في مدح عدوهم إذا
رأوا أحداً يمدحه بنظم أو نثر

وإظهار البشاشة وطلاقة الوجه ، وكتمان عداوتهم لعدوهم حتى لا يسكاد أحد يلحق بهم .
وفي ذلك من حسن السياسة مالا يخفى ، وفيه سد باب الغيبة والنميمة وتخفيف عداوة
عدوهم إذا بلغه فرحهم بمن مدحه ، وإكرامه بالبشاشة والنقوطة في ذلك المجلس ، وحكم
العكس بالعكس كما جرب .

وهذا خلق فريب قل أن يوجد في أحد من العلماء والفقهاء الآن بل رأيت عالمين
دخل أحدهما وليمة فرأى عدوه هناك ، فرجع فقاموا له ليدخلوه فمجزوا في دخوله وقال :
لا أدخل مكاناً فيه فلان ، فقام عدوه الآخر ، وخرج وحصل مالا خيراً فيه ، فيحتاج من
يخالط الناس في هذا الزمان إلى عقل وافر والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم قبولهم هدية علموا بالقراءن
إن لها قدراً عند مهديها

كأن أرسلها مع غلامه ، وقال : لاتعطيها إلا للشيخ في يده مثلاً ، أو كانوا يعلمون منه
أنه يصير يتذكرها كل قليل لكونها فوق مرتبته مثلاً ، فإن ذلك من علامة كونه بنخيلة
أو ممن يتبع نفسه هديته .

وكذلك لا يأكلون شيئاً أكد على أحدهم صاحب السماط أن يأكله كأن مسك
وركا وصار يقول له : أجبر بخاطري ، وكل هذا ، فإنهم يزدادون بذلك نفرة من أكله
لأنه إمارة على بنخله إذ الكريم لا يبالي بأى من أكل طعامه كائننا من كان .

وهذا خلق لم أر له ذائقاً بل ربما يفرح أحدهم إذا أكدوا عليه في العزومة ، والحمد
لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم: كراهتهم للأكل وحدهم

لحديث: شر الناس من أكل وحده وجلد هبده ومنع رفته .
كما كرهت الصلاة فرداً ، فكذلك يكره الأكل فرداً لجامع أن كلا منهما مشروع ،
وفي الأكل مع الجماعة فوائد منها محبة الناس له ، ومساعدتهم له على نصرة الدين إذا
رأوه قائماً في إزالة منكر ، ومنها كثرة الرزق والمدد لحديث أن المعونة تأتي من الله تعالى
علي قدر للمؤنة ، ومنها امتثال أمر الشارع ، فعلم أن حكم أكلهم وحدهم بالعكس من ذلك
فينحل أمر البخيل إلى كراهة كل من لم يطعمه له ، وعدم نصرة الدين نكابة فيه والحمد
لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : مباسطتهم للخادم وتواضعهم معه

حتى يصير يجلس يأكل مع سيده ولا يتعلل بالحياء ولا بالخوف من زجره إذا أكل معه من غير عزومة عليه كما كان عليه الجلال المحلي شارح المنهاج .
ومنى كان الخادم يستحى أن يأكل مع سيده أو يخاف منه ، فسيده معدود من المتكبرين .
وقد دعى الإمام عمر بن عبد العزيز مرة خادمه أن يأكل معه ، فأبى ، فبكى وقال
فى نفسه :

لولا علم منك سوء الخلق والفظاظة ما أبى وجلس يأكل معك كما كان خدام رسول الله
ﷺ يأكلون معه فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم ردهم السائل

ولو بلقمة أو زبينة أو عمامة أو جوخة عملاً بقوله ﷺ :
للسائل حق وإن جاء على فرس .

ولكونهم من شأنهم عدم الشح وعدم تمييزهم نفوسهم على إخوانهم .

وكل فقير منع سائله لغير غرض شرعى فهو لم يشم من طريق الفقر والمحنة ، فإن
الفقراء على الأخلاق الإلهية بنوا طريقهم ، فلا يمنعون إلا الحكمة كأن لم يجدوا إخلاصاً
فى ذلك الوقت ، أو علموا أن ذلك السائل يعصى الله تعالى بما يأخذه منهم أو كان
سؤاله تعنتاً لا حاجة بل امتحاناً .

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب للنن ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : في حال كمالهم النسبي أن يقدموا نفوسهم
على خيرهم في المطاعم والملابس وغيرها
عملاً بحديث « أبدأ بنفسك » .

وبحديث « الأقربون أولى بالمعروف » ولا أقرب إلى الإنسان من نفسه عكس .
ما كانوا عليه في حال بدايتهم من إيثار الغير على نفوسهم ومدحهم على ذلك^(١) .
قال سيدي على الخواص رحمه الله تعالى :

وإنما كانوا يمدحون على الإيثار حال بدايتهم في الطريق لأنهم كانوا في مقام المجاهدة
والعمل على الخروج من ورطة الشح الذي فتحوا عيونهم عاياه في الدنيا بخلاف حالهم في
زمن كمالهم ، فإنهم مأمورون بأن يعطوا كل ذي حق حقه بحكم العدل وفي هذا الذي قلناه
جمع بين الآيات والآيات الواردة في الإيثار وعدمه ، فالحمد لله رب العالمين .

[١] قال الله تعالى : « وعلى للولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » .
وقال تعالى : « لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله
لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها » .
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : دينار أنفقته في سبيل الله
ودينار أنفقته في رقبة ، ودينار تصدنت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها
أجرأ الذي أنفقته على أهلك ، رواه مسلم .

ومن أخلاقهم : كثرة تسليمهم وترك تكذيبهم لكل من
أدعى ممكناً في العادة من سائر المقامات حتى القطبية

لأن الولاية أمر باطنى لا يطلع عليه إلا الله تعالى ، ثم صاحبه .
وقد لا يطلع الله عليها صاحبها أيضاً ، فيكون في نفسه أذل الناس وأحقر الناس
لا يرى له شغوف على أحد من المسلمين ، فيسلمون له ضرورة لأن أحدهم يرى نفسه في
الأرض ، ويرى المدعى للقطبية كأنه في السماء ، وأهل الأرض لا يعرفون ما أهل
السماء فيه .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول ، لأصحابه .
سلموا لكل مدع دعواه ما لم يدع باطلا كالنبوة والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كمال التنزيه لله تعالى

فلا يقولون قط بالجملة كما يقع فيه أهل الجهل بالله عز وجل أخذاً بظاهر الأحاديث التي يعطى ظاهرها رايحة التشبيه بأحوال الخلق وتعالى الحق في علا ذاته عن أن يلحقه تشبيه بخلقه^(٢) .

وقد أجمع أهل الحق كلهم على أن الحق تعالى لا يتحد مع خلقه في مرتبة من المراتب ، وكيف يلحق المخلوق خالقه كما بسطنا الكلام على ذلك في كتاب اليواقيت والجواهر وفي كتاب المنن الكبرى ، والحمد لله رب العالمين .

[١] وعلى هذا مذهب أهل السنة وهو النفويض المطلق في التشابه وكان ذلك مذهب الصحابة والتابعين ، ولم يقل أحد في الصدر الأول من الإسلام بالجملة ولا بالتشبيه أو التجسيم .

ومن أخلاقهم : عدم تسليمهم للنفس ما تدهيه حال المرض
من عجزها عن القيام في الفريضة مثلاً إلا بعد امتحانها مرات بأن تقوم ، فلا تقدر
تقف لا بنفسها ولا باعتماد على شيء ، وهناك يصلون جالسين .
وهذا الخلق قل من يفتنه له من المرض بل يبادر أحدهم إلى الصلاة جالساً وبعضهم
يترك الصلاة بالسكينة ، وذلك خروج عن الدين .
وقد رأيت شيخنا شيخ الإسلام زكريا شارح الروض يصلّي النوافل قائماً وهو يتمايل
لا يكاد يقدر على الوقوف فقلت له يوماً :
مثلكم لا يكلفه الله تعالى بالقيام في مثل ذلك .
فقال : يا ولدي كل صلاة يحتمل أن تكون آخر أعمال في الدنيا فأخاف أن أختم
عملي بالسكسل ، انتهى .
وفي كلام سيدي أحمد الرفاعي : كل فقير لا يحاسب نفسه في كل حركة وسكون وإتيانها
في جميع ما تدهيه لا يكتب في ديوان الرجال ، فالحمد لله رب العالمين .

الباب الرابع

في جملة أخرى من الأخلاق

فمن أخلاقهم : عدم أكلهم من طعام من شفّعوا فيه شفاعته

وقبلت فضلا عن كونها لم تقبل .

أو قبولهم هدية أرسلها لهم الشخص المشفوع فيه قبل الشفاعة أو بعدها .

وهذا الخلق قل من تنبه له من الفقراء بل بعضهم يتطلب حصول ذلك بقلبه أو بنفسه ، وهو من أكبر الذنوب مع أنه يخرب ما بين الفقير وبين ربه لأن الشفاعة تكون واجبة في واجب ومستحبة في مستحب واخذ العوض الديني على ذلك يبيع للدين بالدنيا وإن كان مال المشفوع فيه خير حلال ضر نفسه بذلك وأوقف قضاء حاجته لأنه يتلف قلب الفقير ، والذي يشفع فلا يصير له كمال توجه في قضاء حاجته ولا قضاء حاجة أحد من المكروبين .

فإذا ترك الأكل وقبول الهدية مصلحة للشافع والمشفوع له والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم قبول هدايا الظلمة وأهوانهم

وكرامة قبولها على اسمهم أو على اسم جماعتهم ، ولوسفرو التراب .

وإنما هان عليهم عدم قبول هدايا الظلمة لأنهم لا يصحبونهم قط لعلة دينوية ، وإنما يصحبونهم الأجر والشراب ، ومعلوم ان هدايا الظلمة إنما هي أوزار فإن غالبها بلبس وجور على رعيته وأخذ جرائم ممن يتحاكم عندهم .

وقد بلغني ان شخصا سرقوا له جماعة فاشتكى إلى شيخ العرب فقال : أتهم لك واحدا فقال : لا أتهم أحدا فقال له : حاشيته انظر لك أحدا في بلادك له بهائم كثيرة فاتهم فقال : لا أتهم أحدا فقال شيخ العرب : أنا أتهم لك .

فأرسل جماعته فوسموا جميع بهائمهم رجل في البلد شهد الناس فيه كلهم بالخير ثم ان شيخ العرب أرسل تلك البهائم ففرقها ضحايا على زوايا مصر ، فصار كل من حصل له بقرة أو جاموسة يشكر شيخ العرب ، ويقول جزاء الله عنا خيرا ، وكذلك القول في ضحايا الغنم بأخذها شيخ العرب أو الكاشف خصمها من البلاد ثم يفرقها ضحايا على العلماء والصالحين لكن بحمد الله عن قرب يصير الكاشف أو شيخ العرب يعجز عن خراج السلطان من ضيق الحال ، ولا يجد شيئا يفرقه .

فيايك ياخي أن تقبل شيئا من ذلك وان شككت في قولي فأرسل استخبر من الفلاحين تعرف صدقي .

ثم لا يخفى ان الفقراء الصادقين سهامهم موزونة على الذين يظلمون الناس ، ومعلوم ان قبولهم هداياهم يبطل عمل تلك السهام ، مع ما في ذلك من كثرة النبعات ، وعدم قبول الشفاعات .

فعلم ان كل من ادعى الإصلاح وأكل من هدايا العمال ولبس من ثيابهم ، فهو نصاب كذاب كما أوضحنا ذلك في كتاب المنن .

وسيتأتى في الباب السادس في الوسط منه ما قاسيته من العقوبة لما أكلت حبات من عنب عيسى شيخ العرب مع شهرته بالدين والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة التزاور لبعضهم بعضا

وفاء بحقوق بعضهم ولوفى الشهر مرة ، ولا يتركون الزيارة اكنفاء بأهماد نلوبهم فإن
الاجسام تطلب حظها من الزيارة مثل الأرواح .

وقد درج على ذلك جمهور الفقهاء ^(١) ، وقد حدث جماعة يدعون الفقر ، ويهجرون
أخاهم السنة والسنتين ، وأكثر ولا يزورونه ، فيجعل بينهم الجفاء ويظن الناس ان بينهما
عداوة فيمشون بينهما بالتميمة ، فيتولد من ذلك فساد .

وقد قلت مرة لشخص من أصحاب شيخ من مشايخ المعمر : ان شيخك أوحشنا كثيرا
فحكى ذلك لشيخه فقال له : اما تعلم ان الافتادار يزورنا ، وإذا باننا اننا نزور فلانا
يزدرينا في عينه ، وينقطع عن زيارتنا فقلت له : تبالكم فقراء كيف يصح من فقير انه
يتلفظ بمثل هذا المنذر البارد ؟ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم والحمد لله
رب العالمين .

[١] عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ : [أن رجلا زار أخاه في قرية
أخرى فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكا ، فلما أتى عليه قال :
أين تريد ؟

قال : أريد أخا في هذه القرية .

قال : هل لك عليه من نعمة تربها عليه ؟

قال : لا غير أنى أحبته في الله تعالى .

قال : فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحبته فيه [رواه مسلم .

ومن أخلاقهم أن لا يصحبوا أميرا إلا إن وطنوا نفوسهم على
القيام بشروط صحبته بحيث لا يخلوا منها بشرط واحد

فمن شروط صحبة الفقير للأمير .

ان لا يقبل منه هدية ولا يعتب عليه في عدم ترده إليه ، فإن صحبه بقصد إحسانه
أو ليتردد إليه قايما بجاه ، بين الفقراء فقد أخطأ الطريق .

ومنها أن يتحمل عن ذلك الأمير أوزاره من مظالم العباد وغيرها ، حتى يأتي ذلك
الأمير يوم القيامة ، وليس عليه ذنب يوقف لأجله في الحساب .

ومنها ان لا يدخل في صحبته إلا أن كان بيده ولايته ، وهزله ، وحماية نفسه من
تصرف ذلك الأمير فيه بحبس أو ضرب ، لأنه إن لم يحم نفسه سقط من عينه .

وإنما اشترطنا ذلك ليخاف من الفقير إذا هدد ، وطلب كفه عن المظالم .

ومنها أن لا يكون مانعا بتوجهه إلى الله تعالى من أن يزيد عليه أحد في بلاد ذلك
الأمير مالا للسلطان ظلما أو يطلب هزله من ولايته .

ومنها أن يفرح بعم زبارة الأمير له لأن الأمير لا يزور الفقير إلا إذا كان في كرب
وشدة ، وما دام بخير فلا يأتي إلى الفقير .

وقد كان سيدى إبراهيم المتبولى رحمه الله يقول :

الفقراء كبيت الخلاء لا يأتيهم إلا مخروق انتهى .

فياك يا بنى ان نخل بمنل ذلك إذا صجبتك أمير وان لم تقدر على ذلك فترك صحبته
فانها لحظ نفس والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم زواجهم على صجة أحد من الولاة وأبناء الدنيا

قال سيدي على الخواص رحمه الله تعالى :

وينبغي للفقير أن يكثر النفرة من صجة الأصرار ، وإن تقدم لهم بأحد منهم صجة وطراً عليهم فقير يريد أن يصحبهم كذلك حسوا اعتقادهم فيه ، وصاروا يتزورون ذلك الفقير ، حتى يظن ذلك الأمير أن الفقير الأول لا يصلح تلميذاً لذلك الفقير الثاني ، ثم يفسح لذلك الفقير عن صجة ذلك الأمير بسياسة ، بحيث لا يشعر أحد بقصده .

وهذا الخلق ما رأيت له فاعلاً في أقراني إلا القليل ، وهو من أعظم أخلاق الفقراء الصادقين ، وربما ادعاه بعضهم وهو غير صادق فيه ، فليمتحن نفسه ، بما لو دخل شخص من أعدائه على ذلك الأمير ، وصار يقطع في عرضه وينتصه ، حتى خبر اعتقاد ذلك الأمير فيه ، ولا بقي يتدر ينظر له صورة ، فإن انشرح لك ، فهو صادق في المقام ، وإن تكدرت منه شعرة فهو مراعي منافق في حكم أهل الطريق .

وقد كان سيدي على الخواص رحمه الله يقول :

كل فقير يعتقد فيه ظالم ، ويهدي إليه شيئاً إلا ويصير يركن إليه بالقاب ، ويخالف قول الله تعالى .

« ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار »^(١) .

وإن حصل لذلك الأمير هزل من وظيفته أو حبس على مال السلطان يمسون ذلك الفقير ويقولون : أين وداعه ؟ أين ماله ؟ .

فليوطن من يقبل هدايا الظلمة نفسه على خزي الدنيا وعذاب الآخرة والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أنهم لا يقدمون على صحبة أحد من الولاة إلا إذا رأوا

صحبته ترجح على عدم صحبته يقينا من غير تلبيس من النفس

ثم إذا رأوه كثير الظلم ، والبص للناس مع صحة اعتقاده فيهم تسببوا في تجرييحهم عنده
بإرسال أحد من الزوالق له يقطع في هرضهم عنده ، حتى يتحول اعتقاده فيهم .

وهذا خلق غريب قل من يفعله بل رأيت بعضهم يفسد من رآه من الأمراء يعتقد في
أخيه ، ويرسل له من يقول له : ان هذا الرجل الذى تعتقده لا يصلح خادما
للشيخ الفلانى .

كما وقع لبعضهم لما صحبني محمد الدفترادار ومحمد بن بغداد ومحمد بن عمر ، وكل ذلك
لشدة محبتهم في الدنيا التى هى رأس كل خطيئة .

فالحمد لله الذى طافنا من مثل ذلك .

واياك ان تظن بفقر جرحه الناس عند أمير ، وتسكدر ان ذلك لحظ نفس ، وإنما
يجب عليك حمله على أنه تسكدر هيرة على الخرقه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : حسن سياستهم لمن يشفعون عنده من الأمراء
وإذا رأوه في شدة غضب لا يفتحون له الباب بل يتمهلون اليوم ، واليومين ، وأكثر ،
فإذا خمد غضبه شفعوا إذ ذاك .
ولما طلعت للوزير على باشاء شافعا في محمد العبادي حين نقم عليه من كلام الأعداء
فيه قال لي : ما حاجتكم ؟ .
فقلت له : جيت أشفع في محمد العبادي إن كان النأديب فيه بلغ حده واستحق
الشفاعة فيه ، وإن لم يكن النأديب بلغ حده فيه فمنع معكم عليه حتى يتأدب .
فقال لي : إن شاء الله تعالى ننظر في أمره بخير .
وكان قد عزم على قتله بعد أن شفع فيه جماعة من العلماء وردهم ولو أنني قلت له : جيت
أشفع في فلان المظلوم الذي ظلمتموه بغير حق ، لربما انتصر لنفسه ولم يرجع لقولي .
فتعلم يا أخي طريق السياسة ثم اشفع ^(١) والحمد لله رب العالمين .

[١] تلاحظ كثرة تنبيه الإمام الشعراني على كيفية معاملة أصحاب السلطة والأمراء
ولعل ذلك راجع إلى أن رجال التصوف يهتمون دائماً بأمور المسلمين وحوادثهم وقضاة
مصالحهم فأراد الإمام الشعراني بترداد تنبيهاته وضع أسس هذه المعاملة .

ومن أخلاقهم : أن لا يأكلوا من ضحايا مشايخ الزوايا وغيرهم

إلا إن علموا منهم شدة الورع ، فربما كانت ضحيّتهم أرسلها لهم أحد الولاة من الذين لا يتورعون .

واعلم يا أخى أن التضحية ماثرة إلا لدفع البلاء عن أهل البيت فى تلك السنة ، كما أن العقيدة تسيطر الأذى عن المولود طول عمره .

ومعلوم أن البلاء والأذى لا يندفع إلا بذبح شىء حلال أمام مثل هدايا العمال فإنها خلول يزيد البلاء على أهل الدار وعلى المولود .

وهذا الخلق قد صار غريباً فقل من يتخلق به بل بعضهم يضحي بالغنم ، التى أرسلها له الكاشف أو شيخ العرب ، ويعزم على جماعته وأصحابه ، فيما يكون من ذلك ، وربما يقول بعضهم على وجه المدح لنفسه : لم آكل من طعام أحد فى هذه السنة إلا من طعام سيدى الشيخ ، كأنه يعتقد أنه أحل من طعام التجار ، ونحوهم .

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : هدم قبولهم المساعدة في الحج من الظلمة

فلا يقبلون شيئا فيه شبهة من جمال أو زاد أو نفقة أو غير ذلك ^(١) .

وقد صار هذا عزيزا في هذا الزمان بل رأيت من يرسل قصاده إلى الكشف ومشايخ العرب فيسألونهم المساعدة لسيدى الشيخ في حجه ويظهرون أن سيدى الشيخ مسكين . وبعضهم سافر بنفسه وسأل تعريضا وتصريحا ، وماهـ كذا أدركنا المریدین من أهل الطريق فضلا عن الأشياخ اللهم .

إلا أن يكون قصد سيدى الشيخ الإنفاق من ذلك على المضطرين في طريق الحاج كمن مات جملة وليس معه شيء يسكرى به من يحملة وزاده ونحو ذلك فهذا لا بأس به وكان عليه الشيخ محمد المنير والشيخ أبو بكر الحديدي رحمهما الله تعالى فالحمد لله رب العالمين .

[١] ومن شروط الحج الاستطاعة فكيف إذا لم يستطع الإنسان الحج واستعان بأمواله
الظلمة على حجه ؟

ومن أخلاقهم : كراهة المجاورة بمكة المشرفة خوفاً

من إهلاكهم بأدب تلك الحضرة الشريفة

وسبقهم إلى ذلك عبد الله بن عباس ^(١) رضي الله عنهما فسكن الطائف إلى أن مات
وكذلك مالك والشعبي ومن تبعهما وكانوا يقولون ما لنا وابلد تضاعف فيه السيئات
ويؤاخذ بالخواطر فيها .

وقد سمعت سيدي علي الخواص رحمه الله ينهى عن المجاورة بمكة ويقول :

لا ينبغي أن يجاور بها إلا من يقوم بشروطها .

فقال شخص : وما شروطها ؟ .

فقال : شروطها عند القوم ألا تخطر المعصية على قلب من يقيم بها ، وأن لا يسبي ظنه
بمسلم فيها في وقت من الأوقات ، وأن لا يرى نفسه خيراً من أحد من المسلمين في سائر
الآفاق ، وأن لا يبيت على دينار ، ولا درهم ، ولا طعام ، ولا ثياب ، وهو يعلم أن في مكة
أحداً محتاجاً إلى ذلك ، وأن لا يسله أحد شيئاً ويرده ولو عمامته وجوخته لاسيما أن قال
له : برب هذا البيت اعطني كذا ، وأن لا يحن قط إلى بلاده ، ووطنه ، فيصير جسده
بمكة ، وقلبه في غيرها ، ومعلوم أن الحق تعالى لا ينظر من العبد إلا قلبه وإن يقلل
الأكل جهده ، ولا يأكل قط ، وعين تنظر إليه إلا إن اشركها معه ، وأن يلبس هناك
المديمات والعباء دون الثياب النفيسة والمحمرات لاسيما أن زاد على ذلك من البخور
والروائح الطيبة ، فإن صرف من ذلك في طعام المحتاجين أولى بلا شك .

وقد بسطنا الكلام على شروط المجاورة بمكة في كتاب المنن والحمد لله رب العالمين .

[١] هو الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كان يسمى حبر الأمة
لشدة تمكنه في العلم ، وقد سكن الطائف ولم يسكن مكة لأن البلد الحرام تضاعف فيه
السيئات ، (ومن يرد فيه بإلحاد بظالم نذقه من عذاب أليم) .

ومن أخلاقهم : التعفف عن الأكل من صدقات الناس وأوساخهم

علا بما اختاره رسول الله ﷺ لأهل بيته ، فإنه ما نهاهم عن ذلك إلا لجنبته فيهم
وشيء اختاره رسول الله ﷺ لأهل بيته لا ينبغي مخالفته .

وقد كان سيدي على الخواص رحمه الله تعالى لا يأكل من صدقات الناس ويقول .
إنها أوساخ ومن أكل منها فكأنه يقول للناس : بولوا على وعلى ثيابي وتغرطوا
أو ابصقوا على وجهي وتنخموا ، فإن الوسخ يشمل ذلك كله لغة وتفاوت القدرة يكون
يسكون بحسب ما في ذلك للال من كثرة الخبث وقلته ^(١) .
وسمعه مرة أخرى يقول :

صدقة الفرض تذهب الوسخ من المال والروح ، صدقة التطوع تذهب الوسخ من
البدن ، فكأن من يأكل من صدقة الفرض يلطخ روحه بالقدر ومن يأكل من التطوع
يعرض بدنه للأوجاع والأورام والدمامل والخراريج انتهى .

فليحذر الفقراء من قبول الصدقات مادام أحدهم يجد الكسرة والخليفة والحمد لله
رب العالمين .

[١] وفي الحديث : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لأن
يحنط أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه » متفق عليه .

ومن أخلاقهم : ان لا يطلبوا من الله تعالى أن يوسع عليهم في الدنيا
إلا إن وطنوا نفوسهم على كثرة العبادة ليلاً ونهاراً

فإن من طلب من الله تعالى الزيادة في الرزق طالبه الله بالكثير من العمل ، ومن رضى
باليسير من الرزق رضى الحق تعالى منه باليسير من العمل .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

لا يكفى الفقير الناصح لنفسه في هذا الزمان الشكر لله تعالى بالقول باللسان فقط
إلا إن كان ليس عليه خطية أما كثير المعاصي كأمثالنا ، فلا يكفيه إلا الشكر بالعمل ،
فيصوم ، حتى يصير كالشن البالى ، ويقوم حتى تنورم منه الاقدام قال الله تعالى : « اعملوا
آل داود شكراً ^(١) » ما قال قولوا شكراً وهذه الأمة الحمدية أولى بأن يشكروا بالعمل .
وهيئات أن يتحصل لهم من كثرة الأعمال شيء يصلح لأن يكون شكراً لكثرة
العمل القادحة في الإخلاص ، ولا يقبل الله تعالى من الأعمال إلا ما كان خالصاً ، وابتغى
به وجه الله تعالى .

فارض ياخى بالقليل من الرزق فإنه أولى لك والحمد لله رب العالمين .

(١) سورة سبأ آية : ١٥ .

ومن أخلاقهم : صحبة مشايخهم على الصدق والوفاء دون
الكذب والاختلاق والنفاق

ومن لم يكن كذلك لا ينفع بشيخه ولو صحبه طول عمره بل ربما مقت واستحكم
المقت فيه فتلف بالكلية وتعطل من أعمال الدنيا والآخرة .
وسمعت سيدى هلياً الخواص رحمه الله يقول :

من علامة الصادق أن لا يهوج شيخه إلى تقوية قلبه بالحضور فى مجلس الذكر مثلاً
بل يداوم على ما أقامه شيخه فيه ، ومتى وجد فى نفسه كسلان لم يحضر معه شيخه ، فهو
كاذب لا يصح لشيخه أن يمنحه أدباً من آداب الطريق لأن وعاء للنفاق المخالف يهيج
كل خير أدخل فيه لعدم قبول محله له ومثاله مثال الصخرة التى أقيت فى الماء ، وربما
تمسك ألف سنة ولا تلين ، ولا يدخلها ماء ، فهذا المريد كالصخرة وزاوية شيخه كالبحر ،
فكما لا يدخل جوف الصخرة شئ من الماء كذلك لا يدخل جوف هذا المريد شئ من
خير شيخه ، ومدده الذى فى الزاوية ، ولو أن المريد المنافق مع شيخه أظهر نفاقه لشيخه ،
وقال : لا حاجة لى بطريقك لكان صدق وخف مقتى لكنه كابر وادعى الصدق ، فازداد
مقتاً بتمب شيخه فى نصحه ، فكلمنا نصحه فى شئ ، وخالف مقتى ومعلوم ان حضرة الله
تعالى ما كل أحد يصلح لدخولها ، ولذلك جعل الله تعالى فى طريقها الموانع والمهلك كما
وضع أهل المطالب من الكفار الموانع ، والمهلك فى طريقها .

فإذا كان هذا وضعوه فى طريق شئ يجب الزهد فيه . فكيف بشئ يجب قطعا
الرغبة فيه ؟ وأى قدر للدنيا بهذا فيرها إذا تركت فى طريق طلب حصول مجالسة الله
هز وجل ولو لحظة من العمر ؟ .

ومن شك من المريدين فى أنه منافق مع شيخه ، فليعرض على نفسه ما لوقال له شيخه
إرم ما معك من الدنيا أو طلق زرجتك أو اخرج من خلوتك مثلاً لأدخلك حضرة الله

عز وجل ، فإن فعل ذلك بانسراج ، فهو صادق وإلا فليعلم انه منافق ، فلا يتكدر إذا قال له شيخه : أنت منافق معي .

وفي كلام الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه : إذا كان من يعمل على الوفاق لا يسلم من النفاق فكيف . بمن يعمل على الخلاف ؟ انتهى .

وأكثر المريدين الآن يعلمون على الخلاف ولا يوافقون شيخهم سوى باللفظ فقط .

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله يقول :

لا يبعد شيء من المقامات على مريد له شيخ أبدا إذا أطاع شيخه لأنه يعرف كل طريق توصل إلى أي مقام يطلبه المريد ولكن المانع خلاف المريد أو عدم القسمة انتهى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا ربوا يتيماً أو يتيمة وأنفقوا عليهما حتى تزوجا
مثلاً ان لا يروا لهم على ذلك اليتيم فضلاً

أدباً مع الله تعالى الذى هو فى كفايته .

وأيضاً ، فإنهم متى رأوا لهم فضلاً فقد حبط عملهم ، وذلك لأنه منّ والمن يحبط الأجر .
فليحذر الفقير الساذج من مثل ذلك .

وقد كان الإمام مالك رحمه الله يقول :

أهل الفضل هم أهل الفضل ما لم يروا فضلهم .

أى فإن رأوا فضلهم فقد خرجوا عن كونهم أهل فضل .

فرب يأخى اليتيم امتثالاً لأمر الله تعالى أو طلباً للأجر من الله تعالى^(١) ، فإذا فعلت

ذلك رأيت لليتيم الفضل عليك لأن به حصل لك الأجر والثواب .

وهذا لا يصح إلا لمن كل إيمانه بما وعد الله تعالى ، حتى صار الجزاء عنده كأنه

رأى عين ، وهناك يصح له معاملة الله عز وجل فالحمد لله رب العالمين .

(١) وفى الحديث : عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا ، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما » رواه البخاري

ومن أخلاقهم : تعظيم الأماكن التي ورد أن الله تعالى عند أهلها حاضر

كالمنكسرة قلوبهم والمرضى ومجالس الذكر ونحو ذلك .

قال الله تعالى في بعض الأحاديث : « أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي » .

وقال في حديث : « جمعت فلم يطعمني ومرضت فلم يعدني أما انك لو هدتني لوجدتني عنده ^(١) » .

قال تعالى : أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه .

ومن هنا كان سيدي هلى الخواص رحمه الله إذا عاد مريضاً أو حضر مجلس ذكر، أو دخل مسجداً يدخل بانكسار وذلة وخشية ، ويلبس الثوب المرقع ، ويقول :

نذل بين يديه تعالى فى الاماكن التى أخبر أنه حاضر فيها لعله يرحمنا ، وان كان هو تعالى حاضراً فى كل مكان بلا مكان ولا مكان هـكذا تأدب الأكابر معه .

وفى الحديث : أنه ﷺ كان يخرج يعود المرضى فى اقصى المدينة حافياً راجلاً بلا قلنسوة ولا عمامة أدباً مع الله تعالى من حيث كونه أخبر ان عند المريض ، ومشاكلة للفقراء الذين عادهم وتشريعاً لأمة الذين يفهمون الأسرار .
فاعلم ذلك واعمل عليه والحمد لله رب العالمين .

(١) سبق ذكر هذا الحديث بكامله فى المقدمة .

ومن أخلاقهم : تعاطيهم الأسباب التي تميز صديقهم من عدوهم

ليعرفوا ما يستحقه كل واحد من اطلاعه على أسرارهم أو كتمانها عنه .

وانا أعلمك ميزانا تعرف به محبك الصادق من غيره ، وذلك أن تمدح نفسك المدح المفرط بمحضرتة ، فإن انشرح وصدق بباطنه فهو محب ، وإن انقبض خاطره ، ووقف شعره منك ، فاحفظ نفسك منه ، فإنه عدو في صورة صديق ، ومثل هذا فليس في صحبته إلا انه يحمي عليك نقائصك ليهجوك بها أيام سخطه عليك ، فاحذر من هذا كل الحذر ولا يفرك مدحه لك بين الناس وجوابه عنك في بعض الأوقات والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : افتخارهم بزيارة الفقراء لهم

فإذا زارهم فقير لا يؤبه له يكون ذلك اليوم عندهم عيد ، لأنهم لا يرون نفوسهم أهلاً لأن يزورهم أحد من الصالحين خوفاً أن يقال : لولا أن فلانا من الصالحين مازاره الشيخ فلان .

ولما كان سيدى محمد بن عنان يزور أحداً من فقراء مصر يسكب ذلك الفقير في أعين الأمراء والمبشرين ، ويقولون : لولا أنه أمر عظيم مازاره الشيخ محمد بن عنان لأن الشيخ محمد كان لا يهجه كل أحد ادعى الطريق لكون أمره رضى الله عنه كان مبنياً على الصدق مع الله تعالى . فكان إن لم يعرف لفقير مقاما عند الله تعالى لا يزوره ولو انقلب إليه جميع أهل مصر من العامة بالاعتقاد ، لأنهم كلهم محجربون عن حضرة الله تعالى لا يعرفون من هو المقدم فيها من غيره .

وكان سيدى محمد بن عنان رحمه الله يقول :

أقل مراتب الفقير عند من يعرف مقامات الفقراء أن يعظمه كما يعظم أعظم ملوك الدنيا ، وذلك لأنه لأعظم ممن يجالس الحق جل وعلا ليلاً ونهاراً ، فشكل من رأوه عاكفاً يقبله على حضرة ربه أجلوه أكثر من أجلاهم لاسلطان لأن السلطان ، وإن كان الحق تعالى ألبسه خلة الملك والتصريف ، فقد يكون أكثر أوقاتة غير مجالس للحق تعالى إنما هو مجالس لما هو مشغول به من جمع مال ومحاربة أعداء ، وتلذذ بما كل ومشرب ومنكح وغير ذلك ، وهذا فإن كان مقاماً رفيعاً لجمع الحق تعالى به شتات العالم ، فثم ما هو أرفع منه وهو الاشتغال بالله وحده فافهم .

فعلم مما قررناه عدم افتخار الفقراء الصادقين بتعدد أحد من الولاة إليهم من باشا ودوقتردار وقاضى عسكر وشيخ عرب ونحوهم خلاف ما عليه بعض المشايخ الذين ظهروا في النصف الثانى من القرن العاشر ، فربما زارهم أحد من الولاة فيصير كالشاعر لكل

من دخل عليه ممن لا يعلم بزيارة ذلك الأمير ، فيقول اس كان الدهتر دار أو قاضي العسكر
عندنا ، وبصير يفتخر بذلك ، كأنه اجتمع بالإمام الشافعي أو بسيدى أحمد البدوى
رضى الله عنهما ، وهذا كله من علامات الإنفلاس في الطريق ولو أنه عرف طريق الفقراء
ما افتخر بأحد من أبناء الدنيا المحجوبين عن الله عز وجل .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

سمعت سيدى إبراهيم المتبولى رحمه الله يقول :

كل فقير افتخر بزيارة أحد من الأمراء له فهو نصاب . رأى لم يشم من طريق
الفقراء رائحه .

قال سيدى على الخواص :

وقد كان السلطان قاينباى وأمير كبير وغيرهما يزور سيدى إبراهيم المتبولى فى بركة
الحاج ، وما سمعناه قط يذكروهم بعد أن يخرجوا من عنده لا يمدح ولا يذم انتهى .

وكان سيدى محمد العدل رحمه الله يقول :

من كان مفتخرا بالزائرين فليفتخر بزيارة الفقراء الذين لا يؤبه لهم فإنهم هم الذين
ينبغي الافتخار بحببتهم لمدح الله تعالى لهم ، أما الملوك والأمراء فصحبهم عار وشعار
يوم القيامة ، وكل فقير رأيتموه يفتخر بتردد أبناء الدنيا له ، فادخلوا أنه لم يدخل حضرة
الله تعالى أبدا ولو كان له شعرة وعمامة صوف وعذبة .

وقد سمع سيدى محمد بن عنان شخصا من جهاته يحكى لبعض الناس ، ويقول له :

مادريت ان السلطان طومانباى زار سيدى الشيخ البارحة ، فزجره سيدى محمد
ومقته وقال :

إن كنت يافلان لاترى تعظيم شيخك إلا بزيارة أحد من الأمراء له فأنت لم يحصل
لك شئ من الطريق انتهى .

وقد رأيت الباشا ملك الأمراء زار شيخا في مصر ، فصار كل باشا آتى بعده يزور ذلك الشيخ إلى أن جاء الباشا على ، فزار ذلك الشيخ وقال : قلبي يحدثنى أن هذا الشيخ دفياري لم يشم من طريق الفقراء رائحة فزيل له : بما تعرفون ذلك فقال : تعرف ذلك بالأنس الذي يحصل في قلوبنا إذا رأينا أو جلسنا عنده فقال له شخص : فلم تزوره بعد ذلك فقال : هذا من حكم القانون أن كل أمير جاء فمن العقل أن يزور من كان يزوره من قبله ولولم نعتفه مدته لذلك الشيخ لاعتقادنا في صلاحه انتهى .

وأعرف شخصا زاره الباشا محمد مرة ثم انقطع عنه ، فصار كل من دخل عليه من الفقراء والمبشرين وغيرهم يقول له : زارني الباشا وقلت له : كذا وقال لي : كذا واستأذني في الورد إلى فلم آذن له ، وذلك كله كذب وزور ، ثم بعد ذلك صار كل شيخ عرب اجتمع به أو محتسب يقول له : أمس كان عندنا الباشا وأجرينا له ذكركم ومدحناكم عنده ، فيفارق ذلك الشيخ عرب أو المحتسب ، ويرسل له الأصواف الرفيعة ، والقمح والسمن والمسل والأرز وغير ذلك كأن ذلك النصاب يقول لشيخ العرب أو المحتسب : ان لم تحسن إلى تكلمات في حقك للباشا كلمة فاخربت ديارك ، ومثل هذا الشيخ معدود من جملة الظلمة الذين يأكلون أموال الناس بغير حق فموته رحمه به وبالإسلام فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة رحمتهم لمن قدر الله تعالى عليه شيئاً من المنكرات
التي هي من علامات الساعة بالنص أو الكشف أكثر من رحمتهم لغيره
لكن تكون الرحمة له باطنا ، ثم لا بد من الانكار ظاهراً قياماً بواجب الشريعة
ولأن لا يفتح باب الإحتجاج من الناس لأفعالهم المخالفة للشريعة ويقول : ايض كنت
أنا هذا أمر أخبرنا الشارع أنه من علامات الساعة ؟ .

فيقل الندم والحزن من الناس علي العاصي فتنتهك الشريعة .
على أنه ما كل علامات الساعة مذمومة بل فيها ما هو مذموم ، ومنها ما ليس بمذموم .
فمن المذموم :

استغناء الرجال بالرجال والنساء بالنساء .
وانتساب الناس إلى غير مناسبتهم واتماؤهم إلى غير مواليهم .
وعدم توقير الصغير للكبير وعدم رحمة الكبير للصغير .
وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
وتعلم الناس العلم ليحلبوا به الدراهم والدنانير أو ليجادلوا به العلماء ويصاروا به
السفهاء ويصرفوا به وجوه الناس إليهم .

وبيع الدين بالدنيا .

وقطيعة الرحم .

وبيع الحكم .

وأكل الربا .

وتطويريل للمنارات .

وتفضيض للصاحف .

وزخرفة للمساجد .

وتشييد البناء .

وأتباع الله وان يطيع الرجل زوجته ويعق أمه .

ومن العلامات التي ليست توصف بدم :

أن يكون المطر قيظا .

والولد غيظا .

والغنى غرا .

ويسود القبيلة فاسقها .

ويركب النساء السروج .

ويخرج الرجل من بيته فيقوم إليه من هو خير منه فتسلم عليه ^(١) انتهى .

(١) يقول ابن ماجه في سننه : حدثنا محمود بن خالد الدمشقي حدثنا سليمان بن عبد الرحمن ، أبو أيوب ، عن ابن أبي مالك ، عن أبيه عن عطاء بن أبي رباح ، عن عبد الله بن عمر ، قال : أقبل علينا رسول الله - ﷺ - فقال : يا معشر المهاجرين ، [خمس خصال إذا ابتليتم بهن ، وأعوذ بالله أن تدركوهن : لن تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون ، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقصوا عهد الله ، وعهد رسوله إلا لطم الله عليهم عدواً من غيرهم فاخذوا بعض ما في أيديهم وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويجهروا بما أزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم .

وروى الترمذي : حدثنا صالح بن عبد الله ، حدثنا الفرج بن فضالة السامي أبو فضالة عن يحيى بن سعد عن محمد بن حمير بن علي ، عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله ﷺ : إذا فعلت أمي خمس عشرة خصلة حل فيها البلاء ، قيل وما هي يا رسول الله ؟ قال : إذا كان المغنم دولا والأمانة مغنما ، ولزكاة مغرمأ ، وأطاع الرجل زوجته وعق أمه وبر صديقه ، وجعا أباه ، وأرتفعت الأصوات في المساجد ، وكان زعيم القوم أذلهم ، وأكرم الرجل مخافة شره ، وشربت الخمر ، ولبس الحرير ، واتخذت القينات والمعازف ، ولعن آخر هذه الأمة أولها ، فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء ، أو خسفاً ، أو مسخاً .

وقد أفاض الإمام ابن كثير في ذكر أشراط الساعة وغيرها من أمور يوم القيامة في كتابه النهاية ، فاليرجع إليه من أراد التوسع في ذلك الموضوع .

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله يقول لأصحابه :

من أدرك منكم النصف الثاني من القرن العاشر فلا يتصدر لإزالة المنكرات إلا إن اعطاه الله تعالى الكشف الصحيح ، فيعرف المنكرات التي هي من علامات الساعة ، والمنكرات المعلقة على انكار من يريد ازالتها من العلماء والا كابر ، فإن رآها من علامات الساعة ، فليعلم انه مغلوب ولا يقدر على ردها ، فليخفف في التعب في طلبه ازالتها وإعما طلب ازالتها ظاهرا نصرة لجانب الشرع وان رآها ليست من علامات الساعة ، فليشدد في ازالتها جهده بخلاف مارآه من علامات الساعة ، فإن المعارضة في ذلك كالسعي في خلاف ما وعد به الصادق المصدوق انتهى .

فعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على الدوام إلى قيام الساعة بحسب القدرة عليه ، وإعما الكلام في التشديد وعدمه .

وقد غلب أهل الباطل الآن على أهل الحق في أكثر الأحكام وصارت المحرمات بالإجماع بين أظهرنا لا يستطيع أحد ازالتها بل لو قدر أن أحدا قام في ازالتها خرج الناس عليه ، حتى كأنه أتى منكرا لقله من يروونه ينكر ذلك في زمانهم وصدق رسول الله ﷺ في قوله : « لا تقوم الساعة حتى تصير السنة بدعة » يعني عند غالب الناس .

فيايك ياخي أن تبادر إلى تجريحك لعملاء عصرك في عدم انكارهم المنكر وتقول : مابق أحد يغار على دين الله تعالى بل يجب حملهم على العذر الصحيح ، وإن شككت في قولي هذا فاجمع لك جماعة ، واذهب بهم إلى مواضع المكوس ، وامنع المكسين أن يقبضوا المكس ، وتنظر ما يقع لك مع أن المكس محرم باجماع المسلمين ، وإن قال لك شخص : لا طاعة لمخلوق في معصية الله تعالى إذا أمر بها فقل له : السلطان أتم نظرا مني ومنك فربما أخذ ذلك بوجه شرعي لا نطلع نحن عليه يرجع نفعه على المسلمين عامة ، ومعلوم أن منالك لا يكون ناصحا لمثل مولانا السلطان إلا بعد تقديم مقدمات .

وما كل ما يعلم من منكرات الشريعة يقدر الناس على ازالته إلا بتأييد من الله عز وجل والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم: زيادة المحبة والتعظيم لكل من ينصحهم في دينهم

وزيادة البشاشة له دون العبوسة ألا يقطع عنهم النصح .

وقد نصحتني مرة شخص فأعطته جوختي وأظهرت له البشاشة ، فصار من أصحابي إلى الآن وقد كان متين بما ينصحتني فجزاه الله عني خيرا ، فإن الناصح قد صار في هذا الزمان أعز من الكبريت الأحمر .

وقد أقسمت بالله تعالى على جماعة كثيرة من أصحابي أن ينصحتوني فلم يفعلوا وصاروا يجيبون عني ويغشوني ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فالله تعالى يغفر لهم ، ويكشف عنهم حجب الطبع حتى يشهدوا أن نصحتهم خير لي ^(١) ، فيرضوا الحق تعالى عنهم ورضوني عنهم والحمد لله رب العالمين .

[١] يقول السهروردي في عوارق المعارف : سئل أبو حفص عن أدب الفقراء في النصيحة ، فقال : حفظ حرمان المشايخ ، وحسن العشرة مع الإخوان ، والنصيحة للأصاغر وترك صحبة من ليس في طبقتهم ، وملازمه الإيثار ، ومجانبة الإدخار ، والمعاونة في أمر الدين والدنيا .

فن أدبهم للتغافل عن زلل الإخوان ، والنصح فيما يجب فيه النصيحة وكنم عيب صاحبه وإطلاعه على عيب يعلم منه .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : رحم الله أمرا أهدي إلى عيوبي .

وهذا فيه مصلحة كلية تكون للشخص ممن ينبهه على عيوبه .

قال جعفر بن برقان : قال لي ميمون بن مهران : قل لي في وجهي ما أكره ، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكرهه فإن الصادق يحب من يصدقه ، والكاذب لا يحب الناصح ، قال الله تعالى . « ولكن لا تحبون الناصحين » ، والنصيحة ما كانت في السر .

ومن أخلاقهم : قيامهم بواجب حق والديهم

فلا يرفعون صوتهم عليهما ، ولا يبخلون عليهما بشيء يطلباه منهم .

وقد جاء الأمر ببر الوالدين والنهي عن عقوقهما ، ولم يخص الشارع ﷺ شيئاً معيناً من البر بل أوجب برهما مطلقاً ، وحرم عقوقهما مطلقاً ^(١) .

وتأمل ياخي في السيد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام كيف نادى أباه بالابوة بقوله «يا أبت لا تعبد الشيطان» ^(٢) دون أن يناديه باسمه اجلالا له مع انه كان غير مؤمن ،

(١) قال الله تعالى : [وأعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم] .

وقال تعالى : [ووصينا الإنسان بوالديه حسناً] .

وقال تعالى : [وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب أرحمهما كما ربياني صغيراً] .

وقال تعالى : [ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن أشكر لي ولوالديك] .

وفي الحديث : عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سألت النبي ﷺ : أي العمل أحب إلى الله تعالى ؟

قال : الصلاة على وقتها .

قلت : ثم أي ؟

قال : بر الوالدين .

قلت : ثم أي ؟

قال : الجهاد في سبيل الله (متفق عليه) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا يجزى ولد والد إلا

أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه) رواه مسلم .

(٢) سورة مريم آية : ٢٤

فإذا كان من دعى أباه باسمه يكون عاقا فكيف بمن جناه ويخل عليه بالنفقة وغيرها .
وسمعت سيدى علي الخواص رحمه الله يقول :

من أدب الولد مع والديه أن لا يرفع صوته فوق صوتهما ، ولا يأكل معهما في إناء
إلا على وجه الايثار لهما على نفسه لأنهما أصل له ، وهو فرع منهما .
وقد كان عمر بن عبد العزيز لا يأكل مع والدته ، ويقول : أخاف أن تسبق عينيها إلى
رطبة أو عنبية ، فأكلها ولا اشعر انتهى .

وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب المن والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم سؤالهم ربهم أن يعطيهم المنازل الرفيعة في الجنة إلا بعد توطئتهم نفوسهم على كثرة الصبر على البلياء والمحن في هذه الدار

فإن حصول المنازل العالية لكل مؤمن مقرون بذلك .

ومن هنا كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أعلام الناس درجة في الجنة لكونهم أشد الناس بلاء كما ورد .

فوطن نفسك يا خي على كثرة البلاء في جسمك ومالك وولدك وعرضك ، ثم اطلب القرب من حضرة ربك ^(١) .

وقد ورد أن الله تعالى أوحى إلى السيد موسى عليه الصلاة والسلام لما دخل على مبتلى ، وقال : يا ربِّه عافه من هذا البلاء يا موسى تسألني . له العافية ، وقد سبق في هلم أنه من أهل الجنة ، والجنة لا تنال إلا بالبلاء .

وقد بلغنا أن الله تعالى لما ابتلي عبده زكريا عليه الصلاة والسلام بالشر أن تحت المنشار لما وصل إلى دماغه ، وقال : آه ، فأوحى الله إليه .

أما تقدم منك طلب القرب مني ؟

أما علمت أن أهل حضرتي أكثر الناس بلاء ؟

(١) عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى حتى للشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها (متفق عليه) .

وسئل الجنيد عن الصبر ؟

فقال هو تجرع المرارة من غير تعبيس .

وقال ذو النون : الصبر : التباعد عن المخالفات ، والسكون عند تجرع غصص البلية ، وإظهار الفنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة .

وقال ابن عطاء : الصبر : الوقوف مع البلاء بحسن الأدب .

وقيل : هو الفناء في البلوى بلا ظهور وشكوى .

أما علمت : أن من أحمأى الصبور ؟ لئن قلت آه مرة ثانية لأحجون اسمك من ديوان النبوه .

قلت : لا يصح سلب نبي من نبوته فى الشريعة لمصمته ، فإن صح ذلك عن الله تعالى فى حق نبي ، فهو من حضرة الإطلاق التى يفعل الله تعالى منها ما يشاء والله سبحانه أعلم .
فانظر يا أخى كيف كلف تعالى نبيه بالصبر تحت المنشار ، وأوجب ذلك عليه لكون منزلته عنده عالية .

وأرحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام لصبر على جفا خلقى كما صبرت أنا هلى من يأ كل رزقى ويعبد غيرى ولم أعاجله بالعقوبة انتهى فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : اكرام الخبز

ولا ينتظرون الاדם بعد ما حضر الرغبة إلا لعذر ، ولذلك من اكرامه تقبيله ، ووضعته على العين ، ووضع السفرة تحته ، وعدم التساهل في وضعه على الأرض أو رميه بفناء جدران البيت في الغبار .

وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ دخل بيت عائشة رضى الله عنها فرأى كسرة يابسة ملقاة في جانب الحائط ، وقد علاها الغبار ، فتقدم ﷺ إليها ، وأخذها ، ونفخها من الغبار ، ثم وضعها على عينيه وقال : « يا عائشة أحسنى مجاورة نعم الله تعالى فإن النعمة قل ما نفرت عن أهل بيت فكانت ترجع إليها » انتهى .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

ماورد من النهى عن الأكل على الخوان كما تصنع الأعاجم محله ما إذا كان ذلك على وجه الكبير ، أما الأكل على خوان تعظيماً لنعمة الله تعالى ، فذلك مطلوب ، فإن تعظيم نعمة الله تعالى من تعظيم أمر الله ، وما غلت المحبة ، وغيرها قط إلا باستماتة الناس بها على جارى عوايد الله تعالى في تأديب عبادِهِ إذا خرجوا عن الأدب .

قال الله تعالى : « وبلونا هم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ^(١) » .

فمن لم يرجع إلى الله تعالى بإحسانه رجع إليه بعقوبته وقد بسطنا الكلام على ذلك أواخر الباب الثانى هشر من المتن السكبرى والحمد لله رب العالمين .

(١) سورة الأعراف آية : ١٦٨ .

ومن أخلاقهم : كراهتهم للأجتماع بالمريد الاى أخذ من
أحد من أقرانهم إلا لضرورة شرعية

خوفا عليه أن يتزلزل عن محبة شيخه بإحسانه إليه أو يحتقرم ، ويعظم شيخه ،
فيمقت لاحتقاره لهم أو يعظمهم على شيخه فيخون عهده .

وما للمريد في زيارة غير شيخه فائدة مادام متقيدا على شيخه ، فإن خرج من تحت
طاعته لعذر شرعى ، فلا بأس باجتماعه على غيره بل قد يجب ذلك ليربيه ، ومعلوم أن
التربية من الأغراض الصحيحة كما بسطنا الكلام على ذلك في كتاب قواعد الصوفية
والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلافهم : ان أحدهم لا يقول لأخيه انى أحبك إلا بعد أن تسمع نفسه بمقاسمته فى ماله وحسناته لأن لا يكذب

وقد سار هذا الخلق اليوم نادرا فى فقرا العصر ، ولا أعلم الآن من تحقق به فى مصر من أقرانى إلا سبعة أنفس وقد امتحنهم ، فوجدتهم محبين لى بحيث لو طلبت منهم ما لهم كاه لأعطوه لى بطيبة نفس ، فرضى الله عنهم .

وقد امتحنت شخصا ادعى محبتي وله نحو سبعين نصفًا كل يوم .

وقلت له : رتب لى كل يوم نصفًا منها .

فقال : لا تطيب نفسى بذلك ، فاصبر حتى أجدنية صالحة ، فله الآن نحو عشرين سنة ما وجدنية صالحة ، فالله تعالى يغفر لنا وله آمين .

فأصحب ياخى الناس فى هذا الزمان ولا نطالبهم بالحقائق إلا إن كنت متخلقا بما تدعوهم إليه فتعطيهم أنت الآخر مامعك إذا احتاجوا إليه ، وإن كان ذلك نازلا عن اخلاق القوم من حيث أنه متاجرة لأجل أعمالك الصالحة فى الدارين .

وان كنت متجردا عن المال فامتحن نفسك باعطائهم دارك أو خلوتك أو وظيفتك أو جوختك أو عمايتك إذا كانوا أحوج إليها منك أو نحو ذلك من اسبابك^(١) والحمد لله رب العالمين .

(١) يقول الإمام السهروردى فى عوارف المعارف : ومن أدبهم أن لا يرون لنفسهم ملكا يختصون به .

قال إبراهيم بن شيان : كنا لانصحب من يقول نعلی .
وكان من أخلاق السلف : أن كل من احتاج إلى شىء من مال أخيه استعمله من غير مؤامرة . قال الله تعالى : (وأمرهم شورى بينهم) أى مشاعهم فيه سواء .

ومن أخلاقهم : محبتهم لنسائهم محبة أخوة في الإسلام

كغيرهن لا محبة طبع ، فكلما ازدادت زوجتهم من الأعمال الصالحة كلما زادوا في محبتها ، وكلما نقصت من الأعمال الصالحة كلما كرهوها ، وإن كانت مطاوعة لها في جميع ما يأمرونها به من أمر الفراش ، والرضى بالقليل في لاطعم والملابس كل ذلك إيثارا لجاب الحق على جناب حظوظهم .

وقد كانت رابعة العدوية تقول لزوجها :

لا تظن أني أحبك محبة الأزواج إنما أحبك محبة الأخوة في الإسلام رضى الله عنها .
فعلم أن للمرأة التاركة للصلاة يجب بغضها في الله عز وجل لأنها تركت عماد الدين كله ، وهذا الخلق قل من يتخلق به الآن من الاقران بل بعضهم لم يزل يتزوج ويطلق كلما قالوا له : أن فلانة امرأة جميلة سمينة لها مال وجهاز مع ان يدعى الصلاح .

وسياتى في هذا الكتاب عن سيدى عبد الله للنفوس شيخ الشيخ خليل صاحب المختصر في مذهب المالكية رضى الله عنهما انه كان متزوجاً جارية نوبية كبيرة الأنف والشفنتين والقورة والاسنان سائلة المخاط ، وكان يقدم لها اعمالها ، ويقول لها : اجعلينى في حل فإنى ما كنت أصلح لمثلك ، حتى قال بعض الطلبة يوماً : والله ان نفوسنا تتكلف لرؤيتها فكيف تقيم أنت معها وتضاجعها ؟ فقال : والله يا أولادى ان أهوال يوم القيامة ما تركت في بقية شيء من شهوات الدنيا انتهى . هكذا درج الأشياخ رضى الله عنهم .

وكان سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول :

المرأة الحسناء تصيبك في باطنك والشوهاء تصيبك في ظاهرك ، وما يصيبك في ظاهرك أهون مما يصيبك في باطنك الذى هو محل نظر الحق تعالى إليك انتهى .
فعليك ياخى بالمجاهدة والريضة لنفسك إن طلبت ن تحب زوجتك لأجل دينها لا لأجل الإستمتاع بها ، وإلا فأنت بعيد عن هذا المقام ، وبالجملة فإذا كان بعض الغفرا في هذا الزمان قد غرقوا في شهوات بطونهم وفروجهم فما بالك بغيرهم ، فالله يلفظ بنا وبكل غافل عن آخرته وربّه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلافهم : عدم مبادرتهم لصحبة أحد إلا بعد امتحانه في أمور دينه لأن من لا ينفع نفسه لا ينفع غيره

اللهم إلا أن يريد أن يتلذذهم ليربوه فلا بأس بذلك من غير امتحان فكلما لنا إيمانهم - و في أصحاب الأنفس الرديئة الذين لا يعجبهم أحد من الفقراء في بلادهم .
وفي كلام الشيخ تاج الدين بن عطاء الله : لأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خيرا لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه .

وقد خالف هذا الخلق أقوام وبادروا إلى صحبة الناس من غير تجربة ثم نقاطوا بعد ذلك وصار كل واحد منهم يحكى عن صاحبه ما هو أهله .

وكان سيدي على الخواص رحمه الله يقول :

من صحب الآخرق فلا يلوم من إلا نفسه فربما أراد نفع صاحبه فضره أو قتله كما حكى أن شخصا نحالا صحب آخرق ، فكان الذباب يعف على وجه النحال فراه يوما ، وقد نام وعف الذباب على وجهه ، فقال الآخرق : ان نشيته ههنا عاد إليه ثانيا ، ولكن اقتل الذباب خير له من نشيته ، فحمل حجرا عظيما وألقاه على وجه النحال ليقتل الذباب ، فوضع رأسه ، فمات ، وطار الذباب يمينا وشمالا لم يصب الحجر منه شيئا فالعاقل من اعتبر والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : ادمان إمساك السبحة للتسبيح عليها
وإن كانت قلوبهم صارت ذاكرة لانغفل عن الله تعالى كما مراقتداء بالسلف الصالح
في ذلك .

وقد أنكر شخص على بعض الفقراء تسبيحه على السبحة ، وقال : هذا بدعة فصنف
الجلال السيوطي في ذلك مؤلفا ذكر فيه أن أول من أحدث المسبحة التي هي الخرز
الحسن البصري ، ثم تداولها أشياح الطريق بعده إلى عصرنا هذا من غير تكبير فيما
بينهم ، وانها نظير ماورد في التسبيح على الحصى وعقد الأصابع .

وكان الحسن البصري ، والجنيد ، وغيرهما إذا قيل لهم : مثلكم لا يحتاج إلى سبحة
يقولون : شيء استعملناه في بداية أمرنا لا نتركه في نهاية أمرنا ، وفي رواية عن الجنيد :
شيء دخلت به إلى حضرة ربي لا أتركه .

وكان يقول : أحب أن أذكر الله تعالى بقلبي ويدي وسبحتي ولساني انتهى .

وبالجملة فالانكار على مثل من يسبح على سبحة كالتنظم في الدين ، ولا ينبغي التشديد
في الانكار إلا على شيء يهدم أركان الشريعة ، وكل مرید طالب شيخه بالدليل
على كل شيء أمره به شيخه أو على كل شيء رآه ، يفعله فإنه خير كثير فاهل ذلك
والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة الدعاء لأنفسهم

ولو شهدوا في نفوسهم أنهم أفسق الناس لأنهم هبيد ، والمبيد لأبراح له عن باب سيده ، ولاغنى له عنه في وقت من الأوقات في الدنيا والآخرة ، وهو تعالى يحب منه هبيده اظهار الفاقة والحاجة له ^(١) .

وإنما كان بعض العارفين يتوقف عن الدعاء للناس ، حتى ينوب من كل ذنب فعله ، ثم بعد ذلك يدعوا احتياطاً للسائل الذي سأله أن يدعو له ، حتى يجاب دعواه بسرعة ، وإلا فالدعاء مطلوب منا في كل وقت وحال .

وباغنا عن سفيان بن عيينه أنه كان يقول :

لا يمنع أحدكم من الدعاء ما يعلمه من نفسه ، فإن الله تعالى أكرم الأكرمين ، وقد أجاب سؤال شر الخلق أجمعين ، وهو ابليس فأنظره إلى يوم الدين اجابة لسؤاله مع انه أبغض الخلق إليه تعالى :

وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب المنن والحمد لله رب العالمين .

(١) يقول الله تعالى : (أدعوا ربكم تضرعاً وخفية) .

وقال عز وجل (وقال ربكم أدعوني أستجب لكم) .

وفي الحديث : عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « الدعاء مع العبادة » .

يقول الإمام القشيري : والدعاء مفتاح الحاجة ، وهو متروح أصحاب الفاقات ، وملجأ المضطرين ، ومتنفس ذوى المآرب ، وقد ذم الله سبحانه وتعالى قوما تركوا الدعاء فقال : (ويقبضون أيديهم) قيل ، لا يعدونها إلينا في السؤال .

وقال سهل بن عبد الله : خلق الله تعالى الخلق وقال : ناجوني ، فإن لم تفعلوا فانظروا إلى ، فإن لم تفعلوا فاسمعوا مني ، فإن لم تفعلوا فكونوا يبابي ، فإن لم تفعلوا فأنزلوا حاجاتكم بي .

وقال الأستاذ أبا على الدقاق : قال سهل بن عبد الله : أقرب الدعاء إلى الإجابة دعاء الخالد ودعاء الحال : أن يكون صاحبه مضطراً لا بد له مما يدعو لأجله .

ومن أخلاقهم كثرة محبتهم واجلالهم للعلماء

وإن لم يعملوا بما علموا من حيث كونهم حملة شريعة سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ ،
وأمناؤه على شرعه كما مر وقد أمرنا بمحبتهم ، ونهينا عن بغضهم إلا بطريق شرعي .

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول :

من أبغض عالما فقد أبغض من يحبه رسول الله ﷺ ، ومن أشد مكاييد الشيطان
بالعامة أن يبغضهم في علمائهم ، فلا يصير أحدهم يسمع شيئا مما معهم من العلم ، حتى يضلوا ،
ومن هنا حط الصوفية على فقرا المطاوعة أشد الحط لكونهم يبغضون العلماء وليس مع
أحد منهم كتاب ولا سنة يستضيء به في ظلمات الجهل وصنفوا فيهم مصنفات ،
ولفوا على إبطال طريقهم البراهين نصيحة لهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة استغفارهم كلما اعتقد الناس فيهم الخير

وهم في الباطن علي خلاف ذلك ، وما دام لهم سريرة يفتضحون بها في الدنيا والآخرة
لو انكشفت فاللائق بهم كثرة الإستغفار ، والخوف لتلبيسهم على الناس ، فإذا تخلقوا
بما ظنه الناس فيهم كان لهم حكم آخر

فإن من شرط الكامل أن يشهد كماله ونقصه معاً ليعطى كلا منهما حقه من الشكر
والإستغفار ، وما دام ناقصاً ، فهو تحت حكم ما شاهده من نقص أو كمال في حالتين
مختلفتين لأنه صاحب عين واحدة بخلاف الكامل فإنه صاحب عينين أو أهين
لا تراحم عين صاحبها .

وقد كان عتبة بن غزوان الصحابي رضي الله عنه يقول :

أعوذ بالله تعالى أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله تعالى صغيراً انتهى

ثم إن هذا الخلق قليل من يتحقق به والغالب في الناس محبتهم لكثرة اعتقاد
الناس فيهم فوق ما يستحقونه ، ولا يسكاد أحدهم يستغفر من ذلك فليمتنبه الصادق لما
قلناه من التفصيل والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم أكلهم من المال المشترك إذ أتاهم به أحد
الشريكين قبل القسمة وقبل القرعة

سواء كان ذلك في البقول أو الثمار كالسكرات والجزر والقمح والبقول الأخضر مثلاً ،
والقصب الذي يعصر منه العسل ولا يكفي المتورع أن يأكل مما أتى به الشريك إليه
وقال : كل هلى ذمى ، فأتى جملة له نظيره ، فإن ذلك لا ينضبط بالحرص والتقدير عادة
وقد أرسل لى صاحبنا سيدى محمد بن الموفق قصباً نحو مائة وخمسين عوداً وقال :
مصوا هذا فأتى عدت لشريكى مثلها ، فلم أخص منه شيئاً لأن الأعواد لا تنضبط بالعدد
لإختلافها فى الطول والغلظ والحلاوة وغير ذلك ، فلو أنه قسمة بالقرعة الصحيحة لربما
كنت أكلت منه .

فياك ياخى والأكل من الأمور المشتركة كالبقول الأخضر والفريك ونحو ذلك إلا
بإذن الشريكين ، فإنها من قسم الشبهات والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم وقوعهم في خديعة أو غدر لأحد إلا بطريق شرعي

فإن ذلك معدود من البغي ، وهو يعود على صاحبه ، ويتوارثه ذريته من بعده ،
ويعاقبون عليه إلى سابع ولد كما جرب ذلك .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

من غدر صاحبه كان الكلب أشرف همه منه لأنه لا يغدر صاحبه ، ولا من أحسن
إليه يوما من الدهر ، فأياكم والغدر فإنه يتفزع منه المسكر والبغى والخديعة ويحرم
صاحبه فوايد الدنيا والآخرة إذا عرف بذلك بين الناس والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن لا يبادروا إلى الإنكار على من رأوه يأخذ مال الولاية
ويفرقها على الناس إلا أن علموا أنه لا كشف عنده

يعرف به من له رزق في تلك الدوام أو ذلك الطعام ، فإن علموا أنه من أهل ذلك
الكشف ، فليس لهم الإعتراض عليه لأنه إنما يأخذ ذلك المال ليوصله إلى أربابه
الذين ظلمهم ذلك الظالم ، فهو كالذي يسعى على الأرمال والأيتام ، وينفق عليهم من كسبه
على حد سواء وإن تفاوت النعب ، فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم ان لا يتخذوا من النقباء إلا من يكون أميناً عفيفاً
لا يسرق ولا يخون ولا يفضل نفسه على أخوانه ولو مراً .

وسمعت سيدي على الخواص رحمه الله يقول :

الخيانة والسرقه امران مهلكان .

قال : والفرق بينهما ان السارق هو من يسرق ما لم يؤتمن عليه ، والخائن من سرق
ما أئتمن عليه ، وقد جعل رسول الله ﷺ الخيانة من علامة النفاق ، والمنافق
لا يفلح يقيناً .

قال : وقد أوحى الله تعالى إلى السيد موسى عليه الصلاة والسلام احذر من الأمين
ولا تأمن الخائن فإن القلوب بيد غيرك انتهى .

وكان سيدي إبراهيم المتبولي رحمه الله يقول :

الخيانة تذهب البركة كما يذهب الحرام كثيراً من الحلال ، ومن خان في درهم أو أوقية
جره ذلك إلى الخيانة في ألف ، وكذلك القول في السرقة ، وما وجدنا قط سارقاً ولا خائناً
إلا وهو قصير الذيل والبركة محبوسة من يده ودينه وماله انتهى .

وقد أفتت أنا نقيباً في الزاوية على الفقرا ، فأحتاج إلى شيء من العسل ، فقلت له :
خذ حاجتك . فأخذ بقدر نصيب عشرة أنفس من الفقرا ، فعلمت انه قابل الدين ،
فمن ذلك اليوم هزلته ولم أستأمنه ، وعلمت أن النقيب الأمين قل وجوده ، وما بقي إلا
النقباء المتفاوتون في الخيانة ، فاشيخ يستعمل أقلمهم خيانه عند الحاجة إليه والفقرا وليهم
الله تعالى وكل من خانهم محق الله تعالى البركة من دينه وعمره وسائر ما يتقلب فيه .

وقد كان الأشياخ المتقدمون لا يجولون نقيباً إلا من علموا أنه يخشى الله تعالى
بالغيب بأن يكون ثانياً مرتبة للشيخ في العلم والأدب ، وهذا أمر قد تورع منا ما بقيت
الدنيا بل ربما كان الشيخ الآخر ممن يخون الفقرا ويأخذ لنفسه ما جاء على إسمهم ، فلا
حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ومن أخلافهم : شدة تفتيشهم على كل لقمة تدخل جوفهم
لا سيما في رمضان ، فلا يأكلون إلا الحلال وإن لم يجدوه طووا ، حتى يحصل لهم
الاضطرار قبل أكلها كما تقدم بسطه في الكتاب مرارا ، وتقدم أن أوائله بأن تصير
الأمعاء تلذغ بعضها بعضا .

وهذا الخلق قل من يعمل به في هذا الزمان ولذلك كان سيدي على الخواص رحمه الله
تعالى يا كل قط من طعام مشايخ الزوايا ويقول :
إنه أخبث الطعام لكونهم يقبلون هدايا من الظلة والعمال ومن لا يتورع من
المباشرين والتجار .

ويقول : إذا كان الفضيل بن عياض يقول :
أن من يأكل الحلال بدينه أقبح ممن يأكل الحرام بالطبل والمزمار .
فكيف بمن أيسر له كثير من العبادة والفسك لينصب به على الناس بل قنع بلبس
الزى وصار كالتمساح نسأل الله العافية .

وقد أرحى الله تعالى إلى السيد موسى عليه الصلاة والسلام يا موسى : إن أردت أن
تجيب دعوتك فصن بطبك عن الحرام وجوارحك عن الأثام .
وسمعت سيدي على الخواص رحمه الله تعالى يأمر امرأة بالفعل من بول صبي الذي
لم يأكل خير اللبن ويقول :

إن غالب طعام أمه حرام لأن زوجها مكس
فقلت له : إن الشارع أطلق الرش من بوله
فقال : صحيح ولكن هذا من الورع .
وسمعت مرة أخرى يقول :

من أكل الحرام ، وأطال في العبادة ، وقيام الليل ، فهو كالحمām الذي رقد على بيض
فاقد ، فهو يتعب نفسه في طول المقام عليه ثم لا يفرخ شيئا بل يخرج كله مندرا .

وكان الإمام سفيان الثوري رحمه الله يقول : كنت وأنا آكل الحلال أقرأ الآية من القرآن العظيم فيفتح على منها سبعون بابا من العلم ، فلما أكلت من طعام من لا يتورع صرت أكرر الآية زمانا ، فلا يفتح لي منها باب واحد من العلم لإنهى .
فاياك يا أخى والأكل من الشبهات ثم إياك ^(١) والحمد لله رب العالمين .

(١) وفي الحديث : عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » متفق عليه .

وعن أنس رضى الله عنه : أن النبي ﷺ وجد تمره في الطريق فقال : (لولا أنى أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها) متفق عليه .

ومن أخلاقهم : إذا صار أحدهم موردا للأمراء والأكابر
أن لا يمدح أحدا منهم بحضرة عدوه

وإنما المائق أن يذكر عنه أنه يحبه بقصد التأليف بينهما حسب الطاقة .

وقد اخل بهذا الخلق جماعة من الساذجين ، فمدحوا العدو عند عدوه ، ونزلوا ما قوله
هذا في حق هذا فارموا بينهم ، فاشتدت العداوة أكثر مما كان يفعلها الفسقة بينهم ، وذلك
لأن كل واحد منهم يقول : سيدي الشيخ لا يكذب ، وحاشاه أن ينزل باطلا وما دروا أن
الشيخ صار فاسقا بذلك ، فلا يقبل قوله ، فليمتنبه الفقير لمثل ذلك في هذا الزمان
وليغف عما بأيدي الولاة جهده ، فإنه لا يوقعه في ذم أحد أو مدحه إلا لاطمع والحمد
لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : اقامة العذر باطنا للأمر الذي يتولى ولاية

كان عاهدهم انه يعدل فيها إذا وليها

ولا يطالبونه بالوفاء بما كان قد عاهدهم عليه إلا ان وجدوا له قدرة شرعية على ذلك ، فإن المعزول إنما يتكلم بلسان عزله ، وإن كساره ، فإذا تولى تكلم بلسان العز والاستكبار ، ومن هنا قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : إذا ولي أخوك ولاية فارض منه بعشر الود الذي كان يودك به قبل ولايته .

وقد تقدم أن مقام الوفا بالعهد إنما يكون للأنبياء وكل ورثتهم ، وأما غيرهم فقد فقد يعاهد ربه عز وجل على شيء ولا يوفى به فضلاً عن عبادته .

قال الله تعالى : ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به ، وتولوا وهم معرضون^(١) ، إلى آخر النسق .

وقد قالوا : بين التحقيق والفرض والتقدير كما بين السماء والأرض .

فاعذر يا خي كل من تولى ولاية في هذا الزمان من أصحابك في عدم اقامة العدل والمعروف فيها بطريقه الشرعي ، ولا نطلب منه الاستقامة بالكافية فإن ذلك لا يتيسر لأكابر الناس فضلاً عن غيرهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن يعظوا كل أمير دخلوا عليه حاجة

بقصد نفعه بذلك لكن بشرط أن يغلب على ظنهم عمله بما وعظوه به ، فإن لم يغلب على ظنهم ذلك فضوا حاجتهم منه سرعة ، وخرجوا منكرين عليه بقلوبهم .

وقد كان السلف الصالح يستغنمون النصيحة لكل أمير دخلوا عليه لينفعوه وينفعوا ، وهذا أمر قد صار كالحال وقوعه من فقرا هذا الزمان لأمر يطول شرحها أقلمها محبة الدنيا ، فقل فقير يدخل على أمير فيه الصدقة والخير إلا ويخطر في باله أن ذلك الأمير يرتب له شيئا من الجوالى أو الهدايا مثل ما ترتب لغيره من الاقران ، ومن يطلب مثل ذلك ، فليس له قوة يعظ بها ذلك الأمير لأن من طمع في تحصيل شيء ذل ومن ذل لا يقدر على التغليظ على من يريد تحصيل ذلك الشيء منه .

وقد بلغنا ان عبد الملك بن مروان خطب يوما بالكوفة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال .

أيها الناس اسمعوا ما أعظكم به ، فقام إليه رجل ، فقال : والله لا نسمع لك حتى تقضى لهذا الرجل بالحق فإن الناس قالوا له : ما يخلص لك ظلامتك إلا فلان فجيت به إليك لأنظر هلاك الذى كنت تعدنا به قبل ولاينك هذه الخبيثة ، فطال بينه وبينه الكلام ، ثم قال الرجل .

يا أمير المؤمنين انكم تأمرون ولا تأمرون ، وتنهون ولا تنهون ، وتعظون ولا تعظون ، افنقتدى بسيرتكم فى أنفسكم أم نطيع أمركم بالسنتكم ، فإن قلت أطيعوا أمرنا واقبلوا نصيحتنا فكيف ينصح غيره من غش نفسه وان قلت خذوا الحكمة واقبلوا العظة ، ولا تلتفتوا لحالنا ، فعلام قلنا كم أزمة أمورنا ، وحكمنا كم فى دماننا وأموالنا ، فإن كانت الإمامة قد عجزت عن إقامة العدل فيها ، فخلوا سبيلها وإلا فإن بقيت فى يديكم عاماً خربت البلاد ، واضمحلت الحقوق .

فنزله عبد الملك من على المنبر وقال :

أن منلى لا يصلح خطيبا لكم ، وصار يسكى حتى كاد رقت الجمعة أن يخرج ، ثم
صعد المنبر ، فخطب .

فإن وجدت يا أخى أميرا يسمع من وعظك ، فعظه وإلا فلا حرج عليك فى السكوت ،
وقد وجدت العلامات التى وقت الشارع ﷺ الأمر بالمعروف إليها بقوله لخديفة رضى الله
عنه : « مر بالمعروف وانه عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعا ،
ودنيا مؤثرة واعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بخويصة نفسك ودع عنك
أمر العامة » .

وقد وجدت جميع هذه العلامات كما هو مشاهد .

فإن رأيت يا أخى أحدا من العلماء يدخل على الأمراء ولا يعظمهم ، فاحمله على المعجز
اذننه أن الوعظ لا يؤثر فيه وإن كان ذلك خلاف ما عليه الجمهور والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة تبجيلهم وتعظيمهم لمن
لا ث الناس بعرضه من فقرا العصر

إذا كان على قدم الاستقامة في العلم والعمل ، ويجعلون تلك الاشاعة عنه لاحقيقة لها ،
وإنما أشاعها عنه الأعداء والحاسدون لاسيما إن رأيناه صابرا على تحمل الأذى ،
ولا يقابل أحدا بسوء ، فإنه يتعين علينا إجلاله وتعظيمه لأنه على قدم العلماء العاملين
في تحمل الأذى .

وهذا الخلق قد عز وجوده في غالب الفقرا اليوم وصاروا يقبلون الاشاعة بالنقص
عن الإنسان بمجرد الاشاعة من غير تثبت حتى قل انتفاعهم بأهل عصرهم ، فإنه مامن
أحد إلا وله محب وبغض .

فعلم أن من دين الإنسان إذا سمع الاشاعة عن أحد بسوء العقيدة أو غير ذلك من
النقائص أن يجتمع به ، وينظر حاله ، فإن رآه كما أشيع عنه نصحه وإن رآه بضد ذلك
اتخذ صاحبا وأحبه ، وقد اطلق صلى الله عليه وسلم الحديث في قوله : « أشد الناس
بلاء الانبياء ثم الأمتل فالأمتل » ولم يفصل ، فشمّل بلاء الأبدان وبلاء الاعراض إذا
صبر العبد على ذلك .

فاياك ياخي ثم ايك أن تسمع كلمة من فقير من بعض أعدائه فتشيعها عنه ، فتنتقم في
الغيبه والغميمه والكذب (١) .

(١) وفي الحديث : عن أبي هريرة رضى الله عنه : أن رجلا قام وهو مع رسول الله
ﷺ : قبل ذلك ، جالس ، فقال بعض القوم : ما أعجز فلان !
فقال ﷺ : أكلتم أخاكم واغتبنموه .

وفي الرسالة القشيرية : أوحى الله إلى موسى عليه السلام : (من مات تائباً من الغيبة
فهو آخر من يدخل الجنة ، ومن مات مصراً عليها فهو أول من يدخل النار) .
٣٨ - الأخلاق المتبوية

في التوراة ما نصح عالم أهله وجيرانه وبالع في نصيحهم إلا رموه بالعظيم انتهى .
عليه يحمل حديث : « أشد الناس عداوة للعالم أهله وجيرانه » لكن يستثنى من
ذلك من كان كامل السياسة للخلق من الأولياء فإنه يبالي في نصيح أهله وجيرانه ومع
ذلك فهم يحبونه فانهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : العمل بأحاديث الفضائل على وجه الإيمان والتصديق
ولا يستبعدون حصول الثواب الجزيل في العمل القليل في التعب لأن مقادير الثواب
لا تدرك بالقياس .

وقد قدمنا في هذا الكتاب أن من عقل العاقل إذا ضاق عمره أو وقته في قيام الليل
مثلاً أن يقرأ بالآيات والسور التي ورد التفضيل فيها على غيرها ولا يقول أن القرآن
كلام الله تعالى فلا يصح التفاضل فيه لرجوعه إلى ذات واحدة فإن ذلك يرد الأحاديث .
وقد كان سيدي علي الخواص إذا ضاق وقت التهجد عليه وخاف من طلوع الفجر
يصير بقرأ الفاتحة ، وآية الكرسي في كل ركعة ، وتارة يقرأ سورة الاخلاص ثلاث
مرات ، وتارة يقرأ أواخر سورة الحشر لما ورد أنها تعدل ألف آية ، وكذلك آية الكرسي
وأما سورة الاخلاص فورد أنها تعدل ثلث القرآن .

قال بهنّ المارفين : أي تعدل ثلثه أي لو فرق اثلاثاً ، وكذلك الحكم في ما ورد أنه
يعدل ربع القرآن أو نصفه أي لو قسم أرباعاً أو أنصافاً فاعلم ذلك واعمل عليه والحمد لله
رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم ظنهم أن أعمالهم ولو كثرت تهمي أحدهم من وقوع العذاب به في ساعة من ليل أو نهار

كما كانت أعمال الناس في الزمن الماضي ، فإن العزم قد ضعف عما كان عليه الناس في الزمن الماضي ، وصارت أعمال الناس كالجبال في الصورة ، وفي المعنى كالمياه لقلّة الاخلاص فيها .

وسمعت أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله يقول :
من كشف حجابيه في هذا الزمان رأى نفسه تستحق الخسف بها حال طاعاته لما يخطر على قلبه من الفواحش بين يدي الله عز وجل ، ولولا رحمة الله تعالى بالعبد لأهلكه لقلّة أدبه في طاعاته فضلا عن معاصيه .

قال : وقد كنت وأنا صغير إذا عملت طاعة أحس بالحماية لى من الآلات من الجمعة إلى الجمعة ، فصرت اليوم أخاف من وقوع العذاب على حال فعلى للطاعة .

وقد كان سيدى عبد العزيز الديري رضى الله عنه يقول :
الناس ينتظرون بطاعتهم المغفرة ورفع الدرجات في الجنة وأنا أنتظر أن تمطر السماء على حجارة من قلة أدبى في تلك الطاعة .

فاعلم ذلك وأكثر من الطاعات ولا ترى أنها أهل لأن تقبل منك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة الصلاة والتسليم على سيدنا ومولانا
رسول الله صلى الله عليه وسلم

حتى لا يسكاد أحدهم على من ذلك في ليل أو نهار^(١) لأنه صلى الله عليه وسلم هو
المشروع لهم كل خير عملوه ، فله صلى الله عليه وسلم عين أجر جميع أعمال أمته ومن شح
عنهم بعين أجر عمله على نبيه كان لنبيه مثل أجره لأعينه ، وذلك معدود من سوء الأدب
عند أهل الأدب .

(١) يقول الله تعالى : (إن الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين ءامنوا صلوا
عليه وسلموا تسليما) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :
(من صلى على صلاة ، صلى الله عليه بها عشرا) .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (أولى الناس بي يوم القيامة
أكثرهم على صلاة) .

وعن علي رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ ، (البخيل من ذكرت عنده
قلم يصل على) .

وعن أبي بن كعب رضى الله عنه قال ، كان رسول الله ﷺ إذا ذهب رجع الليل قام فقال ،
يا أيها الناس ، أذكروا الله ، أذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما
فيه ، جاء الموت بما فيه) .

قال أبي بن كعب ،

فقلت : يا رسول الله : إني أكثر الصلاة فكم أجعل لك من صلاتي ؟

قال : ما شئت .

قال : قلت : الربع ؟

قال : ما شئت ، وإن زدت فهو خير لك .

قال : فقلت فالثلث ؟

قال : ما شئت فإن زدت فهو خير لك .

قال : قلت النصف ؟

وقد قدمنا أن من أدب الفقير أن يجعل ثواب جميع أعماله أنبياء ﷺ بإشراح صدر
وينوى بذلك القربة من الله تعالى وأن من أدبه أن يفتح العمل على اسم سيدنا رسول
الله ﷺ من حيث الأجر الحاصل من تلك العبادة لا على اسم نفسه هو عملاً بمحدث
« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده وأهله والناس أجمعين » .

ولولا أنه ﷺ دلنا على الأعمال الصالحة ما اهتدى أحدنا لفعلها بل ولا عرف أنه
تعالى أمره بها فضلاً عن معرفة كيفيةها ، فجعل أحدنا ثواب أعماله أنبياء ﷺ بالإجابة
من بعض حقه الواجب علينا ، ولا يجوز لأحدنا أن يرى له فضلاً بذلك على نبيه ﷺ
فافهم فإن هذا يقع فيه خناق كثير ، فيصرون يرون لهم اليد عند سيدنا وولانا رسول
الله ﷺ بذلك ، وإن دفعوه عنهم عند خطوره .

وقد روى الطبراني أن رسول الله ﷺ قال :

أريت حمزة وجعفرًا وكان بين أيديهما طبقا كله نبق كالزبرجد يا كلان منه .
فقلت لهما : ما وجدتما أفضل الأعمال والأقوال .

فقالا : لا إله إلا الله .

قلت : ثم ماذا ؟ .

قالا : الصلاة عليك يا رسول الله .

قلت : ثم ماذا ؟ .

قال ، ماشئت ، وإن زدت فهو خير لك .

قال : قلت : أجعل لك صلاتي كلها ؟

قال ، إذا يكفي همك ، وينفرك ذنبك .

أما الصيغة التي كان يرددها سيدي إبراهيم المتبولي فهي : (اللهم إني أسألك بك أن

تصلي وتسلم على سيدنا محمد وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعلى آلهم وصحبهم أجمعين ،
وأن تغفر لي ماضي وتحفظني فيما بقي) .

قالا : حب أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما . ذكره ابن فرحون للملكي .
وقد من الله تعالى بذلك على من صغرى إلى الآن فليس عمل أحب إلى قلبي من ذكر
الله تعالى والصلاة على سيدي رسول الله ﷺ ، وحب الإمامين أبي بكر وعمر والصحابة
اجمعين ، فنسأل الله تعالى الدوام على ذلك إلى الممات .

وقد كان سيدي أحمد بن الرفاعي رضي الله تعالى عنه يكثر الصلاة على سيدنا
ومولانا رسول الله ﷺ ، ويبحث أصحابه على الإكثار منها ، ويقول :
بلغنا أنها تجيز صاحبها على الصراط بسرعة .

وقد حدث قوم في هذا الزمان يدعون طريق الفقر ويثقل عليهم الصلاة على رسول الله
ﷺ وربما حضر أحدهم مجلسنا فيصير ساكتا ، ويقول : هذه ليست من طريق شيخنا ،
وفي ذلك توبيخ لشيخه وشهادة عليه بأنه كان لا يكثر من الصلاة على رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وذلك من علامة النفاق كما ورد فكأنه يقول إن شيخني كان منافقا .
فليحذر الفقير من مثل ذلك وليصل على سيد الخلق على الإطلاق ﷺ قايما وقاعدا
ومضطجعا . وإن لم يكن ذلك من طريقة شيخه .

وقد سمعت سيدي محمد السروي رحمه الله يقول :
ثم في الفقرا من هو أكثر أعمالا من الشيخ نور الدين الشوني واسكنه فاق أقرانه
باستناده إلى سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ فأكرم كما يكرم الناس غلام الأمير تبعا
للأمير انتهى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم محبتهم لتحصيل مطابقة ما يروونه في النوم
لما أخبر به رسول الله ﷺ من المغيبات

كعذاب القبر ، وأهوال يوم القيامة ، بحيث يصير ذلك عندهم كأنه رأى عين
وذلك لأن الإيمان الذوق لا ينحجب عن صاحبه ، وإذا انحجب عن الإنسان إيمانه ،
فربما وقع في الذنوب العظام

وفي الصحيح : « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً ^(١) » الحديث
فذكر الرضا الذى هو من أعمال القلوب دون القول فافهم .

وفي القرآن العظيم : « أفن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد ^(٢) منه » .
وعذا الخلق قد صار عزيزا في هذا الزمان وما كان غالب الناس إلا حوسبوا ، وفرغوا
من الحساب لكون إيمانهم غير ذوق فالحمد لله الذى من علينا بالإيمان الذوق والحمد
لله رب العالمين .

(١) وتام الحديث (ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد
رسولا) رواه أحمد في مسنده ومسلم في صحيحه والترمذي في سننه كلهم عن العباس
بن عبد المطلب .

(٢) سورة هود آية : ٢٨ .

ومن أخلاقهم : مجاهدة نفوسهم بالجوع والسر المفرطين

واتعابها في الأعمال الشاقة في بداية أمرهم بطريقة الشرعى ،

ثم إذا بلغوا النهاية المعروفة بين القوم ، فن الأدب مع الله تعالى الشفقة عليها ، والرحمة لها ، وإطعامها الطعام اللذيذ ، وتنويمها على الفرش ، وهدم تعاطى الأعمال الشاقة إكراما لها من حيث أنها بلية الله تعالى وأمتة وعبدته وكأنه جردها عنه ، وجعلها كالجارله ، وهو غيرها كما هو مقرر في علم المعانى والبيان ، وإلا فهو واحد في نفس الأمر كما يقول الإنسان قالت لى نفسى : كذا فقلت لها : لا وهى الفائلة أفعلا أولا تفعل لا غيرها .

وقد سمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

إنما سوح المريد بمجاهدة نفسه لكونه يرى نفسه لنفسه ، ثم إذا بلغ مقام الكمال شهد نفسه ملكا لربه ، وقد وصاه الله تعالى عليها بقوله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » ونهاه عن ظلم نفسه ، وعن تحميلها فوق الطاقة عادة .

فعلم أن ظلم النفس في مرضات الله تعالى بتحميلها من العبادة فوق طاقتها محمود في البداية مذموم في النهاية إذ الكمال يجب عليه أن يعطى كل ذى حق حقه ، وهو يعلم أن في مجموع ذاته من يطلب الله تعالى ، ومن يطلب الآخرة ، ومن يطلب الدنيا ومن يحب الراحة ومن يحب النوم وهكذا فيه على كل ذى حق حقه .

وقد بلغنا أن معروف الكرخى بردت له زوجته كوز ماء في الصيف ، فنام فرأى جارية من الحور العين .

فقال لها : لمن أنت فتالت : لمن لا يشرب الماء المبرد في الكيزان .

فلما استيقظ تناول الكوز وضرب الأرض ، فسكبه قال السرى السقطى : فلقد رأيته في الأرض حتى عنى على خزفه التراب لم يرفع من الأرض ، فلما هرضوا هذه الواقعة على الشيخ محي الدين قال : كان حاله في تبريد الماء أكل من حاله حين شرب

الماء الذي لم يبرد لإعطائه نفسه حقها الذي أمره الله تعالى به في نهايته ، ولكنه فعل ذلك لأجل تلامذته لترقى همتهم بعدم تبريد الماء انتهى .

ثم هل ما قررناه من أن ظلم النفس في مرضات الله تعالى محمود يفهم معنى قوله تعالى « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ^(١) » أى بالتعب في مرضاتنا ، وإلا فالظالم لنفسه بالمعاصي لا يكون مصطفى لله تعالى فافهم .

وقد بلغنا أن حورية جاءت إلى سيدى عبد العزيز الديرينى يقظة وقالت له :
قد اشتقت لك أما شبت من الإقامة في هذه الدار .

فقال : بلى ولكن حق ينتهى الأجل .

ثم قال لها : ارجعى إلى دارك انتظرينى هناك ، فقد قرب الانتقال ، فمات بعد سبعة أيام ، وهذه من جملة كراماته رضى الله عنه والحمد لله رب العالمين .

(١) سورة سبأ آية : ٣٢ .

ومن أخلاقهم : كثرة التسليم لولاية الأمور وحملهم على
الحامل الحسنة بطريقه الشرعى .

من حيث كونهم أتم نظرا من أمثالنا ، فإذا ركبوا يهوديا أو نصرانيا مثلا فرسا
لا يبادر لإنزالهم ، ولا نقول : الله أكبر يا كلاب ، فربما كان الحكم إنمّا أركبهم
الفرس لمصلحة تعود على المسلمين لا تعرفها نحن ، فليفتش من يريد إنزال الكافر عن
الفرس عن سبب ذلك ، فإن رآه بأمر الحكم أو تقريرهم سكت ، وإن رآه يغير أمرهم
وتقريرهم أنزلهم ، فقد يسكونون علموا بذلك وأقروه لمصلحة تعود على المسلمين .

وقد رأى فقير فرنجيا راكبا فرسا فأنزله وكبر عليه ، فرفعهوه إلى نائب مصر
فضرب الفقير ضربا مبرحا ، وقال له : ايش أدخلك فى أمر لاندري عاقبته فأرسلت
أنا إلى شخص من خواص أصحاب الباشاه ، وسألته عن سبب اكرام هذا الفرنجى
فقال : لأنه من خواص ملك الفرنسية ، وإن عندهم من المسلمين نحو عشرة آلاف أمير ،
وقد أوصاه الملك وقال له : إن أكرمك نائب مصر ، فأرسل أهلنا نكرم الأسرى
الذين فى بلادنا ، وإن لم يكرمك أهناهم واستعملناهم فى الأعمال الشاقة وعذبناهم انتهى .

فالزم ياخى الأدب مع الحكم ، فإن لم فى أفعالهم حكما لا يطاقونك ، وأمثالك
عليها كهذه القضية والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلافهم : عدم التعصب في هدم الكنائس والبيع

إلا بعد مشاورة ولاية الأمور في ذلك خوفا من إثارة فتنة أعظم من بقاء تلك الكنيسة أو الببغة ، وقد خالف بعض العلماء ما قلناه ، وأراد هدم بيعة لليهود بمصر ، فمنعوه الإفتاء والتدريس والوعظ ، وأرادوا نفيه من مصر ، فحصلت فيه شفاعاة ، فتركوه وأفى العلماء بأن في مثل ذلك افتياتا على الإمام الأعظم ونوابه .

فليشاور من يريد هدم كنيسة ولاية الأمور في ذلك ، فإذا سمحوا له بالهدم ، فهناك يشرع في الهدم بتأييد الولاية له ، فإن ولاية الأمور إذا كانوا مضادين لأعظم الأولياء اتعبوا سره ، وغلبوه لأن الله تعالى جعل بيدهم الحبل والربط والولاية والعزل في هذا الوجود .

وقد قال لي أمير مرة : لا يسكل تصريح الولي في هذه الدار إلا بما افتتنا له اللهم إلا أن يكون له حال يحميه من تأثيرنا فيه ، فهذا لا يحتاج إلى مساهدتنا له وإيضاح ذلك أننا إذا كنا عليه أتعبنا سره في التوجه إلى الله تعالى في إهلاكنا ، وربما لم يجبه الحق تعالى إلى ما سأل فيدوم عليه الأذى انتهى

وقد سمعت سيدي على الخواص رحمه الله يقول :

إذا قربت الساعة أمك الله تعالى التصريف عن أهل الحق حتى تقع الأمور التي وعد الله تعالى بوقوعها بين يدي الساعة ، فيصير الولي يتوجه إليه في عزل ذلك الظالم ، فلا يجاب ، فعلم أنه يشترط الإذن من الله تعالى للتوجه والإستحقاق لمن يريد يدفع عنه ، وذلك بأن يكون الشيخ عارفا بالمفادير المعلقة تائبا هو والمشفوع فيه من جميع الذارب آكلا من الحلال دون الشبهات ، وإن لم يحصل هذا ، الشروط فهما مغلوبان .

وسمعت أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله يقول :

يشترط في من يقوم في نصرة الدين أن يكون مخلصا في ذلك لا يدخله هوى نفس في

ذلك يأكل من الحلال ، وإلا فن يأكل الشبهات لا يصح له تأييد من الحق عز وجل ،
فيخذل ضرورة ، وقد كان شخص يقوم في إزالة المنكرات في بلاد الهند ولا يقوى أحد
على معارضته ، فعملوا عليه الحيلة ، وأطعموه من الشبهات ، فبطل عمله ، وذلك أنه لما
عارض السلطان أمر كل واحد من الرعية أن يأتي بببيضة ، حتى ذلك القائم في إزالة المنكر ،
فلما أتوه بالبيض خلطه ، ثم فرقه على الناس ، فأكل بعضهم بببيضة أخيه ، فبطل عملهم
ودعائهم عليه ، ثم شرع في ظلمهم ، وصاروا يدعون عليه فلم يجابوا ، فعلم أن من أكل
من الحرام أو الشبهات ، أودخله هوى نفس خذل لأنه حينئذ إنما هو ساع في نصرة
نفسه وهواه لا في نصرة الدين ، وما وعد الله تعالى بالنصر إلا من نصر دينه خالصا
مخلصا اتى .

فحرر يا أخى نيتك في نصرة الدين بهدم الكنيسة مثلا ، ثم إهدم بأمرولى الأمر
وإلا عرضت نفسك للخذلان والنفي والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم إفتاؤهم بالنشيد لمن استفتاهم من المنورعين

وبالتسهيل لمن استفتاهم من العوام كالغلايين

كما درج عليه الأئمة المجتهدون وكل اتباعهم كسيدي هبة العزيز الديري والشيخ
عبد الدين بن جماعة والشيخ شهاب الدين بن الأقطع البرلسي^(١) والشيخ علي النبتيني
الضريير واضراهم رضى الله تعالى عنهم .

وقد روى الإمام القشيري بسنده إلى الإمام أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه قال:

دخلت أخت بشر الحافي على الإمام أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنهما .

فقلت له . أنا نازل في سطوحنا في القمر فيمر علينا مشاعل الولاة ، فتزداد ضوءاً

على ضوء القمر ، فنلبس ذلك الثوب الذي نزل منه خيط على تلك المشاعل .

فقال لها : من أنت عافاك الله تعالى ؟ قالت . أخت بشر الحافي .

فقال الإمام أحمد لها : من بينكم يخرج الورع الصادق لا تلبسى ذلك الثوب .

وقد سئل الحسن البصري رضى الله تعالى عنه عن شخص يأكل من جوائز السلطان

هل يخرج بذلك من الورع ؟ .

فقال : إن كان ممن يقتدى به خرج عن الورع .

(١) يقول عنه الإمام الشعراوى ، ومنهم الإمام العلامة المحقق الشيخ شهاب الدين البرلسي

الملقب بعميرة الشافعى ، رضى الله عنه صحبته نحو عشرين سنة .

وكان عالماً زاهداً حسن الأخلاق والشيم ، له ممت حسن ، واثبت إليه الرياسة في تحقيق

المذهب ، ولم يزل يدرس ويفى الناس حتى مرض مرض الموت وكان مرضه بالفالج ، فأقام

به نحو سنة ثم مات .

أخذ العلم عن جماعة منهم شيخ الإسلام الشيخ عبد الحق السنباطي ، ومنهم شيخ الإسلام

برهان الدين بن أبي الشريف ، ومنهم الشيخ نور الدين المحلى ، رضى الله تعالى عنهم أجمعين

وكتب على مؤلفاتي أحسن كتابة رضى الله تعالى عنه .

وسأله جماعة من المتعبدين الذين يأكلون من عمل يدهم وقالوا : قدغبنا في الحصاد بالاجرة يوما ، وكان لنا فرن تهدم بابه في خرابة ننام فيها ، ثم جئنا فوجدنا شخصا لا نعرفه أصلىح لنا باب الفرن افنخبز فيه بعد ذلك ؟ .
فقال : لا .

وسأله شخص يأكل من صيده للسماك فقال : انى كثيرا اصطاد سمكا في الدجلة فنفض فيها جندي سفرته أفأكل من ثمن السمك الذى اصطاده بعد ذلك ؟ ؟ .
فقال : لا تاكل من ذلك .

وسأله شخص آخر مرة وقال : إن لى مزرعة ورثتها من أبائى الوريين ولى فيها بر وبقرة آكل من لبنها وثوران أحرق عليهما ، فاشتغلت فى صلاتى يوما عن حفظ البقرة ، فخرجت من مزرعتى ، ومشيت فى طين جارى فى وحل ، ورجعت وقوائمها متلطخة بطين أرض جارى ، فاختلط بطين أرضى فأكل من زرعى فيها بعد ذلك ؟ .
فقال : لا .

ولوان غير المتورع سأله عن مثل هذه الأمور لأفتاه فيها بالترخيص .
قلت ومما يقرب من هذه المسألة مسألة اخراج الكتب الموقوفة فى مكان وشرط واقفها أن لا يخرج منه إلا لترميم ونحوه من مصالحها ، فمن تورع طالع فيها فى مكانها ، ومن ترخص أخرجها وحفظها من الضياع .

وقد استقى الشيخ جلال الدين السيوطى رحمه الله تعالى عن جواز نقل الكتب من المدارس التى شرط واقفها أنها لا يخرج منها ؟ .

فقال : الذى أقول به الجواز ، وقد رأيت شيخنا شيخ الإسلام البلقينى ^(١) وشيخ

(١) يقول عنه الإمام الشعرانى ، ومنهم الشيخ الصالح الجمع على حاله الشيخ شهاب الدين البلقينى رضى الله تعالى عنه ، كان رضى الله عنه غريبا فى أقرانه ، لكثرة زهده وورعه ، وحسن خلقه وحلاوة لسانه وضبطه .

الإسلام يحسب المناوي يستميران الكتب من الخزانة المحمودية ويمسك الكتاب عندهما
سنتين عديدة ، وهما إمامان المقتدى بهما ، فانهما كانا من الفقه بالهل الأعلى ، حتى بلغا
رتبة الاجتهاد في المذهب ، وكان المناوي صوفيا له أحوال وكرامات ، فلولا رأيا ذلك
جائزا ما فعلاه .

وفي قواعد الشريعة أنه يجوز أن يستنبط من النص معنى يخصه ، فإذا كان هذا في
نص الشارع ففي نص الواقف أولى ، فيقال هنا : أن مقصود الواقف بشرطه إنما هو تمام
النفع ، وتتمام الحفظ ، فإذا وجد من يحتاج إلى الانتفاع بكتاب منها حال تصنيفه لكتاب
العلم ، ولا يمكنه الانقطاع لأجل ذلك في مكان الوقف ووثقنا بدوام حفظه ، وصونه
جاز الإخراج له ، وكان ذلك مستثنى من المنع تخصيصا عموم لفظ الواقف بهذا المعنى

أخذ العلم عن عدة من العلماء الأعلام ، ومن أجلمهم العلامة الشيخ شهاب الدين الرمل
الأنصاري رضي الله تعالى عنه ولازمه ملازمة شديدة في أجازة بالإفتاء والتدريس فدرس
وأقنى في حياته ، وانتفع به خلائق حتى كانت حلقة أوسع من حلقة شيخه .

وأخذ طريق القوم عن سيدى على المرصفي ، ثم عن تلميذه الشيخ نور الدين الشوفي
شيخ مجلس الصلاة على النبي ﷺ في جامع الأزهر ، وأحبه غاية المحبة واستخافه في
مجلسه في حياته وبعد مماته ، وقدمه على جميع أصحابه وقال ، ما قدمته في المجلس إلا بعد
مشاورة النبي ﷺ ، واعتقد علمه وصلاحه الخاص والعام ، واشتهر في مصر وقراها
والشام ، والحجاز ، والروم .

وصحبه رحمه الله تعالى نحو أربعين سنة ، فما رأيت عليه شيئا يشينه في دينه ، وما ذكره
أحد بسوء إلا ورآه تلك الليلة وعليه ثياب خضر وبيض نقية الخضرة والبياض ، فأعرف
بذلك كذب الحاسد وصدق الشيخ شهاب الدين وشدة إخلاصه .

وما رأيت قط النفث إلى وظائف الفقهاء ، بل تربى على الفقه والورع والزهد في الدنيا
حتى أته وهي راغمة .

مات رضي الله عنه في ثاني صفر سنة ستين وتسعمائة ، ودفن بالقرب من تربة الجامع
الأزهر رحمه الله تعالى .

المستنبط كما تخصص قوله تعالى : « أولامستم النساء ^(١) » استثنى منه المحارم بالمعنى المستنبط ، وهو الشهوة ولادليل لاستثناء المحارم من آية أو حديث سوى هذا الاستنباط ، فكذلك هذا قال .

وقد ذكر الحافظ عماد الدين بن كثير في تاريخه : ان علماء بغداد منعوا الفقهاء في بعض السنين من قراءة الأطفال في المساجد إلا شخصا واحدا كان موصوفا بالصالح والخير ، قاستنوه من المنع ، وانهم استفتوا الماوردي من أئمتنا والقندوري من أئمة الحنفية ، وغيرهما ، فأفتوا باستثناءه ، واستدلوا بأنه عليه السلام : أمر بسد كل خوخة في المسجد الاخوخة الإمام أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، فقاموا استثناء هذا الرجل على استثناء خوخة الإمام أبي بكر .

قال : وهو استنباط دقيق لا يدركه إلا الأئمة .

قال : وقد استندت إلى قولهم حين استفتيت قديما عن أبتية القرافة ، فافتيت بهدمها كلها كما هو المنقول إلا مشاهد الصالحين قياسا على ما أتى به الماوردي والقندوري .

لسكن في المسألة أمران ينبغى التفطن لهما .

أحدهما : أنه لا يستعار من هذه الخزانة إلا ما لا يتيسر وجوده في غيرها ، ليس فيه شرط يمنع الخروج .

الثاني : أن لا يمسك الكتاب عند المستعير إلا بقدر الحاجة فقط ، ومدركه هذين الأمرين أن ما جاز للضرورة يتقدر بقدرها انتهى .

وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب المنن الكبرى في الباب الرابع عشر منها فراجعه والحمد لله رب العالمين .

(١) سورة المائدة آية : ٦ .

ومن أخلاقهم : عدم تقلقهم من مونة من أقام عندهم من المجاورين

ولو بلغوا عند أحدهم ألف نفس ، وأكثر لا يستثقل منهم لأنه يشهدان رزقهم على الله تعالى لا عليه هو ^(١) ، وغاية أمره أن الله تعالى جعله كالوكيل الذي يفرق على العبيد ما حده له سيدهم ، فلا يصح أن يعطيهم من رزقه ذرة واحدة وإنما الحق سبحانه وتعالى يجعل ما يشاء من الجود في قلب من يشاء من عباده بقدر حظه ونصيبه ، وكثرة الواردين عليه ، والقاطنين عنده يعمر على معرفة قدر مرتبته في الجود قلة وكثرة .

فلا تظن يا خي أن الفقرا كغيرهم يتبرمون من إقامة الضيف عندهم طويلا قياسا على غيرهم .

وإن حصل من فقير صادق ثقل من إقامة أحد عنده ، فإنما ذلك لقلة استحقاق الفقرا القاطنين عنده أو الواردين عليه لعدم إقبالهم على العبادة أو خروجهم عن الاستقامة لا غير ، فيدبرون عن الله تعالى ، ويطالبون الشيخ بالقيام بهم على جاري العادة السابقة أيام استقامتهم ، فلا يقدر الشيخ على ذلك لأن الحق تعالى إنما يسخر لعبده الرزق ويسم له عليه إذا كان مقبلا عليه كما أشار إليه حديث « فكم ممن لا مطعم له ولا مؤوى » ، مع أنه تعالى يرزق الكافر ، وإنما المراد لا كافى له بسهولة ولا مؤوى له كذلك فافهم والحمد لله رب العالمين .

(١) بكى سيدنا علي بن أبي طالب يوما فقيل له : ما يسكيك ؟ فقال : لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام ، وأخاف أن يكون الله تعالى قد أهانتني .

وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : زكاة الدار أن يتخذ فيها بيت للضيافة . وقال ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا وأشتاتا) : إنهم كانوا يتخرجون في أفن يأكل أحدهم وحده ، فرخص لهم في ذلك .

ومن أخلاقهم : حسن سياستهم لقاصد الأمير إذا اتاهم بشيء من الدنيا يفرقونه على الفقرا أولا أنفسهم

فلا يقولون له فلوس استاذك حرام ، فلا نقبلها ، لأن في ذلك تنفير للأمير عن الاعتقاد في طائفة الفقرا وربما كذب الفقير في قوله إن ذلك حرام لأنه ليس كل شيء يدخل يد الفقير يكون حراما ، وإنما السياسة أن يقولوا للقاصد سلم لنا على أسناذك ، وقل له الفقرا لا يصحبون أهل الخبر من تلك الأشياء يأخذونه منهم ، وإنما يصحبونهم الله تعالى لأجل شفاعته في مظلوم أو ليساعدهم في إزالة منكر حدث في بلادهم ، ونحو ذلك .

وقد أرسل لي مرة عامر بن بغداد مائة دينار هدية ، فرددتها عليه وقلت له : هديتي عنديك قبل شفاعتي في المكروبين ، فإن ذلك هو الذي ينبغي وينفعك ، وينفع للمكروب ^(١) .
فأبى أن يأخذها .

فقلت : له قبول هديتك يضرني ، ويضرك ويوقف دعائي لك عن القبول إذا حصلت لك شدة .

قرضى هني بذلك رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

ثم وإن قال القاصد إنما أرسل لكم استاذي ذلك لأجل كونه مريضا مثلا ، لندهوا له قالوا له :

الدعاء بلا هوض أرجا للإجابة وكل فقير ينبغي له الدعاء لولاة الأمور سواء أعلم بذلك الأمير أم لا .

(١) قال الله تعالى : (من يشفع شفاعته حسنة يسكن له نصيب منها) .

وعن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال : (اشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان نبيه ما أحب) .

وقد أرسل لى الباشاء محمد دراهم حين مرض ولده بالطاعون ، وحين مرض هو فى المحرم سنة اثنين وستين وتسماية ، فرددت ذلك ، بأبى قاصده ان يرد إليه بذلك .
فقلت له :

لا يخلوا إما أن يكون أجل المريض حضر فلا أقدر على زيادته أولم يحضر أجله ، فما عملت له شيا استحق به الدراهم وأن كان سبق فى علم الله تعالى أن خلاصه من ذلك المرض يسكو . معلقا على الدعاء ، فقد اخترت أن يكون أجرى على الله تعالى .

فقال : تذبح للفقرا قربانا .

فقلت له : ليس لنا حاجة بذلك اللحم فإن اللحم عندنا كثير .

فقال : يرسل الباشاء يعمل عندكم مولدا .

فقلت له : إذا خلص من مرضه أنا أعلم له مولدا من عندى محبة فيه وفرحا بسلامته فولى وهو راض عني انتهى فتعلم

ياأخى مثل هذه السياسة ، وأعمل بهاء ، وإياك أن تعترض على من يرد مال الولاية ، وتحمله على محامل سيئة ، فتخطى طريق جمهور الساف ، والخلف من الصالحين ، وإذا كنت أهوج ، فلا تطلب من المستقيم أن يعوج معك بل تأس أنت بالمستقيم ، وانبعه أن أردت أن نمشى على أثار الصالحين .

وقد بلغنى أن جماعة ممن أخذوا من ذلك المال اعترضوا على ردى المال من حيث أنهم تميزت عنهم فى مصر ، وكان الأولى لهم مدحى على ذلك ، وذم أنفسهم ، فإن مل الولادنى هذا الزمان لا يخفى على عاقل حاله ، ألا هؤلاء الفقرا تورعوا ولا هم سكنوا عن تجريح من تورع ، وأنا أعلم منهم أنى لو أخذت من ذلك لأنكروا أيضا على ، وصاروا يقولون : مابقى أحد يتورع ، ويدعون نفوسهم ، فهم يعترضون بكل حال ، فنسأل الله تعالى أن يتوب علينا وعليهم من كل ذنب والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا دخلوا على أمير يشفعون عنده في انسان استحق التعزير
مثلا بضرب أو حبس وأخذ مال أن يجعلوا اللوم على ذلك المذنب
ويصوبوا رأى الأمير في حبسه أو ضربه أو تجريسه

ويقولون إنه يستحق أكثر من ذلك ، ثم إذا سكنت نفس الأمير من الغضب على
ذلك المذنب سارقه بالجلم شيئا فشيئا لاسيما أن كان المشفوع فيه من ذوى الهيات .
ويقولون له :

مثلكم من يتخلق بأخلاق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في افالة العثرات وقد
قال صلى الله عليه وسلم « اقبلوا ذوى الهيات عثراتهم » .

ثم إن رأوا الأمير مصمما على عدم العفو عن ذلك الشخص .

قالوا له : يا أمير اعطنا منديل الامان ، فإذا أعطاه لهم

قالوا له في اذنه بلطافة وتبسم : يا أمير لا بد أن يكون لك ذنوب وقعت فيها ، فاجعل
العفو عن هذا الشخص ذنبا من ذنوبك ، وا- يغفر الله تعالى منه يغفر لك .

فلعله يرق له ، ويعفوا عنه .

واياك يا خي أن تدخل على أمير دهقان نشفع عنده ، لا وأنت عفيف عن مال ذلك
الأمير إذا كان دهنا فإياك يبادر الفقير الشافع عنده بالتعظيم ، والهدية ، فيبرد قلبه من
الشفاعة ، وربما انقلب ذلك الشافع على المشفوع له كما وقع ذلك من محمد بن بغداد ومن
أخيه عامر مع فقيرين دخلا يشفعان عندهما ، فأخذ أحدهما وصولا بقمح وعسل ودجاج ،
وغير ذلك وأخذ الآخر بغلة وعدتها ، فركبها من حوشه ، وخرج بها يحط على المشفوع
خيه ، فليحذر الفقير الشافع من قبول شيء ، فيبيع دينه بدنياه الحرام .

وقد صار هذا الأمر متعارفا بين غالب الولاة ، فإذا دخل عليهم عالم أو صالح ، وأغلاظ
عليهم في الفيل بقول أحدهم ، لجماعته : هذا الوقت ألقي عليه الإكسير ، فينقلب معي على

المشفوع فيه ، فيصبرون يضحكون على ذلك الشافع زمانا ، ويهون في أعينهم كما وقع
لقاصدي مع ابن بغداد ، فأنى أرسلته مع مظلوم ، فلما وصل إليه كتب له وصولا بعسل
وقح ، ثم وضع ذلك المظلوم في الجزير بحضرته ، وهو ساكت لأجل قبوله هديته ، فحظف
بذلك لسانه انتهى

ولو ان قاصدي كان تعفف ، فربما لم يضع ذلك المظلوم في الجزير ، ولكن من أهانه
الله تعالى بمحبته للدنيا ، فحاله من مكرم .

وقد ظفرت طول عمرى بنقيب صادق اسمه إبراهيم الصندي صطفى رجا الله تعالى ،
فكث طول عمره لم يأكل للولادة مالا ، ولم يشرب لهم ماء ، ولم يقبل لهم هدية ، وكان
يخلص منهم المظلومين إلى أن مات .

فياك يا خي من مثل ذلك ثم اياك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة صبرهم على مجالسة الثقلاء

وأظهارهم أنهم خفاف على قلوبهم لأن لا يلحقهم خجل ثم إذا قام الثقل من عند أحدهم لا يمكنون أحدا يذكره بسوء ولا أن يقول : إنه ثقل فضلا عن أن ينطق هو بذلك .

وكان أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول للثقل :

حصل لنا بر كنكم وفوائدكم فلا تقطعونا من المجالسة .

فقالوا له فى ذلك فقال :

أتحمل عن اخوانى ثقل مجالسته لأن غيرى ربما كان لا يقدر على احتمال كلامه .

وروى الجلال السيوطى رحمه الله تعالى : أن أبا هريرة رضى الله تعالى عنه كان يقول إذا جلس إليه ثقل :

اللهم اغفر لنا وله وارحنا منه .

وكان حماد بن سليمان يقول : كل من رأى نفسه ثقيلًا كان خفيفًا وبالعكس .

وكان حماد بن سلمة إذا رأى ثقيلًا قال : ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون .

وكان ابن شهاب الزهري يقول : إذا طال جلوس الثقل عندكم فاصبروا فإنها رباط فى سبيل الله .

وكان بعضهم يكرم الثقل ، ويقول الاجتماع مقدر لا يدفعه تعبيد فى وجهه ، ولا زجرى له هن العود إلى

ومزح الإمام أبو حنيفة مع الأعمش يوما ، وقال له : مم عمشت هيناك .

فقال له : من النظر إلى الثقلاء مثلك ، وكان له إدلال عليه ، فضحك أبو حنيفة رضى الله عنهما .

وكان الأصمعى يقول : جلس عندي ثقل ، وأطال الجلوس ، ثم قال لعلى قد أضجرتكم

واثقلكم فقلت له : أجل ثقلا فوق ثقل فقال : إني راحل فقلت له : العجل ثم العجل ثم العجل يا جبلا من جبل في جبل فوق جبل .

وكان شيخنا الشيخ أمين الدين إذا كان جالسا ، ورأى ثقيلا يقصد الجلوس عنده يغلق باب خلوته عليه أو يطلع البيت ، ويقول : أنا رجل حديد المرارة لا أطيق أسمع كلام ثفيل انتهى .

فقد حكيت لك يا أخي أحوال القوم مع الثقلاء وإن من الناس من يصبر على مجالسة الثقلاء ومنهم من لم يصبر فكن يا أخي مع الصابرين فإن الله تعالى معهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة الشفقة على الدابة التي ركبوها باجارة أو عارية^(١)

زيادة على شفقتهم على الدابة التي هي في ملك أحدهم عادة
فلا ينبغي لأحدهم أن يضربها بسوط إلا بقدر تأديبها ، ولا ينخسها بجديده ، حتى
يخرج دسها ، ولا يحملها فوق طاقتها ، ولو أذن صاحبها في ذلك ، فإنه قليل الدين .
ولا يجوز له أن يستأجرها ليركبها وحده منفردا ، ثم يحمل معه خرجا أو بردف معه
صاحبه من غير علم صاحبها .

وكان أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله إذا استعار دابة ليركبها يوما لا يأكل ولا
يشرب بعد استعارتها ، ويقول :

إن صاحبها أذن لى فى ركبها ، وبطنى جاج ، والأكل والشرب يزيدنى ثقلا لم
أستأذنه فيه ، فلا يزال جميعا عطشانا ، حتى يرجع آخر النهار .

ورأيت مرة يأكل وهو راكب فنبهته على ذلك فقال : إني دخلت بيت الخلا بعد
أن استعرتها ولم يغب عن ذهني ما نهيتني عليه ، ولكني آكل دون ما نزل منى في
الخلا انتهى .

وكل سيدى عبد الميزى الديرينى رحمه الله تعالى لا يحمل معه سوطا إذا ركب حمارة
نفسه ، وإنما يرددها بسكه ويقول : هبهات أن عبد الميزى يحمل من يضربه بسكه ،
فإن من يضرب بهيمة بشيء ضرب في قبره بمثله^(٢) .

وقد أوضحنا الكلام على ذلك أول الباب الخامس عشر من المنن الكبرى
فراجعوا والحمد لله رب العالمين .

(١) ويمكن تطبيق ذلك على جميع الأمور والأشياء التي تستعار فإن بعض الناس
لا يهتمون بما يستعرون قدر اهتمامهم بحاجاتهم .

(٢) وفى الحديث : عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن
من اتخذ شيئا فيه الروح غرضاً . متفق عليه .

ومن أخلاقهم : مواظبتهم على الوضوء ليلاً ونهاراً كلما أحدثوا
وكثير ما يتوضؤون على طهر ايزدادوا به نورا على نور كما جرب وقيل إنه حديث .
وقد بلغ سيدى تاج الدين الذى كرمه الله تعالى فى تقليل الأكل إلى أن صار يتوضأ
كل أسبوع مرة ، وكان آخر امره يتوضأ كل أسبوعين مرة .
والعمل بهذا الخلق متعذر جدا على من يأكل كثيرا من الفقرا ، وذلك مؤذن بقلة
مجالستهم لله تعالى لأن من يجالس الله تعالى يترك استعمال كل ما يفرقه عنه أو يحجب عنه ،
والحدث من جملة ما يحجب عن الله تعالى بدليل عدم صحة الصلاة معه .
وكذلك من شأنهم أنهم لا يقرؤون القرآن أو الحديث أو العلم أو يذكرون الله تعالى
أو يدخلون المسجد إلا على طهارة رضى الله تعالى عنهم أجمعين ^(١) .
ومن خالف ما ذكرناه ، وترخص فى قراءة القرآن وما بعده من الحديث فهو خارج عن
طريق القوم والحمد لله رب العالمين .

(١) وفى الحديث : عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من
توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره) رواه مسلم .
وعنه قال : رأيت رسول الله ﷺ توضأ مثل وضوئى هذا ثم قال : من توضأ هكذا
غفر له ما تقدم من ذنبه وكانت صلاته ومشيئه إلى المسجد نافذة) رواه مسلم .

ومن أخلاقهم صحبة الحشاشين وإلانة القول لهم

وأطعامهم الحلاوة والكنافة المبسوسة بالقطر ، وإظهار المحبة لهم ، وعدم العبوسة في وجههم ، ثم إذا مال أحدهم إليهم بالمحبة يصير أحدهم يسارقه في تبغيضه في تلك الكتب شيئاً فشيئاً إلى أن يقع بغضها في قلبه إن شاء الله تعالى .

وقد قدمنا في أوائل هذا الكتاب إن أصحاب الكتب ضالة كل داع إلى الله تعالى ، فهم لا ينفرون من أعوج ، ولا من مستقيم رضي الله عنهم أجمعين والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة تواضعهم لبعضهم بعضا

ورؤيتهم نفوسهم أقل من تلامذة أقرانهم وأنقص في المقام .

وقد كان الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله يقول :

من طابت نفسه أن يقرأ على أحد من أقرانه أو يتلمذه ، فقد خرج من رهونات نفسه فإن ذلك من أعلا رياضة تكون للنفس ، وهو أعلا من الجوع والعري والسر والعملة ، ونحو ذلك .

وهذا الخلق قد صار من أغرب الغريب ، حتى أن بعضهم ربما ترك زيارة أخيه خوفا أن يقول الناس أن المزور أعلا من الزائر وهذا أمر خارج عن سياج أهل الطريق ، فقد زار صلى الله عليه وسلم وأكابر الصحابة الفقراء والمساكين مع علو مقام الزائر على مقام أعظم ملوك الدنيا بما لا يتقارب ، ولم يعتدروا بعذر .

فزر ياخي إخوانك وأقرأ عليهم رسائلهم التي ألفوها فإن رأيت كلامها محررا ، فذاك ، وإلا فنبههم على ما فيها بلطف وحسن سياسة ، وإن كتبتها عندك ، وأوهمت الناس حاجتك لمنزلها ، فقد باغت الغاية في رياضة النفس .

فاعرض ياخي هذا الأمر على نفسك قبل أن تتصدر للمشيخة ، فإن رأيت نفسك منشرحة لتلمذها لأحد من أقرانها ، فاجلس ، وإن انقبضت نفسك من ذلك ، فاتخذك شيخا يربيك ، ويزيل منك الرعونات والاضلات وأضلات ، الله الله في ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : زيادة التعظيم لكل من اختفى من أقرانهم ونفرت عنه تلامذته
لأنه قد مشى على قواعد أهل الكمال لأن الكامل الصادق لابد أن يختفى بعد
الشهرة ، وبذل بعد العز .

وإيضاح ذلك أن الفقير ما دام ناقصاً ، فهو يطلب الظهور ، والشهرة ، فإذا حصل
له ذلك حصل له العز والجاه بين الناس ، فإذا أخذ في الكمال رأى أن الكمال له في هذه
الدار إنما هو بالذل والإنيكسار ، والخفلة ، فصار يسكره الشهرة ، والعز بالطبع^(١) .

وقد كان الشيخ أبو المواهب الشاذلي رحمه الله يقول : إذا بلغ الفقير مقام الكمال في
العرفان صار غريباً في الأكوان لا يعرفه إلا من أشرف على مقامه لأنه يصير أعماله كلها
قلبية ، لا يكاد يظهر شيئاً من أعماله إلا في حال يقتدى به فيه لا غير ، وربما ظن بعض من
لا علم عنده له بأحوال القوم أن ذلك الفقير الذي اختفى بعد ظهور كراماته ومكاشفاته
قد سلب حاله ، فيحتفرونه ويخرجه عن دائرة القوم ، والحال أنه في أعلا مقامات الكمال .
وقد أخبرني سيدي على المرصفي أن شيخه سيدي محمد ابن أخت سيدي مدين سلك
اثني عشر نفساً ، فلما انتهت سلوكهم قال لهم : إبعثوا عني ، وخلوني أتزود لمعادي ،
واتمياً للموت ، ففارقوا كلهم عنه كلهم ، حتى كأنهم لم يعرفوه ، وصار يخرج إلى السوق
ويشترى حاجته ، ويحمل طبق الخبز والخطب علي رأسه ، ونزع ثياب الفقراء ، ولبس
ثياب التجار إلى أن مات .

فإن قال قائل : أن تسلبك الناس وإرشادهم إلى طريق الأدب مع الله تعالى خير ،
فكيف يكون تركه أكل قلنا له : كلاهما خير ، ولكنهما ، ثم مقام كامل ، ومقام أكل ،
وإرشاد الخلق ، والاشتغال بهدايتهم ، وإن كان كاملاً ، فالأقبال على الله وحده أكل
كما قال ﷺ : « لي وقت لا يسعني فيه غير ربي » ومن عرف تفهيم إذا جاء نصر الله

(١) يقول ابن الجلاء : لولا شرف التواضع لله لكان حكم الفقير إذا مشى أن يتبختر .

والفتح حرف ما أشرنا إليه على أنه ﷺ قد كان أنهى تبليغه، وهدايته للخلق بحسب
القسمة الإلهية ، فلم يبق من آثار رسالته ما يفاضل بينه وبين الإقبال على الله وحده ،
وكذا القول في ورثته فليفهم فاعلموا ذلك أيها الإخوان واعتقدوا الكمال فيمن تفرق
هذه تلامذته ، واختفى وإياكم أن تقولوا فلان سلب فتقعوا في الغيبة له والكذب عليه ،
وتعرضوا للمقت والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن يحفظوا حرمة أخوانهم في غيبتهم فلا يتكلمون
من وراءهم بشيء يستحيون أن يواجهوهم به ، إذا لقوهم

وهذا الخلق قد صار غريباً في هذا الزمان ، فترى أحدهم يذكر أخاه بالسوء ، ويبين
للناس فيه العجز والبجر ، ثم إذا جاء ذلك الأخ يزوره مثلاً يقوم له ويبجله ويمشي معه
إلى باب الزاوية ، ثم يقول بعد ذلك : ايش أعمل هؤلاء لا يرضيهم منا إلا ذلك يعني أنهم
لا يستحقون أن يفعل معهم ذلك ، فيزكي أحدهم نفسه ، ويجرح أخاه ، ولا يخفى ما في
ذلك من النفاق المنافي لطريق أهل الله عز وجل .

وقد وقع لي مع شخص مثل ذلك ، فدخلت عليه على غفلة ، فسمعت يذكر في العجز
والبجر ، فلما قدمت عليه قام لي وأجلسني على فراشه فقلت له : تب من مثل ما كنت
فيه قبل دخولي ، فكبح ، وخجل ، وافتضح بين الناس الذين كان يكلمهم ، وإنما
كلمته بمثل ذلك في الملاء توبيخاً له لينزجر عن مثل ذلك ، ولو علمت منه أنه كان ينزجر
ياسراري له بذلك لأسررت له بذلك .

وقد سمعت سيدي على الخواص رحمه الله يقول كثيراً :

افضحوا إخوانكم في وجوههم حسب الاستطاعة بحسن سياسة ، وناقشوا كل
المناقشة ، وإذا غابوهم فاحلوهم على المحامل الحسنة عند من رأيتموه يذكروهم بسوء ، فإذا
سمعتهم أحداً يقول : كيف يدعى هؤلاء ترك الدنيا وأحدهم يسافر من مصر إلى الروم في
طلب جوالى أو مسموح مثلاً ؟ فقولوا له : قد يكون هذا يقصد بذلك الخفاء بين الناس ،
حتى لا يتميز عن أبناء جنسه الذين يسافرون في طلب أرزاقهم ، أو قد يكون قد اطلع
من طريق كشفه أن له رزقاً في الروم لا يمكن أن يصل إليه إلا بسفرة إليه ، فسافر في
طلب رزقه انتهى .

وقد رأيت أنا شخصاً في بيلاق قال لي : كشف لي هن لقمة في دمياط لا بد لي من
أكلها ، فسافرت إليها ، فلما أقبلت على البر رأيت شخصاً يأكل لحماً فزور بلحمة ،
فألقاها فأخذتها وبلعتها ، فلما بلعتها تحركت نفسي للرجوع إلى بيلاق ، فرجعت من ساعتي ،
وعلمت أن من الرزق ما يأتي إلى صاحبه ومنه ما يأتي صاحبه إليه لا بد له من ذلك انتهى
فاعمل على ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : تحمل الأذى عن كل من قال لا إله إلا الله
محمد رسول الله بطريقة الشرعى

فلا يؤذونه بظواهرهم ولا باطنهم ، فالظاهر كإذائه بالجوارح الظاهرة والباطن كسوء
الظن ، وتمنى السوطة وقد عد العلماء بالله تعالى الأذى للناس من السموم القاتلة ، ولكن
لا يكاد يشعر به كل أحد لاسيما سوء الظن بالأولياء والعلماء العاملين وحمل القرآن الكريم
وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

إياك أن تنقص مقام أحد إلا أن أطلعك الله تعالى من طريق الكشف على سوء
خاتمته التى يبعث عليها من الكفر ، فهناك لا يكون قولك فيه أنه كافر غيبة ، وإما
ما هذا ذلك ، فهو من جملة الغيبة المحرمة بشروطها المقررة فى كتب الفقه ، فالكمال
هو من ينظر فى نقائص نفسه ، ليتطهر منها قبل موته قال الله تعالى : « وفى أنفسكم أفلا
تبصرون ^(١) » انتهى .

ويؤيده قول الشيخ محبى الدين فى الفتوحات المكية إياك يا أخى ومعاذة أهل لا إله
إلا الله فإن لهم من الله تعالى الولاية العامة وهم أولياء الله وإن جاءوا بقرب الأرض خطايا
لا يشركون بالله شيا فإن الله تعالى يلقيهم بمثلها مغفرة ومن ثبتت ولايته حرمت محاربته
فلا تعاد إلا من تحققت أنه عدو لله تعالى وليس ذلك إلا الكافر فهناك تتبرأ منه كاتبرأ
السيد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فى قوله تعالى « فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ
منه » والحمد لله رب العالمين .

(١) سئل سفيان الثورى عن قوله صلى الله عليه وسلم : (إن الله يبغض أهل البيت
اللاحمين) فقال : هم الذين يغتابون للناس ، يأكلون لحومهم .
وذكرت الغيبة عند عبد الله بن المبارك ، فقال :
لو كنت مغتابا أحدا لا غتبت والذى ؛ لأنها أحق بحسناتى .

ومن أخلاقهم : عدم إرسالهم عيالهم في فرح من عرس وختان
إلا أن وثقوا بدينهم في عدم مياهم إلى الدنيا وزينتها

فرب نظرت عيالهم إلى ما على النساء في الفرحة من الزينة فازدرت ما عليها من
الثياب ، وطلبت من زوجها إنه يكسوها الحرير ويابسها الحلى ، فتكاف زوجها
الفقير ما ليس في قدرته أو تكلفه أن يتوجه إلى الله تعالى في أن يحجب عين عياله عن
رؤية زينة الناس ، أو في أن يقلب له مرقعة زوجته أو جبتها الصوف في أعين الناس
حريرا وجواهر كما وقع لسيدى أبي العباس البصير رضى الله عنه ، حين أرسل زوجته إلى
عرس لا امرأة أمير كبير بعد سياقتهم على الشيخ السياقات ، فقال لزوجته حين كرهت
الذهاب إلى العرس بثيابها الرثة : البسى هذه المرقعة وسوف يقابها الله تعالى في هيون
النساء الحاضرات في العرس كالمليمة منسوجة بالذهب والفصوص والمعادن ، فكان الأمر
كذلك فصارت نساء الأكابر كلهن يشهدن تلك المرقعة كالمليمة منسوجة بالذهب ،
والفصوص والجواهر ، حتى انبهرت عقول النساء ، وقالت امرأة الأمير لزوجها :
ما ملك إلا الشيخ ، فإنى رأيت على زوجته حلما مرصعا بالفصوص والمعادن ، فصارت
ثيابا عندها كثياب جوارى المطبخ ، فأرسل أمير كبير يبذل للشيخ في تلك المرقعة
الأموال ، والشيخ يقول له : والله أنها مرقعة وليكن الله تعالى قلبها في أعين الناس كما
أخبروكم سيرة للفقرا بين الأكابر انتهى .

وكذلك وقع لسيدى الشيخ عبد العزيز الديري أن امرأة سيدى محاهد النبراوى
هزمت على زوجة سيدى عبد العزيز ، فدعتها إلى عرس ولدها ، وفرشت لها البسط
والمقاعد المطرزة ، لظنها أنها مثلها في الزينة والفخامة ، فلما دخلت زوجة سيدى عبد العزيز
رضى الله تعالى عنه ونفعنا به عليها وجدت عليها ثوبا خلفا ، ومرقعة ، فطوت البسط
والمقاعد وأرسلتها تجلس عند النساء في المطبخ ، فلما جاء سيدى عبد العزيز يطالب بزوجته
٤٠ - الأخلاق المتبولة

سألها عن حالها ؟ فأخبرته بالخبر ، وأنها طوت بسطها لما رأت ثيابها الخلقة ووضعته عند جوار للطبخ ، فقال لها سيدي عبد العزيز رضى الله عنه : هنا غاية الأكرام والاحسان التي جعلتك عند الطبيب فكل شيء استوى يطعمونك منه ، ثم أخرجها وسافر معها إلى ديرين فقوى عليهما الحر في الطريق ، فجلس الشيخ وقال . لها : اقلعي من هذا القلقيل شيئاً نبني لنا حائطاً منه ونجعل عليه الرءآ ، حتى يميل الغال فقالت زوجته : نعم أنت في الشمس وسخطت على ثيابها ومعيشتها فنام فقامت وقلعت من القلقيل ونظرت إليه ، فإذا هو كله ذهباً ، فاستيقظ الشيخ فوجد عقلها قد انبهر من ذلك ، فقال لها : أن شئت فأحملي لك قلقيلة واصنعي لك حلياً وزينة ، ولكن لا يصير لك نصيب في الآخرة وإن شئت صبرت إلى الجنة فقالت : اصبر إلى الجنة انتهى فلولا أن الشيخ بين أها هذه الكرامة لفسد حالها ثم بعد أن عرفت يأخى ذلك فأرسل هياكلك للأفراح أو أترك ولا أرى عدم إرسالها إلا خيراً لك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة رحمتهم للسكران وجميع المعصاة

وإذا طلع زاويتهم السكران لا يضربونه ، ولا يخرجونه إلى جماعة الوالى إلا بطريق
سري ، وإما يجلسونه فى رحبة المسجد أو للبيعة ، حتى يصحروا فيفسلون له ثيابه ان
تفجست ، ويطعمونه الطعام الديد والحوى ، ثم يعظونه ويخوفونه من الخزي فى الدنيا
والعذاب فى الآخرة ، ثم يقولون له :

نحن أحببناك الله تعالى وما بقى يهون علينا مفارقتك ، وذلك ليزسه محبة من كان
محببهم من الفسقة لما يرى من كثرة شفقتهم عليه .

وهذا هو اللابى بالفقر ، وأما الضرب ، فلا يجوز .

وهذا الخلق قل من بتخلق به من الفقرا وطلبة العلم ، إماما يخرجون السكران ،
ويغلقوا درنه باب المسجد ، حتى يمر عليه والى الطرف فيأخذ ، ويضربه ويفرمه الدرهم ،
وقد قال عليه السلام لمزال لما وجد رجلا مع امرأته « هلا سترته بشربك » انتهى .

وفى الحديث أيضا أنهم أتوا النبى صلى الله عليه وسلم بشارب خمر ، فشتموه ، فنهام صلى الله عليه وسلم عن
ذلك وقال : « لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيك » انتهى .

فأرحم بأخى أهل المعاصى ماداموا يخفونها ، وتخولهم بالموعظة الحسنة .

وقد روى البيهقى أن شخصاً جاء إلى عبد الله بن عمر فقال : إن لى جيراناً يشربون
الخمر فى بيوتهم ، وقد نصحتهم فلم يسمعوا وأنا داع الشرط إليهم ليأخذوهم ، فقال له
عبد الله : لا تفعل ودم على نصحتك لهم انتهى ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : اهتمامهم بإكرام الضيف وتهيئة ما يأكل

وما يشرب بسرعة وطيبة نفس

فإن البطوء عليه بالأكل يضجره ويذهب حلاوة الضيافة ، كما أن العبوسة في وجهه توحشه ، وربما ندم الذي نام عند من عبس في وجهه .

وكذلك من آدابهم إعلام الضيف بحمة القبلة وببيت الخلا حتى لا يحوجوه إلى السؤال عن ذلك ، وقد غلب الحياء الطبيعي مرة على بعض أصحابنا ، فتغوط وبال في قلنسوة ولد صاحب البيت حين انخزق ، فأخذها من على رأس الغفل وهر نأثم ، ثم هرب من الفجر ، وكذلك من آدابهم تهيئة الوطا والغطا وتهيئة ماء الوضوء لقيام الليل .

وكان سيدي على الخواص رحمه الله تعالى إذا هياً ماء الوضوء للضيف ، فنام الضيف ولم يقم الليل ، يقول له :

اذهب بسلام ولا تقم عندنا ، وكذلك كان لا يعطى الضيف الغطا إذا علم منه الكسل ، ويقول :

إنه إذا دنى نام عن قيام الليل ، ففاته تلك المواقف الربانية ، وما فيها من الخير والهدايا والتحف ، وكان تبعه ذلك على لأنه لو برد في الليل لربما قلق فذكر الله تعالى ونام جالساً ، انتهى .

وهذا طريق غير مسلك الآن ولكل مقام رجال والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : خدمة الضيف بأنفسهم أو غلامهم

وتزويده إذا رحل عنهم بالطعام وعليق الدواب ، والدراهم والدنانير بحسب قدرتهم .
وقد ذكر الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه في رحلته إلى الإمام مالك رضي الله تعالى عنه أنه لما زاره عزم عليه أن بنام عنده وتلقاه بالترحيب ، وقال له : إن للقادم دهشة فتلقوه بالترحيب قال الإمام الشافعي .

ثم إنه أدخلني مكاناً في قمر بيته ثم أرسل لي غلاماً يقول لي : القبله ها هنا ، وهذا إناء فيه ماء ، وهذا بيت الخلاء وأشار إليه ، ثم إن مالكاً دخل علي ومعه غلام حامل طبقاً ، فوضعه من يده وسلم علي وقال للعبد : اغسل علينا ، فوثب الغلام إلى الإناء ، وأراد أن يصب علي أولاً ، فصاح به مالك الغسل في أول الطعام يسكون لب المنزل لأنه يدعوا الناس إلى كرمه ، فحسبه أن يبتدىء بالغسل ، وفي آخر الطعام للضيف لأن صاحب الطعام ينتظر من يدخل ليأكل طعامه .

قال الإمام الشافعي ، فاستحسننت ذلك من مالك ، ثم أكلت أنا وأياه ، فأتينا علي جميع الطعام ، وعلم مالك إنني لم أجد من طعامه كفاية ، فقال : يا أبا عبد الله هذا جهد من مقل إلى فقير معذر ، فقلت : لا عذر علي من أحسن ، إنما العذر علي من أسي ، فلما صلينا العشاء في مسجد سيدي رسول الله ﷺ سألتني عن بعض أحوال مكة ؟ ثم قال : من حكم المسافر أن يحل تعبته بالاضطجاع ، ثم طرقتني ، فلما كان الثلث الآخر من الليل قرع علي مالك الباب وقال الصلاة يرحمك الله ، فانتبهت ، فإذا هو حامل إناء فيه ماء ، فشق ذلك علي ، فقال : لا يروعك ما رأيت مني ، فإن خدمة الضيف عندنا فرض ، انتهى .

فاعلم ذلك وأعمل به والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إقامة العذر للعلماء إذا لبسوا الملابس الفاخرة

وركبوا الخيول المسومة

ويرون أن فعل ذلك من جملة إهزاز الدين ، ولا يطالبون منهم بالتشرف كالفقراء لأن
الفقراء لا يحتاج الناس إليهم كحاجتهم إلى العلماء ، ولا يكاد أحد يعرف لهم مقاماً حتى
يخرج عليهم في أحوالهم ، وأيضاً فإن المدحوب من الفقراء الخلفاء عكس المدحوب من العلماء
لأن كلا منهما تابع لسلطان ماهر حامل له ، فسلطان الشريعة هو الظاهر في هذه الدار ،
وسلطان الحقيقة هو الظاهر في تلك الدار .

وقد تقدم في هذا الكتاب أن حقيقة الصوفي هو عالم عمل بعلمه على وجه الإخلاص
لاخير لكن لما عز وجود ذلك في الناس ظنوا التباين بينهما ، انصاروا يقولون : فلان
من أهل الشريعة ، فلان من أهل الحقيقة إذا علمت ذلك فلاهل الله تعالى الظهور
بالملايس الحسنة تارة ، وبالثياب الخلفة تارة ، ولم الاقتصار على واحدة منهما طول
عمرهم لأنهم حملة الشريعة والحقيقة .

ولما دخل الإمام الشافعي علي محمد بن الحسن رحمهما الله تعالى رأى في بيته داره
ملايس ومراكب وغلماً ، وخداماً وسقفا مموهة بالذهب ، فهت الشافعي من ذلك
فقال له محمد بن الحسن :

يا أبا عبد الله هذا مما يسر به الصديق ويسكد به العدو .

وأما تشرف العلماء الماضين كالقاضي بكار ، والشيخ عز الدين بن عبد السلام ،
فذلك لشدة اشتغالهم بالصلاح ، فاستثنى أحدهم عن هذه الملابس الفاخرة بصلاحه ،
فكان للقاضي بكار رضي الله تعالى عنه رداء على بدنه وأبدة على رأسه ، وكان للشيخ
عز الدين رضي الله تعالى عنه فروة يابسها شتاء وصيفاً ، ولما غضب من السلطان حمل
جميع أمتعته على الحمار ، وركبت زوجته فوق ذلك ، وكذلك باغتنا عن الشيخ أبي
اسحق الشيرازي . انتهى .

وقد بسطنا الكلام على ذلك في الباب الخامس عشر من المنن الكبرى وذكرنا
عدة جماعة من علماء عصرنا والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم رؤيتهم لمحاسن أعمال الناس لا سيما للعلماء والصالحين

ولا يتعرض أحدهم للحكم على بواطنهم بشيء من الأمراض الباطنة ، فيقول عن عالم أو صالح بعيد عن مثل هذا أن يسلم من الرياء أو النفاق أو الحقد أو الحسد أو الكبر أو الشك أو محبة الدنيا ، ونحو ذلك ، فإن الله تعالى لم يكلف داعياً إلى الله تعالى أن يشق قلوب الناس وينظر ما فيها لأن ذلك من خصائص الحق جل وعلا ، فهو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

فلا تظن يا خي أن أحداً من العارفين يحكم على باطن أحد بشيء إذا رأيته يحط على أهل عصره إنما ذلك على سبيل الغرض والتقدير كما كان ﷺ يعرض في وعظه ولا ينص على أحد معين بل يقول : « ما بال أقوام يفعلون كذا أو يقولون كذا » .

فكل من كان من أهل ذلك الأمر يثبتته لنفسه من ذات نفسه ، ويتوب إلى الله تعالى من الاستهانة بأمره أو اجتناب نهيه من غير تقريع ولا توبيخ مع كونه قد حصل به الغرض من النصيح ، وقد قدمنا في هذا الكتاب أن كل من حكم على باطن أحد بشيء فإنما ذلك قياس على حاله هو من خير أو شر ، وأن باطن العبد إذا انحلى من السوء صار الناس كلهم عنده أواباء سالمين من الدسائس والنقائص لا يظن غير ذلك قياساً على نفسه هو وإن كان بالعكس ، فهو بالعكس .

فاعلم ذلك وتنبه يا خي لنفسك وكل ما تظن في أحد سوء فاعلم أن ذلك كله إنما هو صورة نفسك ففتش نفسك وتب واستغفر .

ومما يبادر به بعض المتورعين إلى إنكاره على الفقهاء وعدم لشخص بأن يقرأوا عنده ليلة الجمعة أو ليلة النصف من شعبان مثلاً بثلاثة أنصاف ، فيعطيه شخص أربعة أنصاف ، فيفسخون على الأول ، فينبغي حملهم على أنهم ما فسخوا إلا لظهور تعظيم الثاني

للقرآن الكريم يا كرام أهله أكثر فقدموا القراءة عنده والأكل من طعامه لأنه أكرم
وأعظم مروءة نظير من جعل للمصحف ثوب حرير تعظيما له مع فقد صيغة الإجارة في مثل
ذلك غالبا فما صححت الإجارة .

وقد بسطنا الكلام على حمل الناس على المحامل الحسنة في الباب الخامس عشر من
كتاب المنن فراجعوه والحمد لله رب العالمين .

ومن أحلاقهم مؤاخنة نفوسهم بما يخطر في بواطنهم من سوء
لاحتمال أن الله تعالى يؤاخذهم به كما يؤاخذ الخواص

وذلك كالرياء والحسد ومحبة الدنيا ورؤية نفوسهم على غيرهم لأهل وجه الشكر لله
تعالى ونحو ذلك فلا يصرون على ما يخطر في بالهم من سوء بل يتوبون منه كما يتوبون
من المعاصي الظاهرة على حد سواء فإنها ظاهرة لله عز وجل لا سيما توبتهم من ذلك كلما
يقومون للصلاة فإن من وقف بين يدي الله تعالى وهو متلطخ بمثل هذه الصفات فهو
كمن لطخ ثوبه وبدنه بدم وقرث وقيح وطلب أن يجالس السلطان والله المثل الأعلى فهو
إلى العقوبة أقرب لأزدرائه بالحضرة فأياك يا خي وعدم التوبة مما يخطر على بالك ثم أياك
وفي القرآن العظيم « أفأمن الذين مسكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض ^(١) » الآية
فهدهم بالخسف بالمكر وهو من أفعال القلوب ^(٢) والحمد لله رب العالمين .

(١) سورة النحل آية : ٤٥

(٢) قال الله تعالى : « وأما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة
هي المأوى » .

يقول الإمام القشيري : ثم اعلم : أن مخالفة النفس رأس العبادة .
وقد سئل المشايخ عن الإسلام ، فقالوا : ذبح النفس بسيف مخالفة .
وقال ذو النون المصري : مفتاح العبادة : الفكرة ، وعلامة الإصابة مخالفة النفس
والهوى ، ومخالفتها ترك شهواتها .
وقال السري السقطي : سمعت جدي يقول : آفة العبد : رضاه من نفسه بما هو فيه .
وقال الشاعر :

نون الهوان من الهوى مسروقة وصرير كل هوى صرير هوان

ومن أخلاقهم عملهم بما ورد أنه يكون سبباً لموتهم على
الإيمان من الأمور المقربة إلى الله تعالى

ولا يقول أحدهم أن كان سبق في علم الله تعالى إنني أموت على الإيمان ، فهو واقع
لأحالة ، وإن سبق في علم الله تعالى موتي على غير الإيمان فلا يفيدني شيئاً كما يقع فيه من
يسلك الطريق بغير شيخ ، فإن ذلك من الجهل المبين ، فإن الله تعالى رتب الأسباب
على مسبباتها .

وقد أجمع بعض أشياخنا بالسيد الخضر عليه الصلاة والسلام ، فحدثه ، فقال له
الخضر : إنني كنت أحضر مجلس أبي ادريس الخولاني كلما يقص على الناس ، فقال لي
أبو ادريس يوماً : يا بني الله أي عمل إذا عمله العبد أمانة الله تعالى على الإيمان ، فقلت
له : أدركت مائة ألف نبي ، وسألتهم عن ذلك ؟ فلم يجيبوني ، حتى أدركت محمداً ﷺ
فسألته عن ذلك ؟ فأجابني وقال : من صلى صلاة الفجر وقرأ آية الكرسي وآمن الرسول
إلى آخر السورة وشهد الله إلى قوله وترزق من تشاء بغير حساب ، فمن واطب على
ذلك مات على الإيمان ، وذكر نحوه الإمام أبو الحسن بن فرحون في كتابه الزاهر
أنهى ، وفي هذه القصة صحة إجماع الخضر بالنبي ﷺ خلاف ما عليه بن تيمية وأتباعه
وذكر صاحب كتاب بستان العارفين^(١) عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال :
قلت : يا رسول الله علمني شيئاً يحفظ على الإيمان حتى ألقى به ربي عز وجل ، فقال :
صلى كل ليلة ركعتين بعد المغرب تقرأ في كل ركعة منهما بعد الفاتحة سورة القدر مرة ،
وسورة الإخلاص ست مرات ، والمعوذتين كل واحدة مرة ، فإن الله تعالى يحفظ عليك
الإيمان ، حتى توافي به يوم القيامة ، وفي رواية فإذا فرغ من الركعتين سبح الله تعالى
خمس عشر مرة .

فاعلم ذلك وأعمل به والحمد لله رب العالمين .

(١) هو الإمام النووي رضي الله عنه صاحب كتاب رياض الصالحين وقد ألف كتاب
بستان العارفين دفاعاً عن النصوف وتوضيحاً لفكرته وقد طبعه حديثاً مجمع البحوث
الإسلامية فليرجع إليه .

ومن أخلاقهم : إذا عملوا مولداً كبيراً بطباخين ومنشدين ونحو
ذلك أن يتوجهوا إلى الله تعالى في حفظ الطباخين وخدام
الطعام والحاضرين عن إخراج الصلاة عن وقتها

وقل من الفقراء من يهتدى للتوجه إلى الله تعالى في مثل ذلك بل وبما أخرج الشيخ
أو النقيب تلك الليلة الصلاة عن وقتها اشتغالا بذلك الدمام ، فلو وضع خير ذلك المولد
بطعامه ومنشديه في كفة ، ووضع أم ترك الصلاة في وقتها في كفة لرجح ترك الصلاة
على ذلك المسمى خيراً .

فعلم أنه لا يليق بفقير أن يعمل مولداً إلا أن كان يقدر على حفظ الحاضرين من
الآفات ، كالغيبة فيه من حيث نظامه ، ومن حيث مساعدة الظلمة له في ذلك الطعام ،
ومن حيث تقبيل الناس رجله أو يده ونحو ذلك .

وقد حضرت مولداً مرة ، فبات غالب من حضره يستغيث صاحب المولد ، فمن
ذلك اليوم ما حضرت مولداً إلى وقى هذا والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم هدم ظنهم بأنفسهم النجاة بأعمالهم

ولو عبدوا الله تعالى عبادة التملين بعد أن سمعوا قول الباري تعالى « وبدلهم من الله ما لم يسكنوا يَحْتَسِبُونَ »^(١) فكل الناس جاهلون بما يؤول أمرهم إليه من السعادة ، والشقاوة إلا الأنبياء ومن يشاء الله تعالى من الأولياء ، ومن هنا يبكي الأولياء الدم بعد الدموع خوفا من حسرة ترك محالسته تعالى في الآخرة ، فإن أهل النار عن ربهم محجوبون ، وهو أشد العذاب عندهم ، فحذف يا أخى من النقص فى طاعاتك كما تخاف من المعاصى الظاهرة والحمد لله رب العالمين .

(١) سورة الزمر آية : ٤٧

ومن أخلاقهم هدم حزنهم النفساني على أحد محبيهم ثم طردهم

بل يقولون : قد أصاب فلان في مفارقة مثلنا خوفا أن يسرق طبعه من صفاتنا الخبيثة ، فيهلك ، فهم ينظرون للذي عليهم أولا ، ولا ينظرون للذي لهم إلا بعد ذلك عكس ما عليه خيرهم .

وهذا خلق غريب في هذا الزمان بل بعضهم يقول عن من فارقه : أن فلانا مُقْت ، وقيم الأدلة على مقتته ، وذلك من علامة أنه ممن زين له سوء عمله فرآه حسنا ولو كان كاملا لرأى حسناته ذنوبا بالنظر لما يستحقه جلال الله تعالى .

ومن هنا كان سيدي على الخواص رحمه الله تعالى يزجر من يقبل يده ويقول :

تقبيل اليد لا يكون إلا لمن ثبت على قدم الاستقامة إلى الممات ، ونحن أصحاب ذنوب ، فالمرء من التعظيم أولى بكل عاقل ، وربما ألغت النفس ذلك ، فصارت تستنكر ذلك إذا ترك الناس تقبيل يدها أو رجلها ، وذلك من علامات كبرها التي تستوجب به دخول النار ، فليتنبه الفقير الساذج لمثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم هروبهم من فعل كل شئ يقيم لهم ناموسا من بين اقربائهم
ويميزهم عنهم إلا بعذر شرعي

فلا يطالب أحدهم اخوانه بالتردد إلى موضعه مع هدم أن يتردد إلى مواضعهم
أو يطالبهم بتقبيل يده ، ولا يقبل هو يد أحد منهم ، أو يطلب منهم أن يخدموه ،
ولا يخدم هو أحدا منهم .

وهذا خلق غريب في غالب فقر الزمان ، فيريد أحدهم التخصيص بالحرمة عن أصحابه ،
وقد رأيت شخصا خرج من بيته ، فركب حماره ، وصار جماعته يأمرؤن الناس بالقيام له
من حوانيتهم الحوانيت : وينزلون من يروفه را كبا من هلى دابته كما يصنعون بأهل الذمة
في بعض الأوقات ، ويقولون انزلوا للشيخ والشيخ را كب ساكت إما غارق في حب الله
تعالى ، أو في حب نفسه وشهواتها لا يخلوا من واحدة منهما ، فالله تعالى يغفر له ان كان مع
نفسه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم تكبيرهم بأخوانهم بحسب مقامهم في التواضع
فكلما تواضع أخوهم كلما عظموه أكثر مسارعة لظهور ما وعد الله تعالى به على لسان
نبيه ﷺ في قوله من تواضع لله رفعه الله .
وكان الشيخ محي الدين بن العربي رضي الله تعالى عنه يقول :
تعرف منازل الناس عند الله تعالى بطريقتين لا ثالث لهما .
أحدهما بالكشف .
والثانية بكثرة الطاعات .

وكان سيدي باقوت العرشي رحمه الله يقول :
يلبغى للفقير أن يعظم الناس بحسب دينهم لا بحسب ثيابهم^(١) .
وكان سيدي أبو العباس المرسى رضي الله تعالى عنه يقوم لبعض العصاة في بعض
الأوقات ، ولا يقوم لبعض المطيعين ف قيل له في ذلك فقال :
أني الملح من بعض المطيعين الكبير ومن بعض العاصين ذل النفس ، فأعامل كل واحد
منهما بحسب ما في نفسه انتهى .
وكان سيدي علي الخواص يعظم الفقير الخامل الذكر بين الناس أكثر من الفقير
المشهور بالكرامات ، ويقول :
أن هذه الدار ليست بمحل لظهور الكرامات ؛ وإنما هي دار تكليف ، فكل
كامل مشغول بما كلف به فيها .

(١) قال ابن عطاء : التواضع : قبول الحق ممن كان .
وقال عروة بن الزبير : رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وعلى عاتقه قربة
ماء ، فقلت :

يا أمير المؤمنين ، لا ينبغي لك هذا !!
فقال : لما تاني الوفود سامعين مطيعين ، دخلت في نفسي نخوة فاحسبت أن أكسرها ..
ومضى بالقربة إلى حجرة امرأة من الأنصار فافرجها في إنائها .

وئندم في هذا الكتاب أن شريفا دخل على سيدي ياقوت العرشي ، فرأى الناس
يقبلون رجله ولا يلتفتون إليه هو ، فأخذ في نفسه من ذلك ، فقال له سيدي ياقوت في
أذنه سرّاً :

يا سيد إنا عظموني لأنى تبعت طريق سلفك الطاهر ، فاكتميت منهم الشرف ،
وأنت لما خالفت سلفك في أخلاقهم وتخلقت بالذائل أهنت ، فسكت الشريف ولم
يمر جواباً فاعلم ذلك واعمل عليه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم تكديرهم بحظ نفس من أمره بأمر ولم يمثل أمرهم
لأنهم فواب رسول الله ﷺ ، وقد قال تعالى : « ما على الرسول إلا البلاغ ^(١) » .
فالداعي إلى خير إمام هو مبلغ شرع ربه لعباده لا غير والحق تعالى يفعل بعد ذلك
ما يشاء فمن تكدر من خالفه بحظ نفسه فهو مع نفسه إلا أن يظهر التكدر للعاصي رحمة
به رجاء أن يراعى خاطره ، ويطيع أمره ، فيحصل له الخير .

فعامل ياخى الخلق معاملة الحق تعالى لك ، واحذر أن تقطع عنهم برك وإحسانك
إذا خالفوا أمرك ، فإن الله تعالى يرزقك ليلاً ونهاراً ، وأنت مصر على معاصيه وانصح
أخوانك مع رحمتك بهم والحمد لله رب العالمين .

محتريات الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
مدخل إلى الأخلاق الإسلامية	٦
في صفات عباد الرحمن	٤٠
ترجمة العارف بالله الإمام عبد الوهاب للشعراني	٧٣
مدخل الكتاب المؤلف	٨١
مقدمة المؤلف في بيان عدة أمور يتعين على مطالع الكتاب الوقوف عليها قبل الخوض فيه بغير فهم ليعرف اصطلاح القوم	١٠٤
بيان نفاسة طريق سيدى الشيخ إبراهيم المتبولى الذى بنينا عليها غالب أخلاق الكتاب رضى الله عنه وبيان عقوبة من أنكر على أهل الطريق وبيان أن كل من يخالط القوم بعد عن معرفة اصطلاحهم فأخطأ طريق الصواب	١١٠
بيان نبذة صالحة من مصطلح القوم من حيث أخذهم بالمزائم دون الرخص ذكرناه هنا ليطالع عليه من يطالع هذا الكتاب قبل الخوض فيه بغير علم ، فربما بادر من لا يعرف مصطلحهم إلى الإنكار عليهم بغير علم .	١٦٨
الباب الأول	
في ذكر جملة من الأخلاق :	١٨٧
من أخلاق سيدى إبراهيم المتبولى وأخلاق اصحابه رضى الله عنهم أجمعين ومن أخلاقهم : أن يشهدوا نفوسهم وتلامذتهم حال تربيتهم لهم أنهم كلام من جملة تلامذة رسول الله ﷺ وهو للشيخ الحقيقى لهم .	٢٠٦
ومن أخلاقهم : رميهم الدنيا وشهواتها من يدهم ومن قلبهم أول دخولهم في الطريق	٢٢٠
ومن أخلاقهم : أن لا يصدوا لأخذ العهد ولا لإلباس الحرقة ولا لتلقيه	٢٢٢
الذكر إلا بعد اجتماع شروط هذه المراتب	٢٢٣
ومن أخلاقهم : كراهتهم لتقبيل احديدهم فضلا عن رجلاهم	٢٢٧
٤١ — الأخلاق المتبولة	

المصحية

الموضوع

- ومن أخلاقهم . كثرة تفتيشهم نفوسهم كل ساعة من ليل أو نهار ليعلموا
هل الحق تعالى راض عنهم أو ساخط عليهم ٢٢٩
- ومن أخلاقهم . كثرة شفقتهم ورحمتهم على جميع عصاة هذه الأمة المحمدية
من شربة الخمر والمسكسين وسائر من عليه تبعة للخلق . ٢٣٣
- ومن أخلاقهم : عدم مساعدة أحد من إخوانهم على تولية شيء من الوظائف
التي لا خلاص لهم فيها . بيزان الشرع الشريف الآن كالحسبة والقضاء ٢٣٦
- ومن أخلاقهم : المواظبة على قيام الليل ولا يتركون ذلك إلا لمذر شرعى
دون الكسل . ٢٤٢
- ومن أخلاقهم : أن لا يقرأوا قرآنًا ولا حديثًا ولا يسبحون الله تعالى ولا يفعلون
شيئًا من الأذكار إلا جالسين ماداموا قادرين على ذلك . ٢٤٦
- ومن أخلاقهم : إذا نام أحدهم عن قيام الليل وفاته الوقوف في تلك
المواكب الشريفة والحضرات المنيفة أن يندم ويستغفر ٢٤٧
- ومن أخلاقهم : إذا سافروا إلى بلاد للريف وخافوا أن يتبعهم الناس أن
يسافروا ليلاً مخفياً على أهل البلاد ٢٤٨
- ومن أخلاقهم : كثرة محبتهم لأهل العلم ٢٥٢
- ومن أخلاقهم : التي أجمعوا عليها ونفذت بها وضاياهم إلى سائر أقطار الأرض
أنه لا يجوز لأحد التصدر في طريق القوم لارشاد المريدين إلا بعد تبجهره في
علوم الشريعة المطهرة والحقيقة ٢٥٥
- ومن أخلاقهم . سترهم لزلات من تاب على أيديهم تخلفاً بأخلاق الله
عز وجل ٢٦٢
- ومن أخلاقهم : أن لا يتولى أحدهم نظراً على مسجد أو بيتهم ونحو ذلك
مما تشترط فيه العدالة إلا أن يكون عدلاً في الباطن ٢٦٣
- ومن أخلاقهم : عدم الإعتناء بنظم الشعر في رسائلهم وإنما يمثلون به
فقط من كلام غيرهم ٢٦٤
- ومن أخلاقهم : إرتباط قلبهم بكل إمام صلوا خلفه ٢٦٦
- ومن أخلاقهم : استنادهم في سائر أوقاتهم إلى كبير من أهل الحضرة
الإلهية ليحميمهم من الآفات التي تصيبهم في الدنيا والآخرة ٢٦٧

- ومن أخلاقهم : خضوع لأصحابهم على كثرة العبادة من حيث كونها يرجع
نعمتها إلى صحائف رسول الله ﷺ
٢٦٩
ومن أخلاقهم : زيادة السر على الأكارب من العلماء والصالحين
٢٧٠
ومن أخلاقهم : تعظيمهم للسنة الواردة واعتناؤهم بالعمل بها
٢٧١
ومن أخلاقهم : تفقدهم تكرار محفظاتهم في العلم خوف السيان
٢٧٣
ومن أخلاقهم : النصدق بكل ثوب أو عمامة أو فلنسوة أو سراويل
أورداء عصوارهم فيه
٢٧٦
ومن أخلاقهم : كثرة أجوبتهم الحسنة عن أكابر الحضرة الإلهية
٢٧٧

الباب الثاني

- في جملة أخرى من الأخلاق
٣٢٩
الباب الثاني : في جملة أخرى من الأخلاق .
٣٤١
ومن أخلاقهم : غيبتهم لله تعالى إذا انتهكت محارمه
٣٤٣
ومن أخلاقهم : تخفيفهم الصلاة إذا كانوا أئمة للناس
٣٤٥
ومن أخلاقهم : عدم سفرهم إلى الحجاز في محفة إلا لضرورة شرعية
٣٤٧
ومن أخلاقهم : شتمهم لروائح المعاصي
٣٥١
ومن أخلاقهم : عدم الإكثار من حضور الولائم التي لا خلاص فيها
لصاحبها شرعا .
٣٥٣
ومن أخلاقهم : حرصهم في جميع مشاهدهم في أعمالهم وأحوالهم على أن
تكون دائرة مع الحق لأمع حظ نفس
٣٥٥
ومن أخلاقهم : كثرة توبتهم من علومهم وأعمالهم التي دخلها الرياء والنفاق
ومن أخلاقهم : كثرة زهدهم في المطاعم والملابس والمناكب والمراكب
والمساكن ونحو ذلك مع ملابتهم لها .
٣٥٧
ومن أخلاقهم : كثرة دعائهم للسلطان ونوابه
٣٦٢
ومن أخلاقهم : العمل على تحصيل المقامات الشريفة
٣٦٤
ومن أخلاقهم : مراعاة خاطر شيخهم
٣٦٧

ومن أخلاقهم : كثرة محبتهم للأعمال الصالحة ومحبتهم لأن تضاف إلى غيرهم
عكس للرأين

٣١٩

ومن أخلاقهم : عدم الثقة بأصدقائهم في كل زمان

٣٧٢

ومن أخلاقهم : عدم كثرة إمتحانهم لأصحابهم . لا نفرض شرعى

٣٧٤

ومن أخلاقهم : عدم ظنهم في أحد من المسلمين بسوء ما حق

٣٧٥

ومن أخلاقهم : عدم تمكنهم أحداً أن يقوم لهم أو يقبل يدهم فضلاً عن

٢٧٦

رجلهم

ومن أخلاقهم : كثرة تنفيرهم للإخوان عن أن يرسلوا إليهم طعاماً أو هدية

٣٧٧

إلا بعد استئذانهم في ذلك

ومن أخلاقهم : كثرة مسامحتهم بمحقوقهم إذا أخل بها الناس

٣٧٨

ومن أخلاقهم : عدم اغترارهم بالمرأى الحسنة التي يراها الناس لهم

٣٧٩

ومن أخلاقهم : عدم اجابتهم لمن دعاهم إلى وليمة بخصد النفاخر

٣٨٠

ومن أخلاقهم : شهودهم أن القائمين في الكسب بالبيع والشراء وعلى الحرفة

٣٨١

أفضل منهم

ومن أخلاقهم : عدم مقابلة للسيء بالإساءة

٣٨٢

ومن أخلاقهم : إقامة العذر لإخوانهم إذا لم يقدرُوا على الصبر عن مقابلة

٣٨٤

من آذاهم

ومن أخلاقهم : عدم بذرهم علومهم ومعارفهم في غير محل قابل

٣٨٥

ومن أخلاقهم : أن أحدهم يزداد قلبه بالسلب نمكيناً ويقيناً

٣٨٦

ومن أخلاقهم : عدم العمل برأى للنساء في هذا الزمان

٣٨٧

ومن أخلاقهم : كراهم لتعلمهم علوم الفلاسفة الأول

٣٨٨

ومن أخلاقهم : كثرة نصحتهم لإخوانهم بحكم العادة

٢٨٩

ومن أخلاقهم : شهودهم أن جميع ما معهم من العلوم والمعارف وغيرها كله

٣٩٠

عارية من الله تعالى لهم

ومن أخلاقهم : أن لا يجيبوا من طلب منهم مسألة من العلم مثلاً وقلبه

٣٩١

ذقل

المصنف

للموضوع

- ٣٩٣ ومن أخلاقهم : تعظيمهم لكل من حل العلم والقرآن العظيم
- ٣٩٤ ومن أخلاقهم : عدم شكواهم من أذاهم إلى الله تعالى
- ٣٩٦ ومن أخلاقهم : عناية على تحصيل كل مقام إيمانهم قبل كل مقام
- ٣٩٨ ومن أخلاقهم : قصدهم ابتغاء مرضاء الله تعالى في كل قول أو فعل
- ٣٩٩ ومن أخلاقهم : أنهم لا يتجردون عن لباس النياب الفاخرة مثلاً
- ٤٠٤ ومن أخلاقهم : شهود الضعف في نفوسهم دائماً
- ٤٠٥ ومن أخلاقهم : عدم التساهل بأخذهم أموال الناس بالباطل
- ٤٠٧ ومن أخلاقهم : كراهتهم لوقوع يدهم على فرجهم من غير حاجة
- ٤٠٨ ومن أخلاقهم : محبة المصالحة عقب مجلس الذكر
- ٤٠٩ ومن أخلاقهم : إيثارهم جناب الحق تعالى على جنابهم
- ٤١٠ ومن أخلاقهم : عدم تقريرهم فقراء الأحمديّة والبرهانية والرفاعية على
اكتفاءهم بمشايخهم الذين ماتوا
- ومن أخلاقهم : عدم مبادرتهم إلى الإنكار على من أمر أحداً من تلامذته
بخلق لحينه مثلاً
- ٤١١
- ٤١٣ ومن أخلاقهم : التزاور لبعضهم بعضاً كلما اشتاقوا لبعضهم
- ٤١٤ ومن أخلاقهم : تعليم أصحابهم العفة عن مال الوقف
- ٤١٥ ومن أخلاقهم : أن لا يستجلبوا أحداً من أبناء الدنيا لصحبته
- ومن أخلاقهم : كثرة سؤالهم الله تعالى أن يسلب عنهم الحال الذي يؤذي
من أذاهم
- ٤١٦
- ٤١٧ ومن أخلاقهم : تزيينهم لأصحابهم بالنظر
- ٤١٨ ومن أخلاقهم : تقريب الطريق على المرید ما أمكن
- ٤٢٢ ومن أخلاقهم : أن لا يرجعوا في ما خرجوا عنه في سرهم لأحد
- ٤٢٣ ومن أخلاقهم : إذا طال مكث الضيف عندهم أشهراً
- ٤٢٤ ومن أخلاقهم : كثرة أدبهم مع كل من تزيوا بزي الفقراء
- ٤٢٧ ومن أخلاقهم : كراهتهم وقوع الخوارق على يديهم في هذه الدار

المصحية

للوضوع

- ومن أخلاقهم : شدة محبتهم لآل سيدهم ومولاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه
٤٢٨
- ومن أخلاقهم : تفتيشهم لأعضائهم الظاهرة والباطنة
٤٢٩
- ومن أخلاقهم كثرة الاستغفار ليلاً ونهاراً
٤٣١
- ومن أخلاقهم : خدمة زوجاتهم وأمتهم إذا مرضت
٤٣٢
- ومن أخلاقهم : شدة كراهتهم للخلوة بالأجنبية
٤٣٣
- ومن أخلاقهم : مطالبة نفوسهم بحقوق الناس وعدم مطالبتهم الناس بحقوقهم
٤٣٥
- ومن أخلاقهم : مساعدة إخوانهم الذين تصدروا لحملات الناس سيرة لإخوانهم بين الناس
٤٣٦
- ومن أخلاقهم : عدم قبولهم هدية ممن حملوا عنه حمله
٤٣٧
- ومن أخلاقهم : معبتهم للوحدة أو آخر أعمارهم
٤٣٩
- ومن أخلاقهم : شهودهم قبيح زلاتهم
٤٤٢
- ومن أخلاقهم : محبة إخوانهم المسلمين محبة أخوة وإسلام وإيمان لا محبة طبع وإحسان
٤٤٤
- ومن أخلاقهم : أن يفيدوا كل من جلس إليهم من الفقهاء والفقراء والعوام شيئاً من الفوائد
٤٤٥
- ومن أخلاقهم : عدم التعشق إلى معرفة الأمور المستقبلة
٤٤٦
- ومن أخلاقهم : إطعام الفقير ما يطلبه منهم بالشرط
٤٤٨
- ومن أخلاقهم : كثرة لدعاء لسيدنا ومولانا أبي العباس الخضر
٤٤٩
- الباب الثالث في : جملة أخرى من الأخلاق
٤٥١
- ومن أخلاقهم : عدم إنكارهم على أرباب الأحوال في أكلهم من أطعمة الطامة لأنهم من أقسام المجازيب في عدم التكليف
٤٥٢
- ومن أخلاقهم : عدم إنكارهم على من يقول : اجتمعت بملك للوت في البيطة
٤٥٣
- ومن أخلاقهم : تعظيمهم للفقير يادى الرأى بمجرد رؤيتهم لمرقعته مثلاً
٤٥٥

الصحيفة	الموضوع
٤٥٧	ومن أخلاقهم : نداؤهم لأصحابهم بالقلب
٤٥٨	ومن أخلاقهم : ان يجددوا معالم الطريق كلما خلقت
٤٦١	ومن أخلاقهم كثرة الجدة والاجتهاد في العبادة ، ليجددوا الطريق بعد موت أشياخهم الذين كانوا يجددون آداب الطريق
٤٦٣	ومن أخلاقهم : شدة الخط والزجر والتوبيخ والهجر لمن يقول : ما ثم إلا الله تعالى
٤٦٤	ومن أخلاقهم : عدم الجزم بترجيح أحد من العلماء أو الفقهاء على غيره أديبا مع الله تعالى ، فإنه يمحو ما يشاء ويثبت
٤٦٥	ومن أخلاقهم : الستر على من يدعى الطريق بغير حق إلا إن ترتب على الستر محذور
٤٦٦	ومن أخلاقهم : كثرة شفقتهم
٤٦٧	ومن أخلاقهم : كثرة تعظيمهم للعلماء
٤٦٨	ومن أخلاقهم : كراهتهم للقرب من الملوك والامراء إلا إن أعطاهم الله تعالى الكشف الصحيح
٤٦٩	ومن أخلاقهم : عدم طلبهم كثرة الأنباغ
٤٧٠	ومن أخلاقهم : عدم مبادرتهم للإنكار على من رأوه يأخذ مال الولاية من كمل العارفين إلا بطريق شرعى
٤٧١	ومن أخلاقهم : حسن سياستهم لصاحبهم
٤٧٢	ومن أخلاقهم : عدم معاداتهم لاحد ممن يحضر المواقب الإلهية
٤٧٤	ومن أخلاقهم ، المبالغة في الادب مع ولاتهم
٤٧٥	ومن أخلاقهم ، أدبهم مع طلبة شيخ إمامهم
٤٧٦	ومن أخلاقهم ، حمايتهم من الاكل من طعام المتهورين في مكاسيهم
٤٧٧	ومن أخلاقهم ، عدم أكلهم من طعام من يعتقد فيهم الصلاح
٤٧٨	ومن أخلاقهم ، مسالة الظلمة وعدم الركون إليهم
٤٨٠	ومن أخلاقهم ، عدم الاكل من طعام من يأكل بدينه من الفقهاء
	ومن أخلاقهم ، عدم أكلهم من طعام النذور أو الاعراس الواسعة أو طعام

- ٤٨١ العزرا والجمع في للقابر وتنام الشعر ونحو ذلك
- ٤٨٢ ومن أخلاقهم ، عدم الأكل من طعام الصنایعی الذي يعمل بالقوت
- ٤٨٣ ومن أخلاقهم ، عدم أكلهم من طعام من علموا أن عليه ديناً
- ومن أخلاقهم : عدم المبادرة إلى الإنكار على من يروى يسمي على وظايف
- ٤٨٤ الناس من طلبة العلم
- ٤٨٥ ومن أخلاقهم : عدم مزاحمتهم على شيء من مناصب الدنيا
- ٤٨٦ ومن أخلاقهم : شدة حياتهم من الله تعالى أو من جميع الكون
- ٤٨٩ ومن أخلاقهم : عدم تسليمهم للنفس ما تدعيه من مقامات السكال
- ٤٩١ ومن أخلاقهم : حسن ظنهم برهم إذا سلط عليهم الخلق بالأذى
- ٤٩٢ ومن أخلاقهم : محبتهم في كثرة التلامذة ليعلموهم الأدب مع الله تعالى
- ومن أخلاقهم : كثرة تفويضهم إلى الله تعالى في كل أمر طلبوه منه
- ٤٩٣ ما لم يشرع
- ٤٩٤ ومن أخلاقهم : مداومتهم في نهايتهم على الأعمال الصالحة
- ٤٩٥ ومن أخلاقهم : أنهم كلما فرقوا في المقامات ازداودا معرفة بعيوبهم وتقايصهم
- ٤٩٦ ومن أخلاقهم : كثرة الرحمة على خالق الله تعالى
- ومن أخلاقهم : إذا اطلعوا على عيب جليسهم وسريره الحبيثة أن لا يفضحوه
- ٤٩٧ بين الناس
- ومن أخلاقهم : طلبهم لكل حاجة طلبوها من حوائج الدنيا والآخرة من
- ٤٩٨ باب الله تعالى وما ثم إلا بابه
- ومن أخلاقهم : عدم استبعادهم على أنفسهم وقوعهم في أكبر الكبائر
- ٤٩٩ ولو بلغوا في المقامات ما بلغوا
- ٥٠٠ ومن أخلاقهم : العمل على تطهير الباطن من المعاصي والروذائل
- ٥٠١ ومن أخلاقهم : قلة تناولهم الشهوات وقلة سماعهم للآلات
- ٥٠٢ ومن أخلاقهم : كثرة الاستعاذة بالله تعالى من شر الحسدة
- ٥٠٣ ومن أخلاقهم : كثرة تعظيمهم لولاة زمانهم من أمير وقاض
- ٥٠٤ ومن أخلاقهم : إذا زارهم أمير أن يقوموا له ويقبلوا يده

- ٥٠٦ ومن أخلاقهم : كراهتهم لتردد أحد من الأكابر إليهم
- ٥٠٧ ومن أخلاقهم : أن لا يمتدوا قط على من انقطع عن التردد إليهم
- ٥٠٩ ومن أخلاقهم : إذا كشف لأحد من ألواح المحو والإثبات أنه يقع في معصية
- ٥١١ ومن أخلاقهم : أن يؤدوا ما عليهم من الحقوق لأربابها
- ٥١٢ ومن أخلاقهم : رد كل شيء يأتهم من الولاة الذين لا يتورعون في أموالهم
- ٥١٣ ومن أخلاقهم : التواضع مع أولاد أشياخهم
- ٥١٤ ومن أخلاقهم : تقديم العمل على تحصيل باطنهم من سائر المعاصي الباطنة
- ٥١٥ ومن أخلاقهم : عدم وقوعهم في المعاصي لأنهم داعون إلى الله تعالى
- ٥١٦ ومن أخلاقهم : عدم خوفهم من الظلمة ولو توعدوهم بكل سوء
- ومن أخلاقهم : حسن الظن بالعلماء والفقراء الذين يدخلون على
الأمراء والظلمة
- ٥١٧ ومن أخلاقهم : عدم خوفهم من العقارب والسباع الضواري والصوص لذا
سافروا البلاد
- ٥١٨ ومن أخلاقهم : كثرة رؤيتهم المنامات الردية دون الحسنة
- ٥١٩ ومن أخلاقهم : إرخاء الطيلسان على عيونهم حياء من الله تعالى ومن الخلق
- ٥٢٠ ومن أخلاقهم : جهرهم بالذكر محبة في الله عز وجل وطلبوا لأحد يسمعهم
- ٥٢١ ومن أخلاقهم : محبتهم في النقلة من مجالسة الأمراء والعلماء
- ٥٢٢ ومن أخلاقهم : كثرة تغليبهم للأشرفاء
- ٥٢٣ ومن أخلاقهم : كراهتهم للأكل من صدقات الناس الخاصة للمقيدة
بشروط عزيزة
- ٥٢٤ ومن أخلاقهم : إستيذانهم لربهم تبارك وتعالى إذا كانوا يقرون كلامه العزيز
- ٥٢٥ ومن أخلاقهم : كراهتهم لمدرجلهم في ساعة من ليل أو نهار
- ٥٢٦ ومن أخلاقهم : كراهتهم للنوم على حدث أصغر فضلا عن الأكبر
- ٥٢٧ ومن أخلاقهم : كثرة الإجهاد في العبادة ولا يملون منها ليلا ولا نهارا
- ٥٢٨ ومن أخلاقهم : أن لا يصنوا قط لمن يمدحهم
- ٥٢٩

- ومن أخلاقهم : كثرة مجالستهم للحق جل وعلا طلبا لزوال النعم والمهم
الواقع للناس في هذه الدار ٥٣١
- ومن أخلاقهم : كثرة رضاهم عن ربهم إذا قدر عليهم الرزق أكثر من رضاهم
عنه إذا وسع عليهم الرزق ٥٣٢
- ومن أخلاقهم : كثرة استغفارهم لرؤيتهم للنقص في عباداتهم ٥٣٣
- ومن أخلاقهم : حسن سياستهم للمقاريض الذين يقرضون في أعراض الناس ٥٣٤
- ومن أخلاقهم : عدم رؤيتهم في نفوسهم أنهم من جملة العلماء العاملين أو عباد
الله الصالحين ٥٣٥
- ومن أخلاقهم : موافقتهم في مدح عدوهم إذا رأوا أحدا يمدحه بنظم أو نثر ٥٣٦
- ومن أخلاقهم : عدم قبولهم هدية علموا بالقرائن أن لها قدرا عند مديها ٥٣٧
- ومن أخلاقهم : كراهتهم للأكل وحدهم ٥٣٨
- ومن أخلاقهم : مباسطتهم للخادم وتواضعهم معه ٥٣٩
- ومن أخلاقهم : عدم ردهم السائل ٥٤٠
- ومن أخلاقهم : في حال كالمهم النسبي أن يقدموا نفوسهم على غيرهم في
المطاعم والملابس وغيرها ٥٤١
- ومن أخلاقهم : كثرة تسليمهم وترك تكذيبهم لكل من ادعى ممكنا في
العادة من سائر المقامات حتى القطبية ٥٤٢
- ومن أخلاقهم : كمال التنزيه لله تعالى ٥٤٣
- ومن أخلاقهم : عدم تسليمهم للنفس ما تدعيه حال المرض ٥٤٤

الباب الرابع

- في جملة أخرى من الأخلاق ٥٤٥
- فمن أخلاقهم : عدم أكلهم من طعام من شفعا فيه شفاعا ٥٤٦
- ومن أخلاقهم : عدم قبول هدايا الظلمة وأعوانهم ٥٤٧
- ومن أخلاقهم : كثرة التزاور لبعضهم بعضا ٥٤٨
- ومن أخلاقهم : أن لا يصحبوا أميرا إلا أن وطنوا نفوسهم على القيام

- بشروط صحبته بحيث لا يخلوا منها بشرط واحد
 ٥٤٩ ومن أخلاقهم : عدم مزاحمتهم على صحبة أحد من الولاة وأبناء الدنيا
 ٥٥٠ ومن أخلاقهم : أنهم لا يقدمون على صحبة أحد من الولاة إلا إذا رأوا
 ٥٥١ صحبة ترجح على عدم صحبته يقينا من غير تلبيس في النفس
 ٥٥٢ ومن أخلاقهم : عدم حسن سياستهم لمن يشفعون عنده من الأمراء
 ٥٥٣ ومن أخلاقهم : أن لا يأكلوا من ضحايا مشايخ الزوايا وغيرهم
 ٥٥٤ ومن أخلاقهم : عدم قبولهم للمساعدة في الحج من الظلمة
 ومن أخلاقهم : كراهة المجاورة بمكة للشرفة خوفاً من إخلالهم بأدب
 تلك الحضرة الشريفة
 ٥٥٥ ومن أخلاقهم : التعفف عن الأكل من صدقات الناس وأوساخهم
 ٥٥٦ ومن أخلاقهم : أن لا يطلبوا من الله تعالى أن يوسع عليهم في الدنيا إلا إن
 ٥٥٧ وطنوا نفوسهم على كثرة العبادة ليلاً ونهاراً
 ومن أخلاقهم : صحبة مشايخهم على الصدق والوفاء دون الكذب
 والاختلاق والنفاق
 ٥٥٨ ومن أخلاقهم : إذا ربوا يتيماً أو يتيمة وأنفقوا عليهما حتى تزوجا مثلاً أن
 لا يروا لهم على ذلك لليتيم فضلاً
 ٥٦٠ ومن أخلاقهم : تعظيم الأماكن التي ورد أن الله تعالى عند أهلها حاضر
 ٥٦٢ ومن أخلاقهم : تعاطيهم الأسباب التي تميز صديقهم من عدوهم
 ٥٦٣ ومن أخلاقهم : افتخارهم بزيارة الفقراء لهم
 ٥٦٦ ومن أخلاقهم : كثرة رحمتهم لمن قدر الله تعالى عليه شيئاً من النكرات
 ٥٦٩ ومن أخلاقهم : زيادة المحبة والتعظيم لكل من ينصحهم في دينهم
 ٥٧٠ ومن أخلاقهم : قيامهم بواجب حق والديهم
 ومن أخلاقهم : عدم سؤالهم إربهم أن يعطيهم للنازل الرفيعة في الجنة إلا بعد
 ٥٧٢ توطئتهم نفوسهم على كثرة الصبر على البلاء والحن في هذه الدار
 ٥٧٤ ومن أخلاقهم : إكرام الحبز
 ومن أخلاقهم : كراهتهم للاجتماع بالمريد الذي أخذ عن أحد من أفرانهم
 إلا لضرورة شرعية

- ومن أخلاقهم : أن أحدهم لا يقول لأخيه أنى أحبك إلا بعد أن تسمع نفسه بمقاسمته في ماله وحسناته لأن لا يكذب
- ومن أخلاقهم : محبتهم لنسائهم محبة أخوة في الإسلام
- ومن أخلاقهم : عدم مبادرتهم لصحبة أحد إلا بعد امتحانه في أمور دينه لأن من لا ينفع نفسه لا ينفع غيره
- ومن أخلاقهم : إيمان إمساك السبيحة للتسبيح عليها
- ومن أخلاقهم : كثرة الدعاء لأنفسهم
- ومن أخلاقهم : كثرة محبتهم وإجلالهم للعلماء
- ومن أخلاقهم : كثرة استغفارهم كلما اعتقد للناس فيهم الخير
- ومن أخلاقهم : عدم أكلهم من المال المشترك إذا أتاهم به أحد الشريكين قبل القسمة وقبل القرعة
- ومن أخلاقهم : عدم وقوعهم في خديعة أو غدر لأحد إلا بطريق شرعى
- ومن أخلاقهم : أن لا يبادروا إلى الإنكار على من رأوه يأخذ مال الولاية ويفرقها على الناس إلا إن علموا أنه لا كشف عنده
- ومن أخلاقهم : أن لا يتخذوا من النقباء إلا من يكون أميناً عفيفاً لا يسرق ولا يخون ولا يفضل نفسه على إخوانه ولو سراً
- ومن أخلاقهم : شدة تفتيشهم على كل لقمة تدخل جوفهم
- ومن أخلاقهم إذا صار أحدهم مورداً للأمراء ولا كابر أن لا يمدح أحداً منهم بحضرة عدوه
- ومن أخلاقهم : إقامة العذر باطنا للأمير الذى يتولى ولاية كان طاهداً أنه يعدل فيها إذا وليها
- ومن أخلاقهم : أن يعظوا كل أمير دخلوا عليه حاجة
- ومن أخلاقهم : كثرة تبجيلهم وتعظيمهم لمن لاث الناس بمرضه من فقرا العصر
- ومن أخلاقهم : العمل بأحاديث الفضائل على وجه الإيمان والتصديق
- ومن أخلاقهم : عدم ظنهم أن أعمالهم ولو كثرت نحمى أحدهم من وقوع العذاب به في ساعة من ليل أو نهار

- ٥٩٧ ومن أخلاقهم : كثرة الصلاة والتسليم على سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ
- ومن أخلاقهم : محبتهم لتحصيل مطابقة ما يرونه في النوم لما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم من المغيبات
- ٦٠٠ ومن أخلاقهم : مجاهدة نفوسهم بالجوع والسهر المفرطين
- ٦٠١ ومن أخلاقهم : كثرة التسليم لولاة الأمور وحملهم على المحامل الحسنة بطريقه الشرعى
- ٦٠٣ ومن أخلاقهم : عدم التعصب في هدم الكنائس والبيع
- ٦٠٤ ومن أخلاقهم : افتاؤهم بالتشديد لمن استفتاهم من المتورعين
- ٦٠٦ ومن أخلاقهم : عدم قلقهم من مودة من أقام عندهم من المجاورين
- ٦١٠ ومن أخلاقهم : حسن سياستهم لقاصد الأمير إذا أتاهم بشيء من الدنيا يفرقونه على الفقراء أو لأنفسهم
- ٦١١ ومن أخلاقهم : إذا دخلوا على أمير يشفعون عنده في إنسان استحق التعزير
- ٦١٣ ومن أخلاقهم : كثرة صبرهم على مجالسة الثقلاء
- ٦١٥ ومن أخلاقهم : كثرة الشفقة على الدابة التي ركبوها بإجارة أو عارية
- ٦١٧ ومن أخلاقهم : مواظبتهم على الوضوء ليلاً ونهاراً كلما أحدثوا
- ٦١٨ ومن أخلاقهم : صحبة الحشاشين وإلانة القول لهم
- ٦١٩ ومن أخلاقهم : كثرة تواضعهم لبعضهم بعضاً
- ٦٢٠ ومن أخلاقهم : زيادة التعظيم لكل من اختفى من أقرانهم ونفرت عنه تلامذته
- ٦٢١ ومن أخلاقهم أن يحفظوا حرمة إخوانهم في عيبتهم
- ٦٢٣ ومن أخلاقهم : يحمل الأذى عن كل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله بطريقه الشرعى
- ٦٢٤ ومن أخلاقهم : عدم إرسالهم عيالهم في فرح من عرس وختان
- ٦٢٥ ومن أخلاقهم : كثرة رحمتهم للسكران وجميع العصاة
- ٦٢٧ ومن أخلاقهم : اهتمامهم باكرام الضيف وتهيئة مايا كل
- ٦٢٨ ومن أخلاقهم : خدمة الضيف بأنفسهم أو غلامهم
- ٦٢٩ ومن أخلاقهم : إقامة المذلل للعلماء إذا لبسوا الملابس الفاخرة
- ٦٣٠

الموضوع	الصحيفة
ومن أخلاقهم : رؤيتهم لمحاسن أعمال الناس	٦٣١
ومن أخلاقهم : مؤاخذه نفوسهم بما يخطر في بواطنهم من السوء	٦٣٣
ومن أخلاقهم : عملهم بما ورد أنه يكون سببا لموتهم على الإيمان من الأمور المقربة إلى الله تعالى	٦٣٤
ومن أخلاقهم : إذا عملوا مولدا كبيرا بطباخين ومنشدين ونحو ذلك	٦٣٥
ومن أخلاقهم : عدم ظنهم بأنفسهم النجاة بأعمالهم	٦٣٦
ومن أخلاقهم : عدم حزنهم النفساني على أحد صحبهم ثم فارقتهم	٦٣٧
ومن أخلاقهم : هروبهم من فعل كل شيء يقيم لهم ناموسا بين اقربائهم ويميزهم عنهم إلا بعذر شرعي	٦٣٨
ومن أخلاقهم : تكبيرهم بإخوانهم بحسب مقامهم في التواضع	٦٣٩
ومن أخلاقهم : عدم تكديرهم بحظ نفس بمن أسروه بأمر لم يمثل أمرهم	٦٤٠

(تم الجزء الأول ويليه بعون الله الجزء الثاني)
وأوله الباب الخامس في جملة من الأخلاق

